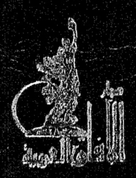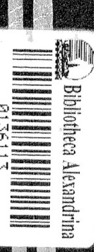


تأليف الفريق التركي

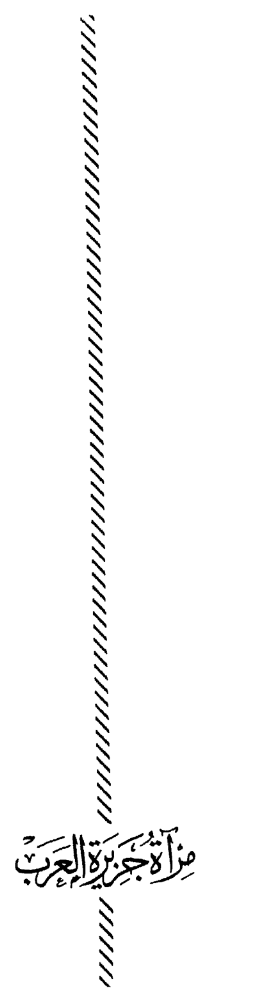
أيوب صبري باشا

ترجمة وتعليق

الدكتور الصفصافي أحمد المرسي	الدكتور أحمد فؤاد متولي
كلية الآداب	كلية الآداب
جامعة عين شمس	جامعة عين شمس






مرآة جزيرة العرب



تأليف المؤرخ التركي

أيوب صبري باشا

ترجمة وتعليق

الدكتور أحمد فؤاد متولي
كلية الآداب
جامعة عين شمس

الدكتور الصفصافي أحمد المرسي
كلية الآداب
جامعة عين شمس





○ الطبعة الأولى ○
□ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م □

رقم الإيداع : ٩٨/١٤٠٧٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977-5727-24-3

دار الآفاق العربية
٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر
القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجمين

تتمتع الجزيرة العربية بموقع ممتاز وتشغل رقعة واسعة على خريطة العالم ، وتستحوذ على وضع خاص بين البلاد العربية والإسلامية خاصة وبلاد العالم عامة ، وتلعب دوراً هاماً فى السياسة المحلية والدولية . ولاشك أن هذا كله لم يتحقق فى فترة قصيرة . ولكنه نتاج مراحل من الكفاح والعمل . نتاج التخطيط والبناء . ولم تكن الجزيرة العربية إلى عهد قريب رغم مساحتها الشاسعة قد نالت كل الاهتمام الذى تستحقه والدراسة العميقة والبحث الناضج من الكتاب والمؤرخين .

لقد زاد الاهتمام مؤخراً بهذه المنطقة ، فأصبح العالم ينظر إليها بإعجاب ، وازدادت تبعاً لذلك كتابات الكتاب والمؤرخين وأبحاث العلماء حول هذه المنطقة التى استرعت انتباههم واستحوذت على اهتماماتهم . وقام فريق من الأوربيين بعمل رحلات عديدة إلى هذه المنطقة جابوا فيها الصحارى المترامية واجتازوا الجبال والوديان والتقوا بشعوبها ، ووضعوا ما رأوا فى كتاباتهم وتقاريرهم . وقد لعب الرحالة الأوربيون دوراً كبيراً فى إطلاع الأوربيين على أخبار هذه المنطقة وعلى عادات شعوبها وتقاليدها ، وأنساب قبائلها وفروعها ومواطنها القديمة وعلاقاتها مع بعضها ، وتاريخها القديم والحديث وجغرافيتها الطبيعية والبشرية . وقد أفاض بعضهم فى وصف هذه الجوانب وتوضيح معالمها . واتسمت معظم كتاباتهم بالواقعية والصراحة ، ونحا بعضها الآخر نحو المبالغة والتهويل واتجه بعضها نحو الكذب والافتراء . ومن الملاحظ على كتابات بعضهم أنها كانت تخلو من الاعتماد على المصادر المحلية التى رصدت أحوال الجزيرة على مر التاريخ . كما اتجه البعض الآخر منهم إلى الاعتماد على الكتابات الأوربية السابقة عليه .

الجغرافيون العرب والجزيرة العربية :

أسهم العرب مساهمات فعالة فى علم الجغرافيا الرياضية من جهة وفى علم الجغرافيا الوصفية من جهة أخرى . تشتمل الأولى على علم الأطوال والعروض وتقويم البلدان .

والثانية على علم المسالك والممالك والعجائب والرحلات . ولئن كانت الجغرافيا الرياضية تطورت وبلغت أوجهاً مع ابن سعيد المغربى وأبى الفداء ، ثم تقهقرت تقهقراً كبيراً رغم بعض المحاولات التركية العثمانية . إن الجغرافيا الوصفية قد تمادت فى سيرها ولم تنقطع إلا أنها أعرضت بعد ابن بطوطة عن الوصف الدقيق الطريف ، واقتصرت على التراجم وصف المزارات وذكر الخوارق إلى أن جاء فى بداية القرن العشرين محمد لبيب البتانونى صاحب الرحلة الحجازية وبدأ يجدد فى هذا الفن .

وهذه قائمة ببعض الجغرافيين العرب الذين أدوا دوراً كبيراً فى إبراز معالم الجزيرة العربية :

ـ أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبه (ت سنة ٢٧٢ هـ) . اشتهر خاصة بكتاب : (المسالك والممالك) الذى يتناول التعريف بالطرقات الواصلة بين بغداد والمدن الإسلامية الأخرى ، وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن .

ـ أبو الفرج قدامة بن جعفر (توفى بعد سنة ٣٢٠هـ) . وله كتاب : (الخراج) . يصف قدامة كل المسالك المؤدية إلى النواحى وصفًا دقيقًا، ليكون الخليفة على اطلاع دائم بأحوال المملكة ، ويتيسر لجيوشه الانتقال بدون مشقة إلى النواحى التى قد يحدث فيها اضطراب .

ـ أبو الحسن على بن الحسين المسعودى (ت سنة ٣٤٥ هـ) . وله (مروج الذهب ومعادن الجوهر) . ويتناول فيه أخبار الزمان . وهيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها .

ـ أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى (ت سنة ٣٣٤ هـ) . وله : (صفة جزيرة العرب) . واقتصر فى كتابه على وصف الجزيرة العربية وألم بكل ما حوته .

ـ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرخى (ت سنة ٣٤٠هـ) . اعتنى بتحقيق كتاب : (المسالك والممالك) ، وأشار فيه إلى أن جزيرة العرب تتوسط العالم المعروف فى زمنه وأن مكة تتوسطها .

ـ أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى (توفى بعد سنة ٣٦٢ هـ) . حقق كتاب : المسالك والممالك) أو (صورة الأرض) .

ـ أبو عبد الله بن أحمد المقدسى صاحب كتاب : (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) .

وهذا الكتاب مفيد فى معرفة الجزيرة العربية فى القرن الرابع .

ـ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب البكرى ـ (ت سنة ٤٨٧ هـ) . وله كتاب : (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع) الذى يكاد يكون مقصوراً على مواقع

الجزيرة العربية وهو أو معجم جغرافى فى العالم الإسلامى . تناول فيه مؤلفه الأماكن الواردة فى الأشعار والتفاسير والحديث وغيرها . وقد ألف هذا الكتاب قبيل الحروب الصليبية أى قبيل التغييرات السياسية والاقتصادية التى أدركت الشرق وجزيرة العرب فى القرن السادس الهجرى .

ـ أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتانى (ت سنة ٦١٤ هـ) . وله كتاب : (الرحلة) . والكتاب يحوى تسجيلا حياً لرحلة ابن جبير من الأندلس إلى الحجاز . يصف فيها المؤلف كل مشاهداته فى أثناء الطريق بأسلوب سلسل وبواقعية مطلقة . وقد حاول عدد كبير من اللاحقين تقليده . لكنهم لم يصلوا لى ما وصلت إليه شخصيته .

ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى أو الحموى (ت سنة ٦٢٦ هـ) وله كتاب : (معجم البلدان) .

ولا يختلف غرض ياقوت عن غرض البكرى . فهو يصنف معجماً للتحقيق والإثبات والتيسير .

ـ أبو الحسن على بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربى (ت سنة ٦٨٥ هـ) . وله كتاب : (الجغرافيا) .

وعلى الرغم من أن ابن سعيد ذكر الجزيرة العربية باختصار ، فإنه يعتبر آخر ممثل للمدرسة الجغرافية الرياضية .

ـ أبو القاسم يوسف التجيبى السبتى (ت سنة ٧٣٠ هـ) . وله كتاب : (مستفاد الرحلة والاغتراب) يهتم المؤلف فى كتابه بالحياة السياسية والاجتماعية وكأنه اقتفى أثر ابن جبير .

ـ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن أيوب (ولد سنة ٧٦٢هـ) . وله كتاب : (تقويم البلدان) .

حاز هذا الكتاب شهرة واسعة طمست كتب الجغرافية الرياضية التى سبقته ، مع أنه لم يكن من المجددين . إنما حاول أن يضبط الأسماء اعتماداً على غيره .

ـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى بن بطوطة ـ (ت سنة ٧٧٠ هـ) . وكتابه شهير يسمى : (رحلة ابن بطوطة) ، ترجم إلى لغات كثيرة منها : التركية والفرنسية والإيطالية والفارسية والإنجليزية . وعلى الرغم من أن المؤلف تعرض أحياناً لبعض الظواهر المبالغ فى تقييمها ، فإن وفرة المعلومات التى جاء فيها تجعلها من أهم مصادر تاريخ المعمورة وتاريخ الجزيرة العربية فى القرن الثامن الهجرى .

ـ أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت سنة ١٠٩٠ هـ) . صاحب كتاب : (الرحلة)، الذي وصف فيه طريق الحج من المغرب إلى مكة .

ـ الحسن بن محمد الورثلاني ، وكتابه : (الرحلة) . يصف فيه الحرمين في أواخر القرن الثاني عشر الهجري .

إن المتصفح لكتب الجغرافيا والرحلات العربية ، يتبين له أن المنازل والقرى والمدن والأمصار في الجزيرة العربية . تتطور وتتغير وقد تزول أحياناً أو تعوضها مواضع أخرى . وقد تحافظ بعضها على وظائفها الأساسية رغم زوال وظائفها السياسية والعسكرية وحتى التجارية[1] .

الرحالة الأوربيون الذين طافوا بالجزيرة العربية :

لم ينل تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم . ما يستحق من الدراسة التاريخية المتعمقة حتى الآن ، رغم الأهمية الواضحة لهذا الجزء من بلاد العالم بوجه عام ، والعالم العربي بوجه خاص ، مع أن الدراسات الأنثروبولجية الحديثة ، أثبتت أن جنوب شبه الجزيرة ، المنبت الأصلي للعناصر السامية الأولى ، التي أخذت موجاتها تنتشر تباعاً ، تارة باتجاه الهلال الخصيب شمالا لتصنع الحضارات الشرقية القديمة ، وفي مقدمتها الأكادية والبابلية والآشورية والكلدانية والآرامية والكنعانية والعبرانية والفينيقية . وتارة تتجه غرباً عبر بوغاز باب المندب، لتصنع بعض الحضارات الإفريقية القديمة ، التي كان لها دور بارز في القارة . إلى جانب ما صنعته في شبه الجزيرة نفسها من حضارات سبئية ومعينية تفرعت امتداداتها نحو الحيرة وغسان . إلى أن ومضت منها الشعلة الوضاءة التي صاحب الحضارة العربية الإسلامية. لكل مقوماتها وآفاقها وأبعادها . وما كان لها من أثر واضح في الحضارات الأوربية الوسيطة وفي مقدمتها النهضة الإيطالية ، بعد أن اصطبغت بعض نواحي فروعها بما سبقها من حضارات صينية وهندية وفارسية ويونانية ولاتينية .

ومن بين الأسباب التي ساعدت على اكتناف بعض الغموض لتاريخ شبه الجزيرة القديم إضافة إلى ما سبق ذكره من قصور في جهد المؤرخين حول هذا الموضوع ، أن العرب على الرغم مما خلفوه لنا من آثار ونقوش في الأجزاء الجنوبية الغربية بخاصة وفي مقدمتها اليمن

---

(١) عبد المجيد الذويب : الجغرافيون العرب ودورهم في التعريف بالجزيرة العربية ص (٢٨٥ ـ ٢٩٥) بحث قدم في الندوة العالمية الأولى للدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي نشرت أبحاثها بالرياض سنة ١٩٧٩ .

وحضر موت لم يستثمروا قدراتهم على الكتابة إلى نوع من التدوين التاريخى المنظم المستمر كما فعل غيرهم من الشعوب القديمة لدرجة أن بعض الفروع السامية القديمة التى هاجرت إلى مناطقها الجديدة استعاضت عن تسجيل أحداث منابتها الأصلية بما سجلته فى مناطقها الجديدة فى سهل شنعار وعلى جوانب الرافدين والقوس الغربى للهلال الخصيب .

وقد أسهمت السمات الجغرافية التى تتصف بها شبه الجزيرة من صحارى شاسعة وجبال شاهقة ومناطق صخرية وعرة ومناخ شديد القسوة فى إعاقة بعض الجهود الكشفية للعلماء والمخاطرين والمستكشفين الأجانب فى متابعة البحث والتقيب عن الآثار العربية القديمة مما أدى إلى تردد الكثيرين فى الإقبال على هذه المخاطرة بالإضافة إلى أن عدداً غير قليل من أعضاء البعثات الاستكشافية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لقوا حتفهم بين طيات الرمال الحارقة وعلى حافات الجبال الصخرية العالية .

استغرقت عمليات الكشوف الأثرية لشبه الجزيرة قرابة أربعة قرون اعتباراً من نهاية القرن الخامس عشر الميلادى حتى بداية القرن العشرين وتميزت الفترة الأولى من هذه العمليات والتى تنتهى بنهاية الثامن عشر ، بطابعين :

أولهما : أن هذه المحاولات كانت محاولات أقرب إلى المخاطرات الفردية منها إلى أى شيء آخر يغلب عليها الطابع الشخصى الذى لا يخلو من الأهداف العلمية فى معظم الأحوال .

وثانيهما : أن هذه المحاولات ظلت إلى حد بعيد لا تتعدى الدوران حول شواطئ شبه الجزيرة دون الجرأة على التوغل فى داخلها أو اختراقها .

كان أول من زار عدن المخاطر البرتغالى (بردو دى كوفيلو) Perdo de Covilhao سنة ١٤٩٣ م . والمخاطر الإيطالى (لو دفيج فارتيما) Ludvico Varthema وهما فى طريقهما إلى الحبشة .

وأول من اخترق جنوب شبه الجزيرة العربية من الأوربيين مبتدئاً من سواحل بلاد اليمن غرباً كان البرتغالى (جريجورى كودراس)Gregorio Quadras الذى وصل بعد صعوبات شديدة إلى جزيرة هرمز .

ويذكر المستشرق (فورستر Forster) أنه لم يكد ينتهى القرن السابع عشر الميلاد حتى كانت كل سواحل الجزيرة العربية قد عرفت تماماً كما عرفت التفاصيل عن الخليج العربى بواسطة سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية والمراكب البرتغالية والهندية .

كانت بعثة (نيبور Garsten Niebuhr) سنة (١٧٦١ ــ ١٧٦٤ م) : أول بعثات الاستكشاف الأثرية المنظمة التى توجهت إلى اليمن البعثة التى نظمتها الحكومة الداغركية تحت إشراف المتشرق الداغركى ـ (جارستن نيبور) . وتتضح لنا أهمية هذه البعثة العلمية من طبيعة تكوينها لأنها كانت تتكون من علماء متخصصين فى مختلف نواحى العلوم كالآثار والنبات والحيوان ومسح الأراضى .

بعثة (يوسف هالفى Joseph Halevy) سنة (١٨٦٩ م) :

حدثت عدة محاولات بين بعثتى نيبور وهالفى . قام بها بعض المخاطرين الأجانب . أما البعثة التى أخذت كثيراً من اهتمام العلماء شأنها فى ذلك شأن بعثة نيبور ، فهى البعثة التى قام بها المستشرق الفرنسى هالفى ، وهو من علماء الآثار الأكفاء .

لقد كان موسم الحج إلى الأماكن المقدسة أحد الوسائل الهامة التى استغلها كثير من المخاطر بن والمستكشفين لشبه الجزيرة العربية وكثيراً ما تراهم يتزيون بزى الحجاج وينخرطون بين قوافل الحجاج بعد أن يطلقوا لحاهم ويغيروا من أزيائهم .

وعلى الرغم من أن حضر موت وعمان لم تلقيا العناية والرعياة والاهتمام التى لقيتها بقية الأجزاء بالجزيرة العربية وخاصة اليمن والحجاز ونجد ، إلا أن هاتين المنطقتين حظيتا بزيارة بعض المكتشفين نخص بالذكر منهم خمسة وهم : ولسند Wellsted وأدولف فون ريد Adolf Von Wrede وهيرش Hireh وتيودور بنت Theodors Bent . ثم الكولونيل ميلز Miles .

ليس من شك فى أن ظاهرة الارتياد الكشفى للمخاطرين الأجانب أو البعثات العلمية لشبه الجزيرة بوجه عام والأراضى المقدسة بوجه خاص جاء مواكباً لنهاية الحكم الإسلامى فى أسبانيا وكثير من جزر البحر الأبيض المتوسط . ونجاح البرتغاليين والأسبانيين فى بعض كشوفهم الجغرافية ودورانهم حول القارة الإفريقية . وكانت كل آمالهم تتجه إلى ضرورة تدمير كل ما هو إسلامى فى طريقهم لدرجة أن (ألبوكيرك) القائد البرتغالى المشهور ، كان يتمنى أن تتاح له فرصة اقتحام المدينة المنورة كقاعدة دينية للعالم الإسلامى وتدميرها .

وقد استغل كثير من المخاطرين والمكتشفين الأجانب ذلك الخلاف الذى قام بين محمد على باشا من ناحية والسلفيين من ناحية أخرى ، لاعتلاء موجة هذا الصراع للإفادة من الحروب التى دارت بين الطرفين لتحقيق أهدافهم السياسية فى المقام الأول ثم الجغرافية

والأثرية . وأكبر مثل على ذلك (بوركارت) Burchardt والضابط الإنجليزى فى الجيش الهندى ريتشارد برتون Richard Burton

كما استغلت الحكومة الإنجليزية الهندية فرصة الصراع المذكور لمحاولة الدخول فى محادثات مع إبراهيم باشا ابن محمد على لوقف تيار الجهاد البحرى الإسلامى فى الخليج والذى كانوا يطلقون عليه القرصنة ، لما له من تأثير خطير على التجارة الإنجليزية فى الهند . وكان الضابط الإنجليزى سادلير Sadier أشهر من أرسل لتنفيذ هذه المهمة .

وهنا نورد أشهر من ارتادوا الحجاز ونجد من المكتشفين والمخاطرين : با دياى ابليش : Padiay Iblich

وهو عالم أسبانى ادعى الإسلام ، وأسمى نفسه على بك . وصل إلى جدة سنة ١٨٠٧م ، ووصف لنا الحجاز فى أثناء تأديته لفريضة الحج . وكان أول من حدد موقع مكة الجغرافى والاستراتيجى مستعيناً بالأرصاد الفلكية .

بوركارت Barchardt :

ويعتبره العلماء الرائد الحقيقى الكشفى للحجاز ، نزل بجدة سنة ١٨١٤ م وادعى اعتناق الإسلام كسلفه ..

ريتشارد برتون Richard Burton :

وقد اعتمد على سابقيه فى وصف الحجاز ، فجاءت كتاباته أكثر دقة وتفصيلا .

بعثة سادلير Sadlier :

كانت مهمة سادلير تتلخص فى الاتفاق مع إبراهيم باشا على وقف الجهاد البحرى الإسلامى فى الخليج لتأثيره على تجارة الهند ، ولكن مسعاه باء بالفشل .

بالجراف Palgrave :

قام بالجراف برحلته المحفوظة بالمخاطر فى قلب بلاد نجد ، ونشر قصته التى تربعت فى مكان الصدارة من الكشوف العلمية ، حيث ركز الاهتمام على حياة السكان الاجتماعية ووصفها وصفاً دقيقاً .

هوبر Huber :

يعتبر المؤرخون الخريطة التى وضعها هوبر عن شمال بلاد العرب والرسوم والنقوش التى

وصفها وصفاً دقيقاً من أهم ما قدمه المكتشفون والرحالة إلى علمى الجغرافيا والآثار عن هذه المنطقة من العالم [١] .

* * *

الجزيرة العربية والدولة العثمانية :

عاش بالجزيرة العربية العديد من القبائل والعشائر والأسرات . وحكمت منذ الجاهلية إلى نهاية القرن التاسع عشر ، بكثير من الأسر والحكومات . فمن الجاهلية إلى عصر النبوة ومن الخلفاء الراشدين إلى بنى أمية ، ومن العباسيين والمماليك حيث جاء العصر العثمانى الذى عاش فى غضونه هذا المؤلف ، وقدم كتابه هذا .

قدر للدولة العثمانية من بين دول الترك أن تصبح إمبراطورية مترامية الأطراف ، وأن تحكم شعوباً ، ومللا ، ونحلا غير متجانسة ، وأن تكون أطول دول الترك بقاء ، إذ عمرت ٦٢٣ عاماً (١٢٩٩ ـ ١٩٢٢) ، وأختلف على عرشها أربعون حاكماً . الثلاثة الأول منهم بكوات والباقى سلاطين ، ووليها من أيام السلطان سليم الأول سنة (١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) إلى انقراضها اثنان وثلاثون سلطاناً خليفة ، جمعوا فى أيديهم السلطتين الزمنية والروحية ، ودعى لهم على منابر العالم الإسلامى السنى طوال ٤٠٦ سنوات [٢]

ولقد ورثت هذه الدولة حضارة السلاجقة ومؤسساتهم العلمية [٣] وحضارة الدولة التركية الأناضولية ، أخذت نظم الإدارة عن دولة المماليك والإيلخانيين ، وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة ، ونبغ مع العثمانيين فى عهد سليمان القانونى طائفة من مشاهير علماء المسلمين ، أشهرهم شيخ الإسلام ابن كمال باشا صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول ، وأبو السعود أفندى صاحب التفسير وسلطان المفسرين [٤] . واحتلت اللغة العربية المكانة الأولى

---

(١) عبد الشافى غنيم عبد القادر : الجزيرة العربية فى كتب الرحالة الغربيين ص (٤٢١ ، ٤٢٣ ـ ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ـ ٤٣٤) ، بحث قدم للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بجامعة الرياض ، طبعت البحوث سنة ١٩٧٩م .

(٢) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان ، ص (ز) القاهرة سنة ١٩٦٧م .

(٣) Dr. Ismail Hakki . Osmanli Devletinde Ilmiye Teskilati, s.7 Ankara 1965 .

(٤) مستقيم زاده سليمان سعد الدين : درجة المشايخ ص (٢٣) استانبول سنة ١٩٧٨ م .

فى نفوس الأتراك . . وكانت تدرس بها كل العلوم الدينية والتطبيقية [١] بل كان العالم التركى يضع مؤلفاته أولا باللغة العربية وإذا أراد لها الانتشار بين بنى جنسه ترجمها بعد ذلك إلى التركية [٢] .

ولقد كانت السمة الدينية من أهم السمات التى اتسمت بها تشريعات الدولة العثمانية ومعظم تصرفاتها . فقد كان للهيئة الإسلامية وضع خاص ، ومركز مرموق ، وكان يطلق على رئيسها (المفتى) أو (مفتى استانبول) ، ثم تغير هذا اللقب إلى (شيخ الإسلام) ، الذى كان يتشرف على الهيئات القضائية والهيئات ذات الطابع والنشاط الدينى ، وكان السلاطين أنفسهم حريصين على تدعيم سلطته ويعملون على استغلالها كلما حزبهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير . كان المفتى يصدر فتوى تجيز الحرب دفاعاً أو هجوماً ، وعقد الصلح وغير ذلك من الأحداث الجسام . وكانت الدولة العثمانية تهتم اهتماماً بالغاً بنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة وإثارة عاطفتهم الدينية وصولا إلى (نسخين) الجنود روحياً قبل خوض المعارك [٣] .

وقد اعتمد العثمانيون المذهب الحنفى مذهباً رسمياً للدولة ، ولعب المفتون فى استانبول ، وفى مراكز الولايات ، دوراً هاماً فى مختلف المجالات ، وكانت الأولوية فى بدء الدولة العثمانية للقاضيعسكر الذى كان يرافق الجيش المحارب ، ثم أصبح المفتى رئيساً للعلماء ، فى عهد السلطان سليمان القانونى سنة (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) . وكان تلقيه بشيخ الإسلام مبنياً على الدور الذى لعبه فى التوفيق بين القوانين التى أصدرها سليمان القانونى وبين الشريعة : وكان يحق لمفتى استانبول إصدر فتوى بعزل السلطان نفسه أيام ضعف الدولة وانهيار قواها وفساد الانكشارية وتسلطها ، كما أنه هو الذى يعين المفتين فى مراكز الولايات ، أما المذاهب الأخرى فقد تركت الدولة لأفرادها حق اختيار مفتيها من بينهم [٤] .

وكانت الأولوية بين القضاء للقاضى الحنفى ، ويعين القاضى الحنفى أيضاً فى مراكز الولايات العربية من قبل قاضيعسكر الأناضول فى إستانبول . . ومنذ بداية القرن السابع بدأ تعيينه من بين المحليين أحياناً ، وفى القرن الثامن عشر استقر الأمر على تعيين القاضى من بين

---

(١) Dr. Ismail Hakki, s.39.

(٢) A Adivar : Osmanli Turklerinde Ilims. 71 Ankara 1943.

(٣) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ١ ص (٥٤) القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

(٤) د . عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ص (٥٢) دمشق سنة ١٩٧٤ م .

محليين أحياناً . وفى القرن الثامن عشر استقر الأمر على تعيين القاضى من بين المحليين . . وكان قاضى دمشق من أبرز قضاة بلاد الشام ، واعتبر فى مستوى قاضى مصر على اعتبار أن المدينتين كانتا عاصمتين سابقتين للخلافة ، وقد لقب بلقب قاضى القضاة وأحياناً بلقب ملا أو منلا . وأقام قاضى القضاة فى المحكمة الرئيسية ، وله نواب يصرفون شئون القضاء فى المحاكم الفرعية .

وهناك منصب نقيب الأشراف [1] فى مركز الولاية ، ويعين من قبل نقيب الأشراف فى استانبول ويشرف على شئون الأشراف المختلفة .

وكان من مظاهر الطابع الدينى فى الدولة العثمانية ، العناية الفائقة التى أبداها السلاطين بإنشاء العديد من المساجد الكبرى وتجديدها . ورصد الاعتمادات المالية الضخمة على تشييد هذه المساجد دليل على عناية السلاطين بمراعاة الشعور الدينى السائد لدى لرعايا العثمانين ، ومن ثم قام تنافس من أجل إقامة المساجد بين السلاطين الذين تعاقبوا على عرش الدولة وحذا حذوهم الأمراء والأميرات ورجالات الدولة . ويقول محمد جميل بيهم : (لم يكن سبب هذا التنافس حاجة ملحة إليهابقدر ما كان الهدف هو اكتساب قلوب الشعب عن طريق الدين)[2] .

ولم يكن اهتمام السلاطين بإنشاء المساجد مصوراً على الأقاليم التى كانت مهاداً للعثمانيين عند نشأة دولتهم ، بل امتد هذا الاهتمام إلى الولايات الإسلامية ، ففى مصر ـ على سبيل المثال ـ كان الباشوات العثمانيون يشيدون ـ بناء على أوامر تصدر لهم فى غالب الأحيان من استانبول ـ مساجد جديدة ـ كمسجد سليمان باشا بالقلعة عام (١٥٢٨ م) والمحمودية عام (١٥٦٧ م) وسنان باشا عام (١٥٧١ م) والملكة صفية عام ١٦١٠ م) وكان السلاطين يعهدون إلى الولاة فى إصلاح وتجديد المساجد القديمة وعلى رأسها الحرمين الشريفين والجامع الأزهر والمسجد الأموى بدمشق [3] .

وقد وضح الطابع الدينى فى التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية ، والنص فى قوانين الدولة منذ عهد السلطان القانونى على أنها تتفق مع الشريعة الإسلامية . كما وضح أيضاً فى المحافظة على التقاليد الدينية وإقرار عقوبات التجريس أو التشهير فى حق من يرتكب جريمة

---

(١) د . عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ص (٥٢) .
(٢) محمد جميل بيهم : العرب والترك فى الصراع بين الشرق والغرب ص (١٢٥) بيروت سنة ١٩٥٧ م .
(٣) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق جـ ٢ ص (٢٠) .

الإفطار فى رمضان أو ترك الصلاة ، بل وصل الأمر إلى حد الزج بالمخالف فى الترسيم أى الاعتقال[1] .

كما أن الدولة أشرفت إشرافاً فعلياً على الحج ، واعتبرت هذا العمل واجباً يقع على عاتقها ، باعتباره الركن الخامس من أركان الإسلام ، وأن عليها تيسير الحج أمام الراغبين فيه ، فأنشأت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت الحصون ، وشجعت على إقامة الخانات ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قوافل الحج الأربع الرئيسية التى تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة ، وتضع لها قوة تحرسها ، يقودها أحد كبار العسكريين الذى كان يسمى سردار الحج . وكان على رأس كل قافلة أمير للحج ، وكثيراً ما كان أمير الحج يتولى قيادة الجيش المصاحب للحجيج ، وخاصة فى قافلة الحج الشامى [2] .

وأخذت الدولة كذلك بنظام الفتوة الذى يعد الطابع الإسلامى للفروسية العربية ، والذيورثته عند قيامها فى الأناضول ، وقد خالطهم ابن بطوطة ووقف على نظمهم وتعرف على زواياهم وأسلوبهم فى الحياة ، ثم تحدث عنهم فى (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار [3] . وقد كانوا جميعاً معتنقين للمذهب السنى وأفادت منهم الدولة فى حروبها مع الدويلات والثغور المتاخمة .

كما أن الاهتمام الكبير بالحجاز كان من السمات التى حافظ عليها كل السلاطين العثمانيين . وقد أضفت تبعية الحجاز وما تحويه من أهم الأماكن الإسلامية المقدسة على وجه الأرض على الدولة العثمانية مركزاً دينياً مرموقاً ، فى جميع أرجاء العالم الإسلامى . . وقد أعفته الدولة من أداء الضرائب ، بل أقر له سليم الأول ثلث ما كان يجىء من مصر[4] كما أوقف خراج اليونان عند فتحه على الحرمين الشريفين [5] . ولم يكن الاهتمام وقفاً على الأماكن بل تعداها إلى المواطن ، فقد أعفى سكان الحجاز من التجنيد [6] وأبقت الدولة على الحكم الذاتى المتمثل فى نظام الشرافة ، وكل ما كانت تفعله ، أن ترسل فرماناً ، يحدد اختصاصات الشريف الجديد وواجباته عند تعيينه [7] . وكان أمير مكة المكرمة يتمتع ـ فى التشريفات ـ

---

(١) د . عبد العزيز الشناوى : نفس المرجع جـ٢ ص (٥٧) .

(٢) الوثيقة التركية رقم ٣٨٣٨أ من الأرشيف التركى .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار جـ١ ص (١٥٦ ، ١٦٦) . القاهرة سنة ١٩٦٨ .

(٤) د . عبد الكري رافق : المرجع السابق ص (٦٣ ـ ٦٧) .

(٥) مجلة العربى عدد سبتمبر سنة ١٩٨١ م .

(٦) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص (٦٠) .

(٧) Dr. Ismail Hakki : Mekke - i Mukerreme Emirleri, s. 6 - 19 Ankara 1972 .

بأسمى مقام فى صف (الصدر الأعظم) فى الآستانة و (الخديوى) فى مصر [١] وترتب له العطايا من قبل السلطان [٢] .

ومن المفيد فى هذا المجال ذكر رأى المؤرخ العربى الجبرتى الذى يسجل إعجابه بالدولة العثمانية واهتمام السلاطين العثمانيين بـ (إقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء ، وأهل الدين ، وخدمة الحرمين الشريفين ، والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم ، وطالت مدتهم وهابتهم الملوك ، وانقاد لهم المالك والمملوك)[٣] .

* * *

ضم الحجاز وبعض مناطق الخليج إلى الدولة العثمانية :

أمر السلطان سليم الأول بكتابة (رسائل للتبشير بالفتح ومنح الأمان مصحوبة بفرمانات إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع) [٤] فى يوم الجمعة ١٣ من فبراير سنة ١٥١٧ م (٢١ من المحرم ٩٢٣ هـ) قبل دخوله القاهرة بيومين على أثر قيام جنوده بتطهيرها . وبعد أن استتبت الأمور لسليم فى القاهرة ، أرسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم سنة ١٤٩٧ ـ ١٥٢٥ م) إبنه أبا الحسنى ومعه مشايخ طوائف الأعراب للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء، فأحلع عليه وأحسن إليهم جميعاً[٥] .

بعد أن قبل السلطان سليم طاعة شريف مكة زين الدين بركات التى قدمها ابنه ، أرسل إليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبا نمى يطلب خلعته وإبقاءه فى حكم بلاده . وعندما علم السلطان بقدوم محمد أبى نمى إلى القاهرة فى يوم الجمعة ٣ من يوليو (١٣ من جمادى الآخرة) . أمر بإرسال الأغوات لاستقباله . وفى يوم الاثنين استقبل السلطان ابن شريف مكة إستقبالا حافلا . وبعد ستة أيام قدم محمد أبو نمى الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم[٦] ، ثم

---

(١) ساطع الحصرى . البلاد العربية والدولة العثمانية ص (٢٤١) بيروت (د . ت) .

(٢) أسعد أفندى : المرجع السابق ص (٢٤) .

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ ١ ص (٢١) القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ .

(٤) حيدر جلبى : روزنامة حيدر جلبى ، ورقة ١٥٠ أ . ضمن مخطوط برقم R 1955 فى مكتبة طوبقبو سرايى باستانبول ، بعنوان : سلطان سليمك إيران سفرينه دائر مخابرات

(٥) أحمد فريدون : منشآت الملوك والسلاطين ، ورقة ٥٩٤ ب ـ ٥٩٨ ب . مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايى باستانبو ، تحت رقم R . 1960

(٦) حيدر جلبى : المرجع السابق ، ورقة (١٤٣ ـ ١٦٠) .

سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة فى مكة والمدينة [1] .

وهكذا أصبحت الحجاز تابعة للامبراطورية العثمانية . . .

أقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه . وبعث مع محمد أبى نمى رسالة بالعربية إلى أبيه ، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة فى الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده [2] .

وبعد أن فتح السلطان سليمان القانونى بغداد سنة ١٥٣٤ م (٩٤١ هـ) ، دخلت البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة العثمانيين [3] .

لم تتوغل القوات العثمانية صوب البصرة إذ اكتفى السلطان بإعلان راشد ابن مغامس ولاءه له . ولكن لم تلبث العشائر العربية أن تمردت على الحكم الجديد ، فزحفت القوات العثمانية إل البصرة ، واستولت عليها سنة ١٥٤٦ م ، ثم زحفت هذه القوات إلى الإحساء سنة ١٥٥٥ م (٩٦٣ هـ) ، وإلى ما وراء ذلك حتى مسقط . ولكن لم يدم حكم العثمانيين طويلا فى المناطق الواقعة فيما وراء الإحساء ، لأنهم وصولا إلى هذا الميدان متأخرين بعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم فى تلك النواحى [4] .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصارى الإحسائى ، يذكر فى كتابه ، أن السلطان سليمان القانونى أرسل محمد باشا فروخ بعساكر كثيرة لفتح الإحساء ، فاستولى عليها سنة ٩٦٣ هـ ، وبنى مسجداً فى داخل الكوت ، فى بلد الهفوف . يعرف الآن بمسجد الدبس [5] .

التقسيمات الإدارية للولايات العربية تحت الحكم العثمانى :

إن أشمل الوثائق عن التقسيمات الإدارية فى الدولة العثمانية هى رسالة تركية عنوانها

---

(١) مترقجى نصوح : فتح نامه ديار عرب ، مخطوط وحيد فى مكتبة نور عثمانية فى استانبول ، تحت رقم ٤٠٨٧ .
لا تزال بعض الآثار النبوية الشريفة التى جاء بها السلطان سليم والتى أتى بها آخرون من سلاطين العثمانيين بعده ، محفوظة حتى اليوم فى جناح الأمانات المقدسة (أمانات مقدسة دائرة سى) بمتحف طوبقبو سرايى باستانبول .

(٢) جلال زادة قوجه نشانجى مصطفى : مأثر سليم خانى طاب ثراه ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايى ، تحت رقم ٤١٥ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين جـ ٤ ص (٤٤) بغداد سنة ١٩٤٩ م .

(٤) د . عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ص (٦ ، ٧) القاهرة سنة ١٩٦٨ .

(٥) محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصارى الإحسائى : تحفة المستفيد ، بتاريخ الإحساء فى القديم والجديد ص (١٢١) الرياض سنة ١٩٦٠ م .

(قوانين آل عثمان فيما يتضمنه دفتر الديوان) وقد ألفها (عين على أفندى) الذى كان أميناً للدفتر الخاقانى ، ولذلك كان مطلعاً على جميع سجلات الدولة المتعلقة بالأمور المالية والإدارية .

ويتبين مما جاء فى الرسالة أن الدولة العثمانية كانت تنقسم فى ذلك التاريخ إلى ٣٢ إيالة منها ، ١٤ إيالة عربية .

ومن استقراء هذه الرسالة يتضح أن هذه التقسيمات لم تجر على أساس تمييز البلاد عن غيرها إدارياً ، بل نجد أن بعض المدن العربية كانت تتبع ولايات غير عربية أحياناً ، كمدينة نصيبن التى تقع فى سوريا حالياً ، وكانت مركز لواء يتبع إيالة ، دياربكر بالأناضول ، وسنجار التابع للعراق كان تابعاً لديار بكر كذلك .

وفيما يلى أسماء هذه الإيالات والألوية التابعة لها مع مخصصات أمرائها وعدد التيمارات والزعامات الموجودة فى كل منها .

١ - إيالة الشام :

تنقسم إلى ١١ لواء ، تضم الإيالة ١١٢ مقاطعة من درجة (زعامت) و ٨٦٨ مقاطعة من درجة (تيمار) وعدد الجند المفروض على أصحاب المقاطعات ٢٦٠٠ جندى .

٢ - إيالة طرابلس الشام :

تنقسم إلى ٥ ألوية ، وتضم ٦٣ زعامت و ٥٧١ تيماراً والجند المفروض ١٤٠٠ جندى :

٣ - إيالة حلب :

تنقسم إلى ٧ ألوية ، وتضم ١٠٤ مقاطعة من درجة زعامت و ٧٩٩ مقاطعة من درجة تيمار . . والعساكر المفروضة على أصحاب المقاطعات ٢٥٠٠ جندى .

٤ - إيالة رقة أو الرها :

تنقسم إلى ٦ ألوية ، وتضم ٣١ زعامت و ٥٣٠ تيمار ، مجموع العساكر المفروضة عليها ١٦٠٠ جندى .

٥ - إيالة الموصل :

تنقسم إلى ٦ ألوية و ٢٧١ تيماراً وزعامت .

٦ - إيالة بغداد :

تنقسم إلى ١٨ لواء . ويتقاضى والى (باشا) الإيالة الذى يكون بدرجة ميرميران (

بكلربكى) راتباً معيناً (سالبانه) وأما أمراء سائر الألوية فيتصرفون بمقاطعات من درجة (خاص) .

أما الإيالات التالية فلم تقسم إلى مقاطعات من درجة (خاص) أو (زعامت) أو (تيمار) وكانت ضرائبها وتكاليفها المختلفة تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة أو عن طريق الالتزام ، وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها (السنوية) أو (الحولية) . . الـ (سالبانه) .

٧ ـ إيالة البصرة :

تبلغ الساليانة المخصصة لها ١٠٠٠٠٠٠ (مليون آقجه) .

٨ ـ إيالة الحسا أو الإحساء :

كان يرسل إليها (ميرميران) يتقاضى ساليانة قدرها ٨٨٠ ألف آقجه .

٩ ـ إيالة اليمن :

تضم ٩ ألوية ، ويقول مؤلف الرسالة : إن هذه الإيالة تقع تحت سيطرة الأئمة من وقت إلى آخر ولم يحدد قيمة الساليانة المخصصة لها .

١٠ ـ إيالة مصر :

تضم ١٣ لواء وكانت ساليانتها تبلغ ٤٨٢ كيسة مصرية .

١١ ـ إيالة حبش أو الحبشة :

وكانت جدة ملحقة بهذه الإيالة التى تبلغ ساليانتها ١٨٠٠٠٠ر١ آقجه .

١٢ ـ إيالة تونس :

١٣ ـ إيالة طرابلس الغرب :

١٤ ـ إيالة جزائر الغرب :

ولم تضف الرسالة أى معلومات عن هذه الإيالات الثلاث .

١٥ ـ إمارة مكة المكرمة :

وقد كانت مستقلة عن التشكيلات الإدارية المذكورة ، وإنما كانت تختص بالشرفاء .

ومما تجب ملاحظته أن العشائر كانت تترك هى الأخرى خارج نطاق النظم الإدارية والمالية المعتادة . وكان يعهد بشئونها إلى أمراء وشيوخ يعينون وفقاً للتقاليد المعروفة بين العشائر .

ولذلك كان هناك بجانب الـ (ميرميران) والـ (ميرلوا) موظفوا يعرفون باسم (مير عشيرت) أى أمير العشيرة .

إلا أننا فى بداية القرن العشرين ، وحسب ما هو مستخرج من (سالنامه دولت علية عثمانية) الكتاب السنوى للدولة العلية العثمانية الصادر فى سنة (١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م) نرى أن الدولة العثمانية كانت مقسمة إلى ولايات والولايات إلى ألوية والألوية إلى أقضية والأقضية إلى نواح ، وكان على رأس الإدارة فى كل لواء متصرف ، وفى كل قضاء (قائم مقام) وفى كل ناحية (مدير ناحية) وكانت البلاد العربية تقسم إلى تسع ولايات وأربع متصرفيات مستقلة ، وإيالتين ممتازتين .

وكان ترتيبها فى الحولية المذكورة كما يلى :

١ ـ ولاية الحجاز :

تضم متصرفتين ، وخمسة أقضية وست نواح . . وكان يعهد بمنصب ولاية الحجاز إلى أحد كبار رجال الجيش ، ليجمع بين يديه سلطة الولاية مع قيادة الجيش .

وكان متصرف لواء المدينة يسمى (محافظ المدينة المنورة) وأما متصرف لواء جدة ، فكان يسمى (قائم مقام الوالى) وكان يتبع لواء المدينة أربعة أقضية هى : ينبع البحر ، الوجه ، سوار قبة ، العقبة ، ويتبع لواء جدة قضاء واحد هو : معمورة الحميد .

إمارة مكة المكرمة :

كان فى الحجاز منصب سام يسمى (إمارة مكة المكرمة) .

وكان أميرها ينتصب من بني الأشراف ، بفرمان خاص ، ويتولى الأشراف شئون الحجاج ، والنظر فى قضايا العشائر .

وكان أمير مكة المكرمة يتمتع ـ فى التشريعات ـ بأسمى مقام ، وترسل إليه عطايا السلطان كل عام مع أمين الصرة الشريفة وسط التشريفات واحتفالات يحضرها السلطان بنفسه .

٢ ـ ولاية اليمن :

كانت تضم أربعة ألوية هى : صنعاء ، الحديده عسير ، تعز .

٣ ـ ولاية البصرة :

كانت تضم أربعة ألوية هى : البصرة ، منتفك ، نجد ، عمارة .

٤ ـ ولاية بغداد :

كانت تضم ثلاثة ألوية هى : بغداد ، كربلاء ، الديوانية .

٥ ـ ولاية الموصل :

كانت تضم ثلاثة ألوية هى : الموصل ، كركوك ، السليمانية .

٦ ـ ولاية حلب :

كانت تضم ثلاثة ألوية هى : حلب ، أورفة ، مرعش .

٧ ـ ولاية سوريا :

وكانت تضم أربعة ألوية هى : الشام ، حماة ، حوران ، الكرك .

٨ ـ ولاية بيروت :

وكانت تضم أربعة ألوية هى : بيروت ، عكا ، طرابلس ، اللاذقية .

٩ ـ ولاية طرابلس الغرب :

كانت تضم خمسة ألوية هى : طرابلس الغرب ، الجبل الغربى ، حمص ، فزان ، الغات .

١٠ ـ متصرفية القدس الشريف :

كانت متصرفية مستقلة ، تتخابر مع وزارة الداخلية مباشرة دون أن تتبع ولاية من الولايات . وكانت تضم أربعة أقضية هى : يافا ، غزة ، بئر السبع ، خليل الرحمن .

١١ ـ متصرفية بنغازى :

كانت متصرفية مستقلة ، تتبعها ثلاثة أقضية هى : دونة ، مرج ، جالة ، أو جالو .

١٢ ـ متصرفية الزور :

كانت متصرفية مستقلة ، تضم أربعة أقضية هى : رأس العين عشارة ، البوكمال ، عربان .

١٣ ـ متصرفية جبل لبنان :

كانت متصرفية ممتازة ، تدار وفق نظام خاص ، وكانت تضم ثمانية أقضية (لا تذكرها الحولية) .

١٤ـ إيالة مصر :

تذكر الحولية الرسمية أسماء الخديوى ، والقاضى ، ومأمور المصالح التلغرافية ، وتبين رتب كل واحد منهم وأنواع الأوسمة العثمانية الممنوحة لهم ، ولكنها لا تزيد على ذلك أية معلومات أخرى . . وذكرت أن رتبة الخديوى ، مساوية لرتبة الصدارة العظمى .

١٥ ـ إيالة تونس :

وتكتفى الحولية الرسمية بذكر اسم هذه الأيالة دون إعطاء أية معلومات أخرى .

الإدارة العسكرية العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر :

كانت الممالك العثمانية تقسم من الوجهة العسكرية إلى سبع دوائر كبيرة ، فى كل واحدة منها جيش كامل من المشاة والخيالة والمدفعية .

وكانت الجيوش تسمى طبقاً لتسلسل هذه الدوائر : الجيش الأول ، الجيش الثانى .

وقد كان مركز قيادة الجيش الأول فى استانبول ، وكان هذا الجيش يسمى أيضاً (الخاصة الهمايونية) . ومركز الجيش الثانى فى أدرنة والثالث فى مناستر والرابع فى أرز نجان والخامس فى دمشق والسادس فى بغداد أما الجيش السابع فقد كان فى اليمن .

يتبين مما سبق أن مركز قيادة ثلاثة من هذه الجيوش السبعة كان فى البلدان العربية .

وفضلا عن ذلك ، كان هناك ثلاث دوائر عسكرية فرعية ، تقدم بعض الفيالق ، دون أن تكون جيشاً كاملا ، هذه الدوائر كانت فى طرابلس الغرب وكريت والحجاز .

ويتبين من ذلك أيضاً أن اثنتين من هذه الدوائر الفرعية الثلاثة أيضاً كانت فى البلاد العربية .

كانت الخدمة العسكرية إجبارية للمسلمين من التبعة العثمانية ، ولمدة عشرين عاماً ، تبدأ من سن العشرين ، وتستمر حتى الأربعين ، وكان الأفراد خلال السنوات الست الأولى من مكلفيتهم العسكرية يدخلون فى عداد (العساكر النظامية) فيقومون بالخدمة الفعلية ، ولكن فى السنوات الثمانى التى تلى ذلك يعتبرون من صنف (العساكر الرديف) ويدعون إلى الخدمة . عند مسيس الحاجة ، وأما فى السنوات الست الباقية ، فيعتبرون من (العساكر المستحفظة) فلا يدعون إلى الخدمة الفعلية إلا عند الحاجة القصوى .

وكان كل جيش من الجيوش التى ذكرت آنفاً يضم العساكر النظامية مع ضباطهم من جهة ، والضباط الذين تحتاج إليهم العساكر الرديفة ، والمستحفظة ـ عند الاقتضاء ـ من جهة أخرى .

[illegible] المكلفية العسكرية منحصرة فى المسلمين ، فقد كان غير المسلمين (يعفون من الخدمة العسكرية) ولكن فى مقابل ذلك كانوا مكلفين بضريبة خاصة ، تسمى البدل العسكرى ، يدفعونها عند وصولهم السن العسكرية .

ومع هذا فإن الأهالى المسلمين فى بعض الولايات أيضاً كانوا يعفون من الخدمة العسكرية ، كأهالى ولايات : استانبول وكريت ، وجزر البحر الأبيض ، وطرابلس الغرب ، واليمن والحجاز .

ويتضح مما سبق ، أن المسلمين من أهالى البلاد العربية ، باستثناء الولايات الثلاث التى ذكرت كانوا يؤدون الخدمة العسكرية مثل سائر تبعة الدولة .

وقد كانت كل فرقة فى الجيش العثمانى تضم لواءين من المشاة فى كل منهما طابور قناصة .

وكل فرقة تنقسم إلى لواءين ، وكل لواء إلى آلاين ، وكل آلاى بتأليف من أربعة طوابير .

أما الجيوش التى كانت فى البلاد العربية فبيانها كالتالى :

الجيش الخامس (بشنجى أوردى) :

كانت دائرة هذا الجيش تضم ولايات الشام وبيروت وحلب وأضنة ومتصرفيتى دير الزور والقدس المستقلتين .

وكان هذا الجيش موزعا بين مدن دمشق ، عكا ، حلب ، القدس ، طرابلس الشام ، أورفة ، أضنة ، مرعش ، نابلس .

الجيش السادس (آلتنجى أوردى) :

كانت دائرة هذا الجيش تضم ولايات بغداد ، والموصل ، والبصرة . . وكانت وحداته موزعة على المدن التالية :

بغداد ، الناصرية ، السلمانية ، خانقين ، كركوك ، روافدوز ، الموصل ، أما الخيالة والمدفعية فقد كانت محتشدة فى بغداد وكركوك والديوانية .

الجيش السابع (يدنجى أوردى) :

كانت خاصاً بولاية اليمن ، وكل وحداته ، كانت تتألف من عساكر نظامية ، وكانت فرقة الحجاز عبارة عن ثلاثة آلايات مشاة ونصف آلاى خيالة ، وبطارية مدفعية ، أما فرقة طرابلس الغرب فكانت عبارة عن لواءى مشاة ، وآلايين للخيالة ، وطابور واحد من القناصة .

وهكذ فإن الدولة العثمانية لم تكن تنظر إلى الولايات العربية نظرة تعال أو أستعمار ، بل هى التى كانت تحاول التقرب من شعوبها وعلمائها تستصدرهم الفتاوى ، وتجل الأماكن المقدسة صارفة الجهد والمال لرعياتها وصيانتها ، مستفيدة من الخبرات والكفاءات الفنية والعلمية ، مجلة للغة العربية ومراكزها العلمية ، فقد كان جل علمائها يتلقون علومهم العقلية والنقلية فى مراكز الدراسة بالولايات العربية .

وإذا كان العثمانيون قد احتفظوا لأنفسهم بالمناصب العسكرية والإدارية فى بعض الفترات فإنهم قد أسلموا قيادتهم الدينية والعلمية والثقافية للعنصر العربى ، باذلين كل الجهد لخلق تكتل إسلامى يستطيع أن يجابه التكتل الصليبى آنذاك .

* * *

المؤلف والكتاب :

والمؤلف هو أيوب صبرى باشا ، ولد بتساليا التابعة لـ (ينى شهر) بالأناضول ، وتوفى باستانبول سنة ١٨٩٠ م .

وقد نشأ وترعرع فى الترسانة البحرية حتى أصبح أمير آلاى . ومكث بمكة والمدينة مدة طويلة ، ثم رقى بعد عودته من بلاد الحجاز إلى أمير اللواء وترأس قسم المحاسبات البحرية . وبعد ذلك تولى التدريس فى مدرسة البحرية الشاهانية فى استانبول .

ومن أهم آثاره : (محمود السير) الذى ألفه سنة ١٨٧٠ م ، و (تاريخ وهابيان) ألفه سنة ١٨٧٩ م و (تكملة المناسك) سنة ١٨٧٥ و (أسباب العناية فى ترجمة بداية النهاية) ترجمة عن الإمام الغزالى سنة ١٨٨٩ م (ونجاة المؤمنين) ، و (ترجمة الشمائل الشريفة) ، و(شرح قصيدة بانت سعاد) و (مرآة مكة) سنة ١٨٨٩ م . والأجزاء الثلاثة الأخيرة تمثل كتاباً متكملا عن الجزيرة العربية . وقد عول فى تأليف من المراجع العربية على (القسطلانى) و (البخارى) و (شرح الشفاء) و (روح البيان) ، و (تاريخ القطبى) (الإعلام) و (تاريخ الأرزنى) و(تاريخ الفاكهى) و (خلاصة الوفاء للمسهودى) و (مسلك المتقسط على منسك المتوسط) و (تاريخ الخميس فى النفس النفيس) و (أنس الجليل) و (مسامرات الشيخ محيى الدين ابن عربى) و (خبر البشر عن خير البشر) . واعتمد على (روضة الصفا) لمحمد خواندير ، وفتوح الحرمين من الكتب الفارسية [١] .

هذا بالإضافة إلى مشاهداته الشخصية وقد تعرض فى (مرآة جزيرة العرب) لجغرافيه الجزيرة وتقاسيمها وخططها وسكانها وقتئذ وتناول العادات الجارية بينهم مجرى القانون كالخمسة والسمية والعوانى ، والضن والجيورة والوجد وطنب الطنب ، وشروط الاستفادة من مرعى الغير أيام القحط والحر ، وتقفى الأثر .

والكتاب فى ستة فصول ، قدمه أيوب صبرى باشا إلى السلطان عبد الحميد [٢] بعد أن ألفه سنة (١٢٨٩ هـ ـ ١٨٨٩ م) .

وقد طبع الكتاب فى الآستانة سنة ١٣٠٦ هـ .

---

(١) Turk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi. Cılt. 3 . s . 133 Istanbul .

(٢) د . خليل ساحلى أو غلى / مخطوطات عن الجزيرة العربية فى مكتبة جامعة باستانبول ، ماضرة بالندوة العالمية الأولى لدراسات جزيرة العرب / قسم التاريخ ـ آداب الرياض .

وهذا الكتاب الذى يتمتع مؤلفه بشهرة واسعة فى ديار الترك على عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، يقدم خطوة كبيرة فى سبيل توضيح تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها والإنسان الذى عاش على أرضها قبل الإسلام وبعده . فيتحدث عن تاريخها السياسى والاجتماعى وجغرافيتها الاقتصادية والبشرية وأنساب قبائلها وعاداتهم وتقاليدهم وأشهر مدنها وأخصب مناطقها وآبارها وعيونها وأنواع الأشجار والنباتات والحيوانات التى تعيش على أرضها .

ولم يتأت ذلك كله إلا لمؤلف جاب هذه الديار كثيراً وعاش فيها وعايش أهلها . وعشق الحياة الروحية فى ربوعها ، فجاء كلامه صادقاً وواقعياً .

والكتاب علمى محض لا يجنح صاحبه إلى الخيال أو التهويل أو المغالاة ، ولكنه يتحرى الدقة فى كتاباته ، ويستند على المصادر الأصلية عربية وتركية وفارسية ، وكما سبقت الإشارة، مدعماً كلامه بمشاهداته وملاحظاته على ما يراه .

وقد حاولنا فى هذه الترجمة أن تلتزم بالنص الأصلى التزاماً كاملاً حرصا على الأمانة العلمية . كما أننا ترجمنا الأفكار التى أوردها المؤلف دون تدخل منا ، راجين أن يكون هذا الكتاب قد حقق الهدف المنشود ، وهو إلقاء الضوء على الجزيرة العربية فى فترة هامة من فترات تاريخها .

والله الموفق

المترجمان

ا . د . أحمد فؤاد متولى **ا . د . الصفصافى أحمد المرسى**

الباب الأول

أنساب العرب وقبائلهم وملوكهم
فى القرون الغابرة وفى الجاهلية والإسلام

الفصل الأول

أنساب العرب وأحوالهم فى القرون الغابرة والأ... لسابقة

أقوام العرب :

تنقسم أقوام العرب إلى أربع طبقات : العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة والعرب المستعجمة [1] .

العرب البائدة :

تعتبر طبقة العرب البائدة أقدم من جميع الأقوام التى جاءت بعد نوح عليه السلام ، وأول قبائل العرب التى تنقسم إلى شعوب كثيرة .

وعلى الرغم من عدم وجود معلومات صحيحة عن أحوال أفراد هذه الطبقة ومن أى القبائل تنحدر ، إلا أن المؤرخين يعتقدون أن قبائل (عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وبنو جرهم الأول وحضر موت) بعامة هم الذين كونوا طبقة (العرب البائدة) ، لأن سلسلة نسب هذه القبائل عامة تتصل بـ (لاود وأخيه إرم) بنى سام بن نوح عليه السلام .

عاد الأولى :

عاد الأول هو عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقد أطلق اسم (عاد الأولى) على القبيلة التى تفرعت عن (عوص) ، وتوطنتة فى أراضى الأحقاف .

وقد نجا بكر بن معاوية بن بكر بن عاد وبعض رفاقة من الهلاك ، عندما نزل غضب الله على قبيلة عاد الأولى . واستمرت قوميتهم فترة من الزمن وقد أطلق اسم (عاد الثانية) على الطائفة التى بقيت بعد هلاك قوم عاد الأول .

---

(١) يطلق على الطبقة الثانية والثالثة اسم العرب الباقية (السعودى) : التنبيه والإشراف ص ١٨٥) ، (المترجم) .

ثمود [1]:

سكن أفراد القبيلة التى تنسب إلى ثمود بن جاثر بن إرم بن سام (وادى القرى) الواقع بين الحجاز والشام . ومع أن الذين نجوا من الهلاك الذى وقع بقوم ثمود اتخذوا من مكان يسمى (الرس) موطناً ، إلا أنهم هلكوا عن آخرهم فى النهاية .

العمالقة:

لقب على كل البطون التى تفرعت عن (عمليق) بن لاود بن سام بعامة .

وقد شكلت مجموعة القبائل التى تناسلت من أبناء عمليق وهم (أرزق وطغار ولف وبديل وراحل وهزان وأرقم وجاسم) بطون العمالقة .

توطن أبناء أرزق بن عمليق فى (الحجاز) ، وأولاد (طغار وبديل وراحل) بن عمليق وأحفادهم فى نواحى (نجد) ، وجماعة (لف) بن عمليق فى يثرب) ، والطائفة التى تنسب إلى أرقم بن عمليق فى الأراضى الواقعة عند (تيما) بالحجاز .

طسم:

علم خاص يطلق على الأمم والأقوام التى تفرعت من لاود بن سام .

جديس [2] :

هو ابن إرم بن سام ، وكان بمنزلة أمير . وقد توطن أفراد القبيلة التى انحدرت منه فى (اليمامة) .

أميم:

أبو شعوب (بنى وبار) التى كانت فى منزلة كريمة . ومع أن أميم كان له عدة أبناء . إلا أن المؤرخين يذكرون أنه كان فرداً وحيداً . ومن الجدير بالذكر أن سلسلة سلالة القبائل التى تنتهى إلى اسم بار المضبوط وإلى أميم مرتبطة بيار سالف الذكر .

---

(١) ثمود هم قوم النبى صالح الذين دعاهم إلى عبادة الله وحده وعدم الشرك به ، فناصبوه العداء ، (القرآن الكريم سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القمر) ، (المترجم) .

(٢) لم يرد ذكر لطسم وجديس فى القرآن الكريم . (المترجم) .

بنو جرهم الأول :

يطلق على القبائل التى تفرعت من قحطان بن عبار بن ارفشحد بن سام اسم قبائل (بنو جرهم الأول) . وقبل الهجرة بـ ٣٠٩٥ سنة أقام قطحان حكومة فى اليمن ، ثم انتقل إلى الدار الباقية بعد مدة ، فخلفه ابنه (يعرب) وجلس على كرسى الحكم ، ثم عين أخاه (جرهم) والياً على الحجاز . إلا أن جرهم تمكن من الاستقلال بالحكم . وقد أطلق على هذه القبيلة التى انفصلت اسم (جرهم الثانية) .

حضرموت :

حضر موت بن قحطان . عينه أخوه يعرب والياً على جبال شحر ، عندما كان حاكماً على اليمن . وقد كان مستبداً يعمل لمستقبله فى جبال شحر كجرهم أيضاً .

لم تتمكن القبائل المذكورة من مقاومة (بنى حام) فى بابل أو التصدى لهم ، فرحلت إلى الجزيرة العربية . ومع أنها عاشت حياة البداوة فى الصحارى والوديان التى استقرت فيها عند نزوجها ، إلا أنها زادت من قوتها فيما بعد واستولت على أراض واسع بالقوة . وأسست لنفسها حكومة كبيرة إلى حد ما فى الجزيرة العربية ، واتخذت العمران سبيلا والمدنية طريقاً . وبعد فترة استولت على اقليمى مصر والشام [1] . وأقامت لنفسها حكماً حتى زمن انتصار (يعرب بن قحطان) . ثم زالت هيبتها وقدرتها واضطرب نظام دولتها واضمحل فى النهاية .

ويعد أفراد هذه الطبقة من أقدم الأمم الغابرة . وقد سميت (العرب البائدة) بهذا الاسم الذى يحمل معنى الهالكة تمييزاً لهم عن سائر الطبقات الأخرى لأن اسمهم وشهرتهم تلاشياً مع تعاقب الأزمان والأدوار ، ثم سميت باسم (العرب العاربة) لأن اللغة العربية كانت قاصرة عليهم .

العرب العاربة :

تنتهى طبقة العرب العاربة إلى قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشد بن سام .

وقد اختلطوا بأفراد العرب البائدة ، وأخذوا عنهم اللغة العربية وانهمكوا فى تعلمها ، لهذا سموا باسم (العرب العاربة) .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن العرب الذين استولوا على مصر والشام ينحدرون من طائفة (العرب العاربة) .

ويروى أن عابر بن شالح أبو قحطان ، ولهذا فإن نسبة ينتهى إلى سام ابن نوح عليه السلام .

لم يتمكن قطحان وأولاده وأحفاده من تأسيس قوتهم واكتساب سمعتهم فى أول الأمر ، نظراً لأنهم عاشوا فى بداية نشأتهم فى الصحارى والقفار . ولكن قوتهم زادت فيما بعد ونمت سطوتهم وتكاثرت شعوبهم وقبائلهم ، وقد صادفت شهرتهم وزيادة قوتهم اضمحلال طبقة العرب البائدة وزوالهما ، فوسعوا نطاق دولهم إلى حد يفوق التعريف .

ويعتبر يعرب بن قحطان الذى أسس دولة عظيمة باستيلائة على اليمن وقبائل (بنى سبأ) من البطون التى شكلت طبقة العرب العاربة .

(عبد شمس) هو أصل اسم سبأ ، وأبوه هو يشجب بن يعرب ابن قحطان . وقد كان هجومه على الممالك والبلدان واستيلائه عليها وأسره لأعداد لا نهاية لها ، سبباً فى إطلاق اسم (سبأ) عليه .

ما بعد سبأ :

كبر أولاد سبأ وهم : (حمير وكهلان وزيادن وأشعر وعامله) ، وظهورا على مسرح الأحداث . وقد خرجت عن كل واحد منهم قبيلة مشهورة ومعروفة . وكافة قبائل العرب التى سكنت فى منطقة اليمن فى ذلك الوقت ، كانت عبارة عن سلالات تنتهى إلى أولاد سبأ .

وينتمى أفراد طبقة العرب العاربة فى منطقة اليمن إلى بنى سبأ حسب النسب ، فيقال : (العرب العاربة القحطانية واليمانية) .

وفروع أحفاد قحطان بن عابر وشعوبهم لا تحصى عدداً . فقد تفرقوا هنا وهناك ، فبعضهم فى عمان وبعضهم فى نجران وبعضهم فى رس اليمن وبعضهم فى أنحاء أخرى . وقد تمتع كل منهم بالاستقلال فى مكانه . كما انفصلت عن كل واحد منهم بطون كثيرة . ومع أن كل واحد منها كونت قبيلة مستقلة ، إلا أن حجم مرآة الجزيرة لم يستوعب أصولهم وفروعهم والواجب يقتضى ممن يرغب فى تفاصيل وافية فى هذا الخصوص ، أن يرجع إلى الكتب العربية القديمة ، لأن كثيراً منهم نسى بفعل تباعد الفترة الزمنية وتغافل النسابين .

العرب المستعربة :

نشأت طبقة العرب المستعربة من اختلاط القبائل التى تنحدر من النسل الكريم لإسماعيل

بن إبراهيم (على نبيا وعليهما التحية والتبجيل) بأقوام (العرب العاربة) .

وسلسلة أنساب العرب المستعربة مرتبطة بـ (عدنان ونزار) ، ويقال لها : (العدنانية والنزارية) .

اختارت العرب العاربة الإقامة بجوار كعبة الله المشرفة برفقة الجماعات التابعة لقبائل بنى جرهم بن قحطان سالفة الذكر . وزوجوا إسماعيل (عليه سلام الله) إحدى بناتهم ، فأصبح صهراً لهم . وترك اللغة العبرية التى كانت قاصرة عليه ، واختلط بأحفاد بنى الجراهمة حسب تعلقه بهم ، وعودوه على الحديث باللغة العربية التى كانت خاصة بهم .

ومع أن المؤرخون يطلقون اسم (العرب المستعربة) على القبائل التى تشعبت من نسل إسماعيل استناداً إلى هذه القضية ، فإن ابن خلدون يذكرهم ويعرفهم باسم (العرب التابعة للعرب) .

وبين بداية سكنى إسماعيل (عليه السلام) فى مكة المكرمة وبين الهجرة النبوية فترة زمنية تبلغ ألفين وسبعمائة وثلاثة وتسعين عاماً تقريباً .

أنجب إسماعيل (عليه السلام) اثنى عشر ولداً من البنت الجرهمية التى تزوجها . وقد كثر أولاده وزادت أمجادهم بمرور الزمن ، وتفرعوا إلى شعوب وقبائل عديدة ، كان بينها قبيلتان كبيرتان هما : (عدنان) ، و (قحطان) . وقد شملوا شعوب العرب وقبائلهم عامة .

وعلى هذا فإن الشعوب العربية التى سكنت القطر الحجازى من أولاد عدنان سالف الذكر من ذرية النسل المبارك للنبى المشار إليه هم من أحفاد بنى قحطان ، وكذلك قبائل العربان الذين سكنوا اليمن وحضر موت وعمان والأماكن الأخرى بالجزيرة العربية .

وقد انفصلت قبائل عديدة وشعوب كثيرة من هاتين القبيلتين الكبيرتين اللتين تنسبان إلى عدنان وقحطان طبقاً لما ذكر أعلاه . وذكرت كل واحدة منها باسم جدها الأعلى وحملت شهرته .

رأس القحطانيون البلاد وسيطروا على الحكومة فى عصور الجاهلية وتولى كل واحد منهم جزء كبيراً من منطقة جزيرة العرب . وانضوى الأمراء العدنانيون تحت لوائهم وأطاعوهم .

العرب المستعجمة :

نشأت طبقة العرب المستعجمة بسبب ظهور عجمة فى لسان الحديث لدى أفراد العرب المستعربة من كثرة اختلاطهم بأهالى الممالك الأجنبية ، فقد استولت قبائل العرب على منطقة جزيرة العرب لإعلاء كلمة الله بعد أن ظهرت أنوار الإسلام ساطعة ، وانتشرت فى الممالك

والأمصار ، واحتكت بمجموعات من الأقوام والجماعات الأجنبية وعاشت معها فى ألفة ووداد .

ومع أن الهيئة العامة للطبقة المذكورة لم تترك جزيرة العرب أو تجلوا عنها ، فإنها انتشرت فى الأراضى الواسعة التى استولت عليها . واختلطت بالملل مختلفة الألسن التى توطنت فى هذه المناطق وأنست للحياة معها . وبفضل هذا ، عظم شأنها وزادت قدرتها ، فتغيرت لهذا فصاحة لسانها وبلاغته . فقد اختلط لسان إعجاز البيان (المضرى) بالألسنة الأخرى ، وتشكلت طبقة العرب المستعجمة .

ونزلت إشراقة القرآن الكريم على (اللسان المضرى) لسان طبقة العرب المستعجمة الأصلى عذب البيان .

تنسب كافة قبائل العربان المتوطنة حالياً فى الجزيرة العربية إلى طبقة العرب المستعجمة . ومع أن قبائل العرب التى تشكل هذه الطبقة لم تترك جزيرة العرب وطنها الأصلى على أى حال ، فقد اختلطت بالملل المسلمة والعربان الأجنبية الذين لم يكونوا من أبناء جنسها ، فتغير لسانها ولغتها إلى حد ما بسبب الاختلاط . ومع ذلك إذا نظرنا إلى لسان عرب الديار الأخرى ، لوجدنا أن لسان هؤلاء فصيح كثيراً .

وأسماء القبائل التى تنتمى نسباً إلى أقوام العرب العاربة ذكر تعاليه ، ولهذا لا حاجة بنا للتعريف بأنساب قبائل العرب التى أتت بعدهم وتفصيل القول فى ذلك . إلا أننا سنذكر فى أى المواقع أقاموا ، وكيف كانت أسماء قبائلهم تذكر ، وكم كان تعداد نفوسهم ، وأصل الأنظمة والقوانين التى اتبعوها ، وبعض الحقائق عن أخلاقهم وأطوارهم .

وإذا قدر لنا أن نفارق بين محتويات كتب التاريخ التى كتبها المؤرخون السوالف عن أحوال قبائل العرب الذين كانوا يتجولون فى ذلك الوقت ، بأحوال القبائل الموجودة الآن وأفعالها وأطوارها ، لأمكننا أن نقول : إن العرب القدامى لا يفترقون عن العرب الحاليين قط . وإذا صرفنا النظر عن قبائل العرب الحديثة التى تفرعت عن القبائل القديمة وتشعبت بمرور الزمن ، ونظرنا إلى أسماء القدامى منهم بعامة ، لوجدنا أسماء كافة قبائل العرب الحديثة متطابقة مع أسماء القبائل السالفة .

* * *

الفصل الثانى

أحوال قبائل العرب فى الجاهلية وفى الإسلام

الجاهلية هى المرحلة الأولى بالنسبة لبداية أحوال قبائل العرب ، والإسلام هو المرحلة الثانية . وينقسم العرب فى كلتا المرحلتين إلى أهل المدر (أى أهل المدن والأمصار) ، وأهل الوبر (أى الذين قضوا حايتهم فى البوادى تحت الخيام) .

اعتنقت كافة قبائل العربان فى الجاهلية أدياناً مختلفة . فكانت عربان (حمير) تعبد الشمس كما جاء فى عرض الهدهد وشرحه لسليمان عند وصفه لبلقيس الحميرية فى الآية الكريمة : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ [١] . وكانت عربان قبيلة (لخم تعبد نجم المشترى . وعربان (كندة) تعبد القمر . وكانت عربان قبيلة حنيفة وأفراد القبائل الأخرى تعبد الأوثان ، وكان لكل واحد منها أوثان خاصة . وبعد ذلك اعتنق بعضهم اليهودية ، كما اعتنق البعض الآخر النصرانية ، وبقى آخرون ثابتوالقدم فى عبادة الأصنام . وعبدت قبيلة ربيعة وقبيلة غسان النصرانية ، وعبدت قبائل حمير وبنى كنانة وبنى الحارث وكندة اليهودية . وكان عربان تميم على المجوسية ، وبقيت قريش على الزندقة ، كما شاعت عبادة الأوثان بين العرب أيضاً .

ولما أشرقت أنوار الإسلام فى الأفق على العالم ، زال ظلام الكفر والجهالة بفضل الأنوار المحمدية وشملت الشريعة الأحمدية الغراء أقطار الدنيا بأسرها . ودخل سكان جزيرة العرب عموماً فى نطاق الإسلام المتين وانقادوا للشرع الأغر الشريف ، وبلغوا أقصى المطالب وحققوا سعادتهم . ونشروا فى أقطار الدنيا كوكب أنوار الدين الحنيف طمعاً فى نيل رضا البارى وبهذا فتحوا أماكن واسعة جداً .

وعظمت قدرتهم وصولتهم شيئاً فشيئاً ، واتسعت دولتهم يوماً فيوماً . وانتصروا على الملوك والسلاطين المعاصرين لهم . وقطعوا شوطاً بعيداً فى الصناعات والفنون ، وبلغوا

---

(١) سورة النمل الآية : ٢٤ .

بإمكانياتهم مبلغاً كبيراً . ووصلوا بملكهم وأمتهم إلى الدرجة الأولى فى سلم المعارف والمدنية . وبلغوا أقصى المراتب فى العلوم والفنون ، وبذلوا كل ما لديهم من فكر فى تقدم العلوم والصناعات .

إن المدارس التى أسست فى بغداد ، والمدارس التيافتتحت فى منطقة الأندلس صرفت فيها كل الإمكانيات وبذلت كل الهمم لكى ترتقى فى مجال العلوم والفنون ، وأعلنت أنها تخدم كل فكرة تتصل بالعرب . وقد زينت أبحاثها ألمع صفحات التاريخ .

ويا أسفا فقد خبت هممها وتلاشت بمرور الزمن ، فى الوقت الذى وصل فيه الأوربيون إلى درجة ممتازة فى العلوم والفنون التى تلقوها عنها ، وتقدموا فيها وبذلوا أقصى جهدهم ، ومنحوها كل حماسهم وغيرتهم .

أهل المدر :

يطلق اسم (أهل المدر [1] على الحضرى أو المدنى من سكان جزيرة العرب ، وهم النوع الأول من القبائل العربية التى سكنت القرى - والقصبات [2]، واشتغلوا بالزراعة والفلاحة واهتموا بالنخيل والأعناب والبساتين ، نظراً لموقع بلادهم واستعداداتهم . وبذلوا جهدهم للعيش من المحاصيل التى زرعوها . ومارسوا التجارة أخذاً وعطاء مع أهالى البلاد الأخرى لتأمين معيشتهم . وترددوا على الممالك التى أرادوا ممارسة التجارة معها . وحملوا الملوك والسلاطين والأمراء التابعين لهم على احترامهم . وبذلوا أقصى المستطاع فى تقدم العلوم والمعارف ، وصرفوا كل جهدهم فى الصناعات واهتموا بها ، ووسعوا دائرة عيشهم وثروتهم وزادوا حالة اليسر عندهم وبذلوا فى ذلك كله أقصى المستطاع .

أهل الوبر [3] :

هم عبارة عن البدو والعربان الذين يشكلون النوع الثانى من قبائل العرب ، وكما هو واضح فى ذهن الجميع فإن أهل الوبر هم العرب البدو الذين يقضون حياتهم فى الجبال

---

(١) المدر : الطين اللزج المتماسك ، والقطعة منه مدرة . وأهل المدر : سكان البيوت المبنية ، خلاف البدو سكان الخيام . (المعجم الوسيط م ٢ ص ٨٦٥ القاهرة سنة ١٩٦١) . (المترجم) .

(٢) القصبات : جمع قصبة وهى كلمة عربية معناها المدينة الصغيرة . (المترجم) .

(٣) الوبر : صوف الإبل والأرانب ونحوها . الواحدة وبرة ، ج أوبار . وأهل الوبر : أهل البادية ، لأنهم يتخذون بيوتهم من الوبر . (المعجم الوسيط م ٢ ص ١٠١٩) . (المترجم) .

والتلال والصحارى والقفار وتحت الخيام وهم يعيشون فى البوادى ويفترقون عن المدنيين فى تحصيل العيش وتدارك أسباب الحياة لأنهم لا يلون قدر ذرة إلى اكتساب المعارف والصناعات . وكانت المساكن والمنازل التى سكنوا فيها خالية من الزينة والتكلف ، وتحمى أجسادهم من شدة حرارة الشمس ومن تأثير التغيرات الجوية واختلاف الطقس . كانوا يسكنون غالباً فى خيام منسوجة أو مصنوعة من صوف الجمال والخراف أو من شعر الماعز والبغال ، وبعضهم كان يسكن فى أكواخ [1] مصنوعة من سعف النخيل ، أو فى منازل من الطين والحجارة . وكانت مفروشاتهم عبارة عن حصير منسوج من خوص النخيل أو أبسطة[2] مصنوعة من الصوف . وكانت ملابسهم عبارة عن ثوب ومشلاح وكوفية ونعل .

أثوابهم مصنوعة من الحرير السماوى ، ومشالحهم من الصوف وكوفياتهم من الخيوط أو من الحرير ، ونعالهم من حلود الجمال وغيرها من الحيوانات .

كان من العادة أن يرتدى الرجال والنساء أثواباً طويلة جداً لا يدرى ماذا كانت بالأمس . وكان الأطفال من الأولاد يتجولون وهم عرايا تماماً ، أما الأطفال من البنات فكن يسترن عوراتهن ويربطن حول خصورهن أحزمة ذات (شراشيب) .

كانت مأكولاتهم ومشروباتهم متواضعة جداً ، وكانوا لا يجمعون شيئاً منها أكثر من الحاجات الضرورية . وكانوا ينكبون على تهيئة وإحضار الأشياء التى يحتاجون إليها أشد الحاجة من الأغذية الطبيعية والحاجات الضرورية التى تعتمد عليها حياتهم . من أجل ذلك كان معظمهم يربى الجمال والأغنام والماعز ويرعى حاصلاته ، وقليل منهم كان يربى أولاده على أعمال الرعى والزراعة والفلاحة .

كانوا يقضون حياتهم فى الترحال مع حيواناتهم كالجمال والأغنام والماعز حاملين محاصيلهم . وكانوا يسوقون حيواناتهم هذه إلى المواقع التى يكون طقسها معتدلا وعشبها غزيراً وماؤها وفيراً . والذين ألفوا الزراعة والفلاحة كانوا يسكنون الأراضى الواقعة فى الطرف الشمالى لجزيرة العرب ، كانوا يقضون أيام الصيف بجوار المواقع المنبتة كالشام وبغداد والجزيرة ، أما فى أيام الشتاء فكانوا يعودون إلى الأماكن التى توجد فيها مساكنهم الأصلية ويعيشون فى الأودية التى يكثر فيها الماء والكلأ .

---

(١) يطلق أهل الحجاز على هذه الأكواخ اسم العشة ، ويطلق عليها أهل اليمن اسم العريش ، وإذا كانت مصنوعة من الحجارة يطلقون عليها اسم المخزن .

(٢) يقال للأبسطة : شملة بين العربان .

والبدو تنحصر حياتهم المعيشية فى الجمال والأغنام والماعز والحاصلات ولا يجدون صعوبة فى الرحيل من الأماكن التى ينصبون فيها خيامهم والهجرة منها إلى أماكن أخرى بالطبع . ويقضون حياتهم فى الصحارى والقفار مع العزلة والوحشة . وفضلا عن ذلك فإنهم لا يهتمون بتحصيل العلوم والمعارف والفنون والصناعات . ولم يحدث أن قام أحد من حكام بلادهم السوالف بإجبارهم على الدخول تحت طاعته أو مطالبتهم بحقوق التبعية والولاء للحاكم كما يحدث لسائر الأقوام المتمدنة .

وقد تحققت طاعة البدو وانقيادهم فى صدر الإسلام ، بفضل القوة القاهرة والسطوة الشديدة على كل حال .

وتحتاج جزيرة العرب فى الواقع إلى حاكم قوى الشكيمة . فإذا كان حاكم الممالك العربانية على أدنى مستوى فى الحل والعقد لأنه لا يتحمل المشاكل فإن عموم العربان ترفع لواء العصيان وتطغى وتتبع طريق الخلاف فى الأمور وعدم الالتقاء فى الرأى ، على الرغم من كونه صاحب قدرة وسطوة ، وتطيع (المشايخ) الذين اختارتهم وانقادت لهم .

ويقوم مشايخ العربان فى جزيرة العرب بتنفير أفراد القبائل من الدخول فى دائرة العدالة السنية الباهرة [1] ، ويتحاشون الشك فى نواياهم التى تخدم مصالحهم الشخصية ، ويحذرونهم ببعض الحيل . ومع أن البدو جبلوا على الخشونة ، إلا أن هذا لم يكن عائقاً أو مانعاً من إعلان طاعتهم لأوامر السلاطين العظام والانقياد لهم . فلديهم استعدادلقبول المدنية بسهولة نظراً لدرايته الفطرية وذكائهم الذى جبلوا عليه . والدليل على ذلك : أن الدولة العثمانية أرسلت العساكر الشاهانية لمناطق عسير واليمن ومناطق البحرين . وبينما كانت هذه العساكر تنشر العدل وتظهر السطوة والصولة ، فإن الذين أحسوا بالراحة والطمأنينة من أثر العدل الذى شملتهم محاسنه ، عرضوا الدخول فى طاعة الدولة العلية .

وبعض البدو يترددون فى تصديق قوة البطش السلطانية وربما لهم الحق فى هذا التردد إلى حد ما ، نظراً لعدم وقوفهم على كنه القوة السلطانية .

ولا يصدق البدو الأخبار المتواترة التى يتلقونها سماعاً فقط ولا يرونها بعيونهم .

وتمتنع قبائل العربان عن رؤية بعض البلاد الشاهانية ، لأنهم اعتادوا على التجوال فى الصحارى وبين الجبال ، حتى أن الكثيرين منهم لم يروا البلاد المشهورة بجزيرة العرب رغم أن بها ملبوساتهم وحاجياتهم الضرورية .

---

(١) المقصود الحكم العثمانى (المترجم) .

وقد ذهل آباؤهم وأجدادهم عندما شاهدوا الخدمات الجليلة فى عصر الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية والخلفاء العباسيين حيث لا نصيب لهم من القراءة أو الكتابة ولا يعرفون علم التاريخ . أنهم لا يعلمون شيئاً والحالة هذه عن السياسة العالمية التى تتغير فى اليوم ألف مرة .

والبدو يتفرقون فى الشجاعة على الحضر حيث الشجاعة ضرورية لهم ، لأن مدار حياتهم يعتمد فى البداية على القوة . ومن طباعهم كما هو من طباع الحضر اعتبار المحافظة على الروح والمال من اعتداء المعتدين ضرورة حياة . ويجدون لزاماً عليهم كما سبق أن ذكرنا أن يحموا أطفالهم وعيالهم وأموالهم وأمتعتهم من تعدى المعتدين ؛ حيث العزلة والتجول فى الصحارى وبين التلال والجبال تدفعهم إلى ذلك .

وعلى هذا فالبدوى يتنقل وهو مسلح ، ومستعد ليلاً ونهاراً لمواجهة الأحداث التى تسبب له ضرراً أو خسارة .

وقد اتخذ هذا الرأى وذلك الفكر مكانه لدى البدوى العربى ، دون أن يكون فى ذلك احتمال لتعديل أو تغيير .

ومن الحالات التى تحير العقول فى البدو وينبغى النظر إليها بإنصاف (أنهم يتحملون الجوع والعطش أياماً ، ويقطعون مسافات طويلة جداً بسرع دون توقف . ويظهرون من الشجاعة والقوة ما يظهرون فى الحروب والمنازعات لأنهم قد اعتادوا على الحرب والقتال منذ الصبا) .

والبدو لديهم غيرة تجاوز الحد ، حيث لم يطرأ على بداوتهم خلل منذ نشأتهم إلى اليوم يقاتل بعضهم بعضاً ، وعندما يصادفون فى أثناء تنقلهم وتجوالهم مالا يأخذونه ، ويصيبهم الغرور ، ويضربون العربان والقوافل التى تعتدى عليهم ، وينهبون أموالهم وماشيتهم قهراً وجبراً ويغيرون عليها ويقضون على كل من يتعرض لهم من بينهم .

وتشتكى قبائل العربان إلى أمرائها ومشايخها من الأشخاص الذين يغيرون على أموالهم وأمتعتهم وحيواناتهم وينهبونها . وإذا حدثت شكوى من اعتداء اللصوص وظلمهم ، فلن يوجد هناك شيخ يستمع إلى الشكوى ويحق الحق .

وحتى الآن فإنهم إذا هاجموا أى بلدة ليلاً وغلبوا أهلها واعتدوا عليهم ، فإن الحماس يأخذ المساكين على أموالهم وأمتعتهم التى نهبت ومنازلهم ومآويهم التى خربت .

تشرفت كافة قبائل العرب بالإسلام فى أيامها السعيدة ، وتخلت عن أخلاقها الذميمة التى كانت تتصف بها فى الجاهلية ، وتمسك العرب بطريق السلامة والأمان ، وقطعوا مسافات فى

الجهاد فى غزواتهم ، وفتحوا بلاداً كثيرة شرقاً وغرباً ، وتمسكوا بسيف الجلد ، وسطروا صفحات أيامهم بشهامة عالية . ومع ذلك ارتد معظمهم إلى الجهالة التى كان عليها أجدادهم بعد انقراض الدولة العباسية يا أسفا ، وعادوا إلى أحوالهم الذميمة وتخلوا عن التعامل بأحكام الشريعة ، واستهانوا بأصول الدين الذى يرتب مجموعة قوانين العربان وأنظمتهم وينظمها .

إنهم الآن يسيرون على الأحكام السخيفة للأنظمة والقوانين العربانية التى نظمت فى ذلك الوقت . وسنفصل أصول هذه القوانين والأنظمة إن شاء الله تعالى فى الباب السادس .

الفصل الثالث

الملوك الجبابره الذين حكموا منطقة جزيرة العرب
قبل ظهور الإسلام

ملوك عاد الأول :

كانت (حضر موت ، وشحر) دار الملك لملوك عاد الأول . وكانت قبائل العرب القاطنة فى صحارى الأحقاف الواقعة بين بلاد اليمن وممالك عمان فى ذلك الوقت . هى أقوامهم ورعيتهم .

وتاريخ ظهورهم سنة ٢٥٠٠ قبل الخليقة وانقراضهم سنة ٣٠٤٤ . وبلغت مدة سلطتهم ٥٤٥ سنة .

وأولهم عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح (عليه السلام) . وثانيهم وثالثهم شديد وشداد بن عاد بن عوص .

ويروى أن شداد بن عاد نشر تبعته جميعاً فى صحراء عدن وهو معهم ، لأنها نظير الجنة ، وتوجه إلى قصر إرم ، وقبل أن يصل إليه بيوم واحد ، هلكوا بصيحة سماوية ، واندثروا تحت التراب جميعاً .

ويذكر بعض المفسرين أن الآية الكريمة التالية نزلت بخصوص القصر المذكور . وهى : ﴿**إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد**﴾ . ومع أن المؤرخ ابن خلدون يذكر أن هذه الآية الكريمة نزلت بخصوص (قبيلة إرم وليس (قصر إرم) ، إلا أن الروايات الموثوقة تذكر أن الله سبحانه وتعالى يريد بقوله الكريم هذا اسم المكان الذى سكنت فيه قبيلة إرم ، حيث تنسب إلى إرم بن سام بن نوح (عليه السلام) جد قوم عاد .

أرسل الله سبحانه وتعالى هود بن شالخ بن ارفشحد بن سام بن نوح (عليهما السلام) إلى قوم عاد نبياً ، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام . ومع أنه دعاهم إلهداية ، إلا أنهم يقبلوا دعوته . وتجرأوا على الحق فى علاه بافتراءات عديدة ، وكانت العاقبة أن ابتلوا بقحط عظيم نتيجة لعدم سقوط المطر ، وأصبحت نساؤهم عواقر . وأهلكهم ريح عاصف قبل الهجرة بـ

١٣٧٢ سنة . أما الذين آمنوا منهم فقد نجوا ، على الرغم من أن عددهم كان قليلا جداً .

ورحل هود إلى الدار الباقية بالقرب من حضر موت وهو في الأربعين بعد الأربعمائة من العمر .

صاحب السنور:

توطن لقمان وقوم ثمود وهم من طائفة عاد الأول في حجر وادى القرى الواقع بين الشام والحجاز .

وعصى قوم ثمود الساكنون في حجر وادى القرى بعد هلاك قوم عاد ، وأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم صالح (عليه السلام) رسولا ، لأنهم عبدوا الأصنام التى صنعوها بأيديهم معصية لله وطغوا فى الأرض وبغوا .

أمر صالح بدعوة قوم ثمود ، أيام حكم (جندع) الذى تولى بعد عابر بن آدم بن ثمود .

كان صالح بن عبيل بن آسف بن شامخ بن عبيل بن كاثر بن ثمود يسكن فى أطراف عدن ، وكذلك كان ثمود بن عابر بن إرم بن سام . وقد ذهب صالح إلى أرض الحجر التى كان يسكن فيها قوم ثمود لكى يدعوهم إلى الدين طبقاً لأمر الله . وخاطبهم داعياً إياهم إلى الدخول فى دين الحق ، قائلا : (لا تنسوا الله وأنتم تعيشون رغداآمنين من كل شىء فى أماكن هادئة أمينة ، تقضون أيام الصيف فى أماكن مريحة وتقضون أيام الشتاء فى الجبال . لقد تناسيتم نعمة الجليلة ، وهذه علامة من علامات العصيان وأثر من آثار الطغيان . فاتركوا ما أنتم عليه من ضلال واشكروا الله على نعمه ، لئلا يهلككم بعذاب أليم) .

أسلم بعض الثموديين الذين وقع عليهم الزجر من عبدة الأوثان وأصحاب البغى والضلال ، وأنكر بعضهم رسالة صالح قائلين له : (إنك تنهانا عن عبادة الآلهة التى وجدنا آباءنا يعبدونها من قديم الزمان) . وأزعجوه وآذوه ، وبدأوا يستهزئون بالذين أسلموا و (يسومونهم سوء العذاب) . وكانوا أحياناً يخرجون أصنامهم إلى الصحارى بقصد امتحان صالح ، الذى ماكان يعترض على ذلك ، ويقول لهم فى كل مرة يخرجون فيها أصنامهم إلى الصحارى : اطلبوا من أصنامكم ما تحتاجون إليه . إلا أن الأشياء التى طلبوها لم تظهر لهم وترى رأى العين ، فكانوا يقولون لصالح : (أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة حاملا ذات وبر) . ولما دعا النبى المشار إليه ربه . صرخت النساء وأنت ووضعت كل ذات حمل حملها عندما رأت الصخرة تتحرك ، ثم انشقت وخرجت منها الناقة التى أرادها قوم ثمود ، إلا أن الثموديين رغم ذلك لم يؤمنوا .

وفى النهاية كلف صالح طبقاً للوحى الإلهى ، بتوصيل الماء الموجود فى قصبة (ثمود) إلى الناقة يوماً وإلى حيوانات قوم ثمود يوماً آخر . وقد تقبل الثموديون هذا العمل منه وارتاحوا له . إلا أنهم تمادوا فى غيهم . وتعهد تسعون شخصاً من رؤسائهم بقتل صالح والمؤمنين التابعين له . لقد ترددوا فى قبول أمر الدعوة والهداية وبغوا فى الأرض . وقد تردد صدى مهيب ووقع زلزال رهيب بعد ثلاثة أيام من تجرئهم على تحذير الناقة المذكورة وقتلها ، وسقط جميع الذين لم يسلموا على وجوههم وهلكوا عن آخرهم ، وتعاقب هلاك الثموديين ، وهاجر صالح إلى فلسطين وبعدها إلى مكة المكرمة مع أتباعه الذين آمنوا بنبوته . ثم رحل إلى الدار الباقية وهو فى سن الثامنة والخمسين .

ويروى أن قوم عاد الأول كانوا جميعاً فى عصرهم عظيمى القوة والقدرة أقوياء جبارين عنيدين .

ملوك اليمن :

تفرق أبناء نوح (عليه السلام) فى أقطار العالم المختلفة بعد حادثة الطوفان الأليمة . واتخذ كل منهم مكاناً للسكنى والمأوى ومعه أتباعه . فسكن عابر ابن هود (عليه السلام) وقحطان أيضا منطقة اليمن . وجعل كل واحد منهم من نفسه سلطاناً مستقلا هناك سنة ٣٠٩٥ قبل الهجرة .

وأصل اسم قحطان هو (برد) ، وقد لقب بـ (قحطان) ، نظراً لأنه خلص الناس زمن القحط من المحن بإطعامهم وسقياهم .

وأصبحت منطقة اليمن منذ ذلك الوقت آهلة بالسكان ومعروفة على أنها منطقة شاسعة تسكنها سلالة قحطان . وقحطان هذا ـ كما أشرنا فى بحث العرب العاربة ـ هو ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح (عليه السلام) .

وحتى مجىء (حمير بن سبأ) فى منطقة اليمن الواسعة ، فقد أطلق اسم (الملوك الحميرية) على ملوك (القحطانيين) الذين تولوا الحكم وكذلك على (حارث الرأس) ، ثم أطلق عليهم (الحميرية) و (التابعة) فى نفس الوقت .

و (تبع) معناها كثير الأتباع ومطاع . وهذا اللقب ينحصر فى الملوك الذين ملكوا ولايات حضر موت وسبأ وحمير .

وهناك روايات عديدة عن تاريخ ظهور ملوك اليمن وانقراضهم ومدة سلطتهم وعدد

نفوسهم . وطبقاً لأقوى الروايات فإن ملوك اليمن ظهروا سنة ٣٠٤٤ وانقرضوا سنة ٦٠٩٢ .

وإذا فرضنا أننا نوافق على هذه الرواية ، فإننا لن نجد تاريخاً صحيحاً نعتمد عليه فى تحديد عدد من جلسوا على العرش ، إذ كانت مدة سلطنة ملوك اليمن قد بلغت ٣٠٤٨ سنة .

وبعد انقراض الملوك الحميرية استولى على منطقة اليمن أربعة من حكام الحبشة . ظهروا سنة ٦٠٩٣ وانقرضوا سنة ٦١٦٥ ، وعلى هذا فمدة سلطتهم تبلغ ٧٢ سنة .

وبعد ذلك قام (أبو مرة سيف) من نسل الملوك الحميرية بالاستيلاء على اليمن بمساعدة ملك كسرى . ولكنه قتل من قبل الأحباش[1] بعد تاريخ استيلائه عليها بخمس عشرة سنة فى رواية أو بأربع سنوات على حد رواية أخرى . وبعدها لم يتمكن أحد من نسل حمير أن يحكم منطقة اليمن . على الرغم من أنه قد ورد فى مجموعة من الروايات أن أهالى كل ناحية اختاروا عليهم شخصاً من آل حمير ، فإنهم حكّموا كملوك الطوائف . وتذكر رواية أن ملوك الفرس حكموا منطقة اليمن منذ قتل أبو مرة سيف حتى ظهور الدولة الإسلامية .

وتعتبر الرواية الثانية أقرب إلى التصديق من الرواية الأولى ، حتى أن الولاة الذين عينوا من قبل الأكاسرة سموا (المرازبة) .

كانت منطقة اليمن تعتبر دار الملك بالنسبة للملوك المرازبة الذين بلغ عددهم ثمانية أفراد فقط . بدأ ظهورهم قبل الهجرة بأربعة وأربعين عاماً ، وانقرضوا بعد الهجرة بعشر سنوات . وبلغت مدة سلطتهم ثلاثة وخمسين عاماً .

وهذه الرواية صحيحة ، فقد كان (بازان بن ساسان) أحد ملوك المرازبة حاكماً على اليمن حتى بعثة النبى ﷺ . ولما اهتدى ودخل الإسلام فيما بعد ، أبقاه الرسول ﷺ فى حكومته ، ثم توفى فى السن العاشرة للهجرة ، فولى النبى ﷺ ابنه شيرين على بعض المناطق فى اليمن . وقد ارتفعت منزلته بين الأهالى .

كانت صنعاء عاصمة لملوك حمير والتبابعة . وكانت مدينة مأرب على بعد ثلاث مراحل من صنعاء .

وتقع بلدة مأرب الشهيرة فى نهاية جبال حضر موت ، وفى أيامنا هذه توجد فى منطقة غير مأهولة بالسكان . وتعتبر ديار سبأ أيضاً فى مناطق خالية . وسوف نتحدث فى الاستطراد التالى عن سد مأرب الذى يقع فى هذه الديار .

* * *

---

(١) يطلق اسم (الجيش) فى تواريخ العرب على السودانيين فى ذلك الوقت وليس على الأثيوبيين .

استطراد

سد مأرب ـ العرم ـ سيل العرم

تحيط الجبال ببلدة مأرب الشهيرة ، ويطلق على السد العظيم الذى بنى بين جبلين شاهقين لحماية الوديان من السيول (سد مأرب) . ويقال للمنطقة التى يتجمع فيها الماء وراء هذا السد (العرم) . ويطلق اسم (سيل العرم) على بلاد سبأ التى خربتها السيول ودمرتها عندما انهار سد مأرب .

وبلدة مأرب مدحت فى القرآن الكريم وأطلق عليها (بلدة طيبة) ، وهى تبعد ثلاث مراحل [١] عن صنعاء اليمن ، وتقع فى مكان ممتاز وطقسها لطيف جداً ، وهو أثر من آثار (سبأ بن يشجب) .

والسيل العظيم الذى يقال له : (العرم) انفجر من جبال بلاد اليمن وطغى على هذه البلاد الجميلة ، انهمر من الجبال إلى أسفل وعمر سبعين جدولا صغيراً كبيراً ، فأصبحت الجداول كالبحار فى ضخامتها .

أنشأ سبأ بن يشجب سالف الذكر وأولاده وأحفاده بلدة مأرب فى الأصل ، وسكنوا فيها . ولما كانت فى أوائل عهدها قرية صغيرة فى العادة فقد هجروها فيما بعد أبناء أولاده وأولاد أحفاده ، لأن الوادى الكبير لم يستوعبهم . فانتقل قسم منهم بسبب الكثرة العددية إلى أطراف البلدة المذكورة واهتمت كل بطن من بطونهم باختيار المكان المفضل لديها ، وبنت قصبات وقرى جميلة جداً . وقد بلغت القرى والقصبات التى بنوها فى فترة قصيرة ٤٧٤٠ قرية وقصبة طبقاً لما ورد فى كتب التاريخ .

وتتصل القرى والقصبات التى أنشأها أبناء سبأ وأحفاده بصنعاء اليمن من ناحية وبحدود

---

(١) المرحلة هى المسافة التى يستطيع الإنسان أن يقطعها بين موضعين فى اليوم وهو يسير سيراً متوسطاً . ويقدر الزمن الذى يقطعه فى المرحلة بثمانى ساعات .

(Mehmel Tekj Pakalin Osmanli Deyimleri .
Ve Terirnleri Sozlngu. cilt 2, S.481) المترجم

الشام من ناحية أخرى ، وتبعد كل قرية عن الأخرى من داخلها ، ذلك أن الوادى الذى بنيت فيه هذه القرى فسيح ومنبسط تماماً . ويمكن للإنسان إذا خرج إلى الطريق صباحاً أن يصل من قرية إلى أخرى فى ست ساعات وهو يسير سيراً متوسطاً . والحركة ذهاباً وإياباً بين هذه القرى والقصبات ليلا أو نهاراً مأمونة وميسورة ، لأن الطرق والموارد فى مأمن من كل أنواع المخاطر . ولما كانت الطرق نظيفة من الحشرات والزواحف الضارة المؤذية كالعقارب والحيات ، فإن القرى والقصبات كانت تخلو من القمل والبراغيث والحجارة . وكانت القمل والبراغيث تهلك عندما نصل إلى حدود ممالك سبأ . إذا وجدت لدى المسافرين القادمين من البلاد الأخرى .

كانت الطرق التى تربط بين كل قرية وأخرى وكل قصبة وأخرى أو بمعنى آخر الطرق التى تربط بين كل النواحى فى بلاد سبأ مزروعه على جانبيها بالرياض والبساتين . وكانت هذه الرياض والبساتين مزدانة بأنواع من الزهور والفاكهة . وكانت هذه الزهور والفاكهة من الكثرة بحيث كانت سيدات القرى يحملن السلال على رءوسهن ويفتلن بأيديهن الحبال ، ويتجولن تحت أشجار الفاكهة . ويهززنها ثم يجمعن الفواكه الجميلة المتنوعة المتساقطة فى سلالهن ويعدن إلى المنزل .

وإذا كان من الطبيعى أن يرد بالخاطر احتياج هذه الرياض والبساتين إلى مياه كثيرة ، فإن نهر العرم الذى مر ذكره آنفاً يجرى قرب بلدة مأرب ، وتتفرع من أطرافه الأربعة الجداول والقنوات التى تسقى هذه الرياض والبساتين . وعليه فإن طقس ديار مأرب ممتاز ، والخضرة بها تضفى على كل أنحاء الديار جمالا أخاذاً . أما عن المدينة المذكورة فقد امتلأت بالعمران واتصلت فيها الرياض والبساتين يميناً ويساراً .

وقد أصاب الضعف والوهن أسس العقائد لدى أهل مأرب ، فنادو ربهم عميم النوال لكى يمنحهم من لطفه وكرمه ويكلأهم بعنايته الإلهية ، قائلين : (إذا انهمر المطر ، وفاض نهر العرم عن مجراه ، وغمر رياضنا وبساتيننا ، خربت ممالكنا وحلت بنا المصائب والأهوال ، وإذا دمرت مزارعنا وبساتيننا ، فكيف يكون حالنا ؟ ! (فتقت هذه المحنة الأذهان وولدت الطاقات بسبب القلق الذى ساد الناس ، فقام سبأ بن يشجب . وفى رواية أنه نعمان بن عاد أو ملك لا يعرف اسمه من أحفاد سبأ ، وبنى سداً منيعاً يمتد عدة فراسخ [1] طولا وعرضاً أمام

---

(١) كلمة فرسخ معربة عن الفارسية (فرسنك) . وتقدر بمسافة ثلاثة أميال أو خمسة آلاف متر ، التى يقطعها الإنسان فى أربع ساعات . (شمس الدين سامى : قاموس تركى و ص ٩٨٩) المترجم .

نهر العرم لحماية بلاد سبأ من خطر السيل الجارف ، وأنقذ أهالى مأرب من الوهم الذى كان يستنفذ طاقتهم .

اختلف المؤرخون فى تحديد بنى سد مأرب ، وأوردوا روايات متناقضة عن طول هذا السد وعرضه وقوته وضخامته .

ذهبوا إلى أن نعمان بن عاد هو الذى بناه ، وقالوا : (كان طول السد المذكور اثنتا عشر ألف خطوة . وقاعدته تمتد فى ثاثين موضعاً) . وقالوا : إن سبأ بن يشجب هو الذى بناه ، وأشاوروا إلى أن عدة حكام توارثوا العرش ابتداء من بدء العمل فى السد حتى إكماله ، قائلين : (ألقى سبأ بن يشجب أساس سد العرم ، وأمر بجمع سكان سبعين وادياً كبيراً لإتمام بنائه فى وقت قصير ، لأنه أدرك أن العمر لن يمتد حتى يتم بناء هذا السد الضخم . ولما مات قبل أن يتم البناء كما توقع ، لم يتوان ملوك حمير ـ الذين ورثوا الملك بعد وفاته ـ عن إكمال عمليات البناء ، فتمت فى عهدهم) .

والرواية الثانية ترجح الروايات كلها ، فعهد ملك واحد لا يكفى لإنهاء عمليات بناء مثل هذا السد الضخم ، إذا وضعنا فى الاعتبار أعمار البشر .

أسس السد بين جبلين ووضعت فيه صخور ضخمة ألصقت ببعضها بالقار ، وقسم إلى أقسام فى كل قسم منه مزاريب عالية ومنخفضة . ومع أن بعض الأماكن فيه أصابها التآكل ، إلا أن الملكة (بلقيس) ـ وهى من سلالة ملوك التابعة ـ التى ورثت حكم بلاد سبأ وتشرفت بالزواج من سليمان بن داود عليهما السلام ، أمرت بترميم تلك الأماكن ، وجعلت السد يبدو فى صورة محكمة تماماً . وفتحت فيه منافذ واسعة جداً ، وأنشأت فوق كل منفذ ثلاثة أبواب ، وكانت كل الأبواب متينة ومحكمة .

كان أهالى مأرب يفتحون باباً من هذه الأبواب التى بنتها بلقيس كل عام ، بمعنى أنهم كانوا يفتحون الباب الأول فى سنة والباب الثانى فى السنة التى تليها والباب الثالث فى السنة التى بعدها . وكانوا يوزعون هذه المياه التى تجرى من الأبواب على جداول مرتبة ، ويروون الم زارع والبساتين بالمياه التى تحتاج إليها .

وبعد أن عمرت بلقيس سد مأرب . زاد العمران فى بلاد سبأ ، وعاش أهاليها فى النعيم وازدادوا فيه درجات من يوم لآخر ومالوا لحياة الترف والنعيم فى الرياض والبساتين ، وازداد كبرهم وتعاظمهم على مر الأيام ، لأن قراهم وقصباتهم ازدانت بالأشجار النفيسة المتنوعة على جانبى الجدلول التى شقت فيها ، وظهرت عليهم بوادر الكفر والطغيان ، كما ورد فى القرآن الكريم باهر البرهان ، وازدادوا سوء . وكان لزاماً على هؤلاء أن يشتغلوا بالعبادة

ويطيعوا الله ، وقد ارتووا ليل نهار بالكرم الربانى الذى لا حدود له وكلأتهم عناية الله بفضله كما لم يحدث إحسان بهذا القدر على أهالى مملكة من الممالك ، ولكن العكس قد حدث . فقد انهمكوا فى أنواع من الشرك والفساد فحقت عليهم كلمة القهار .

ومع أن الله سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين بكمال لطفه وكرمه ورحمته قد أرسل لأهالى سبأ ثلاثة عشر رسولا متعاقباً لهدايتهم إلى طريق الصواب ، فقد آثروا الشقاء الأبدى على السعادة السرمدية . وكان هؤلاء الرسل يقولون لهم : (أيها الأهالى القاطنون فى مأرب الشبيهة ببلاد الفردوس !! لقد من الله تعالى عليكم بإحسانه ، فأصبحتم تأكلون وتشربون من نعمة الوافرة ، فحثوا أنفسكم على شكره تعالى ! إن بلادكم تشبه رياض الجنة ! وكثرة شكركم لله على نعمة تكون سبباً فى ازدياد نعم الدارين ، لأن ربكم موصوف بكمال الغفران. أما إذا امتنعتم عن اتباع أوامر الله ، فإن سد العرم سيتهدم ويغرقكم ويفنيكم) . لقد تلقوا وصاياهم ونصائحهم باستهزاء وسخرية تامة . ولم يتركوا أعمالهم السيئة التى توجب العار وتستوجب العقاب والعذاب فى الدنيا والآخرة . لم يكن قرب قراهم وقصباتهم بعضها من بعض بهذا القدر مصدر سعادة لهم ، فطلبوا من ربهم كما جاء فى التنزيل العزيز :

« فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » . أى أنهم طلبوا أن تبتعد قراهم وقصباتهم عن بعضها البعض. فقال الأنبياء المشار إليهم : (لو أن الله تعالى سلط على هذا السد الفئران ، لتخرب)، وكان هذا مبعثاً لتخريب البلاد وتدميرها . فلو أراد الله تعالى أن يندرس السد المذكور . لسلط الفئران عليه ، فثقبوه وأوشك على الانهيار . فقال الناس : سنسلط القطط على الفئران لكى تدافع عن السد . وإذا كانوا قد ربطوا عدة قطط عند حافة سد مأرب ألجأهم إلى هذه الفكرة تفكيرهم السيىء ، فقد ظهر قضاء القهار الأزلى بخصوص بلاد سبأ . ولم تفد الاحتياطات الفائقة ولا سعى أهالى مأرب واجتهادهم ، فقبل بعثة محمد ﷺ بأربعمائة عام تقريباً أى فى عهد عمرو مزيقيان أحد حكام اليمن ، سالت مياه السد التى تجمعت على حد ما جاء فى الأخبار المتواترة عن الأنبياء المشار إليهم وأغرقت ديار سبأ ومحتها ، فاضطربت حياة أهلها ، وصارت أخبارهم على ألسنة الناس مثلا .

وعلى فرض أنه كان لدى أهالى مأرب علم مسبق بالبلاء قبل وقوعه ، فما كان فى إمكانهم إنقاذ أنفسهم . والخلاصة أنه ذات ليلة ظهر كثير من الفئران متوسطة الحجم من قطة فجأة ، ولم يكن أحد على علم بذلك من قبل ، فتصور الأهالى أن قضاء الله وقدره سوف يدافع عنهم بسرعة ، ولكن هيهات . خافت القطط من الفئران وهربت ، فقامت الفئران بثقب سد مأرب ، وهدمت السيول ذلك السد المنيع على الفور . غرقت بلاد سبأ كلها من هجوم سيل

العرم ، لأن القادر المطلق أراد أن يتجلى انتقامه فيهم . واجتثت أشجار الرياض والبساتين من جذورها ، وتخربت في لمح البصر أربعة آلاف وسبعمائة قرية وقصبة ومحيت من على الأرض ، وأصبح المكان قاعاً صفصفاً .

ولم يبق شيء في هذه الرياض والبساتين الجميلة سوى بعض الأشجار البرية كالأرز وشجر الطرفاء والنباتات التي لا تصلح للأكل .

ملوك الغساسنة :

تفرق أكثر أهالي منطقة اليمن الواسعة في الممالك الأخرى بعد وقوع سيل العرم . ومن جملة ذلك ، أن قبيلة (بني أزد) وهي من نسل (كهلان ابن سبأ) وضعت رحالها في أطراف الشام الشريف حول مياه تدعى (غسان) ، واشتهرت بهذا الاسم . واهتمت هذه القبيلة بالاستيلاء على منطقة الشام الشريف الواسعة كلها ، وشكلت لنفسها حكومة ملوك الغساسنة . وهاجر فريق منهم إلى ديار بكر ، وأسسوا لأنفسهم السلطنة الخاصة بملوك (كندة) .

ومن المعروف أن ملوك الغساسنة يطلق عليهم أيضاً (آل جفنة) ، وقد ظهروا قبل الإسلام بخمسمائة سنة ، وكانت الشام دار ملكهم في الغالب . واستمرت مدة سلطنتهم ٦٠٠ سنة ، وبلغ عدد أفراد سلاطينهم الذين تولوا الحكم في هذه الفترة ٣١ فرداً ، حكموا جميعاً تحت ظل حكم قياصرة الروم . وإذا كانوا على قدر من القوة في ظل هذا الحكم ، فقد حل بسلطنتهم الوهن والخلل في نهاية الأمر ، وانقرض حكمهم في السنة السادسة عشرة للهجرة .

دخل (جبلة بن الأيهم) وهو من فروع ملوك الغساسنة في الإيلام في عهد عمر الفاروق (رضي الله تعالى عنه) ، ثم حج البيت في مكة المكرمة . وفي أثناء الطواف احتد على شخص من عرب قبيلة فزارة داس على طرف ثوبه دون قصد ، ولطمه فتكسرت بعض أسنانه . وكان من نتيجة ذلك أن رفع المضروب شكواه إلى الخليفة العادل مطالباً بحقه . فاستدعى الفاروق الطرفين وحكم بالقصاص من جبلة بن الأيهم أو أخذ الدية منه إرضاء للمضروب . فاستهجن ابن الأيهم هذا الحكم الشرعي الذي صدر عن الخليفة المشار إليه ، ولام الفاروق وعاب عليه موقفه الذي يتسم بالإنصاف لشخص عادي . ولاحت عليه علامات الغضب والحدة ، وقرر العودة إلى منزله وإلى ديار الروم ليلا ، بعد أن حصل على

تصريح منه . وبعد أن عاد ارتد إلى دين الباطل القديم ، ومارس أعمال الكفر والعصيان والظلم .

المناذرة (آل منذر) :

يعتبر ملوك المناذرة من أهالى اليمن ومن أبناء كهلان بن سبأ . وقد هاجروا من بلادهم بعد وقوع سيل العرم كالغساسنة تماماً ، ووصلوا إلى مكة المكرمة ، ثم انتقلوا إلى (الحيرة) وأسسوا لهم فيها مملكة .

كانت الحيرة القريبة من الكوفة دار ملك المناذرة الذين كانت دولتهم وسلطنتهم أكبر من دولة وسلطنة ملوك العرب . وقد سموا (ملوك الحيرة) نسبة إلى المكان الذى اتخذوه عاصمة لهم ، كما أطلق عليهم (اللخميون) أحياناً .

ومع أننا لا نستطيع بالقطع تحديد عدد الذين تولوا الحكم من المناذرة ، إلا أن مدة سلطنتهم بلغت ٦٢٢ عاماً . بدأ ظهورهم قبل الهجرة بـ ٥٦٢ عاماً ، وانقرضوا بعد ١٢ سنة من الهجرة .

بنو جرهم :

ينقسم ملوك الجراهمة الذين حكموا إقليم الحجاز إلى قسمين : يقال للأفراد الذين شكلوا القسم الأول : (الجراهمة الأول) ، أما القسم الثانى : فيطلق عليه (الجراهمة الثانية) . وحقيقة أحوال الجراهمة الأول مجهولة لأنهم عاشوا فى الفترة التى عاش فيها قوم عاد . أما الجراهمة الثانية ، فإنهم أهل عقل وحكمة كما يخبرنا التاريخ لأنهم من أبناء قحطان .

وجرهم الثانى أخو يعرب بن قحطان . وعندما كان يعرب حاكماً على بلاد اليمن ، اصطحب معه ابن عمه قطورا وأولاده وأتباعه وهاجر بهم إلى مكة المكرمة ، واختار الاستقرار فى هذه النواحى المقدسة ، ثم قضى مدة فى الخليج حاكماً هناك .

وقد بلغ عدد الذين حكموا فى الحجاز من بنى جرهم أربعة عشر فرداً ، اتخذوا من مكة المكرمة داراً للملك . ثم انتقلت الحكومة من ملوك الجراهمة إلى (بنى خزاعة) ، الذين خرج أجدادهم من إقليم اليمن برفقة قبيلة أزد واستولوا على إقليم الحجاز ، ثم حطوا الرحال فى مكة المكرمة ، وتوارثوا الملك أباً عن جد . ومع أنهم بلغوا بقوتهم وعزيمتهم أقصى مدى . إلا أن قصى بن كلاب من سلالة إسماعيل (عليه السلام) الطاهرة ومن كبار قبيلة قريش وحدة

قبيلته وتمكن بمساعدتها من إخراج (بنى خزاعة) من مكة المكرمة وطردهم وكسر شوكتهم وشتتهم .

وكان قصى بن كلاب جد نبينا (ﷺ) الأعلى أول من تولى الحكم من قبيلة قريش . ثم تولى أبناؤه من بعده ، وظلوا يدبرون حكومة مكة حتى ظهور الإسلام . ومع أن منطقة اليمن انتقلت إدارتها إلى ملوك إيران بعد ارتحال سيف حمير أى بعد انقراض ملوك طبقة العرب العاربة ، إلا أن عرب نجران تناصروا فيما بعد ، وطلبوا المدد من قيصر القسطنطينية ، فانتقلت المنطقة المذكورة إلى أيدى الأحباش بمساعدة كتيبة الإمداد التى وصلت من القيصر .

وبعد أن أستولى الأحباش على منطقة اليمن وحضر موت بمساعدة قيصر القسطنطينية رنوا بأبصارهم تجاه ممالك الحجاز . ومع أنهم أرسلوا فرقة كبيرة من الجيش إلى مكة المكرمة فى حياة جد الرسول (ﷺ) عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، إلا أن طير الأبابيل أهلكتهم[1] .

وبعد ارتحال سيف حمير ، لم يعد للملوك العرب حكم أو نفوذ فى جزيرة العرب . وإذا كان للبدو الذين يتجولون فى الصحارى والجبال أمراء من أولاد قحطان وحمير ، فإن حكم هولاء الأمراء لم يكن سائداً على أفراد قبائل متعددة . ولكنه كان سائداً على قبائلهم فقط ، مثلما كان الحال بالنسبة لشيوخ قبائل العربان فى ذلك الوقت .

مارس ملوك المناذرة (آل الحيرة) الحكم فى شمال شرق جزيرة العرب وفى نواحى العراق ، ومارس الأمراء من أخلاف ملوك غسان الحكم فى الشام . إلا أن أكاسرة العجم طالبوا آل جفنة (الغساسنة) وقياصرة الروم وآل الحيرة بدفع الجزية ، وكانوا يعزلون الولاة الذين يولونهم ويبدلونهم متى شاءوا .

وقد لاحت أنوار الهداية على العالم عندما انقرض ملوك العرب العاربة وامحوا . . صلى الله على محمد .

* * *

---

(١) قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طير أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾ (سورة الفيل) المترجم .

الباب الثانى

الأحوال السياسية بعد الإسلام وحتى أوائل الدولة السعودية الثانية

الفصل الأول

خلفاء المسلمين وملوكهم
الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد الإسلام

إجمال أحوال الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم :

جاءت بعثة الرسول الأكرم ﷺ ورسالته رحمة للعالمين ونعمة . وانتشرت أنوار وجوده على العوالم بديعة الآثار فى الثانى عشر من ربيع الأول الموافق ١٧ من نيسان أبريل سنة ٥٦٩م وعلى قول : سنة ٥٧٠ م . وعندما بلغ الواحدة والأربعين من العمر . تمت بعثته .

هاجر الرسول الكريم (عليه أكمل الصلوات والتسليم) فى السنة الثالثة عشرة لنبوته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وبعد أحد عشر عاماً لبى نداء ربه .

صادفت هجرة محمد (ﷺ) يوم ١٦ من يوليو سنة ٦٢٢ م . وقد بدأ منذ هذا اليوم تسجيل التاريخ الهجرى .

بلغت مدة نبوته ورسالته ٢٣ عاماً ، خلال عمره الذى امتد ٦٣ عاماً . وفى ظرف هذه المدة القليلة آمن أكثر قبائل العرب فى الحجاز واليمن ونجد والعراق وبعض المناطق الأخرى فى الجزيرة العربية برسالته بالتدريج . أى أن قبائل العرب فى الجزيرة العربية اهتدت إلى الإسلام وتركت الكفر والضلال والعصيان ، واكتسبت سعادة الدارين .

وإذا كانت بعض القبائل التى دخلت فى الإسلام قد ارتدت إلى جهالتها الأولى بعد رحيل المصطفى (ﷺ) ، فإنهم جميعاً قد عادوا للإسلام فى خلافة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) .

الخلفاء الراشدون :

تولى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) الخلافة فى السنة الحادية عشرة للهجرة [1] ،

---

(١) ذكر المؤلف هذا التاريخ وإن كنا نرى أن الصواب هو أن أبا بكر تولى الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ من هجرته عليه الصلاة والسلام الموافق يوم الأحد فى ٧ يونيو سن ٦٣٢ م (المترجم) .

ودامت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام ، وقضى من العمر ثلاثة وستين عاماً .

وبدأت خلافة عمر الفاروق (رضى الله عنه) فى السنة الثالثة عشرة للهجرة[٢] ، وبلغت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام ، وفى السنة الثالثة والعشرين للهجرة نال شرف الشهادة ، وكان عمره ثلاثة وستين عاماً .

وكانت خلافة عثمان ذى النورين (رضى الله عنه) فى السنة الثالثة والعشرين للهجرة . وقضى فى الخلافة اثنتى عشرة سنة حيث استشهد فى السنة الخامسة والثلاثين للهجرة ، وعمره فى الثانية والثمانين .

أما الإمام على (كرم الله وجهه ورضى عنه) فكانت خلافته فى السنة الخامسة والثلاثين للهجرة ، واستمر فى الخلافة أربع سنوات وتسعة أشهر ، حيث استشهد فى العام الأربعين للهجرة . وعمره ثلاثة وستين عاماً .

أطاع سكان جزيرة العرب عموماً الخلفاء الراشدين المشار إليهم وانقادوا لحكمهم لأنه كان يتصف بالعدل والاستقامة .

وبعد أن ظل الحسن (رضى الله عنه) فى الخلافة ستة أشهر بعد شهادة الإمام على (كرم الله وجهه) ، ترك الحكم لابن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية ، واختار العزلة ، ثم انتقل إلى الدار الباقية وهو فى السادسة والأربعين من العمر .

خلفاء بنى أمية :

ظهر خلفاء بنى أمية فى الحادى والأربعين للهجرة ، وانقرضوا فى العام الثانى والثلاثين بعد المائة من الهجرة ، وامتد حكمهم واحداً وتسعين عاماً ، وتولى فيها ثلاثة عشر خليفة ، اتخذوا من الشام الشريف عاصمة لهم .

وقد انضوى تحت حكمهم سكان جزيرة العرب عموماً وأطاعوهم منذ أن ظهروا حتى انقرضوا ، إلا أن (عبد الله بن الزبير) وحدة شق عصا الطاعة ، وحكم مكة المكرمة لمدة تسع سنوات .

وفى رواية أن يزيد بن أبى سفيان كان والياً على الشام الشريف من قبل الفاروق ، فتنازل عن الخلافة لأخيه معاوية (رضى الله عنهما) سنة ٢٠ هـ . ولما علم الفاروق بما حدث قبل تعيين ابن أبى سفيان تحاشياً لحدوث الاضطرابات والقلاقل .

---

(١) عهد إلى عمر الفاروق بالخلافة فى الاثنين ٢٢ من جمادى الأخرة سنة ١٣ هـ = ٢٣ من آب أغسطس سنة ٦٣٤ م (المترجم) .

وأبقى عثمان (رضى الله عنه) أيام خلافته على معاوية فى مكانه كوال على الشام ، ثم أدعى معاوية لنفسه بالخلافة بعد استشهاد عثمان مطالباً بالثأر كوسيلة لتولى الحكم . فأشعل نار الحرب مع على (رضى الله عنه) بجمعه لأهالى الشام وحلب ومصر وتحريضهم عليه[1] .

وإذا كانت الخلافة قد انتقلت إلى الحسن (رضى الله عنه) بعد استشهاد الإمام على (كرم الله وجهه) ، إلا أن معاوية بن أبى سفيان بادر بتشمير ساعد الجد لمقاتلة الإمام لإزاحته من طريقه . فترك الإمام دون سبب لمعاوية مسألة اختيار الخليفة حقناً لدماء المؤمنين .

وبويع يزيد بعد ارتحال معاوية . ولما يحدث اهتمام بالتبليغات التى يدعى فيها الحسين وعبد الله بن الزبير بأنه لا يصلح للخلافة ، هاجر ابن الزبير إلى مكة المكرمة ، وهاجر الإمام الحسين إلى الكوفة بناء على الدعوى التى حدثت .

وإذا كان أهل مكة قد بايعوا ابن الزبير على الخلافة ، فإن الإمام استشهد فى كربلاء ، وانتقل أكثر أولاده وأقربائه إلى جوار ربهم . وقد منع هذا الخبر السيئ أهالى الحرمين من مبايعة يزيد ، فجرد العساكر الكثيرة من الشام على مكة لمحاربة ابن الزبير ومعاوية . وبينما كانت هذه العساكر تحاصر مكة المكرمة ، وتحارب ابن الزبير ، انتشر خبر وفاة يزيد . فبايع جميع أهالى الحرمين عبد الله بن الزبير ، وانتقل بهذا حكم منطقة جزيرة العرب لابن الزبير وحده فى سنة ٦٤ هـ .

وبعد عامين خرج شخص يدعى المختار بن عبد الله الثقفى من قبيلة ثقيف فى العراق على رأس عساكر وفيرة مدعياً أنه يطالب بدم الإمام الحسين ، وتجرأ على الاستيلاء على الكوفة ، فعرض عليه كبار القوم هناك البيعة .

وإذا كان ابن عبد الله الثقفى قد قتل سبعين ألف رجل لقاء دم الحسين وانتقم بالطريقة التى تعجبه كما ورد فى كتب التاريخ ، إلا أن دعوى النبوة قد خامرته . فعين ابن الزبير أخاه مصعب حاكماً على العراق . وأرسل معه العساكر الوفيرة للتحرك على المختار . ولما علم المختار بذلك واجه جيش مصعب إلا أنه سقط قتيلا سنة ٦٧ هـ . فى أثناء دفاعه عن نفسه .

وبعد خمس سنوات خرج عبد الملك ـ وهو من خلفاء بنى أمية وأشهر أسلافه فى الظلم حتى من الحجاج ـ على رأس أربعين ألف جندى لمحاربة ابن الزبير ـ وبعد أن أدار كثيراً من

---

(١) بعد مقتل عثمان بن عفان حصلت البيعة لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وانتصر فى موقعة الجمل ، وجمع جيوشه لمحاربة معاوية بن أبى سفيان وإلى الشام لامتناعه عن مبايعته وحصلت بينهما وقعة صفين الشهيرة فى صفر سنة ٣٧ هـ ثم حدثت الخدعة المعروفة فى كل كتب التاريخ (المترجم) .

المعارك فى مكة المكرمة ، تمكن فى النهاية من نزع جزيرة العرب من ابن الزبير ، واستأصل شأفته سنة ٧٣ هـ .

ورفع بعض الخارجين فى الأطراف والأكناف راية العصيان فى عهد مروان بن محمد الأموى ، حتى أن شخصاً يدعى (عبيد الله يحى) ظهر فى حضر موت ، واستولى على منطقة الحجاز واليمن . وأقام لنفسه حكومة فى سنة ١٢٠ هـ استمرت سنة وأربعة أشهر .

قام مروان بطرد كل الخارجين فى عهده وإبعادهم من ملكه ، وخاصة عبد الله يحيى الذى شرده من منطقتى اليمن والحجاز . وإذا كان مروان قد قام ببعض الأعمال التى تؤكد قدرته وسطوته ، إلا أن هذا كله كان رهن الزوال . ولما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس ، قام أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ ببعض الأعمال التى تبرز قوته وسيطرته فى قرية سيفدنج ، بدعوى أخذ ثأر الإمام الحسين ابن البتول . فدعا أتباع الأمويين جبراً وقسراً لمبايعة أول الخلفاء العباسيين أبا العباس عبد الله السفاح . وأقدم على خدمة كبيرة للعباسيين بقتله من رفضوا بيعته دون هوادة .

بداية حكم العباسيين ونهايته :

ابتدأ حكم الخلفاء العباسيين فى ممالك العراق ثم امتد حتى شمل منطقة مصر الكبيرة . وقد بدأ ظهورهم سنة ١٣٢ هـ كما ذكرنا آنفاً ، وانقرضوا سنة ٦٥٦ هـ ، وبلغت مدة خلافتهم زهاء ٥٢٤ هـ عاماً . قضوا منها ١٢٠ عاماً فى النصر والفوز والقوة والغلبة ، والباقى وهو ٤٠٤ عاماً قضوها فى الانهيار والانحطاط والانكماش .

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون وعددهم ٣٧ خليفة ، بغداد داراً للخلافة ومقراً للسلطنة .

حكموا فى بداية ظهورهم القسم الأعظم من الممالك الإسلامية ، ثم استولوا على منطقة جزيرة العرب الهائلة بكاملها ، فانقادت لهم قبائل العرب بعامة ، وظهرت طائفة القرامطة الباغية سنة ٢٩٦ هـ ، فكسرت سطوة الدولة العباسية وصولتها وأورثتها الضعف والانحطاط ، ثم استولت على معظم الشام وحواليها ونزعتها منها .

وبعد أن استولى القرامطة على الشام ونزعوها من أيدى الخلفاء العباسيين ، وجهوا أنظار مطامعهم إلى منطقة مصر . ولما علم خليفة مصر بهذا الخبر أثارته الدهشة واعتراه الخوف والاضطراب ، ولم يتمكن من مواجهة القرامطة بجيش مصر . ولجأ مضطراً إلى العز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الذين ظهروا فى ديار المغرب ، وعرض عليه تسليم مصر القاهرة

له ، إن هو أوفى بوعده وأرسل مقداراً من الجنود . ولم يجد المعز لدين الله خبراً يسعده أكثر من هذا الخبر ، فأسرع بإرسال أحد قواده ويدعى جوهر القائد إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ .

وعند وصول جوهر القائد إلى مصر تهيأ على الفور لمحاربة القرامطة الذين كانوا قد تحصنوا فى القاهرة ، واستأصل هذه الطائفة . وضم البلاد المصرية بهذه الوسيلة إلى الممالك سنة ٣٥٩ هـ وقام بتأسيس مدينة القاهرة العظيمة وأنشأ الجامع الأزهر بناء على الأوامر التى تلقاها من المعز لدين الله ، وأنهى كل الأعمال المنوطة به . وانتقل المعز لدين الله وأولاده وأحفاده وأنسابه من المهدية إل الجيزة ، ثم عبر الجسر الذى أقامه جوهر القائد على النيل ، ونزل بالقصر الذى أقيم له خصيصاً فى مدينة القاهرة ، واتخذ من مدينة القاهرة الشهيرة مركزاً للخلافة سنة ٣٦٢ هـ .

كان المعز لدين الله شيعى المذهب ، يعتقد فى أحكام النجوم . وقد ظل يحكم مصر لمدة عامين اثنين وسبعة أشهر ، ثم انتقل إلى جوار ربع سنة ٣٦٤ هـ .

وقد أطلق على مدينة القاهرة اسم (المعزية) ، نظراً لأن المعز لدين الله هو الذى أعطى الإشارة لبنائها .

حكم خلفاء الفاطمين مصر فى سنة ٣٦٢ هـ ، وتركوا الحكم فى سنة ٥٦٧ هـ ، وبلغت مدة سلطتهم ٢٠٦ أعوام . وقد قرئ اسم الدولة الفاطمية على المنابر فى الحرمين الشريفين لمدة ١١٠ سنوات ، وقرئت الخطبة باسم الخلفاء العباسيين لمدة ٨٨ عاماً .

الدولة الأيوبية :

انتقلت السلطة إلى الأيوبين سنة ٥٦٧ هـ ، وظل الحكم بأيديهم متصلا إلى سنة ٦٤٧ هـ .

امتد حكم الأيوبين لمدة ٨٠ عاماً ، حكم خلالها عشرة خلفاء . اتخذوا من القاهرة عاصمة لهم ومقراً لحكمهم كما فعل الفاطميون من قبلهم .

ومع أنهم استولوا على معظم بلاد الشام وحلب ، إلا أن الخطب التى كانت تقرأ على منابر الحرمين لم تقتصر على ذكر أسمائهم ، بل تعدتها إلى ذكر أسماء الخلفاء العباسيين أيضا ، إظهاراً للحرمة والتبجيل .

الخلفاء العباسيون فى مصر :

عندما هاجم التتار أرباب السوء دار السلام بغداد ، وقضوا على الخلافة العباسية فيها ،

توجه الظاهر بأمر الله العباسى أحمد بن محمد إلى مصر . وبعد وصوله بثلاث سنوات بايع الظاهر بيبرس ملك مصر فى سنة ٦٥٩ هـ .

تولى أحمد بن محمد ظاهر بأمر الله وسبعة عشر من أولاده وأحفاده من بعده الخلافة فى مصر . وقد أدى هذا إلى أن تكون تصرفات ملوك مصر تصرفات صورية .

وانتهت الخلافة المعنوية للظاهر بأمر الله أحمد بن محمد وسلالته . باستيلاء السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٢ هـ[1] ، واستمرت مدة سلطنتهم هذه ٢٦٣ عاماً .

المماليك والجراكسة :

وقر المماليك الخلفاء العباسيين ويجلوهم ، وذكروا أسماءهم فى الخطب إلى جوار أسمائهم ، وسكوا العملة المتداولة وعليها أسماؤهم وأسماء الخلفاء العباسيين أيضاً . وكذلك سلك الجراكسة نفس المسلك . ثم تغلب ملوك الديالمة والسلاجقة على معظم هؤلاء ، وأخذوا الملك من أيديهم . ومع أنهم لم يتدخلوا فى أمور سلطنة الخلفاء الذين هاجروا إلى مصر ، إلا أنهم كانوا يرجعون إليهم من قبيل الرسميات وتعبيراً عن الاحترام ، ويتبعون آراءهم فى بعض الأمور . وقضى الخلفاء العباسيون فى مصر أيامهم تحت حكم ملوك مصر الذين سيأتى ذكرهم ، حيث لم يكن لهم نفس الاستقلال الذى كان لهم فى بغداد .

المماليك :

ظهر المماليك أوائل سنة ٦٤٩ هـ ، وانقرضوا سنة ٧٨٤ هـ . واستمرت مدة حكمهم ١٣٤ عاماً حكم خلالها ٢٥ سلطاناً ، اتخذوا من مصر القاهرة عاصمة لهم .

استولى هولاكو على بغداد فى عهد الظاهر بيبرس رابع سلاطين المماليك ، وقتل الخليفة المستعصم . وقد هاجر الظاهر بأمر الله العباسى أحمد ابن محمد إلى مصر كما مر ذكره ، فاستقبله الملك الظاهر بيبرس بكمال الاحترام وأعدله الترتيبات اللائقة به وصدق على خلافته .

الجراكسة :

ظهر الجراكسة سنة ٧٨٤ هـ . وانقرضوا سنة ٩٢٢ هـ ، واستمرت مدة حكمهم ٣٢ عاماً ،

---

(١) سنة ٩٢٣ هـ . وليست سنة ٩٢٢ هـ (المترجم) .

حكم خلالها ٢٤ سلطاناً . وقد سموا بالجراكسة نسبة إلى أحد المماليك الجراكسة الأحرار الذى استولى على مصر .

وقد بايع الجراكسة العباسيين الذين جلسوا على كرسى الخلافة فى مصر كما فعل المماليك ، وأنزلوهم منازل خاصة واحترموهم وقدروهم تقديراً بالغاً .

وإذا كانت مناطق الحجاز واليمن تابعة للممالك المصرية فى عصرى المماليك والجراكسة ، إلا أن بعض أجزاء جزيرة العرب لم تسلم من ظهور الخارجين ، سواء فى فترة الخلافة العباسية الفعلية فى بغداد أو الصورية فى مصر .

السادات الكرام :

ثارت فى أذهان الكثيرين من السادات الحسينية والأشراف الحسنية الذين يسكنون جزيرة العرب دعوى الاستقلال بها ، فأقدموا على الاستيلاء عليها ، لأن المماليك والجراكسة أظهروا لهم من واجبات الاحترام والتبجيل ما أظهروا . ولكن المماليك والجراكسة حالوا دون وصولهم إلى أغراضهم ومقاصدهم .

وعلى الرغم من ذلك ظهرت للسادات والأشراف المشار إليهم حكومات متعددة فى بعض المناطق بالممالك الإسلامية ، واستمرت حكوماتهم التى أقاموها فترة طويلة فى الأماكن التى سيطروا عليها . ويروى أن ملك المغرب الحالى ينحدر من هذه السلالة .

* * *

كيفية تشكيل ولاية مكة وتاريخه

إخطار:

أرسل سلطان الأنبياء (ﷺ) فى طلب أحد الصحابة الكرام ، ويدعى (عتاب بن أسيد أبى العيص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف) بعد فتح مكة المكرمة وعهد إليه بولاية المدنية المقدسة ، قائلا له : (أى عتاب . أتدرى على من وليتك ؟ لقد وليتك على أخص خلق الله) .

وهكذا خص سلطان الأنبياء أهل مكة بالحرمة والرعاية .

ظل عتاب بن أسيد والياً على مكة المكرمة حتى سنة ١٣ هـ دون انفصال ، وبعد انتقال الرسول الكريم (ﷺ) إلى جوار ربه ، أديرت المدينة بواسطة ولاية من قبل الفاروق وذى النورين فحيدر الكرار . وبعد ذلك عهد إلى عبد الله بن الزبير بإدارة المدينة المذكورة . وبعد وفاته تولى إدارتها بنو أمية . وعندما ظهرت الدولة العباسية عهد بإدارتها إلى دادو عم عبد الله السفاح .

والجدول التالى يبين أسماء الأشخاص الذين تولوا إدارة مكة المكرمة جتى ظهور إسماعيل بن الأخيضر بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على ابن أبى طالب فى سنة ٢٥١ هـ . ثم ألغيت الولاية فى السنة المذكورة ، عندما انتقل زمام إدارة مكة المكرمة إلى الأشراف والسادات ، وتلقب الأشراف الذين حكموها بلقب (أمير مكة) .

* * *

جدول بأسماء الذين تولوا إدارة مكة المكرمة

بداية الحكم	الأسماء	نهاية الحكم
٨	عتاب بن أسيد	١٣
١٣	نافع بن عبد الحرث الخزاعى	٣٥
٣٥	عبد الله الحضرمى	٣٧
٣٧	قثم بن العباس	٤٢
٤٢	خالد بن العاص بن هشام	٦٠
٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق	٦١
٦١	وليد بن عتبة بن أبى سفيان	٦٤
٦٤	عبد الله بن الزبير	٧٣
٧٣	الحجاج بن يوسف الثقفى	٧٥
٧٥	أبان بن عثمان بن عفان	٨٢
٨٢	هشام بن إسماعيل	٨٧
٨٧	عمر بن عبد العزيز	٨٩
٨٩	خالد بن عبد الله القسرى	٩٦
٩٦	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن الأسيد	٩٧
٩٧	داود بن طلحة الحضرمى	٩٨
٩٨	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن الأشيد	١٠٣
١٠٣	عبد الرحمن بن ضحاك بن قيس الفهرى	١٠٤
١٠٤	عبد الواحد النضرى	١٠٧
١٠٧	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل	١١٤
١١٤	محمد بن هشام المخزومى	١٢٦
١٢٦	يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى	١٢٧

بداية الحكم	الأسماء	نهاية الحكم
١٢٧	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز	١٢٩
١٢٩	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك	١٣٠
١٣٠	محمد بن عبد الملك بن مروان	١٣٣
١٣٣	داود بن على بن عبد الله العباس	١٣٤
١٣٤	يزيد بن عبد الله بن عبد المدان	١٣٨
١٣٨	عباس بن عبد الله بن سعيد	١٣٩
١٣٩	زياد بن عبد الله الحارثى	١٤٣
١٤٣	هيثم بن مناوية العتكى	١٤٤
١٤٤	سرى بن عبد الله بن الحرث بن عباس	١٤٦
١٤٦	عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس	١٤٩
١٤٩	محمد بن إبراهيم الإمام بن يحيى بن محمد . . بن على ابن عبد الله بن العباس	١٥٠
١٥٠	جعفر بن سليمان	١٥١
١٥١	عبد الصمد بن على	١٥٥
١٥٥	محمد بن إبراهيم الإمام	١٥٨
١٥٨	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس	١٦١
١٦١	جعفر بن سليمان	١٦٤
١٦٤	عبد الله بن القثم بن عباس	١٨٤
١٨٤	حماد البربرى	١٨٧
١٨٧	فضل بن عباس بن محمد بن على	
	عباس بن محمد بن إبراهيم	
	سليمان بن جعفر بن سليمان	

بداية الحكم	الأسماء	نهاية الحكم
	موسى بن عيسى بن موسى	
	عبد الله بن محمد بن إبراهيم	٧
	عبد الله بن القثم بن عباس	
	عبيد الله بن القثم	
	عبد الله بن محمد بن عمران	
	عبد الله بن محمد بن إبراهيم	
	عباس بن موسى بن عيسى	٧
	على بن موسى بن عيسى	
	محمد بن عبد الله العثمانى	
	أحمد بن إسماعيل بن على	١٩٤
١٩٤	داود بن عيسى بن موسى بن محمد . . بن على	٢٠٤
٢٠٤	عبيد الله بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على ابن أبو طالب	٢٠٩
٢٠٩	صالح بن العباس محمد بن على	٢٢١
٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على	٢٣٧
٢٣٧	على بن عيسى بن جعفر بن المنصور	٢٣٩
٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى	٢٤٢
٢٤٢	عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام الزينى	٢٤٥
٢٤٥	محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام الزينى	٢٤٩
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى بن محمد	٢٥٠
٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موساى شاشان	٢٥١

ظهور إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على ابن أبو طالب فى سنة ٢٥١ هـ .

تدارك :

كان الحكم فى المدينة المنورة تابعاً لولاية مكة المكرمة حتى وقت استقلال إسماعيل بن يوسف الأخيضر بالحكم . وكان ولاة مكة المكرمة يتخذون منها مقراً لهم أحياناً ، ويفوضون من قبلهم من يقوم بحكم المدينة بالوكالة . وأحياناً أخرى كانوا يتخذون من المدينة المنورة مركزاً لحكمهم ، ويرسلون وكيلا من قبلهم لإدارة الحكم فى مكة المكرمة .

والجدول التالى يبين أسماء الذين تولوا حكم المدينة المنورة بناء على هذه الأصول :

عهد هشام بن عبد الملك سنة (١٠٧ ـ ١٢٥ هـ) :

تولى : عبد الواحد بن عبد الله النصرى ـ إبراهيم بن هشام المخزومى ـ محمد بن هشام المخزومى ـ نافع بن علقمة الكنانى .

* * *

عهد يزيد بن الوليد سنة (١٢٥ ـ ١٢٦ هـ) :

تولى : يوسف بن محمد الثقفى .

* * *

عهد وليد بن يزيد (١٢٦ ـ الشهر الخامس من سنة ١٢٦ هـ) :

تولى : عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .

* * *

عهد مروان بن محمد بن مروان سنة (١٢٦ ـ ١٣٢ هـ) :

تولى : عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ـ عبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك ـ أبو حمزة الخارجى [١] ـ عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى ـ وليد بن عروة السعيدى ـ محمد بن عبد الملك بن قروان .

* * *

---

(١) استولى أبو حمزة الخارجى على مكة المكرمة بالقوة فى عهد عبد الواحد بن سليمان وفى عهد مروان بن محمد كلف عبد الملك بن محمد بقيادة القوات التى أرسلت لمحاربة أبى حمزة . فانتصر عليه وقتله . وانتيجه لذلك عهد مروان بن محمد بولاية مكة إلى عبد الملك مكافأة له على جهوده .

عهد أبو العباس [1] السفاح [2] سنة (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ) :

تولى : داود بن على بن عبد الله بن عباس ـ عمر بن عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن يزيد بن خطاب .

عهد منصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) :

تولى : عباس بن عبد الله بن معبد ـ زياد بن عبد الله الحارثي ـ هيثم ابن معاوية العتكى الخراساني ـ سرى بن عبد الله بن الحارث بن العباس ـ محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب [3] ـ سرى ابن عبد الله بن الحارث بن عباس ـ عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن عبد الله بن عباس .

* * *

عهد محمد المهدى بن منصور سنة (١٥٨ ـ ١٦٨ هـ) :

تولى : إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ جعفر ابن على بن عباس ـ عبيد الله بن قثم بن العباس ـ محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

* * *

عهد موسى الهادى بن المهدى سنة (١٦٨ ـ ١٧٠ هـ)

تولى : حسين [4] بن على بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن على ابن أبي طالب .

* * *

---

(١) ابتدأ من هنا عصر العباسيين . (٢) هو أبو العباس السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

(٣) عين محمد بن حسين بن معاوية المعروف بـ (النفس التركية) من قبل محمد بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبي طالب .

ظهر (النفس التركية) في المدينة بدعوى الخلافة سنة ١٤٥ هـ ، فبايعه العلماء الذين ينتمون إلى مذهبي أبي حنيفة ومالك . وقد أرسل محمد بن عبد الله إلى مكة كلا من محمد بن حسن وقاسم ابن إسحاق الذى عين والياً على اليمن ، فواجهها والى مكة سرى بن عبد الله عند شعب الأزاخر ، وهزماه . وعند هروبه تولى محمد بن حسن حكم مكة . ولما شاع بعد مدة من الزمن أن فرقة من العساكر أرسلت من بغداد تحت قيادة داود بن عيسى بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس ، أمر بالعودة إلى المدينة والخروج إلى الطريق . وقد وافته المنية عند وصوله إلى مرحلة يقال لها : (فيد) ، فمضى داود ، وعاد سرى بن عبد الله وتولى الحكم حتى سنة ١٤٦ هـ .

(٤) ظهر حسين بن على بن حسن المثنى في المدينة المنورة في أوائل سنة ١٦٩ هـ . ثم ذهب إلى مكة المكرمة مع الذين بايعوه وصدقوا على خلافته ، ولما علم موسى الهادى بالخبر أرسل أمراً بالدفاع إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس الذى كان ضمن قافلة الحج في ذلك العام . فالتقى محمد بن سليمان بحسين بن على في موقع يقال (الفخ) ، واستشهد مع مائة من أتباعه .

والفخ مكان قريب من حي الزاهر (الحالى) يروى أن النبى (ﷺ) وبعض أصحابه أقاموا فيه صلاة الجنازة ، حيث استشهد في نفس المكان عدداً من المسلمين .

عهد هارون الرشيد بن محمد المهدى سنة (١٧٠ ـ ١٩١ هـ) :

تولى : أحمد بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس [1] ـ حماد البربرى ـ سليمان بن جعرفة بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ـ عباس ابن موسى بن عبد الله بن عباس ـ عباس بن محمد بن إبراهيم الإمام ـ عبد الله بن قثم بن عباس ـ على بن موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ـ فضل بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ محمد ابن عبد الله بن سعد بن مغيرة بن عمر بن عثمان بن عفان ـ موسى بن عيسى ابن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس .

* * *

عهد محمد الأمين بن هارون الرشيد سنة (١٩١ ـ ١٩٨ هـ) :

تولى : داود بن عيسى [2] بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس .

* * *

عهد المأمون بن هارون الرشيد سنة (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) :

تولى : داود بن عيسى بن موسى ـ حسين بن حسن بن على الأصغر ابن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب) [3] ـ على بن محمد ابن جعفر الصادق ـ عيسى بن زيد

---

(١) أما الولاة الذين عينوا فى عهد هارون الرشيد ، فإن تاريخ تعيينهم غير مضبوط .

(٢) أضيفت إدارة المدينة المنورة إلى دادو بن عيسى . ولما أرسل عيسى ابنه سليمان إلى المدينة ، أحس أهاليها بأنه يفضل مكة عليها . فنادوا فى قصيدة بضرورة وجود داود فى المدينة . أما أهالى مكة فقد نادوا من جانبهم أيضاً بأن مكة أفضل من المدينة . إلا أن أحد أبناء بنى عجل القاطنين بجده رد بقصيدة أخرى أسكت بها الطرفين .

(٣) أبقى المأمون بن هارون الرشيد على داود بن عيسى فى ولاية مكة عند جلوسه على العرش . وتخوف من انتصار حسين بن حسن الأفطس ، ففصل المدينة المنورة عن إدارة ولاية مكة المكرمة ، لأن أهالى (سرى بن منصور الشيبانى) فى العراق دعوة وبايعوه بيعة أهل البيت ، فعين فى هذه الأثناء حسين الأفطس والياً على مكة ، واهتم بتوسيع دائرة الوفاق . وخرج حسين الأفطس من المدينة متوجهاً إلى مكة بناء على الرسالة التى تلقاها من سرى بن منصور . وعندما وصل إلى مكان يقال له : (سرف) ، علم بأن داود بن عيسى ترك مكة ، فدخلها بسرعة ، وتوجه على الفور ومعه الحجاج إلى عرفات ، وأدى فريضة الحج ثم عاد . ولما شاع فى هذه الأثناء أى فى سنة ٢٠٠ هـ أن سرى بن منصور قد قتل ، أراد أن يبايع محمد بن جعفر بالخلافة لشدة خوفه وفزعه . ولما لم يقبل محمد ذلك بايع ابنه على بن محمد ، وأجبر الناس على بيعته كرها ، لكن الإدارة مع ذلك كانت فى يده . وبعد عدة أشهر قدم عيسى بن يزيد جلودى إلى العراق . وترك جلودى ابنه محمد بن جعفر عن الخلافة ، وتوجه ومعه عيسى بن يزيد جلودى إلى العراق . وترك جلودى ابنه محمد بن عيسى بن يزيد فى مكة وكيلا ، وفى رواية أخرى أنه ترك محمد بن حنظلة المخزمى . وفى سنة ٢٠٢ هـ قدم من اليمن شخص يدعى إبراهيم بن موسى الكاظم ، وهاجم مكة على غفلة وقتل يزيد بن محمد بن حنظلة ، واستولى على مكة . وفى رواية للإمام الأزرق أن يزيد بن حنظلة كان وكيلا من قبل حمدون بن على .

جلودى ـ محمد بن عيسى بن يزيد جلودى ـ يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومى ـ إبراهيم بن موسى الكاظم ـ هارون بن المسيب ـ حمدون بن على بن عيسى بن هامان ـ عبد الله بن حسن ابن عبد الله بن عباس بن على بن أبى طالب [1] ـ صالح بن عباس بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس ـ سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على بن عبد الله ـ محمد بن سليمان بن عبد الله بن سليمان بن على بن عبد الله ـ حسن بن سهيل ـ عبيد الله بن عبد الله بن حسن بن جعفر بن الحسين بن على بن أبو طالب .

* * *

عهد المعتصم بن هارون الرشيد سنة (٢١٨ ـ ٢٢٨ هـ) :

تولى : صالح بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ أشاش التركى [3] ـ محمد بن داود بن عيسى .

* * *

عهد الواثق بن المعتصم سنة (٢٢٨ ـ ٢٣٢ هـ) :

تولى : محمد بن داود بن عيسى .

عهد المتوكل بن المعتصم : (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ) :

تولى : على بن عيسى بن جعفر بن أبى جعفر المنصور ـ عبد الله بن محمد ابن داود بن عيسى ـ محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام ـ محمد بن المستنصر [4] بن المتوكل بالله ـ إيتاح الغلام [5] .

عهد المستعين بن المعتصم بن هارون الرشيد سنة (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ) :

تولى : عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام ـ جعفر ابن الفضل بن عيسى بن

---

(١) ضمت المدينة إلى مكة زمن ولاية عبد الله هذا .

(٢) إذا كان حسن بن سهيل قد عين والياً على مكة ، فإنه كان يمارس العمل بالوكالة .

(٣) كان أشاش التركى ضابطاً من عبيد الجراسكه ، أراد أن يحج فى تلك السنة ولم يكد يدخل البلدة الطيبة ، حتى صدرت الإدارة من قبل المعتصم بتوليته عليها . وعندما دخل أشاش مكة ، عين محمد بن داود وكيلا له ، وقرنت الخطبة رسمه على المنابر .

(٤) ومع أن محمد بن المستنصر عين والياً على مكة ، إلا أنه لم يمارس عمله بنفسه ، بل عين وكيلا من قبله لذلك .

(٥) كان إيتاح واحداً من عبيد المعتصم ومن الأمراء ذوى النفوذ ، ظل والياً على مكة حتى وفاة المتوكل .

موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله ابن حسن المثنى [1] .

* * *

إخطار :

كانت حكومة المدنية تابعة لولاية مكة حتى زمن استقلال إسماعيل ابن يوسف الأخيضر بالحكم . وإذا كانت هناك بعض الأسباب الملحة أحياناً جعلت كل بلدة من الحرمين الشريفين منفصلة عن الأخرى فى الحكم ، فإن البلدتين المقدستين كانتا ولاية واحدة فى الأعم الأغلب . وكان الولاة المعينون يتخذون من مكة مركزاً لهم ، ويفضون من قبلهم وكيلا على المدينة . وكانوا أحياناً يستقرون فى المدينة الطيبة ، ويختارون منقبلهم وكيلا يقوم على أمر مكة المكرمة .

والجدول التالى يبين أسماء الولاة الذين حكموا المدينة المنورة :

أسماء ولاة المدينة المنورة بالأصالة أو بالوكالة

سهل بن حنيف الأنصارى .	أبو أيوب الأنصارى .
مروان بن الحكم .	سعيد بن العاص .
مروان بن العاص .	وليد بن عتبة بن أبى سفيان .
عمرو بن سعيد بن العاص .	وليد بن عتبة .
عثمان بن محمد بن أبى سفيان .	عبد الله بن الزبير .
مصعب بن الزبير .	جابر بن الأسود .
عمر بن عبد العزيز .	عثمان بن حبان .
أبا بكر بن محمد بن عمر .	عبد الرحمن بن الضحاك .
عبد الواحد النضرى .	إبراهيم بن هشام .
خالد بن عبد الملك .	طلحة بن عبد الله .
طارق بن عمرو .	الحجاج بن يوسف .

(١) استولى إسماعيل بن يوسف الأخيضر على مكة بالقوة أثناء ولاية جعفر بن فضل عليها . ومع أن جعفر أخذ الزينات الذهبية التى فى مقام إبراهيم لكى ينفق منها على حربه مع إسماعيل ، إلا أنه هزم ، وعند هروبه استولى إسماعيل على مكة ثم المدينة . وقد توفى إسماعيل بداء الجدرى فى المدينة عام ٢٥٢ هـ .

أبان بن عثمان .
محمد بن هشام .
عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .
داود بن على .
زياد بن عبيد الله .
رياح بن عثمان .
جعفر بن سليمان .
عبد الصمد بن على
زفر بن عبد الله .
إسحق بن عيسى .
إسحق بن سليمان .
محمد بن عبد الله .
إبراهيم بن محمد .
محمد بن الإبراهيم .
محمد بن على .
وهب بن منبه .
عبيد الله بن الحسين .
محمد بن داود .
عبد الله بن محمد .
محمد بن سليمان .
جعفر بن الفضل .

هشام بن إسماعيل .
يوسف بن محمد .
محمد بن عبد الملك .
يزيد بن عبد الله .
محمد بن خالد .
عبد الله بن الربيع .
حسن بن زيد .
محمد بن عبد الله .
إبراهيم بن يحيى .
عمر بن عبد العزيز .
عبد الملك بن صالح .
موسى بن عيسى .
على بن عيسى .
عبيد الله بن مصعب .
أبو البخترى
داود بن يحيى .
صالح بن العباس .
عيسى بن جعفر .
عبد الصمد بن موسى .
عبد الصمد بن موسى .
ظهور إسماعيل بن يوسف الأخيضر سنة ٢٥٢ هـ .

* * *

أمراء الحرمين

انقسمت منطقة الحجاز إلى إمارتين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، إحداها : (إمارة مكة المكرمة) والأخرى : (إمارة المدينة المنورة) ثم انتقلت إلى السلالة الطاهرة للسبطين المكرمين (رضى الله عنهما) بعد وقوع كثير من المنازعات والقلاقل بين هاتين الإمارتين .

وإذا كان من لم يعتادوا على مطالعة التاريخ يظنون أن إمارة مكة المكرمة انحصرت فى ؟ الأشراف الحسنية) وإمارة المدنية المنورة انحصرت فى (الأشراف الحسينية) ، فالتواريخ شاهد صدق على أن (الحسنيين) تولوا إمارة المدينة أحياناً ، كما تولى (الحسينيون) إمارة مكة أحياناً أخرى .

أمراء مكة :

يتقسم الأشراف الكرام الذين حكموا مكة المكرمة إلى أربع طبقات ويطلق على الذين شكلوا هذه الطبقات لقب (أمراء مكة) .

وإذا كان هناك حسينيون بين أمراء مكة ، فقبل أن يتحول أكثرهم لإمارة مكة ، كان أجدادهم الذين حكموا ينبع وسائر بلاد تهامة ونجد من الحسنيين .

١ ـ تعتبر طبقة سادات بنى حسن الطبقة الأولى بين طبقات الأشراف الأربعة ، ويطلق عليها (بنو أخيضر) .

ظهر (بنو أخيضر) ـ الذين استمر حكمهم ٩٩ عاماً ـ خلال سنة ٢٥١ هـ . وانقرضوا فى أواخر سنة ٣٥٠ هـ .

كانت حكومة مكة المكرمة حتى سنة ٢٥١ هـ فى يد الولاة الذين عينوا من قبل الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية والخلفاء العباسيين . ثم ظهر بنو أخيضر فى السنة المذكورة ، واستولوا على بلاد اليمامة وشكلوا لهم حكومة .

بنو أخيضر :

اتخذ أشراف بنى أخيضر فى البداية بلاد اليمامة مقراً لحكومتهم ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مكة المكرمة . وقد بلغ عدد الذين تولوا الإمارة منهم ثلاثة عشر شريفاً ، حكم ثلاثة منهم فى بلاد اليمامة والباقون حكموا أرض الحجاز بالإضافة إلى بلاد اليمامة .

ظهر إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن عبد الله بن موسى الجون الحسنى قبل سادات بنى الأخيضر .

بويع محمد بن عبد الله المحض (النفس الزكية) فى مكة المكرمة فى أواخر عهد الدولة الأموية ، قبل إسماعيل بن يوسف الأخيضر ، وقد كان المنصور العباسى أثناء البيعة فى المدينة المنورة ، فمدح واقعة البيعة بقصيدة طويلة وصدق عليها . ويروى أن هذا البيت من الشعر :

بيعتكـــم تحفـــظ بطاعتنـــا إن الخلافة فيكم يا بنى حسن

قد ورد ضمن القصيدة المذكورة .

كان جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن يوسف ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب (رضى الله عنه) والياً على مكة من قبل المستعين بن المعتصم العباسى ، عندما استولى إسماعيل بن يوسف الأخيضر على بلاد اليمامة . وإذا كان الخليفة المتوكل قد خلع اللوحات الذهبية الموضوعة على مقام إبراهيم وأنفقها على ضرب السكة ، وفى فكرة مواجهة جماعة بنى الأخيضر ، إلا أن النصر لم يلح أمامه ، فهرب . وبعد أن استولى ابن يوسف على أطراف مكة المكرمة ، توجه إلى المدينة المنورة ، وفور وصوله سنة ٢٥٢ هـ ، انتقل إلى الدار الباقية .

وعند ارتحال إسماعيل بن يوسف الأخيضر حكم أخوه الشريف أبو عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر بلاد اليمامة ، وعند وفاته هو أيضاً تولى أخ آخر له ويدعى الشريف أبو جعفر أحمد بن يوسف الأخيضر . وبعد انتقال هذا إلى جوار ربه تولى أخوه الشريف حسن بن يوسف الأخيضر .

أنفق الشريف حسن بعد أن تولى حكم بلاد اليمامة كل ما أوتى من قوة لتوسيع رقعة البلاد التى يحكمها ، فاستقل بمكة المكرمة وشكل إماراتها الجليلة .

ولدى ارتحال الشريف حسن تولى عمه أخو يوسف الأخيضر حكم أم القرى ، ثم انتقل حكمها فيما بعد إلى الشريف محمد بن يوسف الأخيضر . وبعد وفاته تولى ابنه الشريف يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر . ومن بعده تولى أخوه الشريف أبو عبد الله إبراهيم بن محمد ، فالشريف محمد بن محمد بن يوسف الأخيضر ، ثم أخوه الشريف أحمد بن يوسف بن محمد ، فالشريف محمد بن أحمد بن يوسف بن محمد . ولدى ارتحاله تولى الشريف محمد بن جعفر بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر ، ثم تولى الشريف محمد بن جعفر بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر ، ثم تولى من بعده الشريف صالح بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر .

كان أولاد الشريف صالح بن سماعيل وأحفاده في ممالك سردان ، وبعد فترة هاجروا إلى مدينة (غانة) القريبة من البحر المحيط ، وأقاموا لهم حكومة هناك لفترة من الزمن .

٢ ـ وتشكل سلسلة أولاد موسى التى ينتهى نسبها إلى الحسن بن على (رضى الله عنه) الطبقة الثانية من طبقات أمراء مكة الأربعة .

ويطلق المؤرخون على الذوات ذوى الاحترام الذين يشكلون هذه الطبقة من بين الأشراف الكرام اسم (الموسويين) أو (بنى موسى) . وأول من تولى الإمارة منهم هو : الشريف موسى القانى ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

بلغ عدد الموسويين الذين حكموا بلاد الحجاز ١٠٣ أعوام أحد عشر فرداً ، كان أولهم الشريف موسى الثانى الذى ظهر سنة ٣٥٠ هـ ، واستمر حكم أخلافه من بعده ٤٥٣ عاماً .

ولدى ارتحال الشريف موسى الثانى ابن عبد الله ، تولى بعده ابنه الشريف داود بن موسى الثانى ، ثم تولى الشريف محمد الأكبر ابن موسى الثانى ، فالشريف حسين بن محمد الأكبر ، وبعده الشريف محمد الثابر ابن محمد الأكبر ، فالشريف أبو هاشم محمد بن محمد الثابر ، وبعده الشريف أبو جعفر محمد بن الحسين بن محمد الأكبر . وقد استقل الشريف أبو جعفر هذا بالملك فى عهد الفاطميين وأقام لنفسه حكومة فى مكة المكرمة وأرض تهامة استمرت عشرين عاماً .

وقد أقام ملوك العصر أمراء من قبلهم فى مكة حتى أواسط فترة إمارة الشريف أبى جعفر ، إلا أن الشريف أبا جعفر زاد من قوته ، وشوكته وتمكن من الاستقلال ، الذى حقق انتقال حكم مكة المكرمة إلى أيدى الأشراف الكرام بالفعل .

وتتضارب الروايات المختلفة فى تحديد تاريخ استقلال أبى جعفر وسبب هذا الاستقلال . أما أقوى الأقوال فتذكر أن أبا جعفر حقق الاستقلال أيام حكم الإخشيديين فى مصر ، وبالتحديد قبل وفاة كافور كانت فى سنة ٣٥٦ هـ ، أما استقلال أبى جعفر فكان سنة ٣٥٨ هـ ، وهناك من يدعى أنه كان سنة ٣٦٠ هـ . وقد كانت الفتنة التى حدثت بين بنى الحسن وبنى الحسين (رضى الله عنهما) سبباً فى استقلال المشار إليه . فأثناء حدوث هذه القلاقل ترك أبو جعفر المدينة المنورة وعاد إلى مكة المكرمة وأعلن استقلاله . وعند انتقال الحكم فى مصر إلى أيدى الفاطميين صدق المعز العبيدى على إمارة أبى جعفر وبارك استقلاله .

وبعد وفاة الشريف أبى جعفر انتقل الحكم إلى أبى محمد جعفر بن محمد ابن حسين بن محمد أكبر ثم إلى الشريف عيسى بن أبى جعفر محمد ، فالشريف أبو الفتوح حسين بن محمد الثابر ، وعند وفاته تولى الشريف تاج المعالى بن أبى الفتوح حسين بن محمد الثابر .

وفى عهد إمارة الشريف عيسى بن أبى جعفر أرسل ملك مصر العزيز العبيدى أميراً علوياً إلى مكة المكرمة . وقد ضايق هذا الشخص أهالى الحرمين إلى أقصى حد ، وأمر بالدعاء على العزيز العبيدى على المنابر . وبعد وفاة العزيز تولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله ، فأرسل إلى

الشريف أبى الفتوح سالف الذكر خطبة عجيبة أمره بقراءتها على منبر المسجد الحرام . ولدى قراءة هذه الخطبة المليئة بالتعبيرات غير اللائقة التى تتهم الصحابة الكرام وبعض زوجاتهم ، هاجم الأهالى الخطيب وطردوه . وبعدها لم يعد من اللائق التفوه بلفظ واحد عن مذهب العبيديين فى مكة المكرمة .

كان الشريف أبو الفتوح من أشجع أولاد موسى ، خرج عن طاعة العبيديين برده خطبة الحاكم بأمر الله ، وعرضه لخلافته على أهالى الحرمين ومبايعته من قبلهم وتملكه . لأن الحاكم بأمر الله أرسل إليه رسالة يلح فيها لكى يحمل أهالى الحرمين على التصديق على هذه الخطبة التى امتلأت بالسباب واللعنات على الصحابة الكرام ومن الجدير بالذكر أن الشريف أبا الفتوح ذهب إلى نواحى الشام فى فترات متلاحقة . وأعلن استقلاله وبعد عدة معارك عاد سنة ٤٠٣ هـ ومكث قليلا ثم مات .

وكانت مدة إمارته ٤٣ عاماً .

لم يكد الشريف أبو الفتوح يصل إلى الشام حتى سارعت قبائل العرب لمبايعته بالخلافة . فنظر الحاكم بأمر الله لهذا العمل على أنه عمل وخيم ستنتج عنه آثار سيئة ، وبادر على الفور بتجهيز الاستعدادات العسكرية . ولما علم أبو الفتوح بذلك أرسل رسلا من قبله يدعى أبو حسان مفرح إلى الحاكم بأمر الله لكى يوضح له عدم تفكيره فى الخلافه حتى لا تراق الدماء عبثاً . فسر الحاكم بهذا الخبر أيما سرور ، وسار بالتصديق على إماراته .

وحد تاج المعالى بن أبى الفتوح إمارة مكة المكرمة مع إمارة المدينة المنورة . وبعد أن توفى تاج المعالى المكنى بـ (أبى عبد الله) والملقب بـ (شكر) فى سنة ٤٦١ هـ وعلى قول فى : سنة ٤٦٤ هـ وفى قول ثالث : سنة ٤٥٣ هـ بلا ولد ، أراد أحد عبيده أن يكون أميراً . وقد استولى أبو الطيب داود ابن عبد الرحمن بن القاسم ابن الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان بن عبد الله ابن موسى الجون بن عبد الله بن حسن المثنى بن حسن السبط (رضى الله عنه) على مكة المكرمة أثناء توجه أبى الفتوح إلى الشام ، وتغلب على العبد سالف الذكر . ومع أنه استولى على زمام الإمارة منه ، إلا أن إدارة إمارة مكة المكرمة انتقلت فيما بعد إلى (بنى هاشم) .

تولى الإمارة محمد بن أبى القاسم بن عبد الرحمن بن جعفر سنة ٤٥٣ هـ قبل أبى الطيب . وبعد عامين استولى ملك اليمن على بن محمد الصليحى على بلاد الحجاز ، وانتزع إمارة مكة المكرمة من بنى الطيب .

ويروى بعض المؤرخين أن محمد الصليحى أعطى إدارة الإمارة إلى (محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن هاشم) ثم رجع . وبعد وفاة تاج المعالى بن أبى الفتوح . انتقلت

الإمارة إلى حمزة بن وهاس بن أبى الطيب داود السليمانى من بنى سليمان . وبعد أن أنفق سبع سنين فى قتال مع بنى موسى ، انتقل زمام الإمارة إلى محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن هاشم ، ثم انتقل إلى أولاده من بعده .

ولم يتولى الإمارة من بنى سليمان سوى حمزة بن وهاس بن أبى الطيب ، وإذا كانت بعض المصادر تروى أن محمد بن أبى الفاتك وأخوين له تولوا الإمارة ، فلا يمكن النظر إلى هذه الرواية بعين الاعتبار خاصة وأن حمزة ابن وهاس يعتبر خاتم الطبقة الثانية فى حقيقة الأمر.

ويعتبر محمد بن جعفر أحد أمراء مكة من (الهواشم) على حد قول الإمام الفاسى . ونسبة الصحيح هو (أبو هاشم محمد بن جعفر بن عبد الله ابن أبى هاشم محمد بن الحسين بن محمد الثائر [1] بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن حسن السبط (رضى الله عنه) . ظل أبو هاشم فى مقام الإمارة ثلاثين عاماً ، ثم أطلق على الأشراف الذين تولوا بعده (الهواشم) .

وبنو سليمان الذين اختتموا هذه الطبقة ، ليسوا هم بنو سليمان الذين حكموا تلمسان والمغرب الأوسط . فقد كان الأشراف الذين حكموا هناك من أولاد (سليمان بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن حسن السبط بن على ابن أبى طالب (رضى الله عنهم) . وفى عصر العباسيين رحل عمهم إدريس إلى المغرب ، ورحل أبوهم سليمان من البصرة إلى هراة، وحكما هناك حكماً مستقلا . ثم توفى إدريس ، واستولى أبوهم سليمان على المغرب وتلمسان وأنشأ له حكومة هناك.

٣ - يطلق اسم (الهواشم) على الشراف من السادات الذين يشكلون الطبقة الثالثة من طبقات أمراء مكة الأربعة .

ظهرت طبقة أشراف (الهواشم) الذين يقال لهم : (بنو فليته) سنة ٤٦١ هـ وفى قول آخر : سنة ٤٦٤ هـ وعلى رواية ثالثة فى سنة ٤٥٣ هـ ، وانقرضوا فى سنة ٥٩٨ هـ وفى رواية سنة ٦٠١ هـ وعلى قول ثالث فى : سنة ٥٩٠ هـ . وبلغت مدة إمارتهم ١٣٧ عاماً ، تولى خلالها ثلاثة عشر شريفاً .

أسقط أبو هاشم محمد بن جعفر أول من تولى الإمارة من سادات بنى هاشم ، اسم ملك مصر من الخطبة وأمر بقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسى فى بغداد . وقد ترتب على ذلك أن

---

(١) لقب بالثائر لأنه ثار من أهالى المدينة وانتقم منهم فى عهد المعتز بن المتوكل العباسى .

منع ملك مصر العائدات السنوية التى كان يرسلها إلى أهالى الحرمين . فقام الشريف محمد بخلع القناديل الذهبية والفضية الموجودة داخل بيت الله الحرام واللوحات الذهبية الموجودة على مصراعى الكعبة المشرفة وأخذها ، ودفع بها حاجته الضرورية ، واستمر فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة ، وحذف من الأذان المحمدى (حى على خير العمل) . وذاع صيته . وأنفق على البناء الحكومى مبلغ ٣٠٠٠٠ دينار أرسلها إليه الخليفة العباسى فى بغداد . وعندما أعنت فرقة معادية له من بنى سليمان أنها تعد العدة لمواجهته ، لم يطل برأسه وفر هارباً إلى ينبع . وعلى ذلك استقر الحكم فى يد حمزة بن وهاس سالف الذكر . ثم عاد أخيراً بفضل مساعى فرقة شجاعة ، واستقل بالحكم بعد أن طرد أنصار حمزة ابن وهاس . ثم ثم توفى سنة ٤٨٤ هـ .

وتولى إمارة منطقة الحجاز بعد رحيل الشريف محمد بن جعفر ابنه الشريف قاسم بن أبى الهاشم محمد ، ثم تولى الشريف فليته بن قاسم ابن أبى الهاشم محمد بن جعفر بعد وفاة والده .

استولى (اصهيد بن سارتكين) على مكة المكرمة خلال إمارة الشريف قاسم بن محمد وقد تمكن الشريف قاسم سنة ٤٨٨ هـ من طرد (اصهيد) الذى كان يمارس الظلم والعنف أيام حكمه على أهالى الحرمين الشريفين حتى سنة ٤٨٧ هـ ، وتولى بنفسه الإمارة حتى سنة ٥١٨ هـ . وورث ابنه فليته ابن قاسم الإمارة بعد وفاته .

وبعد أن توفى فليته الذى يكنى بـ (أبى فليته) سنة ٥٢٧ هـ ، تولى ابنه الشريف هاشم بن فليته ، ولما توفى سنة ٥٤٩ هـ وعلى قول فى : سنة ٥٥١ هـ تولى الإمارة عمدة الدين الأمير شجاع قاسم بن فليته ، الذى هزم أمام عمه الشريف قطب الدين عيسى فى النزاع الذى قام بينهما سنة ٥٥٣ هـ ، وترك له الإمارة ، ثم تغلب عليه بعد مدة وهزمه ، إلا أنه قتل فجأة ، فبقيت إمارة مكة فى عمه .

وفى سنة ٥٦٥ هـ تمكن الشريف مالك أخو قطب الدين من طرد أخيه ، وتولى الإمارة لمدة نصف يوم . واسترد قطب الدين عيسى الإمارة بعد أن هزم أخاه سنة ٥٦٧ هـ واضطره إلى الفرار ، ثم استقل بالحكم . وبعد وفاته سنة ٥٧٠ هـ . انتقلت الإمارة إلى الشريف داود بن عيسى . وبعد عام تولى أخوه الشريف مكثر بن عيسى . ثم تولى (قاسم بن مهناء الحسينى) إمارة المدينة المنورة . وخلال ثلاثة أشهر تولى الشريف داود بن عيسى للمرة الثانية ، ثم تولى الشريف مكثر بن عيسى للمرة الثانية ، فابنه الشريف محمد بن مكثر بن عيسى سنة ٥٩٨ هـ . وبعد الشريف محمد بن مكثر ، تولى حكومة البلد الأمين بنو قتادة ، وانتهت طبقة (أشراف الهواشم) .

كان كل حاج من الحجاج الذين يردون بالبحر إلى (عيذاب) أو إلى مرفأ (جدة) يدفع سبعة من الذهبى المصرى كرسوم ، وكانت هذه الأموال تنفق على إدارة الإمارة . وقد قام ملك مصر صلاح الدين الأيوبى ـ أيام إمارة الشريف مكثر ـ بإرسال ثمانية آلاف إردب من القمح وألفين من الذهبى المصرى لكى توزع على مأمورى الإمارة . استمر هذا عاماً واحداً . ثم أصدر أوامره للحجاج فيما بعد بالامتناع عن دفع الرسوم . وأمر الشريف مكثر بالتوقف عن أخذ الرسوم من الحجاج ، وذكر اسمه فى الخطبة والدعاء له على المنابر .

٤ ـ وتنحدر الطبقة الرابعة من الطبقات أمراء مكة الأربعة من الأشراف الكرام من نسل أبى عزيز قتادة بن إدريس الحسنى .

ويعتبر أولاد الشريف صرحتة أخى أبى عزيز قتادة من سادات أمراء بلاد ينبع . وينحدر الشريف أبو عزيز هذا من شجعان هذه السلالة التى تشتهر بالهمة والجسارة . جمع أمير قلعة ينبع مشايخ العربان الموجودين فى نطاق إدارته ، وحارب أولاد عبد الله المحض ، وهاجم فجأة بلاد ينبع وأراضى صفرا فى سنة ٥٩٨ هـ وعلى قول : فى يوم الجمعة الموافق ١٧ رجب سنة ٧٠١ هـ . وانتزع إدارة مكة المكرمة وأراضى الحجاز من يد سادات الهواشم ، ومد حدود حكمه حتى اتصلت بمنطقة اليمن . وأطاعه سكان منطقة الحجاز جميعاً وانقادوا له .

وفى مقدمة الأسباب التى سهلت استيلاء أبى عزيز قتادة على مكة المكرمة وجود الشريف محمد بن مكثر فى وادى التنعيم فى يوم الهجوم على البلد الحرام . فأهالى مكة يخرجون إلى وادى التنعيم للعمرة فى السابع عشر من رجب كل عام إحياء للسنة التى سار عليها عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهما) . ويقضون عدة ليال فى هذا الوادى يتجولون . وهذه العادة لا زالت باقية حتى الآن . دخل أبو عزيز قتادة مكة المكرمة من جهة المرتفعات فى اليوم الذى كان فيه الشريف محمد بن مكثر فى التنعيم ، وأعلن نفسه أميراً عليها . ومع أن الشريف محمد بن مكثر دافع عن مكة . إلا أنه غلب وهزم ، ثم ولى هارباً ، ومات بعد فترة وجيزة . وقد تمكن الشريف أبو عزيز من التغلب على الشريف سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة المنورة وعلى أهل ثقيف عدة مرات ، ثم توجه إلى اليمن بعد ذلك ، ووفق فى الاستيلاء على هذه المناطق ، وغير حكومة بنى فليته من أساسها ، ووسع دائرة إدارته وإمارته وتمتع بالاستقلال التام . ثم توفى فى أواخر سنة ٩١٧ هـ بعد أن حكم ستة عشر عاماً . وتولى بعده ابنه الشريف حسن . وظلت إمارة مكة المكرمة فى أولاده وأحفاده من بعده .

ويعتبر صاحب الدولة والسيادة الشريف عون الرفيق باشا الذى يتشرف يتولى إمارة مكة المكرمة حالياً من أعظم فروع أبى عزيز قتادة .

وهناك شك وشبهة فى انتهاء كافة الأشراف الكرام على وجه الأرض إلى الإمام الحسن ، وكل السادات العظام إلى الإمام الحسين . وكذلك شك فى أن نتاج السلالة السليلة من أولاد وأحفاد السادات من الحسين ، وأولاد وأحفاد الأشراف من الحسن (رضى الله عنهم) .

وعلى الرغم من قولنا (أشراف بنى الحسين ، وسادات بنى الحسن) حالياً ، فإن هذا التعريف غير صحيح كما أوضحنا .

حكاية :

دعا الناصر لدين الله العباسى الشريف أبا عزيز قتادة بن إدريس لزيارة بغداد لأنه يحبه حباً جماً ويقدره تقديراً كبيراً . لبى أبو عزيز الدعوة ، وسافر إلى بغداد إلا أنه عاد عندما وجد أهالى الكوفة يستقبلونه ومعهم الأسود ، وقال : (لا أستطيع أن أذهب إلى مكان يذل فيه الأسود إلى هذا الحد) . . انتهى .

ولد أبو عزيز قتادة سنة ٥٢٦ هـ ، وتوفى سنة ٦١٧ هـ ، بالغاً من العمر تسعين عاماً . ولم يطل أحد من أرباب الفساد برأسه أيام إمارته ، لأنه كان يتصف بالإنصاف فى أبهى صورة والشجاعة فى أجلى معانيها . وعاش أهالى الحرمين فى الأمن والأمان والراحة طوال فترة حكمه .

وبعد أن تولى الشريف حسن بن أبى عزيز قتادة إمارة مكة عقب وفاة أبيه ، جمع ملك اليمن مسعود بن محمد الجنود وتحرك بها قاصداً مكة بناء على أوامر من أبيه محمد ملك مصر ، وحارب الشريف حسن بن قتادة وانتصر عليه ، واستولى على مكة ، ثم عين عليها (نور الدين على بن عمر بن رسول) والياً ، وعاد هو إلى اليمن ولم يسكت الشريف حسن على ذلك ، بل جمع جنوده وسار بهم إلى وادى الحديبية سنة ٦١٠ هـ وحارب نور الدين بن على ، إلا أنه هزم أمامه فرحل إلى الشام ومنها إلى بغداد ، وتوفى هناك سنة ٦٢٦ هـ .

والملك مسعود الذى انتزع إمارة مكة من حسن بن قتادة ، هو يوسف ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب المشهور بلقب (اقسيس) .

ولما شاع خبر موت حسن بن قتادة . ولى الملك مسعود (صارم الدين ياقوت المسعودى) على مكة . وعند وفاته ، قام نور الدين على بن عمر ابن رسول سالف الذكر بالاستيلاء على اليمن ، وأخذ البيعة لنفسه .

صدرت الأوامر من مصر بتعيين الملك الكامل المعروف بـ (طغتكين التركى) بعد وفاة أخيه

الملك مسعود . وقد تمكن الشريف راجح بن قتادة من إخراج طغتكين التركى من مكة المكرمة. بمساعدة الجنود التى أرسلها ملك اليمن نور الدين سنة ٦٢٩ هـ . وقد التزم المصريون بذكر اسم طغتكين التركى فى الخطبة على المنبر الشريف بمكة المكرمة ، كما التزم اليمنيون بذكر اسم الشريف راجح بن قتادة تمشياً مع حماس الجاهلية وغيرتها ، وعناداً لبعضهما البعض . وخلال الفترة التى امتدت من سنة ٦٢٧ هـ إلى سنة ٦٣٧ هـ تولى كل من الشريف راجح وطغتكين التركى سبع مرات ، ثم أبعدا .

وفى سنة ٦٣٧ هـ حج ملك مصر الصالح بن الكامل البيت الحرام ، وحسماً للنزاع عين أمير المدينة الشريف شيخة بن قاسم الحسينى مكان الشريف راجح ، وأعاد الشريف راجح ملكاً على اليمن سنة ٦٣٩ هـ ، ثم عزله فيما بعد . وعين مكانه الشريف أبا سعيد حسن بن على بن قتادة ، فتحرك الشريف راجح قاصداً أبا سعيد ومستعيناً بأبناء طى المقيمين بالمدينة المنورة . وقد تصادف أن لاقى أبو نمى أخو أبى سعيد فى ينبع جنود الشريف راجح ، فانتصر عليهم ، وصار بعد ذلك شريكاً لأخيه فى الإمارة .

وفى سنة ٦٥١ هـ تولى الإمارة الشريف حماز بن حسن بن قتادة ، ثم تولى الشريف راجح بن قتادة سنة ٦٥٢ هـ ، وفى سنة ٦٥٣ هـ تولى الشريف غانم بن راجح ، وتولى بعده أشهر الشريف أبو نمى بن أبى سعيد حسن ابن على بن قتادة ، فعمه الشريف إدريس .

وإذا كان الشريف أبو نمى قد شارك عمه الشريف إدريس فى الإمارة حتى عام ٦٦٧ هـ ، إلا أنه أنفرد بالحكم فى هذه السنة . ثم تولى الشريف إدريس الحكم بمفرده فى نفس العام ، وبعد ذلك بعام انفرد الشريف أبو نمى بالإمارة . وبعد أربعين يوماً من توليته ، حكم الشريف غانم فأمير المدينة المنورة الشريف حماز بن شيخه الحسينى . ثم عاد الشريف أبو نمى سنة ٦٧٠هـ فأخوته سنة ٦٧٣ هـ ، ثم عاد هو مرة أخرى . وفى سنة ٦٧٧ هـ تولى حماز بن شيخة الحسينى ، وبعده الشريف أبو نمى . وتولى الشريف حميضة بن أبى نمى فى صفر الخيرة سنة ٨٠٠ هـ ، فالشريف رميثة بن أبى نمى .

اعتدى الشريف أبو نمى على القافلة المصرية فى منى ، فى السنة التى تولى فيها الإمارة بعد تغلبه على إخوته ، وقتل قوادها وكثيراً من عساكرها ، فقامت قيامة الحكومة المصرية وبدأت تجهز جيشاً لمحاربة أبى نمى . إلا أن تدخل العلماء وقيام الشريف بإرسال رسالة اعتذر مشفوعة ببعض الهدايا الحجازية ، حال دون تحرك الجنود التى تهيأت . وأبقى أبو نمى فى منصب الإمارة .

بلغت مدة حكمالشريف أبى نمى بالمشاركة أو منفرداً خمسين عاماً تقريباً وقيل : إنه توفى سنة ٧٠٣ هـ .

تولى الإمارة الشريف حميضة وأخوه الشريف رميثة حتى موسم الحج . ولما شكاهما والى (الكرك) الذى كان يحج فى ذلك العام إلى الأمير بيـ ـس . عزلهما بيبرس وولى مكانهما الشريف عطيفة والشريف أبا الغيث . وعلى الرغم من أن الشريف حميضة والشريف رميثة أمرا بالسفر إلى مصر [1] . إلا أن الإمارة وجهت إليهما مرة أخرى بعد عام . ثم تولى أخواهما بعد ذلك ، وتولياهما مرة ثالثة . وبعدها تولى أخوهم الشريف أبو الغيث ابن أبى نمى سنة ٧١٣ هـ .

لم يتمكن الشريف حميضة والشريف رميثة من مقاومة العساكر المصرية التى أحضرها أبو الغيث ، فهربا جهة اليمن . وفى سنة ٧١٤ هـ هاجم الشريف حميضة أبا الغيث فى فراشه وقتله واستقل بالإمارة ، إلا أن أخاه رميثة تغلب عليه سنة ٧١٥ هـ ، أخرجه من مكة ، فسافر إلى العراق ، واستنجد بالسلطان خدا بندة ، وتمكن من العودة فى سنة ٧١٨ هـ ، وأمر بقراءة الخطبة باسم ملك العراق أبى سعيد بن خدا بندة . وفى سنة ٧١٩ ، عزلت الحكومة المصرية الشريف حميضة ، وولت مكانه الشريف رميثة . وبعد ذلك وجهت الإمارة إلى الشريف عطيفة ، عندما استدعى الشريف رميثة إلى مصر . ومع أن الشريف رميثة شارك الشريف عطيفة فى الحكم سنة ٧٢٢ هـ ، إلا أنه تمكن من الحصول على الاستقلال سنة ٧٣٤ هـ . ثم شارك الشريف عطيفة أخاه رميثة سنة ٧٣٥ هـ . وانفرد الشريف عطيفة بالحكم بمفرده فيما بعد . واستدعيا إلى مصر فجأة سنة ٧٣٧ هـ ، ثم صدر الأمر بتعيين الشريف رميثة أميراً ، وحجز الشريف عطيفة فى مصر .

وعلى الرغم من أن الإخوة الأربعة اشتركوا فى إدارة دفة الحكم لمدة أربعة وثلاثين إلا أن الحروب والمنازعات كانت تنشب بينهم من آن لآخر . وكانت العساكر المصرية تشارك فى هذه الحروب أحياناً ، كما كانت العساكر العراقية تشترك أحياناً أخرى . ووافت كل واحد منهم المنية الواحد بعد الآخر وبقى الشريف رميثة ، إلا أن الحكومة المصرية عزلته سنة ٧٤٦هـ ، وولت مكانه ابنه عجلان بن رميثة ، ثم عينت ثقبة بن رميثة بعد عامين ، وظل الأخوان مشتركين فى الحكم .

ولدى عودة الشريف عجلان من مصر سنة ٧٤٦ هـ ، قابله أهالى مكة بمراسم الاحتفال والابتهاج الذى عاش فيه أبوه رميثة قبل وفاته .

تولى الشريف رميثة الإمارة سبع مرات ، وشارك أخاه حميضة فى الحكم لمدة عشر

---

(١) تذكر بعض الروايات أن الشريف محمد بن إدريس بن قتادة هو الذى كان شريكاً لأبى الغيث فى الإمارة .

سنوات ، كما شارك أخاه عطيفه خمس سنوات . واستمرت مدة حكمه ثلاثين عاماً ، قضى منها خمسة عشر عاماً منفرداً .

شارك الشريف عجلان بن رميثة إخوته الشريف ثقبة والشريف سند والشريف مغمس فى الحكم سنة ٧٤٧ هـ وعلى قول : سنة ٧٤٨ هـ ، ثم انفرد الشريف عجلان وحده بالحكم بعد مدة ، وعزل إخوته . وفى سنة ٧٥١ انفرد الشريف ثقبة بالحكم ، ثم اشترك الشريف عجلان مع الشريف ثقبة فى الحكم لمدة قصيرة . ثم عزل الشريف عجلان سنة ٧٥٧ هـ وعين مكانه ثقبة بن رميثة . وبعدها عزل الشريف ثقبة بدوره ، ووجه منصب الإمارة إلى الشريف عجلان بمفرده . ثم شارك الشريف ثقبة الشريف عجلان فى الحكم سنة ٧٥٨ هـ ، وفى سنة ٧٦٠ هـ عزلا معاً ، وتولى بعدهما الشريف سند بن رميثة والشريف محمد بن عطيفة بن أبى نمى .

استدعى الشريف عجلان وابنه إلى مصر وجرى التحفظ عليهما بسبب الحروب الدامية التى وقعت بين أشراف مكة والعساكر المصرية سنة ٧٦١ هـ . وعندما جلس الملك المنصور محمد بن المظفر على العرش عهد بالإمارة إلى عجلان بن رميثة وأشرك معه أخاه ثقبة بن رميثة كطلبه .

وفى ذلك الوقت مرض الشريف ثقبه فى وادى (مر) مرضاً شديداً ، توفى على أثره فى سنة ٧٦٢ هـ ، فأشرك الشريف عجلان ابنه الشريف أحمد معه فى الحكم . وهكذا توفى ثقبة بن رميثة الذى أسقط اسم الشريف سند من الخطبة . ولما كان الشريف عجلان قد ترك صلاحياته فى تصريف أمور الحكم فى يد ابنه أحمد بن عجلان ، أصبح أحمد بن عجلان حاكماً مستقلا على إمارة مكة المكرمة ، فأمر بذكر اسم أبيه عجلان بن رميثة فى الخطبة وفى رسالة وصف زمزم .

وفى سنة ٧٦٦ هـ اتخذ ملك مصر تقليداً يقضى بإرسال ١٦٠٠٠ درهم و ١٠٠٠ إردب من القمح لأمير مكة سنوياً ، نظير رفع الرسوم غير المناسبة عن الحجاج . وعندما توفى عجلان بن رميثة سنة ٧٧٧ هـ ، وهو فى السبعين من العمر ، أعلن ابنه أحمد بن عجلان سنة ٧٧٨ هـ أن ابنه محمداً (أى محمد ابن أحمد) شريك له فى الحكم ، وبعد عشر سنوات انتقل إلى جوار ربه . ثم قتل محمد بن أحمد بعد مائة يوم من وفاة أبيه أحمد بن عجلان .

وهناك روايات عدة تتعلق بقاتل الشريف . فرواية تذكر أنه شخص مجهول غريب . ورواية أخرى تذكر أنه قتل من قبل أحد المصريين حيث كان هناك أشراف عدة أثناء وجود أحمد بن عجلان فى السجن ، وهم : الشريف محمد عم الشريف محمد بن أحمد ، وخالاه الشريف أحمد والشريف حسن بن ثقبة ، وبن خاله الشريف على بن أحمد بن ثقبة وآخرون

غيرهم وقد أرادت الحكومة المصرية أن تطلقهم ، ولكن الشريف أحمد بن عجلان لم يوافق على ذلك . وبعد وفاة الشريف أحمد بن عجلان . قام ابنه الشريف محمد بن أحمد بن عجلان باستمالة هؤلاء الأشراف . إلا أن ملك مصر استاء من هذا العمل غير اللائق فى نظره. وأرسل عنان بن مغامس ـ الذى سبق وهرب إلى مصر خوفاً من أحمد بن عجلان ـ إلى مكة المكرمة مع أمير الحج المصرى ، لكى يعين مكان الشريف محمد بن أحمد . ومع ذلك استقبل الشريف محمد بن أحمد المحمل المصرى كالعادة . وفى هذه الأثناء ضرب أحد الخونة الباطنية من المصريين الشريف محمداً وقتله ، فألبس الشريف عنان الخلعة ، وتولى منصب الإمارة . وهكذا دخل عنان بن مغامس المدينة المقدسة مكة فى موكب مصرى سنة ٧٨٨ هـ . وعلى الرغم من أن أنصار محمد بن أحمد بن عجلان حاربوا الشريف عنان ، إلا أنهم تفرقوا بعد أن ثبت عجزهم ، واستقر الشريف عنان على كرسى الإمارة ، وأشرك معه فى الحكم كلا من بن عمه أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك بن رميثة .

وبعد عام واحد عزل عنان بن مغامس ، وتولى مكانه على بن عجلان بن رميثة . وبعد عام آخر شارك عنان بن مغامس على بن عجلان فى الحكم ، ثم عزل سنة ٧٩٠ هـ ، وعين مرة ثالثة بعد أربع سنوات . وتولى محمد بن عجلان على أثر مقتل على بن عجلان سنة ٧٩٧هـ . ثم عين حسن بن عجلان سنة ٨٩٨ هـ ، فبركات بن حسن بن عجلان سنة ٨٠٩ هـ. وبعد ذلك شارك الشريف أحمد بن حسن بن عجلان أباه حسن بن عجلان فى تسير أمور الإمارة سنة ٨١١ هـ .

الشريف حسن بن عجلان :

قبض الشريف حسن بن عجلان على قتلة أخيه على بن عجلان وعلى أرباب الفساد الذين يثيرون القلاقل ، وأعمل فيهم القتل ، بمجرد استقلاله بالحكم سنة ٧٩٧ هـ . وقد ازدادت هيبته وشجاعته بعد نجاحه فى هذا العمل ، وتمكن من الفوز على معارضيه بعد مدة قصيرة وأعلن استقلاله .

هذا ، وقد استقبل المعارضون الشريف حسن وهم يرفعون المصاحف طلباً للعفو والأمان ، لأنه أظهر فى حربه معهم عنفاً لا مزيد عليه ودموية تفوق الوصف. وقد وفقوا فى نيل مطلبهم! ولو كانت هذه الحرب استمرت فترة أطول ، لما كان هناك فرد يعيش على وجه الأرض من بين هؤلاء.

وعلى الرغم من أن الشريف حسن استقل بالإمارة على أثر مغادرة بقية السيوف لمكة

المكرمة وتوجههم إلى اليمن بعد انتهاء الحرب بثلاثة أيام، إلا أنه عزل سنة ٨١٨هـ. وتولى مكانه الشريف رميثة بن محمد بن عجلان الذى أمر بإرسال بركات بن الشريف حسن إلى مصر. وقد قامت الحكومة المصرية بإعادته إلى مكة، وأعدات الإمارة إلى أبيه.

وفى سنة ٨٢٠هـ شارك الشريف بركات أباه، ثم ألغيت المشاركة سنة ٨٢١هـ، وحل مكانه الشريف أحمد. وفى سنة ٨٢٣هـ أرسل الشريف حسن يستأذن الحكومة المصرية ويستعطفها، لكى توافق على اشتراك ولديه بركات بن حسن وإبراهيم بن حسن فى تدبير أمور الإمارة. إلا أن الحكومة المصرية وافقت على اشتراك بركات بن حسن بشرط بقاء الإمارة فى عهدة الأب. فولى الشريف إبراهيم وجهه شطر اليمن، غاضبًا منكسرًا. ثم عاد أخيرًا واستعطف ورجا أن يذكر اسمه فى الخطبة أيضًا.

الشريف حسن بن عجلان:

تعهد الشريف حسن بن عجلان ـ بعد عامين من التصديق على إمارته أى سنة ٨٢٥هـ ـ بتخصيص متحصلات الجرائم فى جدة لإمارة مكة، وبتخصيص الأعشار المحصله على السفن الهندية للحكومة المصرية. وقد بلغ ما تعهد به للحكومة المصرية سنويًا مبلغ عشرة آلاف ذهبى. وعلى الرغم من أن المصريين وافقوا على هذا الاتفاق وصدقوا عليه، إلا أنهم عزلوه سنة ٨٢٧هـ، ثم أعادوه سنة ٨٢٨هـ، وبعدها نقلوه، وظل منقولا إلى أن توفى فى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٨٢٩هـ.

الشريف حسن بن عجلان:

كان الشريف حسن بن عجلان محبًا للخير، صبورًا كثيرا الاحتمال، رم المستشفيات والأربطة [١] القديمة الموجودة فى زمانه، فضلا عن أنه بنى الأربطة الجديدة للرجال والنساء فى مكة والمدينة. كما أنه طيب خاطر الغرباء فى الحرمين وأرضى جانبهم. واستمرت مدة إمارته ستة عشر عامًا.

---

(١) الرباط: بناء موقوف على التكايا لإقامة المرتادين. (المترجم).

الشريف بركات بن حسن بن عجلان :

دعى الشريف بركات إلى مصر سنة ٨٢٩هـ وألبس الخلعة [١] ثم عين في منصب الإمارة. وقد عزل سنة ٨٤٥هـ وعلى قول في : سنة ٨٤٦هـ، وعين مكانه الشريف على بن حسن بن عجلان. وعلى الرغم من أن الشريف بركات عمل بكل ما وسع على ألا يخرج منصب الإمارة من يده ويعطى لعلى ابن عجلان، إلا أنه هزم، وهرب. وفي شوال من نفس العام عزل الشريف على بن عجلان، وعين مكانه الشريف أبو القاسم حسن بن عجلان.

عين الشريف بركات سنة ٨٤٩هـ، ثم عين الشريف أبو القاسم ابن حسين سنة ٨٥١هـ، وبعد مدة قليلة عين الشريف بركات مرة أخرى، ثم عين الشريف محمد بن الشريف بركات سنة ٨٦٠هـ. وقد قام بالقبض على قاضى بغداد سنة ٨٧٧هـ وأرسله إلى مصر.

والسبب في ذلك هو أن سلطان العراق (أوزون [٢] حسن) أعد محملا، وكان يقصد من ورائه الاستيلاء على الحرمين. أرسل المحمل إلى مكة وعلى رأسه أمير الحج (رستم) ويرفقته مقدار كبير من الجنود. وكانت التعليمات السرية المعطاة لرستم، تقتضى منه مغافلة الحجاج والأهالى. وكانت مهمة القاضى المرافق للقافلة إعداد أعلام المحمل وسناجقه [٣] المتعددة، لكى يستعملها حملتها وقت الحاجة.

فهم الشريف محمد كل الحيل التى كان يبيتها أمير حج قافلة العراق، فقبض عليه وعلى قاضيه المرافق له، وأرسلهما إلى مصر. فسرت الحكومة المصرية لهذا العمل، وأرسلت للشريف سيفًا وحصانًا أصيلا ومنشوراً تعبيراً منها عن تقديرها لما قام به الشريف محمد.

كان سرج الحصان المهدى مطعمًا بالذهب والجواهر المنوعة، كما كان السيف مرصعًا على جانبيه بأنواع الجواهر. وكان المنشور يتضمن تعيين الشريف محمد أميراً مستقلا على بلاد الشام واليمن وينبع والحجاز. وبناء على ذلك قام الشريف محمد بن بركات بإرسال الجنود الشجاعة إلى كل أنحاء الحجاز، وحمل قبائل العرب على الطاعة والانقياد للحكومة المصرية. واكتسب بهذا صيتًا وشهرة فائقة. ولدى وفاته سنة ٩٠٣هـ، انتقلت الإمارة لابنه بركات بن محمد الذى ظل مشاركًا له فى تدبير شئون الإمارة منذ سنة ٨٧٧هـ وحتى وفاته.

وبعد وفاة محمد بن بركات بأربع سنوات أى فى سنة ٩٠٧هـ، شارك ابنه هزاع بن محمد

---

(١) الخلعة : هى القفطان الذى ينعم به الحاكم أو الوزير على شخص ما.
انظر : قاموس شمس الدين سامى. (المترجم).

(٢) أوزون بمعنى طويل فى التركية. (المترجم).

(٣) السنجق وجمعها سناجق، كلمة تركية بمعنى الراية. (المترجم).

بن بركات أخاه بركات بن محمد بن بركات فى تدبير أمور الإمارة. ولما توفى فى نفس العام، تولى مكانه أخوه أحمد بن بركات الذى يشتهر بين الأهالى بلقب (أحمد الجازانى). وفى سنة ٩٠٨هـ توفى هو أيضًا.

ومع أن الشريف أحمد الجازانى ثار على أخيه بركات بن محمد، وتغلب عليه أثناء وصول القافلة المصرية وأعلن استقلاله بالإمارة، إلا أنه قتل أثناء طوافه فى يوم الجمعة العاشر من رجب من نفس العام، وتولى مكانه أخوه حميضه بن محمد بن بركات. وعندما تغلب بركات بن محمد فى يوم التروية من السنة المذكورة على حميضة، أعطيت الإمارة لبركات بن محمد، على أن يشارك معه على بن بركات بن محمد وأخوه قايتباى بن محمد فى الإمارة وعلى أثر وفاة على بن بركات سنة ٩١٣هـ. ثم وفاة محمد بن بركات [1] ـ الذى حمل كانه ـ بعد فترة قصيرة، ووفاة الشريف قايتباى، سنة ٩١٨هـ اقتصرت الإمارة على الشريف بركات بن محمد إلا أن الشريف بركات ابن محمد أرسل ابنه أبا نمى إلى مصر، وتوسل إلى الحكومة المصرية لكى تمنح ابنه حكم مكة المكرمة بمفرده. استجاب السلطان الغورى لرجاء الشريف بركات، وعين أبا نمى حاكمًا على أرض الحجاز وينبع، ومنحه البراءة الخاصة بذلك وألبسه خلعة مزركشة بالذهب، وأعاده معززًا مكرمًا إلى مكة المكرمة.

الشريف أبو نمى:

ارتفع قدر الشريف أبى نمى وعلا شأنه بين الأهالى، لأنه كان عاقلا ومدبرًا وقديرًا فى الحرب، لم يتضرر أحد من الناس فى زمنه سواء من بين الأهالى أو الحجاج أو التجار جاء الشريف أبو نمى [2] إلى مصر حيث تصادف فتحها مع توليه منصب الإمارة. وقابل السلطان سليم الأول فى قصر (الروضة) الذى استقر فيه بعد فتح مصر، وبايعه، ثم قدم له بعض الهدايا القيمة ومفتاح البيت الحرام. فأحسن عليه السلطان سليم بإمارة الأقطار الحجازية حتى حدود اليمن، وخصص له محصول جدة المعمورة. وأهدى إليه وإلى أبيه خلعة فاخرة ونصل سيف مرصع.

---

(١) أطلق الشريف بركات بن محمد على ابنه الشريف محمد اسم (محمد الشافعى)، لأنه ولد فى مصر.

(٢) بعد أن علم الشريف بركات أمير مكة المكرمة بفتح مصر، أرسل إلى السلطان سليم الأول ابنه أبا نمى، لكى يقدم الطاعة للسلطان ويطلب خلعته وإبقاءه فى حكم بلاده. (حيدر جلبى: روزنامة حيدر جلبى، ورقة ١٥٠ م مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايى باستانبول، تحت رقم R . 1955) وظل الشريف بركات أميرًا على مكة حتى عام ١٥٢٥ م. ولم يكن قد تولى الشريف أبو نمى الحكم بعد كما ورد فى المتن. (المترجم).

هذا ما يرويه أكثر المؤرخين عن هذه الواقعة. أما مؤرخي مكة فتتباين أخبارهم وتختلف عن هذه الرواية. يذكر مؤرخو مكة: أن السلطان المغ ور له فكر في إرسال مقدار من العساكر إلى الأراضي الحجازية سنة ٩٢٣هـ للاستيلاء على مكة المكرمة. إلا أن قاضي مكة صلاح الدين بن أبي السعود ابن ظهيرة [1] المسجون في مصر علم بهذه الأخبار، فرجا السلطان في أن يرسل رسالة إلى الشريف بركات حرصًا على شرف مكانته، يحثه على تقديم الطاعة والولاء له، بدلا في تسيير العساكر إلى الحجاز. عرضت فكرة القاضي على السلطان، فوافق عليها وباركتها أركان الدولة. ولما وصلت الإرادة السنية إلى الشريف بركات، سارع على الفور ودون أدنى تردد في إرسال ابنه أبي نمي برسالة تهنئة خاصة إلى مصر. وقد سعد السلطان بوصول الشريف أبي نمي إلى مصر أيما سعادة وصدق على إمارة أبيه ومشاركته له في تدبير شئون الحكم. وأمر بإعادة أعيان مكة - الذين سبق أن حبسهم الغوري في مصر - معه.

إستطراد:

أحضر أبو نمي معه إلى مصر دون طلب مسبق الأمانات المقدسة ومفتاح البيت الحرام، وسلمها إلى السلطان سليم.. انتهى.

توفي الشريف بركات سنة ٩٣١هـ وهو في الواحدة والسبعين من العمر، وتوفي ابنه أبو نمي سنة ٩٩٢هـ وهو في الثمانين من العمر، فتولى ابنه حسن ابن أبي نمي منصب الإمارة.

بلغت مدة إمارة الشريف بركات ٥٣ عامًا، تخللتها بعض السنوات التي اشترك فيها الابن مع الأب. وبلغت مدة حكم الشريف أبي نمي ٧٢عامًا، تخللها اثنا عشر عامًا شارك فيها الابن أباه.

وكذلك شارك أحمد بن أبي نمي أباه في الحكم لمدة أربعة عشر عامًا. ولما مات الشريف أحمد سنة ٩٦١هـ تولى مكانه أخوه حسن بن أبي نمي.

استصوب السلطان سليمان القانوني مشاركة الشريف أحمد لأبيه في الحكم فصحب سليمان باشا أحمد بن أبي نمي [2] معه إلى الآستانة وهو عائد من حرب اليمن بناء على

---

(١) يتلخص سبب حبس القاضي صلاح الدين في أنه لم يتمكن من الوفاء بالمبلغ الذي طلبته منه الحكومة المصرية دون وجه حق، وقدره عشرة آلاف دينار مصري.

(٢) الشريف أحمد بن أبي نمي، هو جد سادات (آل منديل وآل حراز)، ويطلق عليه (الشريف أحمد)

تكليف من أبيه. وعندما رأى السلطان سليمان أحمد، غمرته الفرحة، وأمر به فجلس عن يساره. وأصدر السلطان أمره بأن يشارك أحمد أباه فى الحكم تكريمًا له.

قتل حسن بن أبى نمى فى حرب نجد سنة ١٠١٠هـ وهو فى التاسعة والسبعين من العمر، واستمرت فترة حكمه خمسين عامًا. وقد تولى مكانه ابنه أبو طالب بن حسن بن أبى نمى بن بركات.

شارك الشريف حسن بن أبى نمى فى البداية أخاه الأكبر حسين بن حسن ابن أبى نمى ثم شارك بعد ذلك مسعود بن حسن بن أبى نمى. ولما توفى الاثنان، تولى أبو طالب بن حسن بن أبى نمى، ولدى وفاته سنة ١٠١٢هـ، تولى أمور الإمارة أخوه أبو العون إدريس بن حسن بن أبى نمى.

تلقى الشريف حسن بن أبى نمى قبيعة سيف مرصع من السلطان محمد، أثناء مشاركة ابنه أبى طالب له فى الحكم. وعند وصول هذا السيف المرصع إلى مكة المكرمة، قام الشريف بجمع الأعيان والأشراف وضباط العساكر ومشايخ القبائل فى المسجد الحرام، وألبس ابنه أبا طالب خلعة فاخرة فى مكان قريب من بئر زمزم، وأمر بقراءة الخطبة باسم السلطان ثم اسم ابنه أبى طالب.

جلس إداريس بن حسن بن أبى نمى على كرسى الإمارة، وأشرك معه أخاه فهيد بن حسن وابن أخيه محسن بن حسن بن أبى نمى نزولا على رغبة الأشراف. ولما توفى الشريف فهيد فى الآستانة سنة ١٠٢٠ هـ[(١)]، وتوفى الشريف إدريس فى جبل (شمر) سنة ١٠٣٤هـ وهو فى الستين من العمر، أعلن محسن بن حسين بن حسن استقلاله بالحكم[(٢)].

توفى الشريف محسن بن حسين سنة ١٠٣٨هـ، فعين مكانه أحمد ابن عبد المطلب سنة ١٠٣٩هـس، ثم تولى مسعود بن إدريس سنة ١٠٤٠هـ. ثم انتقلت إمارة مكة المكرمة إلى محمد بن عبدالله بن حسن بن أبى نمى بعد وفاة عبدالله بن حسن بن أبى نمى سنة ١٠٤١هـ جد الشريف عون الرفيق باشا الأمير الحالى.

أضير البيت الحرام من أثر السيول فى عهد الأمير مسعود، وقد أمر عبدالله بن حسن بترميمه أثناء إمارته.

---

(١) يسجل هذا الصراع تاريخ وفاة الشريف فهيد بحساب الجمل، وهو (مات بالروم فهيد بن الحسن).

(٢) توفى الشريف إدريس بن حسن فى مكان يقال له: (يا طب) فى جبل شمر. ومن غريب الصدف أن لفظ (ياطب) عند حسابه بحساب الجمل، يدلنا على مدة حكمه.

لبس الشريف عبد الله خلعة الإمارة كرهًا، وبعد الحج عين ابنه محمدًا مكانه، وجعل من زيد بن محسن شريكًا له. ومع أنه آثر الانزواء بعد هذه الإجراءات إلا أن الخطبة ظلت تذكر باسمه تبركًا.

ظهرت أحداث الجلالي في عهد إمارة محمد بن عبدالله، فأعلنت إمارة الشريف نامي بن عبد المطلب.

خلاصة أحداث الجلالي:

كان جلالي جنديًا يمنيًا خرج على طاعة قانصو باشا، وانتقل إلى (القنفذة)، ثم هاجم مكة ساعة إعلان تولية سيد نامي عليها، وقام بقتل الشريف محمد بن عبدالله الذي كان يدافع عن جنوب مكة. ومع أن زيد بن محسن شريك محمد بن عبدالله في الحكم أخذ يدافع عن مكة، إلا أن مشاهير الأشراف كأحمد بن حراز وحسين بن موسى وسعيد بن راشد استشهدوا، وجرح هزاع بن محمد الحرث، وقتل مائتان من أهالي مكة، وأصبح الدفاع غير مجد. فانسحبت بقية السيوف إلى وادي مر بالظهران. ودخل الجلاليون مكة، وأعلنوا سيد نامي أميرًا على مكة ومعه عبد العزيز ابن إدريس بن حسن مشاركًا. وبعد ذلك توجهوا إلى جدة، وبعد أن أغاروا على أموال التجار والأهالي، عادوا ونهبوا بيوت الأشراف، إلا أن العساكر التي وصلت من مصر بطريق البر والبحر سنة ١٠٤٢هـ تمكنت من قتل الكثير من الجلاليين. وأنهت القلاقل، وأعادت زيد بن محسن للحكم.

وطبقًا لرواية مؤلف تنقيح التواريخ، فإن الشريف حمود انتزع الإمارة من الشريف سعد بن زيد أمير مكة، وبذلك لما أوتي من قوة لإحداث الفتنة والفساد، واعتدى على مكة والمدينة وجدة. وآذى أبناء السبيل، وأقدم على محاربة حسن باشا والي جدة عدة مرات. وقد قام الشريف سعد باتخاذ بعض الترتيبات فحافظ على أموال التجار وحرص على أموال فقراء الحرمين التي تأتي من استانبول، أما الشريف حمود فقد أفسد نظام المملكة وانتظامها بطلبه العساكر الكثيرة من إمام اليمن للاستيلاء على بندر جدة، وإحداثه القلاقل والفتن. وإطلاقه النار على والي جدة حسن باشا أثناء قيامه برمي الجمار في منى. وانتهز أشقياء القبائل الفرصة فقطعوا طرق الحرمين وموارده، وأغاروا على قافلة الشام ونهبوها.

ولما عرض الشريف سعد الأمر على العتبة العلية، صدر الفرمان إلى والي الشام حسين (أخي سياوش باشا) لكي يتحرك إلى مكة لدرء الفتنة، كما صدر الفرمان إلى أمير الحج المصري أوزبك بك لكي يتحرك من مصر على رأس العساكر لدفع الخطر. ولما وصل حسين

باشا بقافلة الشام إلى مكة، اهتم بدفع الفتنة، وقام بعزل الشريف سعد، وتعيين الشريف بركات سالف الذكر مكانه بعد إجماع عموم الأشراف والسادات عليه.

حكم الشريف زيد بن محسن البلاد الحجازية واليمنية بالعدل والحق لمدة خمسة وثلاثين عامًا، أحسن فيها الإدارة، ثم توفى سنة ١٠٧٧هـ. وتولى مكانه ابنه سعد بن زيد. وفى سنة ١٠٧٩هـ أشرك معه أخويه حمود بن زيد وأحمد بن زيد فى الحكم. ثم تولى الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم مكان الشريف سعد بن زيدسنة ١٠٨٢هـ.

توفى الشريف بركات سنة ١٠٩٣هـ، فتولى مكانه ابنه الشريف سعيد ابن بركات. وفى سنة ١٠٩٥هـ تولى الشريف أحمد بن زيد. ثم تولى الشريف سعيد بن سعد بن زيد سنة ١٠٩٩هـ. وبعده تولى الشريف أحمد بن غالب ابن محمد بن مسعود بن حسن بنى أبى نمى. وفى سنة ١١٠١هـ تولى الشريف سعيد بن سعد بن زيد سنة ١٠٩٩هـ. وبعده تولى الشريف أحمد بن غالب ابن محمد بن مسعود بن حسن بن أبى نمى. وفى سنة ١١٠١هـ تولى الشريف محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى. ثم تولى الشريف سعيد بن سعد للمرة الثانية، فالشريف سعد بن زيد للمرة الثانية أيضًا. وفى سنة ١١٠٥هـ تولى الشريف عبدالله بن هاشم بن محمد بن عبد المطلب. وبعد أربعة أشهر تولى سعد بن زيد للمرة الثالثة. ثم حكم سعيد بن سعد للمرة الثالثة أيضًا. وبعدها تولى عبد المحسن بن أحمد، فعبد الكريم بن محمد بن يعلى بن حمزة بن موسى ابن بركات بن أبى نمى، ثم تولى بعد ذلك أربعة أشراف دام حكمهم جميعًا عامًا واحدًا، وهم على التوالى: سعد وسعيد وعبد المحسن وعبد الكريم. ومما تجدر الإشارة إليه أن عبد المحسن هذا الذى يتكون اسمه من تسعة أحرف حكم فى هذه المرة لمدة تسعة أيام.

ثم تغلب الشريف سعد على الشريف عبد الكريم وتقلد منصب الإمارة للمرة الرابعة، إلا أنه لم يمكث فيها أكثر من تسعة عشر يومًا، تمكن بعدها عبد الكريم من استرداد منصبه. وفى سنة ١١١٦ هـ سالت الدماء كالأنهار، فعزل الشريف عبد الكريم، وتولى مكانه الشريف سعيد بن زيد للمرة الرابعة.

تولى الشريف سعد بن سعيد منصب الإمارة أربع مرات، استمرت فترته الأولى فى الحكم ست سنوات، والثانية ستين، والثالثة سبع سنوات وسبعة أشهر، والرابعة تسعة عشر يومًا فقط. وبحساب هذه المدة يبلغ مجموع سنوات حكمه خمسة عشر عامًا وسبعة أشهر وتسعة عشر يومًا. وقد توفى الشريف وهو فى الرابعة والستين من العمر.

بلغ عدد القتلى فى المعارك التى دارت بين الشريف سعد والشريف عبد الكريم ٦٠٠

شخص. وفى رواية أخرى ١٢٠٠ شخص، وقد كومت رءوس القتلى على هيئة هضبة أمام سبيل السلطان مراد بالمعلى لإرهاب الأهالى.

عين الشريف سعيد بن زيد سنة ١١١٧هـ، ثم تولى مكانه الشريف عبد الكريم للمرة الرابعة سنة ١١٢٣هـ، ثم الشريف سعيد بن زيد للمرة الخامسة سنة ١١٢٩هـ، وبعده تولى ابنه الشريف عبدالله.

بلغت مدة إمارة الشريف سعيد عشر سنوات، وسبعة أشهر. استمرت مدة إمارته الأولى خمسة أشهر، والثانية سنة واحدة، والثالثة سنتين وأربعة أشهر، والرابعة تسعة أشهر، والخامسة ست سنوات وشهرًا واحدًا. ثم توفى سنة ١١٢٩هـ، بالغًا من العمر ٤٤ عامًا.

وحكم الشريف عبد الكريم ثلاث مرات بلغت مدة إمارته فيها ست سنوات. استمرت مدته الأولى ستة أشهر، والثانية ثلاثة أشهر، والثالثة خمس سنوات وثلاثة أشهر.

ومع أن عموم أشراف مكة اختاروا الشريف عبد المحسن بن أحمد ابن زيد، لكى يتولى منصب الإمارة بعد وفاة الشريف سعد بن زيد، إلا أنه لم يقبل ذلك. وأخبرهم بأن الأنسب هو عبدالله بن سعيد، فاستصوب الأشراف هذا الرأى، ووافقوا على تعيين الشريف عبدالله. وفى سنة ١١٣٠هـ عين الشريف على بن سعيد، بناء على رأى الشريف عبد المحسن وقراره.

عين الشريف مبارك بن أحمد بن زيد أخو الشريف عبد المحسن، ولم يكد يمضى على تعيين الشريف على بن سعيد أكثر من ثمانية أشهر. وبعد مدة قليلة ألبس الشريف يحيى بن بركات خلعة الإمارة الفاخرة، ثم عزل سنة ١٩٣٢هـ، وتولى مكانه الشريف مبارك بن أحمد.

هزم الشريف يحيى سنة ١١٣٢هـ فى حربه التى أشعلها مع الشريف مبارك بتحريض من بعض الأشراف بعد وفاة الشريف عبد المحسن. وقد عين الشريف مبارك فى منصب الإمارة الثانية على أثر ذلك، وعزل سنة ١١٣٤هـس، فعين مكانه الشريف يحيى بن بركات للمرة الثانية. ثم عين ابنه بركات ابن يحيى سنة ١١٣٥هـ. وفى سنة ١١٣٦ هـ عين مبارك بن أحمد للمرة الثالثة، وبعد خمسة أشهر عين عبدالله بن سعيد للمرة الثانية. وفى سنة ١١٤٦هـ تولى مسعود بن سعيد للمرة الثانية. وعين مساعد بن سعيد سنة ١١٦٥هـ، ثم جعفر بن سعيد سنة ١١٧٢هـ، فمساعد بن سعيد للمرة الثانية سنة ١١٧٣هـ. وفى سنة ١١٨٤هـ تولى عبدالله بن سعيد، وبعد مدة قصيرة تولى أحمد ابن سعيد. وخلال نفس السنة تولى عبدالله بن حسين بن يحيى، فأحمد ابن سعيد للمرة الثانية خلال العام نفسه. ثم ألبس سرور بن مساعد خلعة الإمارة سنة ١١٨٦هـ.

كان سرور بن مساعد فى الثامنة عشرة من العمر عندما تولى منصب الإمارة. وقد شجع هذا بعض أفراد القبائل على تحريض عمه أحمد بن سعيد لكى يستولى على زمام الإمارة. تقاتل العم وابن أخيه خمس عشرة مرة قتالا دمويًا عنيفًا، انتصر فى بعضها. إلا أن ابن الأخ تمك فى المرة الخامسة عشرة من القبض على عمه وزج به فى سجن جدة حتى مات فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ١١٩٥هـ.

وبعد وفاة الشريف سرور سنة ١٢٠٢هـ، تولى أخوه عبد المعين منصب الإمارة من بعده. وبعد نصف يوم وعلى رواية بعد عدة أيام تولى أخوه الشريف غالب. وفى سنة ١٢٢٨ هـ تولى الشريف يحيى بن سرور، ثم الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سنة ١٢٤٢ هـ[1]. وفى سنة ١٢٦٦ هـ تولى عبد المطلب بن غالب، ثم الشريف محمد بن عبد المعين بن عون للمرة الثانية سنة ١٢٧٢هـ، فعبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين بن عون ثم عبد المطلب بن غالب للمرة الثانية سنة ١٢٩٨هـ، فالشريف (عون الرفيق باشا) بن محمد بن عبد المعين بن عون سنة ١٢٩٩هـ، وهو الشريف الحالى فى منصب الإمارة.

بدأت علاقة الشريف غالب بالسلفيين ودعوتهم سنة ١٢٠٥هـ، واستمرت المعارك بين الطرفين ـ والتى بلغت ستًا وخمسين معركة ـ إلى سنة ١٢٢٠هـ. وخلال السنة المذكورة تمكن السلفيون من دخول مكة المكرمة.

* * *

(١) كتب والى جدة أحمد باشا إلى دار السعادة لكى يعين الشريف عبد المطلب مكان الشريف يحيى. ومع أن علماء مكة أجمعوا رأيهم على تعيين عبد المطلب فى منصب الإمارة، إلا أن الأوامر صدرت من الأستانة بتعيين محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين ابن عبد الله بن حسن بن أبى نمى، وإرجاء تعيين الشريف عبد المطلب.

جدول بأسماء أمراء الأشراف
الذين تولوا إمارة مكة المكرمة منفردين أو مشاركين

الطبقة الأولى [1] :

إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بنموسى الجون .
الشريف أبو عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر .
« أبو جعفر أحمد بن يوسف الأخيضر .
« حسن بن يوسف الأخيضر[2] .
« محمد بن يوسف الأخيضر .
« يوسف بن يوسف الأخيضر .
« إبراهيم بن أبي عبد الله محمد بن يوسف الأخيضر .
« محمد بن محمد بن يوسف الأخيضر .
« حسن بن يوسف بن محمد بن يوسف الأخيضر .
« أحمد بن يوسف بن يوسف الأخيضر .
« محمد بن أحمد بن يوسف الأخيضر .
« محمد بن جعفر بن يوسف الأخيضر .
« صالح بن إسماعيل بن يوسف الأخيضر .

الطبقة الثانية [3] :

الشريف موسى الثاني ابن عبد الله .
« داود بن موسى بن عبد الله .
« محمد الأكبر بن عبد الله .

---

(١) ظهر أمراء هذه الطابقة سنة ٢٥١ هـ ، وانقرضوا سنة ٣٥٠ ، واستمرت مدة حكمهم ٩٩ عاماً .
(٢) إذا كان إسماعيل بن يوسف الأخيضر قد ظهر في بلاد اليمن ، فإن أخاه الشريف حسن تولى إدارة القطر الحجازي بأكمله .
(٣) ظهرت الطبقة الثانية سنة ٣٥٠ هـ ، وانقرضت سنة ٤٥٣ هـ ، واستمرت في حكم بلاد الحجاز ١٠٣ أعوام .

- حسين بن محمد الأكبر عبد الله .
- محمد الثابر بن محمد الأكبر عبد الله .
- أبو هاشم محمد بن محمد الثابر بن عبد الله .
- أبو جعفر محمد بن حسين بن محمد الأكبر[1] .
- أبو محمد جعفر بن محمد بن حسين بن محمد الأكبر .
- عيسى بن أبى جعفر محمد بن محمد الأكبر .
- أبو الفتوح حسين بن محمد الأكبر .
- تاج المعالى أبو عبد الله شكر بن أبى الفتوح .

خاتم الطبقة الثانية [2] .

الشريف حمزة بن عباس بن داود بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن الإمام حسن السبط .

الطبقة الثالثة[3] :

الشريف أبو الهاشم محمد بن جعفر .

- قاسم بن أبى الهاشم بن جعفر .
- هاشم بن فليته بن جعفر .
- قطب الدين عيسى بن جعفر .
- داود بن عيسى بن فليته بن قاسم .
- قاسم بنمهنى بن عيسى بن فليته .
- مكثر بن عيسى بن فليته .
- فليته بن قاسم بن جعفر .
- الأمير شجاع قاسم بن فليته بن جعفر :
- مالك بن فليته بن قاسم بن جعفر .
- مكثر بن عيسى بن فليته .
- داود بن عيسى بن فليته .
- محمد بن مكثر بن عيسى بن فليته .

الطبقة الرابعة [4] :

الشريف أبو عزيز قتادة .

- حسن بن أبى عزيز قتادة .
- الملك مسعود بن اقسيس .

(١) ومع أن بعض الولاة قد اختيروا من قبل الملوك السالفه فى مكة حتى أواسط حكم أبى جعفر ، إلا أن أبا جعفر تمكن من الاستقلال بالحكم ، وبعدها صارت إمارة مكة تحت إدار الأشراف الكرام فعلا وعملا .

(٢) استمرت هذه الإدارة ثمانى سنوات .

(٣) ظهرت هذه الطبقة من الأشراف سنة ٤٦١ هـ ، واستمرت حتى ٥٩٨ هـ ، أى أنها بلغت ١٣٧ عاماً فى الحكم .

(٤) بدأت هذه الطبقة سنة ٥٩٨ هـ .

نور الدين على بن عمر بن رسول .

الشريف راجح بن قتادة[2] .

« أبو سعيد حسن بن على .

« جماز بن حسن قتادة .

« غانم بن راجح بن قتادة .

« إدريس بن على بن قتادة .

« إدريس بن على بن قتادة .

« غانم بن راجح بن قتادة .

« أبو نمى بن أبى سعيد حسن .

« حميضة

« عطيفة

« حميضة بن أبى نمى [5]

« عطيفة

« عجلان بن رميثة .

« سند بن رميثة .

« عجلان بن رميثة .

« أحمد بن عجلان بن رميثة .

« عنان بن مغامس بن رميثة .

« عقيل بن مبارك بن رميثة .

« عنان بن مغامس بن رميثة .

« حسن بن عجلان بن رميثة .

« أحمد بن حسن بن عجلان .

« حسن بن عجلان بن رميثة .

« أحمد بن حسن بن عجلان بن رميثة .

طغتكين التركى [1] .

« شيخة بن قاسم الحسينى [3] .

« أبو نمى بن أبى سعيد حسن .

« راجع بن أبى عزيز قتادة .

« أبو نمى بن أبى سعيد حسن .

« أبونمى بن أبى سعيد حسن .

« أبو نمى بن أبى سعيد حسن

« جماز بن شيخة الحسينى [4] .

« جماز بن شيخة الحسينى .

« رميثة

« أبو الغيث

« رميثة

« رميثة

« ثقبة بن رميثة .

« محمد بن عطيفه .

« ثقبة بن رميثة .

« محمد بن أحمد بن عجلان .

« أحمد بن ثقبة بن رميثة .

« على بن عجلان بن رميثة .

« محمد بن عجلان بن رميثة .

« بركات بن حسن بن عجلان .

« رميثة بن محمد بن عجلان .

« بركات بن حسن بن رميثة .

« على بن حسن بن عجلان .

---

(١) صار طغتكين التركى أميراً على الشريف راجح بن قتادة سبع سنوات .

(٢) صار الشريف راجح أميراً على طغتكين التركى سبع سنوات .

(٣) كان الشريف شيخه أميراً على المدينة المنورة .

(٤) كان الشريف جماز بن شيخة أميراً على المدينة المنورة .

(٥) تولى هؤلاء الإخوة الأربعة منصب الإمارة لمدة ٣٤ عاماً ، وتتابع كل منهم بعد الآخر ، وحدثت بينهم حروب طويلة .

- أبو القاسم حسن بن عجلان .
- أبو القاسم بن حسن بن عجلان .
- محمد بن بركات بن حسن بن عجلان .
- هزاع بن محمد بن بركات .
- حميضة بن محمد بن بركات .
- قايتباى بن محمد بن بركات .
- محمد بن بركات [1] .
- حسن بن أبى نمى بن بركات بن محمد .
- أبو طالب بن حسن بن أبى نمى .
- مسعود بن حسن بن أبى نمى .
- فهيد بن حسن بن أبى نمى .
- أحمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبى نمى
- عبد الله بن حسن بن أبى نمى .

- محمد بن بركات بن حسن بن علاج
- بركات بن حسن بن عجلان .
- بركات بن محمد بن بركات .
- أحمد (الجازانى) بن محمد بن بركات
- على بركات بن محمد بن بركات .
- بركات بن محمد بن بركات .
- أبو نمى بن بركات بن محمد .
- أحمد بن أبى نمى بن بركات .
- حسين بن حسن بن أبى نمى .
- أبو العون إدريس بن حسن بن أبى نمى .
- محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى .
- مسعود بن إدريس بن حسن بن أبى نمى

- محمد بن عبد الله بن حسن بن أبى نمى [2] .
- سعد بن زيد بن محسن .
- أحمد بن زيد بن محسن .
- سعيد بن بركات بن محمد .
- سعيد بن سعد بن زيد .
- محسن بن حسين بن حسن بن أبى نمى .
- سعد بن زيد بن محسن .
- سعد بن زيد بن محسن .
- عبد المحسن بن أحمد بن غالب .
- سعد بن زيد بن محسن .
- سعيد بن سعد بن زيد بن محسن .
- سعيد بن سعد .
- يحيى بن بركات .

- زيد بن محسن بن حسين .
- حمود بن زيد بن محسن .
- بركات بن محمد بن إبراهيم .
- أحمد بن زيد بن محسن .
- أحمد بن غالب بن محمد .
- سعيد بن سعد بن زيد .
- عبد الله بن هاشم بن محمد .
- سعيد بن سعد بن زيد .
- عبد الكريم بن محمد بن يعلى .
- عبد الكريم بن محمد بن يعلى .
- عبد الكريم بن محمد .
- عبد الله بن سعيد بن سعد .
- مبارك بن أحمد بن زيد .

---

(١) ولد محمد بن بركات فى مصر ، فسماه أبوه (محمد الشافعى) .

(٢) أضير البيت الحرام فى عهد محمد بن بعد الله .

- عبد الله بن سعيد .
- مسعود بن سعيد .
- جعفر بن سعيد .
- عبد الله بن سعيد .
- عبد الله بن حسين بن يحيى .
- سرور بن مساعد .
- غالب بن مساعد .
- محمد بن عبد المعين بن عون .
- محمد بن عبد المعين بن عون .
- حسين باشا بن محمد بن عبد المعين .
- عون الرفيق باشا بن محمد بن عبد المعين [1] .
- محمد بن عبد الله بن سعيد .
- مساعد بن سعيد .
- مساعد بن سعيد .
- أحمد بن سعيد .
- أحمد بن سعيد .
- عبد المعين بن مساعد .
- يحيى بن سرور بن مساعد .
- عبد المطلب بن غالب بن مساعد .
- عبد الله باشا بن محمد بن عبد المعين .
- عبد المطلب بن غالب بن مساعد .

أمراء المدينة المنورة :

تولى السادات الحسينية حكم إمارة المدينة المنورة ، أثناء قيام السادات الحسنية الذين أوضحنا أسماءهم عاليه بحكم إمارة مكة المكرمة .

تولى (حسن المثنى) بن الإمام حسن السبط (رضى الله عنه) أوقاف المدينة المنورة فى عهد بنى أمية . وقد قام عبد الرحمن بن الأشعث بمبايعة حسن المثنى فى بلاد العراق غيابياً . ولما حاول أن يدفع أهالى العراق للموافقة على البيعة ، قبضوا عليه وقتلوه . كما سمم حسن المثنى الذى اختفى على أثر هذه الواقعة ، فعين مكانه (زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين على) بن الإمام الحسين بن على (رضى الله عنهما) . وفى عهد المنصور العباسى عين أميراً على المدينة المنورة ومشتملاتها .

عمر زيد مائة عام ، ولما استشهد عهد بإمارة المدينة المنورة إلى أخى على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) . ويدعى (مسلم بن عقيل) بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب ، وهو من نسل عقيل . ولما استشهد بدوره سنة ٣٣٤ هـ ، تولى (أبو القاسم مسلم) بن أحمد بن مسلم بن عقيل . ولدى وفاته وجهت الإمارة إلى (عبد الله) بن حسن بن عبد الله بن عباس بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) .

---

(١) لا زال المشار إليه يحكم حتى الآن فى سنة ١٣٠٦ هـ .

ولما كان عبد الله بن حسن من أفاضل العلماء ، فقد عهد إليه بقضاء الحرمين الشريفين . وقام الرجل بهاتين المهمتين الكبيرتين خير قيام . ثم ألبس (إسحق) بن محمد بن يوسف بن جعفر الطيار (رضى الله عنه) الخلعة ومنح حكم إمارة المدينة ، فقام ببناء سور حولها .

ثم عين الشريف (حسن) بن طاهر بن مسلم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن جعفر الحجة بن عبد الله بن حسين بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهما) ، مكان إسحق بن محمد . وتولى بعده الشريف (هانى) بن أبى على طاهر بن مسلم ، ثم جاء بعده الشريف (أبو عمارة مهنا) بن أبى هاشم داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن جعفر الحجة الحسينى . وهكذا صارت إمارة المدينة المنورة قاصرة على (السادات الحسينية) منذ عهد حسن بن طاهر .

كان مسلم بن عبد الله جد عبد الله بن طاهر رجلا فريداً فى زمانه من العارفين بالله . استقل حفيده بن طاهر بالإمارة ، وبعد أن حمل الفاطميين على التصديق على إمارته ، أمر بقراءة الخطبة باسمه على منبر المسجد النبوى الشريف . ولما اتسعت دائرة إمارته ، أشرك معه بن عمه الشريف (أبا على) طاهر ، وعهد إليه بمنصب أمير الجيش . ولما مات أبو على ، ادعى ولداه (هانى) و (مهنى) أحقيتهما بتولى منصب أبيهما ، وتجرأ كل منهما على إعلان المعارضة ، ونافس كل واحد منهما الآخر . فتأثر حسن بن طاهر من هذا النزاع ، وغضب من ولدى أبى على . واتجه إلى خراسان لملاقاة محمود سبكتكين للاستعانة برأيه ، إلا أنه مات هناك . فقاد الأخوان الجنود كل منهما ضد الآخر ، وتوالت الحروب بينهما . وقد تمكن (مهنى) من الانتصار على أخيه فى نهاية المطاف ، ثم تولى الإمارة .

تولى (هانى) الإمارة بعد أخيه ، ثم تولى بعده (أبو عمارة) مهنى بن أبى هاشم داود بن قاسم الحسينى ، فالشريف (حسين بن مخيط) بن أحمد بن حسين أبو هاشم داود . وبعد سبع سنوات تولى الشريف (شهاب الدين) حسين بن أبى عمارة المهناة ، ثم خلفه ابنه الشريف (مهناة الأعرج) إبن شهاب الدين .

استمرت مدة حكم حسين بن مخيط سبع سنوات ، لأنه كان من أصحاب الزهد والورع ، وقد أطلق لقب (المهنائية) على أبناء وأحفاد ابنه مهناة الأعرج .

وبعد مهناة الأعرج تولى (حسين بن مهنى) . ثم تولى أخوه الشريف (عبد الله مهنا) بن مهناة الأعرج . وبعد ذلك تولى أخ آخر يدعى (أبو فليتة قاسم بن مهناة الأعرج)[1] .

---

(١) كان الشريف قاسم بن مهنى والياً على مكة المكرمة سنة ٥٧١ هـ .

كان أبو فليته أميراً كريماً عظيم القدر بين الأهالى ومتديناً وشجاعاً ومهيباً ومسامحاً فى نفس الوقت . اكتسب حب ملك مصر صلاح الدين الأيوبى وتقديره . ومنذ سنة ٥٨٤ هـ وهو يشارك صلاح الدين فى كافة حروبه .

وبعد وفاة أبى فليتة قاسم ، تولى ابنه (هاشم بن قاسم) أبو فليتة . ولدى وفاته تولى بن أخيه الشريف (عز الدين جماز) بن قاسم بن مهنى . ثم جاء بعده (شيخة بن هاشم) [1] بن قاسم بن مهنى ، فـ(أبو سند جماز) [2] توجه هاشم بن قاسم إلى الشام لكى يطلب مناصرة ملكها على أمر مكة أبى عزيز قتادة بن إدريس الذى حدثت معه حروب كثيرة . ثم عاد ومعه الجنود التى جهزها له ملك الشام ، إلا أنه توفى قبل بلوغه المدينة المنورة . وتولى بعده ابنه (عز الدين) الذى لم يجد مفراً من مواجهة أبى عزيز الذى وصل بجنوده إلى قرية صفرا . وأنزل بفرقته هزيمة نكراء أدهشت المكيين أنفسهم . وبعد أن شتت الفرقة المذكورة ضيق خناق الحصار حول قلعة ينبع التى لجأ إليها أبو عزيز قتادة . ثم عاد إلى المدينة المنورة فور توقيعه على الصلح الذى أرسله إليه أبو عزيز راجياً ومتمنياً .

كانت إمارة المدينة المنورة فى يد عز الدين جماز سالف الذكر ، كما كانت إمارة مكة المكرمة فى يد الشريف أبى نمى بن أبى سعيد حسن بن على عندما أنزل هولاكو الدمار ببغداد .

لقب أبو سند جماز بن شيخة حفيد الشريف جماز بلقب (الحرون) ، لأنه كان أميراً غضوباً للغاية . وبعد وفاته تولى أخوه (منيف) بن شيخة . ثم تولى بن أخيه (مقبل) بن جماز عقب وفاته . وجاء بعده (كبش) بن منصور .

كان المنصور أربعة إخوة هم : (كبش ، وكبيش ، وفضيل ، وعطية) . ولما تولى كبش منصب الإمارة نازعة إخوته على منصب الإمارة مدة طويلة مدعين أحقيتهم فيها . ومع أن كبيشا انتزع الإمارة من أخيه (كبش) ، وانتزع (فضيل) الإمارة بدوره من كبيش ، إلا أن (عطية) تمكن من هزيمة إخوته جميعاً بعد مدة ، واستقل بمنصب الإمارة . ولما آتاه لأجل المحتوم سنة ٧٨٣ هـ ، تولى ابنه (محمد بن عطية) مكانه . وفى سنة ٧٨٨ هـ تولى (عمير بن قاسم) بن جماز ، وبعده (جمال الدين جماز) بن هبة بن منصور .

ثارت القلاقل والفتن من قبل بعض المفسدين واضطربت أحوال الأهالى فى عهد جمال الدين حماز ، فاضطرت الحكومة المصرية إلى التدخل ، وأرسل الملك الناصر مقداراً كافياً من

---

(١) كان الشريف شيخه بن قاسم والياً على مكة المكرمة سنة ٦٣٧ هـ .

(٢) كان الشريف جماز بن شيخه والياً على مكة المكرمة سنة ٦٦٩ هـ .

الجنود ، ثم نزع الإمارة من جمال الدين وأحال إدارة المدينة المنورة إلى (حسن بن عجلان) أمير مكة . فقام حسن بن عجلان من جانبه بتولية (ثابت) بن نضير هبة بن منصور على إمارة المدينة المنورة . ولدى وفاته سنة ٨١١ هـ أي وفاة ثابت ، عين مكانه أباه (نضير) بن هبنه . وبعد وفاة حسن بن عجلان سنة ٨٢٠ هـ ، استقل بالإمارة (عزيز بن هنازع) بن هبنه . ولما توفى سنة ٨٢٥ هـ تولى مكانه (حسن بن جماز) . وبعد ذلك جاء (إيبان) بن جماز بن هبنه، ثم (مانع بن على) بن عطية بن منصور . وفي سنة ٨٣٩ هـ تولى (وثبان بن مانع) . وبعد وفاته تولى أخوه (قايتباى بن مانع) ، ثم (سليمان بن مانع) . فـ (إيسان بن مانع) وبعد ذلك جاء (سليمان بن عزيز بن هنازع . ولدى وفاته ، تولى) زهير بن إيسان) . وعندما عزل تولى أخوه (ضغيم) بن زهير . ثم تولى (قسيطل) بن زهير ، فـ (زهير) . ولدى وفاتة سنة ١٠٩٩ هـ . تولى (حسن بن زهير) وبعد حسن بن زهير ضمت إدارة المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

* * *

جدول بأسماء السادات

الذين تولوا إمارة المدنية المنورة

حسن المثنى ابن السيد الإمام الحسن السبط (رضى الله عنه) .

زيد الشهيد ابن الإمام زين العابدين على الحسينى .

مسلم بن عقيل بن محمد العقيلى .

أبو القاسم مسلم بن أحمد .

إسحق بن محمد بن يوسف الجعفرى .

حسن بن طاهر الحسينى .

أبو على طاهر الحسينى .

هانى حسينى .

مهنا حسينى .

أبو عمارة الحسينى

حسين بن مخيط الحسينى .

شهاب الدينالحسينى .

مهناة الأعرج الحسينى .

حسين الأعرجى الحسينى .

أبو عبد الله الأعرجى الحسينى .

أبو فليته الأعرجى الحسينى .

هاشم بن أبى عبد الله الأعرجى الحسينى .

عز الدين الأعرجى الحسينى .

شيخه الأعرجى الحسينى .

أبو سند جماز الأعرجى الحسينى .

منيف بن شيخة الأعرجى الحسينى .

مقبل بن شيخة الأعرجى الحسينى .

كبش بن المنصور الحسينى .

كبيش بن المنصور الحسينى .

فضيل بن المنصور الحسينى .

عطيفة بن المنصور الحسينى .

محمد بن عطية الحسينى .

عمر بن قاسم الجمازى الحسينى .

جمال الدين الجمازى الحسينى .

ثابت بن نضير الجمازى الحسينى .

عجلان بن نضير الجمازى الحسينى .

عزيز بن هنازع الجمازى الحسينى .

حسن الجمازى الحسينى .

إيتان الجمازى الحسينى .

مانع الجمازى الحسينى .

وثبان الجمازى الحسينى .

قايتباى الجمازى الحسينى .

سليما الجمازى الحسينى .

إيسان الجمازى الحسينى .

سليمان الجمازى الحسينى .

زهير بن إيسان الجمازى الحسينى .

ضيغم بن إيسان الجمازى الحسينى .

فسيطل بن إيسان الجمازى الحسينى .

زهرى بن إيسان الجمازى الحسينى .　　　　حسن بن زهرى الحسينى .

* * *

إخطار :

ينتهى النسب الشريف الطاهر لكل واحد من هذه الأسماء التى ذكرناها من (الأشراف الحسنية) و (السادات الحسينية) التى حكمت القطر الحجازى من الذوات الكرام إلى الحسنين الأحسنين (رضى الله عنهما). وهناك اختلاف فى النسب الشريف لمؤلفى كتب الشاذلية . ومع أن المؤلفين اختلفوا فى نسب شيخ الشاذلية العارف بالله سيد على أبى الحسن الشاذلى ، وهو من أعاظم كبار السادات الحسنية ، إلا أنهم أجمعوا على أن الشيخ ينحدر من السلالة الطيبة لأئمة أهل البيت ، وليس غير ذلك . الروايات تختلف فى : هل ينحدر سيد على أبو الحسن الشاذلى من سلالة أولاد الحسن بن على بن أبى طالب ؟ أم ينحدر من سلالة أولاد الحسين بن على بن أبى طالب ؟ هذا وقد ضبط بن الوفاء الشاذلى فى كتابه : (شجرة الإرشاد) النسب الشريف للإمام الشاذلى ، وهو محق فيما ذهب إليه إذا حكمنا العقل والمنطق .

يروى ابن الوفاء فى كتابه (سلسلة النسب الشريف لأبى الحسن الشاذلى) ، فيقول : (هو السيد الشريف على أبو الحسن الشاذلى بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن خاتم بن قصى بن يوسف بن يوشع بن ورد أبن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الإمام حسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنهم أجمعين) .

هذا وما أوردناه مترجماً عن بن الوفاء يعتبر على سبيل الاستطراد .

* * *

الفصل الثانى

الخوارج الذين ظهروا فى اليمن

بنو طباطبا :

ظهر بنو طباطبا وهم من السادات العلوية سنة ٢٨٨ هـ ، وأقاموا لهم حكومة فى اليمن وصنعاء وصعدة .

وأول اسم ظهر من بين هؤلاء يحيى بن حسين ، الذى خرج يدعوى الإمارة اعتماداً على أنه ينحدر من سلسلة النسب الثامنة للإمام على (كرم الله وجهه) . وقد تلقب بـ (الإمام الهادى) .

كانت بداية ظهوره عندما حارب مأمورى الإدارة العباسية فى منطقة اليمن وتغلب عليهم ، ثم استولى على منطقة اليمن بكاملها ، وأنشأ له حكومة فيها . وبعد عام واحد تمكنت القوة التى أرسلها المكتفى بالله العباسى من استرداد كل البلاد التى كانت تحت نفوذه عدا صعدة . وقد تقلد ستة أشخاص من أحفاده منصب الإمامة على التوالى فى هذه المدينة التى كانوا يقيمون فيها حتى تاريخ وفاته . ثم انقرضوا سنة ٣٥٤ هـ .

بنو زياد :

ظهر بنو زياد الذين استولوا على منطقة اليمن سنة ٢٠٣ هـ . وانقرضوا سنة ٤٠٧هـ . وكان عدد أفرادهم سته أفراد استمروا فى الحكم ٢٠٤ أعوام ، متخذين من (زبيد) عاصمة لهم .

وأول من تولى الحكم من بنى زياد هو (محمد بن إبراهيم بن محمد أبن عبد الله زياد) ، الذى قبض عليه الخليفة المأمون وزج به فى السجن ، وعهد إلى الوزير فضل أبن سهل بالتحفظ عليه وحراسته . فظهرت الحاجة ماسة لإرسال مأمور قدير لدفع الاضطراب الذى حدث فى دبار اليمن فى تلك الآ نة وإعادة الأمن لسابق عهده . ولما رأى فضل بن سهل أن محمدا بن إبراهيم أهل لذلك صدق على تعيينه ، وأرسله على رأس الجنود التى أعدت لذلك .

أسس محمد بن إبراهيم مدينة (زبيد) سنة ٢٠٤ هـ . وزاد من حجم القوة التى كان قد أتى بها ، واستولى على إقليم اليمن بكامله وظل يحكمه حتى وفاته . وقد جاء من بعده خمسة من أحفاده حكموا اليمن .

وكل إبراهيم رابع بن زياد (حسين سلامة) فى إدارة شئون الحكم ، نظراً لصغر سنة . وبعد مدة تمكن عبد لحسين سلامة يدعى (نجاح مرجان) من الاستيلاء على مقاليد الحكم . وبناء على ذلك انتقل الحكم من بنى زياد إلى نجاح مرجان ، وسمى أتباعه (بنو نجاح) .

ظهر بنو نجاح سنة ٤١٢ هـ ، وانقرضوا سنة ٥٥٣ هـ ، ودامت مدة حكمهم ١٤١ عاماً ، اتخذوا خلالها مدينة زبيد عاصمة لهم .

بنو مهدى :

ظهر أول فرد من بنى مهدى ويدعى (على بن مهدى) سنة ٥٥٣ هـ وانقرض أحفاده الذين تولوا الحكم من بعده سنة ٥٦٩ هـ .

تعتبر قرية (عنبترة) الواقعة على ساحل زبيد ، مسقط رأس على بن مهدى . وبعد أن طاف على هذا مدة من الزمن فى الحجاز والعراق ، عاد إلى ولايته ، وحمل الناس على بيعته . وقد تمكن فى هذه الفترة من إدخال (سكان السواحل البحرية اليمنية وسكان الوديان التى بين الجبال) فى دائرة احتياله . وبعد أن جمع أهالى النواحى الجبلية ، ووسع نطاق حكومته بالقوة العسكرية ، سمى الذين قدموا من تهامة (المهاجرين) . والذين قدموا من الجبال (الأنصار) . ووضع نقيب كل من هاتين المجموعتين تحت رئاسته . ثم اتخذ لنفسه خلوة منفصلة ، لكى لا يختلط بأفراد الأهالى . ومع ذلك كان يدير دقة الأمور عن طريق النقيبين . المذهبين ونهب القرى والمزارع والصحارى . وعندما خرج واستولى على مدينة زبيد ، تصادف خروجه مع انقراض بنى نجاح ، وأعلن استقلاله سنة ٥٥٤ هـ . وبعد وفاته انتقلت مقاليد السلطة إلى ابنه مهدى ، ولدى وفاة المهدى ، انتقل الحكم إلى ابنه عبد النبى . وقد دامت فترة حكم على بن مهدى وأولاده من بعده خمسة عشر عاماً .

فروع الدولة الأيوبية :

استولى أحد فروع الدولة الأيوبية على منطقة اليمن سنة ٥٦٩ هـ ، ثم انقرض سنة ٦٢٦هـ.

واستمرت مدة حكومته ٥٧ عاماً . أطاع بعض أفراده الدولة الأيوبية وانصاع لأوامرها ، والبعض الآخر أعلن استقلاله وعداءه للدولة الأم . إلا أن هذا الخلاف كان سبباً فى انقراض هذا الفرع .

بنو رسول التركمان :

ظهر بنو رسول وهم من أتباع الدولة الأيوبية سنة ٦٢٦ هـ ، وانقرضوا سنة ٨٥٩ هـ .

بلغ عدد أفراد بنى رسول الذين حكموا عشرة أشخاص ، استمر حكمهم ٢٣٣ عاماً ، واتخذوا من زبيد عاصمة لهم .

ويروى المؤرخون الحكاية التالية ، ليدللوا بها على أن بنى رسول ينحدرون من الملوك الغسانية .

حكاية :

اعتنق (جبلة بن الابهم) ـ وهو من الملوك الغسانية ـ الإسلام فى خلافة عمر الفاروق ، ثم ارتد عن الإسلام معاذ الله تعالى ، وتوسل إلى ملك استانبول لكى يضمه تحت حمايته ، وقبل الكفر والعناد . وقد قام بعض أولاده الذين تربوا فى استانبول بالسياحة فى بلاد التركمان بعد وفاته . وآنسوا الأمان لدى عشيرة تدعى عشيرة بيجك هناك ، وتعلموا لغتها . وقد عدوا من أفراد هذه العشيرة نظراً لهذه العلاقات الوطيدة . وكان منهم محمد بن هارون الذى ذهب إلى بغداد مع بعض الأكراد الذين خالطهم . ولما اكتسب احترام الخلفاء العباسيين، أرسلوه فى مهمة خاصة إلى مصر والشام ، وأطلقوا عليه اسم (رسول) .

تصادف وجود هذا الشخص فى الشام أثناء القلاقل التى حدثت فى بغداد ، ولما علم بالخبر توجه فوراً إلى مصر ، وعرض البيعة على صلاح الدين الأيوبى ، فأظهر له صلاح الدين آيات من الاحترام والتبجيل ، وأرسله فى مهمة خاصة إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ . وبعد أن وصلها بمدة قصيرة ، أعلن استقلاله .

ظل خلفاء محمد بن هارون فى حكم اليمن مستقلين ، ووسعوا نشاطهم وزادوا قوتهم . ولما ظهر الأئمة الزيدية حاربوهم ، إلا أنهم هزموا أمامهم عدة مرات وتشتتوا .

بنو طاهر:

ظهر بنو طاهر سنة ٨٥٩ هـ ، وانقرضوا سنة ٩٢٢ هـ ، واستمر حكمهم ٦٣ عاماً .

ينتهى نسب بنى طاهر إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز . قام أول حكام بنى طاهر ويدعى عامر بن طاهر بالاستيلاء على بعض مناطق اليمن من بنى رسول والبعض الآخر من الأشراف ، وظل يتقدم إلى أن استولى على كل أجزاء اليمن . وقد انتقل زمام الحكم إلى أخيه بعد رحيله ، ثم ابن أخيه من بعده ، فابنه بعد ذلك .

وفى سنة ٩١٧ هـ استولى البرتغاليون على الكجرات والدكن من بلاد الهند ، وعلى السواحل الشرقية والجنوبية لجزيرة العرب . وبنوا قلعة حصينة فى أجمل موضع بساحل الدكن تدعى (فوقا) . واستولوا على مضيق (هرمز) ، وبدأوا الاعتداء على الأهالى المسلمين من تلك البقاع الذين يسافرون بالبحر . وعلى أثر ذلك قام مظفر حاكم الكجرات وعامر - بن عبد الوهاب حاكم اليمن سوياً بالشكوى إلى ملك مصر السلطان الغورى والاستغاثة به . فقام السلطان الغورى بإرسال الأمير حسين إلى مضيق هرمز لكى يواجه البرتغاليين بالعساكر الوفيرة والسفن الكثيرة التى كان يعدها لتبحر إلى جدة . ولما وصل الأمير حسن إلى جدة ، سارع بإنشاء قلعة بها لكى تكون حصناً ، ثم توجه بعد إكمالها إلى مياه الكجرات . إلا أنه عاد إلى جزيرة كمران [1] الواقعة تحت إدارة ولاية اليمن حالياً ، حيث من غير الممكن اجتياز المضيق والبرتغاليون يسيطرون عليه من قبل . ثم أرسل إلى حاكم اليمن عامر بن عبد الوهاب رسولا خاصاً ، لطلب بعض الذخيرة بدلا من التى نفدت . وقد غضب عامر بن عبد الوهاب من قيام الأمير حسين بتضييع الوقت سدى فى القلعة التى بناها فى جدة ، ولم يدل برأى فى ذلك . وقد سلب غضب عامر بن عبد الوهاب قدرة الأمير حسين على التحمل وحرك فى نفسه الطمع لا نتزاع منطقة اليمن من يده ، فانصرف عما كلفته به الحكومة المصرية ، وقاد جنوده إلى اليمن ، واستولى على زبيد سنة ٩٢٢ هـ ، ثم أثار الأهالى ضده بظلمه وعسفه ونفرهم منه .

علم السلطان سليم الأول بالظلم الشديد الذى يوقعه الأمير حسين بأهالى اليمن ، بعد أن فتح مصر وضمها للممالك العثمانية سنة ٩٢٣ هـ . فأرسل فرماناً إلى أمير مكة الشريف أبى نمى ، يأمره بقتله وإعدامه . أرسل الشريف سفينة إلى الأمير حسين كى يستقلها إلى العتبة

---

(١) يقال لهذه الجزيرة حالياً : (قمرون) .

العلية لمقابلة السلطان فى أمر ما . ولدى وصول السفينة إلى مشارف جدة ، ألقى به فى الماء وغرق .

استولى أحد عبيد الأمير حسين ويدعى (برسباى) على منطقة اليمن وأقام له حكومة بها ، على أثر التخلص من سيده . وجمع بقية السيوف تحت رئاسته ؛ لمحاربة الجيش المصرى ، وظلم الأهالى وآذاهم .

وعندما توفى الأمير برسباى سنة ٩٢٣ هـ ، صدر المنشور العالى من الذات السلطانية بتوجيه ولاية اليمن إلى أمير مقراية إسكندر بك . وقد قرئ اسم الذات الهمايونية على المنابر بعد ذلك ، فانتهت حكومة أمراء الجراكسة سنة ٩٢٧ هـ .

شرفاء الحسينية :

هاجر عبد الله منصور من سادات الحسينية إلى بلاد اليمن لغضبه الشديد من الخلفاء العباسيين ، واختار الخلود للراحة والاستقرار هناك . وقد قام الأهالى بمبايعة الشريف عبد الله منصور سنة ٦٠٠ هـ ؛ لما رأوا الإمام الذى كان يحكم اليمن فى ذلك الوقت يعانى من الضعف الشديد . بدأ الشريف ، فأعد قوة كبيرة تمكن بها من الاستيلاء على المدينة الكبيرة صنعاء وحواليها . وقد استمر إماماً على اليمن لمدة أربعة عشرة عاماً ، ثم توفى . فتولى أولاده الإمامة من بعده لمدة طويلة ، وقسموا البلاد إلى قسمين .

ظل الأئمة الذين يحكمون فى صنعاء إلى وقت قريب من نسل عبد الله منصور ، وقد استمر أهالى اليمن وصنعاء فى إطلاق لقب (الأئمة الزيدية) على حكام اليمن الذين يتبعون المذهب المتروك الذى ينسب إلى زيد بن ثابت .

وقد امتد حكم هؤلاء الحكام الذين كانوا يحكمون اليمن حتى منطقة حضر موت .

تبعد منطقة (نجد) و (عمان) وهما ضمن المناطق الخمس بالجزيرة العربية ، عن أراضى الحجاز واليمن ، وتفصل بينهما صحارى واسعة وقد اعتاد الأهالى هناك منذ زمن بعيد على اختيار أمرائهم ومشايخهم ، وعرضوا عليهم الطاعة والولاء ، لكى يجعلوا من بلادهم سداً منيعاً بينهم وبين حكام الحجاز واليمن .

* * *

الفصل الثالث

ظهور طائفة القرامطة

القرامطة :

اختلفت الروايات بخصوص ظهور طائفة القرامطة اختلافاً كبيراً ، نذكر منها الرواية الجديرة بالذكر ، دون حاجة إلى تفصيل .

ظهر هؤلاء الخونة المفسدون في رواية سنة ٢٦١ هـ على عهد الخليفة المعتمد على الله ، وفي رواية أخرى أنهم ظهروا سنة ٢٨٩ هـ على عهد الخليفة المعتضد بالله ، وتذكر رواية أنهم زالوا سنة ٣٧٣ هـ أو سنة ٣٧٦ هـ على عهد الطايع بالله ، وتذكر أخرى أن ذلك حدث سنة ٣٨٤ هـ على عهد الخليفة القادر بالله .

وبحساب هذه المدة يتبين لنا أن القرامطة الخبثاء استمروا في إظهار خبثهم ثمانين عاماً ، وعلى قول آخر مائة وثلاثة وعشرين عاماً . إلا أنهم لم يتمكنوا من إقامة حكومة لهم خلال هذه المدة .

وأول الخارجين من القرامطة هو أبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى ، وهو من أهالى قرية (جنابة) التابعة لمدينة (الأهواز) ، عمل بالقبانة فى البصرة . وبعد فترة ذهب إلى البحرين ، وغافل الناس هناك بإظهار التقوى والورع المزيف ، وطلع على الناس بمجموعة من المعتقدات الباطلة العجيبة الغريبة ، وخدع البلهاء من الناس وحملهم على مبايعته وطاعته .

وكان أصل مقصد أبى سعيد من هذا العمل هو تحليل ما حرمه الشرع الشريف ، وتكوين القوة التى تنقل هذا الفكر إلى حيز التنفيذ . وكان يعلم أن الناس سينفضون من حوله . إن عرفوا أنه من الخارجين ، لأن الخروج غير جائز شرعاً .

وإكمالا للمسيرة فى طريق الضلال هذا ، قام (على بن يعلى) الذى لا يبالى بالدين بإضلال مجموعة من القرامطة وحملهم بالقوة على الاستيلاء على مدينة القطيف أولا ، ثم نهب أموال سكان نواحى البحرين وأمتعتهم وقتل كثيراً من رجالها ثانياً . ونفذ ما أراده من ظلم عن طريق حكمه لهذه البقاع . ثم خرج من يدعى (يحيى بن زكرويه) إلى الممالك المجاورة ليؤذى الناس .

وابن زكرويه هذا من أعيان القرامطة ، جمع حوله مجموعة من العربان الذين يتجولون في الصحاري في جزيرة العرب بتحريض من أبي . عبد حسن بن بهرام ، وغرر بهم ، وصحبهم معه عند استيلائه على نواحي الشام . وقد ستولت الطوائف الباغية كثيرة العدد التي أرسلها حسن بن بهرام على المناطق الشاسعة الموجودة في (نجد) و (اليمامة) و (اليمن) . وسلب آلافاً من سكان هذه الديار حياتهم . ولم يبق أمام هذه الطوائف . بعد أن اتحدت ونمت قوتها، مفسدة أو فعل شنيع في الدنيا إلا وارتكبته .

القرامطة :

هاجم القرامطة حجاج المسلمين فجأة في عرفات سنة ٣١٧ هـ . وقطعوا كل من وصلت إليه أيديهم إرباً إرباً . ثم هجموا على مكة المكرمة ، وخلعوا الحجر الأسود من مكانه الشريف . ونقلوه إلى ديارهم . واحتفظوا به عندهم لمدة اثنين وعشرين عاماً . لقد لطخوا سمعتهم في الدنيا والآخرة بجرأتهم السافرة هذه .

كان (أبو طاهر) القذر رئيساً للقرامطة الذين نقلوا الحجر الأسود من مكة المكرمة إلى ديار (الهجر) من بلادهم . لقد قتل هذا الجبان ثلاثين ألف حاج في اليوم الذي دخل فيه المسجد الحرام ، وكان أكثر هؤلاء الحجاج لابسين الإحرام . قتل بعضهم داخل نطاق الحرم الشريف للمسجد الحرام ، وقتل البعض الآخر حول الكعبة المشرفة .

عرض موضوع نقل أبي طاهر للحجر الأسود إلى بلاده على عبد الله المهدي أحدخلفاء الفاطميين د وذكر أنه يفكر في قراءة الخطبة باسمه ، فأرسل عبد الله المهدي رسالة توبيخ شديدة اللهجة إلى أبي طاهر ، قال فيها : (يا للعجب ! لقد ارتكبت أنواعاً من الفضائح في بلد الله الأمين ، وتجرأت وتجاسرت على نقل الحجر الأسود إلى الهجر . ونزعت أستار حرمة بيت الله الحرام الذي ظل عزيزاً مكرماً منذ الجاهلية وأيام الإسلام على الدوام . هل تريد أن تغير الخطبة التي كانت تقرأباسمي ؟ لعنك الله وأعوانك !) .

أبو طاهر :

كان أبو طاهر يهدف إلى عرض إخلاصه على عبد الله المهدي . وكان فكره ينطوي على أن يقوم بالتصديق على أن المشار إليه (عبد الله المهدي) من أئمة الجعفرية ، لأن عبد الله المهدي ينسب نفسه إلى محمد بن إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق . ومع أن هذا صحيح . إلا أن هذا الوضع جرح شعور أبي طاهر .

لقد ظهر من بين الخلفاء الفاطميين من يروج أفكار أبي طاهر . وكان من بين هؤلاء

(الحاكم بأمر الله منصور) الذى وصلت به درجة الغدر والتعسف لأن يدعى لنفسه الربوبية . ويوقع على الفرمانات والأوامر بـ (بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم) . وقد قرئت الخطبة باسمه المنحوس فى سائر الممالك التى تحت تصرفه وخاصة فى الحرمين الشريفين . وإذا ذكر إسمه فى أى مكان نهض الناس على أقدامهم لإظهار مراسم التعظيم والتبجيل .

أغار القرامطة على الكوفة فى سنة ٢٨٧ هـ و ٣١٣ هـ ، وعلى البحرين فى سنة ٢٨٦ هـ ، وعلى الشام فى سنة ٢٨٩ هـ و ٢٩٣ هـ ، وعلى دمشق فى سنة ٢٩٠ هـ و ٣٠٦ هـ ، وعلى البصرة سنة ٣٠٧ ، وعلى الأنبار سنة ٣١٥ هـ وعلى الرحبة والرقة وهيط فى سنة ٣١٦ هـ ، وقتلوا أهاليها . ودمروا قوافل الحج العراقية فى سنوات ٢٩٤ هـ ، ٣١٢ هـ ، ٣٦١ هـ ، وقضوا عليها . وسدوا طرق الحج وأغلقوها فى سنوات ٣١٤ هـ ، ٣٥٦ هـ ، ٣٦٣ هـ ، ٣٨٤هـ . إلا أن الخليفة الطائع لله أزال وجودهم الخبيث من على الأرض فى سنة ٣٧٦ هـ وعلى قول فى : سنة ٣٨٤ هـ .

وهناك خلافات كثيرة حول عقائد القرامطة الباطلة : يذكر فريق من المؤرخين أن شخصاً من هؤلاء ادعى النبوة ، وحث الناس على الإيمان بكتابه الذى ألفه على أنه كتاب منزل . ويذكر فريق آخر أن واحداً من أئمة الإسماعيلية ظهر على الساحة قبل ظهور القرامطة ، وطلب من الناس أن يؤمنوا به كمبعوث من قبل الإمام المهدى .

وعلى الرغم من أنه لا يعرف أى الروايتين صحيح ، إلا أن الروايتين تجمعان على أنه مذهب يستند على ترويج الرفض والإلحاد .

وإذا كان هؤلاء الخبثاء يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، أى أنهم يشبهون أنهم من طائفة الإسماعيلية ، فإنهم يحللون المحرمات الشرعية ، ويبيحون سفك دماء المسلمين ، ويحكمون بالكفر على من هم على غير المذهب القرمطى .

وللقرامطة اعتقاد خاص : (فطاعة الإمام المعصوم تعد من الصلوات المكتوبة ، وإعطاء خمس الأموال التى يملكها كل شخص للإمام المعصوم يعتبر من أركان الدين ، والصوم وقاية لأسرار المذهب ، وإشاعة أى شىء يتعلق بالمذهب ينظر إليه على أنه نوع من الزنا) .

ومن جملة عقائد القرامطة الخبيثة : (أن الصوم فى العام يومان ، ولا ضرورة للاغتسال ، والدعوة للشراب حلال) ، وقول : (أشهد أن محمد بن الحنفية فى الأذان المحمدى ضرورة ، والحج إلى القدس فريضه ملزمة) .

وإذا أردنا أن نعرف المزيد من المعلومات عن القرامطة ، أو بمعنى آخر إذا أردنا أن نعرف الكثير من أحوالهم ، فعلينا الرجوع إلى ترجمة حقيقتهم التى طبعت سنة ١٢٩٦ هـ .

* * *

الفصل الرابع

الفتح العثمانى لجزيرة العرب

مكة المكرمة :

أرسل أمير مكة الشريف أبو البركات ابنه أبا نمى إلى مصر ، لتهنئة السلطان سليم بفتح مصر وتقديم الولاء والطاعة له . وقد سرت الذات الهمايونية بهذا أيما سرور ، وصدر الفرمان السلطانى بإبقاء مقام الإمارة الجليلة فى الشريف أبى البركات وابن أبى نمى من بعده . وبعد ذلك سرت أوامر السلطنة السنية على الأقطار الحجازية ، وكذلك على الممالك اليمنية حتى نهاية عهد إسكندر بك أحد أمراء الجراكسة . وقرئت الخطبة على منابر الجوامع باسم السلاطين العظام أولا ، ثم اسم الأمراء المحليين ثانياً . وإذا كان أحد اللاوند [1] ويدعى كمال بك تمرد سنة ٩٢٧ هـ ، وقتل إسكندر بك ، واستولى على اليمن ، واستمر الحكم فى بكوات اللاوند فترة ، فإن سليمان باشا ألقى مراسيه بالأسطول الهمايونى أمام المخاسنة ٩٤٥هـ ، لدى عودته من حرب الهند ، واستدعى أحمد بك اللاوندى حاكم اليمن وقتله ، وعين مصطفى بك مكانه . وهكذا عادت السلطنة السنية من جديد تدير اليمن عن طريق الولاة .

وبعد ثلاثين عاماً ظهر أحد الأئمة الزيدية ويدعى (مطهر) ، واستولى على منطقة اليمن بكاملها بما فيها زبيد ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه . فصدرت أوامر الدولة العلية لسنان باشا سنة ٩٧٧ هـ بتأديبه . وقد تمكن سنان باشا من إنزال الهزيمة بالإمام المذكور ، واستولى على اليمن . ثم عين عليها بهرام باشا . وظلت اليمن تدار من قبل الدولة العلية عن طريق ولاتها حتى سنة ١٠٤٠ هـ . وفى السنة هذه تولى رئيس الزيدية ويدعى (حسن بن محمد) حكم بلاد اليمن من قبل العثمانيين بطريقة ما . وبعد ذلك تمكن الزيديون من الاستيلاء على منطقة اليمن رويداً رويداً .

* * *

---

(١) اللاوند : اسم أطلق على نوع من عساكر البحرية قديماً . و Levantino كلمة إيطالية معناها (الشرق) ، أطلقها البنادقة على العساكر التى كانوا يستخدمونها من أهالى الشرق . وتدل هذه الكلمة فى الفارسية على الشخص الكسول العاطل المشاكس

(Mehmet Zeki Pakalin , Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimlerj Sozlngn, Cilt 2,s.358 . (المترجم) (Istanbul 1971) .

الفصل الخامس

السلفيون

منذ أن استولت الدولة العثمانية على منطقتى الحجاز واليمن ثم كل ديار جزيرة العرب وخاصة الإحساء ، وهى تدير هذه البلاد والقصبات عن طريق مأمورين مختارين من سكان هذه الديار . فبعد أن استولت على جزيرة العرب فيما بعد فضلا عن منطقة الحجاز ، عينت على كل منطقة من المناطق المفتوحة شيخاً . وقد تمكن بن عبد الوهاب الذى بدأ ينشر دعوته فى جميع أرجاء جزيرة العرب سنة ١١٤٠ هـ [١] ، من السيطرة عليها .

ظهور الدعوة السلفية وانتشارها :

ظهر السلفيون قبل تولى الشريف غالب بن مساعد إمارة مكة بوقت طويل ، وقد حدث أول صدام بين الطرفين سنة ١٢٠٥ هـ . بدأت الدعوة فى الانتشار سراً ، ثم أخذت تنتشر علانية فى القرى المجاورة ، وازداد أنصارها يوماً بعد يوم ، حتى أن جما غفيراً من العربان دخل فى الدعوة . وبدأت بعد ذلك توسع دائرة انتشارها حتى وصلت إلى الممالك البعيدة .

ومؤسس الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد أفراد قبائل تميم ، عاش خمسة وتسعين عاماً . ولد الشيخ سنة ١١١١ هـ فى قرية العيينة من توابع قصبة حريملة بمنطقة نجد التى تستقر فيها عشيرته ، وتوفى سنة ١٢٠٦ هـ .

تجول الشيخ فى مناطق البصرة وبغداد وإيران والهند [٢] والشام ، بقصد السياحة والتجارة فى فترة من الفترات . وقد اشتهر بين أنصاره الذين دعاهم بدعوته بالشيخ النجدى .

لقد رأى أشياء عظيمة فى الأماكن التى تجول فيها ، انعكست آثارها على أفكاره . فرغب فى تدوينها . وبررت من هنا دعوته . ظل الشيخ مدة فى المدينة المنورة ثم فى سواد الشام

---

(١) تجمع الوثائق التركية المعاصرة للفترة على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ظهر - سنة ١١٤٣ هـ وبدأ ينشر دعوته .
(انظر : الوثائق التركية رقم (٥٢٢٠ ، ٥٧١٦ ، ٢٩٧٠)) (المترجم) .

(٢) لم يذهب الشيخ إلى إيران أو إلى الهند . (المترجم) .

يحصل العلم على أيدى علماء الحنابلة . ولما عاد إلى ذياره ، ألف كتاباً فى العقائد الدينية وأصول الكلام ، ويدأ يدرسه على العربان فترة . ، قد وهب الشيخ من فصاحة اللسان ما جعله يقنع سامعيه . اتصل الشيخ بمحمد بن سعود شيخ الدرعية وأقنعه بدعوته . ثم بدأ يعلن دعوته بعد ذلك على عربان القبائل فى منطقة نجد ، ويدرس لهم أصولها . وكان قاضياً للدعوة ، أما محمد بن سعود فكان أميراً وحاكماً . وقد توارث ابناؤهما أمر نشر الدعوة من بعدهما .

ويعد أمير نجد الحالى عبد الله بن فيصل من نسل الأمير محمد بن سعود . (١٢٨٢ ـ ١٢٨٨ هـ . ١٢٩٢ ـ ١٣٠٧ هـ) . أما القضاء نافذى الحكم على أهالى هذه المنطقة فهم من نسل محمد عبد الوهاب النجدى .

شغل محمد بن عبد الوهاب قبل قيامه بنشر دعوته بقليل بتحصيل العلم فى المدنية المنورة . ولما بدأ ينشر دعوته ، خالفه فيها بعض العلماء خاصة أخوه سليمان بن عبد الوهاب ولم يوافقوه فيما ذهب إليه من أن التوسل بالأولياء وزيارة القبور شرك محض .

وقد ذهب الشيخ فى دعوته إلى أن مجرد استعمال حرف النداء فى التوسل بالأولياء والصالحين شرك . فلا ينبغى الاعتماد على أحد غير الله . فمن الشرك أن ندعوا للأولياء بشفاء المرضى .

وكان الشيخ يأتى فى كل أقواله بالأدلة والأسانيد ، ليثبت ما يذهب إليه وقبلت قبائل العرب دعوته دون تردد واهتمت بكتبه ورسائله وازداد انصار الدعوة وكثر عددهم وراجت الدعوة فى نجد وقام الأمير محمد بن سعود وأولاده من بعده بنشر الدعوة فى المناطق التى أبت الدخول فيها بحد السيف .

بدأت الدعوة سنة ١١٤٣ هـ ، وبعد سبع سنوات شاعت وانتشرت بين الناس . أى أن ابن عبد الوهاب بدأ الجهاد وهو فى الثانية والثلاثين وفى ظرف ثمان سنوات كان قد أكمل دعوته .

وقام الشيخ من جانبه بكتابة الرسائل والكتب للرد على علماء الدين ، وعلى بعض الشخصيات الأخرى التى كان يراسلها .

وأقوى من سائد الدعوة وحمل لواءها هو الأمير محمد بن سعود من قبيلة بنى حنيفة .

وبعد وفاة محمد بن سعود ، تولى ابنه عبد العزيز بن محمد بن سعود أمر الدعوة . ولما توفى بدوره تولى ابنه سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود .

أظهر ابن عبد الوهاب إخلاصه الشديد فى دعوته إلى توحيد البارى ، ونبذ الكفر والضلال . لقد ظل المسلمون فى ضلالهم يعمهون منذ ستمائة عام ، فظهرت الحاجة ماسة إلى دعوة تجدد الدين . وكان الشيخ يسوق الآيات التالية برهاناً على دعوته السلفية : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ .

وتنحصر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى ثلاث مسائل :

١ ـ العمل جزء من الإيمان ، وكافر من يتكاسل عن أداء فرض من فرائض الصلاة ، وكافر من يبخل بأداء زكاة عام .

٢ ـ لا يجوز التوسل أو الاستعانة أو الاستشفاع بروح الأنبياء والأولياء ومشرك من يلجأ لغير الله .

٣ ـ لا يجوز بناء القباب على أضرحة الموتى . ولا يجوز إشعال القناديل داخلها ، أو تقديم النذور لها .

عندما دخل السلفيون الحرمين الشريفين ، قاموا بهدم قباب الصحابة وأهل البيت والأولياء بكاملها ، وتركوا قبر الرسول (ﷺ) وقد حدث هذا تمشياً مع مبادئ دعوتهم التى سقناها عاليه .

نشر الدعوة السلفية :

دعا ابن سعود الأهالى للدخول فى الدعوة السلفية ، فآمن بدعوته فريق ، وخرج عليها فريق آخر ، مما دعاه إلى مقاتلة من عاداه ، حتى أنه سيطر على القبائل الشرقية وأدخلها فى الدعوة . ووسع أمير الدرعية نطاق دعوته ، فدخل الحجاز ، ثم امتد نفوذه إلى اليمن . ولم تتوقف الدعوة عند هذا الحد ، بل تعدته إلى الشام حتى مزيريب . وخلال سنة ١٢١٠ هـ أرسل ابن سعود علماء من قبله ، لإقناع علماء مكة المكرمة بالدعوة ، إلا أن ذلك لم يجد صدى قوياً بين علماء مكة . حدث هذا فى عهد إمارة الشريف مسعود ابن سعيد بن سعد بن زيد الذى توفى سنة ١١٦٥ هـ .

وكرد فعل لهذا الذى حدث ، قام الشريف مسعود بحبس علماء نجد بناء على حجة تلقاها من علماء مكة . إلا أن بعض العلماء المحبوسين تمكن من الفرار ، واتصل بأمير الدرعية وقص عليه ما حدث وحكى له ما رآه من علماء مكة وشكا له من المكيين ، فوقعت العداوة بين الفريقين ، وجرد السيف والسنان . وقام أمير مكة برد حجج السلفيين ، وإرغام القبائل التى أطاعت السلفيين بالدخول فى طاعته . وقام أمير الدرعية من جانبه أيضاً بدعوة القبائل التى أطاعت أمير مكة للدخول فى طاعته ، وقبول الدعوة .

وقعت أول معركة بين السلفيين والشريف غالب بن مساعد بن سعيد ابن سعد بن زيد سنة ١٢٠٥ هـ . وقد تبادل الطرفان فيها النصر ، وقتلت نفوس كثيرة من الفريقين .

ثم ازدادت قوة السلفيين وازداد نفوذهم ، فدخلت كافة قبائل العربان تقريباً التى تحت طاعة أمير مكة فى طاعة ابن سعود ، واعتنقت الدعوة وبناء على ذلك أرسل ابن سعود فرقة من السلفيين لفتح الطائف ، فتحقق لها النصر فى ذى القعدة سنة ١٢١٧ هـ .

ولما حالف التوفيق السلفيين ، اغتروا بقوتهم ، وأرادوا دخول مكة ، إلا أن الوقت كان يوافق موسم الحج ، فتراجعوا عن فكرتهم مؤقتاً ، و مكثوا فى الطائف إلى أن انقضى موسم الحج ، ثم بدأوا يتحركون لدخول مكة .

ولما علم أهالى مكة بالخبر خرجوا بجنود غير كافية للدفاع عن بلدهم ، وتوجه الشريف غالب إلى جدة . وقد طلب بعض أهالى مكة الأمان من ابن سعود فأمنهم على حياتهم وعلى أموالهم وعيالهم . وأخذ السلفيون يرددون مبادئ دعوتهم على مسامع أهالى مكة لمدة أربعة عشر يوماً ابتداء من ١٨ المحرم سنة ١٢١٨ هـ . ويدعوونهم للتوبة . ثم دفعوا بالذين أعلنوا التوبة إلى جدة لمحاربة الشريف غالب والقبض عليه . إلا أن أهالى جدة المحاصرين دافعوا عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً ، فانقطع أمل ابن سعود فى دخولها . وعاد إلى مكة وولى عليها الشريف عبد المعين أخ الشريف غالب . وعين مقداراً كافياً من العساكر السلفية للمحافظة على البلدة المقدسة من أنصار الشريف غالب ، وعاد هو إلى الدرعية ، بعد أن قضى فى مكة ثمانية أيام منذ أن عاد من جدة .

وبعد رجوع السلفيين إلى الدرعية بـ٣٨ يوماً عاد الشريف غالب وشريف باشا وإلى جدة بالعساكر التى تحت امرتهما إلى مكة . وقام الشريف بطرد السلفيين الذين أبقى عليهم ابن سعود فى البلدة الطيبة للمحافظة عليها من السقوط فى يد الشريف غالب . ثم تولى زمام الإمارة ، وتمكن من دخول الطائف بعد حروب كثيرة مع السلفيين . ودارت بعد ذلك حروب طاحنة بين (عثمان المضايفى) الذى كان ولياً على الطائف من قبل ابن سعود ، وبين أفراد القبائل القاطنة حول الحرمين الشريفين والموجودة تحت طاعة الشريف غالب . وقامت جنود ابن سعود بمحاصرة مكة والإحاطة بكل أطرافها وتضييق الخناق على أهاليها وقطع الطرق والموارد عنهم .

لقد امتد الحصار حتى اشتد القحط وزاد الغلاء ، واندفع الناس فى أواخر أيام الحصار لأكل لحوم الكلاب من شدة الجوع .

وقام الشريف غالب حقناً للدماء وحرصاً على أرواح أهالى مكة بطلب الصلح من عثمان المضايفى . وأرسل إليه الرسل ببعض الشروط التى تتلخص فى (طلب بقاء إمارة مكة له وحث السلفيين على حسن معاملة أهالى مكة) : ثم سلم مكة المكرمة فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٠ هـ .

وبعد ذلك دخل السلفيون المدينة المنورة أى بعد دخولهم مكة المكرمة ، ثم ولوا (مبارك بن مضيان) عليها ، وعادوا إلى الدرعية .

منع السلفيون المحمل المصرى والمحمل الشامى من دخول مكة المكرمة خلال السبع سنوات

التي حكموا فيها الحرمين الشريفين بعد أن دخلوهما ، وغطوا الكعبة المشرفة بستارتين من القماش الأسود الذى يقال له : (القيلان) وحرموا استعمال النرجيلة ، ووبخوا من يستعملها .

ولم تنتهز الدولة العلية أى فرصة . لكى ترسل عساكرها إلى منطقة الحجاز لمواجهة السلفيين . لأنها كانت مشغولة خلال هذه الفترة بالحروب والمنازعات الداخلية . ولما ازداد أنصار السلفيين بشكل كبير سنة ١٢٢٦ هـ ، صدر الأمر السلطانى إلى محمد على باشا بالتصدى لهم . وبناء على هذا الأمر قام محمد على بتجهيز جيش جعل على رأسه ابنه طوسون باشا . وقد غادر هذا الجيش مصر فى رمضان من السنة المذكورة .

وصل طوسون باشا إلى ينبع البحر ، واستولى على قلعتها بمجرد وصوله ، ثم سلك طريق (جديدة) إلى المدينة المنورة ، وبين وادى صفراء وخليج جديدة دارت معركة كبيرة بين الطرفين فى ذى الحجة سنة ١٢٢٧ هـ ، هزم فيها طوسون هزيمة منكرة .

ومع أن طوسون باشا لم يصب بأذى فى هذه المعركة ، إلا أن نفراً قليلا من جنده تمكن من النجاة .

تحرك الغضب فى عروق محمد على على أثر هذه الهزيمة ، وقرر التحرك بنفسه إلى الحجاز فى سنة ١٢٢٧ هـ . وقد صحب معه ١٨ مدفعاً ، و ٣ قنابل وكثيراً من الأسلحة والذخيرة . وفى شهر شعبان من نفس العام استولى على صفراء وجديدة ، ثم استولى على بعض القرى فى شهر رمضان . وبترتيب من الشيخ غالب ، وزع الأموال على بعض مشايخ العربان . ولو كان طوسون باشا قد اتبع نفس السياسة التى مهد لها الشريف غالب عندما جاء أبو الأول إلى الحجاز ، لما فقد منه كل هذا العدد الهائل من الجنود .

كان الشريف غالب فى الظاهر مع السلفيين ، وفى السر حليفاً لمحمد على ، ويساعده بكل ما أوتى من قوة .

استولى محمد على على المدينة المنورة بطرق ملتوية فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة . ثم استولى على مكة فى أوائل المحرم سنة ١٢٢٨ هـ ، بفضل الحيل والدسائس التى قام بها الشريف غالب بن مساعد .

أدى سعود بن عبد العزيز أمير السلفيين فريضة الحج سنة ١٢١٧ هـ[١] ، ثم عاد إلى الدرعية عن طريق الطائف . وعندما وصل إليها ، كان محمد على قد استولى على المدينة المنورة ، ثم على مكة المكرمة . وعندما علم عثمان المضايفى والى الطائف بذلك انسحب من الطائف .

ولدى استقرار محمد على باشا فى مكة ، عزل الشريف غالب ، وعين مكانه ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور بن مساعد . ثم أرسله إلى الآستانة ، فحددت إقامته فى سلانيك ،

---

(١) صحة هذا التاريخ سنة ١٢٢٧ هـ . (المترجم) .

وعاش بها معززاً مكرماً ، إلى أن توفى سنة ١٢٣١ هـ ، فاحتفل بوفاته احتفالا فوق العادة ، ودفن ، ثم أقيمت فوق قبره قبة [٢] .

وبعد ذلك أرسل محمد على فرقة من جيشه إلى (تربه ، وبيشه ، وبلاد غامد ، وزهران ، وبلاد عسير) لمحاربة السلفيين . وفى شعبان من سنة ١٢٢٩ هـ تحرك بنفسه إلى هذه الديار . وبعد أن أحرق القرى والقصبات فى هذه المناطق ، عاد إلى مكة فى رجب سنة ١٢٣٠ هـ . ثم عين ابنه حسن باشا والياً على مكة . وفى ١٥ من رجب بدأ رحلة العودة إلى مصر . وبهذا يكون محمد على باشا قد قضى فى ديار الحجاز ١٩ شهراً .

توفى سعود بن عبد العزيز رئيس السلفيين فى جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ هـ [١]، فتولى بعده ابنه عبد الله بن سعود . وعندما وصل محمد على باشا إلى مصر ، كلف ابنه إبراهيم باشا بقيادة الجيش الذى سيحارب بن سعود .

تحرك إبراهيم باشا على رأس الجيش من مصر فى أواخر سنة ١٢٣١ هـ ، واستمرت الحرب بينه وبين عبد الله بن سعود لمدة عامين كاملين تقريباً أى سنة ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ هـ .

وقد أنفق محمد على باشا على هذه الحروب أموالا طائلة .

وفى المحرم سنة ١٢٣٥ هـ عاد إبراهيم باشا إلى مصر بعد أن خرب الدرعية وحرقها .

* * *

---

(١) استمرت مدة إمارة الشريف غالب سنة وعشرين عاماً .

التغيرات والاختلافات التى حدثت فى الأذان المحمدى

أول من رفع الأذان فى المدنية المنورة هو (بلال الحبشى) ، وأول من قرأه فى مكة المكرمة هو حبيب بن عبد الرحمن .

وأول من أمر برفع الأذان على المآذن فى أيام الجمعة هو عثمان ابن عفان وأول من قرأه هو عبادة بن الصامت أو (أبو يعلى) وكان هدف عثمان من هذا هو أن يحمل أصحاب الحرف والتجار على أداء صلاة الجمعة وطبقًا لما أورده محمد بن سعد نقلا عن الإمام الشعبى فإن النبى ﷺ كان يكلف ثلاثة أشخاص برفع الأذان ، أحدهم هو (بلال الحبشى) ، والآخر هو (أبو محذورة) ، والثالث هو (ابن أم مكتوم) فإذا غاب بلال الحبشى . كان أبو محذورة يرفع الأذان فى ميعاده ، وإذا غاب أبو محذورة [1] ، كان ابن أم مكتوم يرفعه .

ظل الأذان قاصراً على بلال فى المدينة المنورة وفى الأسفار النبوية . وعلى الرغم من ذلك كان ابن أم مكتوم وهو عمرو بن قيس بن شريح [2] المشهور بعبد الله فى قول من الأقوال يرفعه فى المدينة أحياناً .

وأم مكتوم هى (عاتكه بنت عبد الله بن عنكشة) . وعنكشة هذا ينتسب إلى قبيلة بنى مخزوم .

واسم أبى محذورة هو أوس ، وعلى رواية هو سمرة بن معير بن لوذان ابن ربيعة بن عريج بن سعيد بن جمح . وقد رجا أبو محذورة النبى (ﷺ) فى رفع الأذان مع بلال بن رباح ، فوافق ﷺ على ذلك ، وكان أبو محذورة يرفعه أحياناً .

وطبقاً لما رواه الإمام الكلبى ، فإن أبا محذورة كان يرفع أذان الصبح فقط ، عندما كان النبى (ﷺ) فى مكة .

وعندما كان النبى (ﷺ) فى جعرانة يوزع غنائم حنين ، عين أبا محذورة مؤذناً للمسجد الحرام لتعليم الأذان المحمدى . وقد ظل الصحابى المشار إليه فى مكة ، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة [3] .

ويروى المؤرخون أن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) كان يرفع الأذان فى المسجد النبوى والرسول (ﷺ) بداخله .

ولأن بلال كان من أتباع رسول الله (ﷺ) ، فإنه كان يرفع الأذان فى عهد رسول الله (ﷺ) ، إلا أنه رفض هذا التكليف فى عهد عمر بن الخطاب [4] .

---

(١) ونظراً لأن أبا محذورة كان يسكن فى مكة ، فقد ظلت هذه الأصول خاصة بها .

(٢) يعتبر عمرو بن قيس بن شريح أحد أفراد قبيلة شريح بن عامر بن لؤى .

(٣) هذه الرواية منقولة عن ابن جريح . (٤) ناقل هذا الخبر وراويه محمد بن سعد .

أوصى (بلال) عمر بن الخطاب أن يختار مؤذن الرسول (ﷺ) سعد القرظ) ، لكى يؤذن فى مسجد قباء . فاستصوب عمر هذه الفكرة وكلف سعد القرظ برفع الأذان فى المسجد النبوى . وانحصرت هذه المهمة فى أولاد سعد وأحفاده من بعده .

كان بالمدينة المنورة تسعة مساجد أيام الرسول (ﷺ) . وكانت الجماعة فى هذه المساجد تقيم الصلاة على أذان بلال بن رباح ، لعدم وجود مؤذنين فى مساجدهم [١] .

رفع الأذان فى مصر لأول مرة فى جامع عمرو بن العاص ، الذى أسس أيام أن فتحت مصر القاهرة فى عهده . وكان الصحابة الموجودون فى مصر والتابعون يقيمون صلاة الجماعة فى هذا الجامع ، ويحرصون على الاجتماع فيه .

ذكر أبو عمرو الكندى مؤذنى جامع عمرو بن العاص وعرف بهم ، قائلا : كان أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادى أول مؤذن فى جامع عمرو بن العاص فى فسطاط مصر . وكان هذا الشخص من الصحابة الكرام ، ومؤذناً لعمر بن الخطاب ، ومرافقاً للعساكر التى صاحبت عمرو بن العاص فى فتح مصر . وقد عينه عمرو مؤذناً على جامعة الذى بناه بعد الفتح ، لأنه كان مؤذناً له حتى الفتح ، وعين معه تسعة من المعارضين . وقد ظل أبو مسلم رئيساً للمؤذنين حتى وفاته ، وورث أولاده وأحفاده الرئاسة من بعده فى جامع عمرو بن العاص حتى انقراض نسلهم .

كان أبو مسلم يقرأ : « لا إله إلا الله » فى أول الأذان وفى آخره عندما كان رئيساً لمؤذنى ذلك الجامع .

وهذه الرواية منقولة عن أبى الخير .

ولما توفى أبو مسلم ، عين مكانه أخوه شرجيل بن عامر . وقد قام أمير مصر مسلمة بن مخلد بتوسيع جامع عمرو بن العاص وأقام عليه مئذنة أيام رئاسة بن عامر للمؤذنين .

وحتى ذلك الوقت لم تكن للجامع المذكور مئذنة .

ويعتبر شرجيل بن عامر أول من صعد المئذنة فى مصر ، ورفع الأذان .

كان مسلمة بن مخلد يعتكف أحياناً فى المئذنة المذكورة ، وكان لا يرتاح لدق أجراس الكنائس فى فسطاط مصر ، فاستدعى شرجيل وأوصاه بإيجاد حل لهذا الموضوع . فقال له شرجيل : (إننى لأبدأ الأذان فى منتصف الليل ، وأستمر حتى قرب الفجر ، وستدق الأجراس بينما أقوم برفع الأذان ، فمر بعدم دقها فى هذا الوقت) . استجاب مسلمه لهذا الطلب ، وأصدر أمره بعدم دق الأجراس ساعة الليل .

---

(١) هذه الرواية منقولة عن الدار قطنى وأبى داود بكير بن عبد الله الأشج .

ولم يتخل شرجيل عن عادته فى رفع الأذان ابتداء من منتصف الليل وحتى طلوع الفجر إلى أن توفى سنة ٦٥ هـ . وقد بنيت المآذن فوق المساجد والجوامع فى مصر بأمر منه ورفع الأذان من فوقها .

بعض التغيرات التى طرأت على الأذان :

دخل مصر جوهر القائد الذى عين سرداراً على العساكر الزاحفة إلى مصر من قبل المعز لدين الله ، فوجد الأذان المحمدى المعروف الآن فى المدينة المنورة يرفع على مآذن الجوامع والمساجد فى مصر حتى وقت بناء القاهرة . وعندما كان جوهر القائد يصلى صلاة الجمعة يوم ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ فى جامع بن طولون ، أمر عبد السميع بن عمر العباسى بقراءة الخطبة . وأمر المؤذنين بقراءة (حى على خير العمل) بدلا من (حى على الصلاة) فى الأذان المحمدى . وقد قام عبد السميع بإقامة صلاة الجمعة . وقرأ فى الركعة الأولى سورة (الجمعة) ، وفى الركعة الثانية : ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ بناء على أمر جوهر القائد . وبعد أن ركع الركعة الثانية سجد مباشرة ، فاحتد عليه على بن وليد قاضى عسكر جوهر القائد واعترض على تصرفاته الجاهلة ، وصاح فى المصلين ، قائلا : (أيها الجماعة إن صلاتكم باطلة ، أقيموا صلاة الظهر أربع ركعات) . وعلى الرغم من أن هذا الاعتراض لم يلق قبولا لدى الناس ، إلا أن الأمر بقراءة (حى على خير العمل) قد ساد فى كل الجوامع والمساجد .

احتد جوهر القائد على عبد السميع لأنه لا يجهر بالبسملة فى أول كل سورة وفى الخطبة أيضاً . ومع أنه أمر بقراءة (حى على خير العمل) فى الجامع العتيق عندما ذهب لأداء صلاة الجمعة فى أواخر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، كما أمر بالجهر بالبسملة فى الصلاة ، إلا أن الحاكم بأمر الله الفاطمى بعد واحد وأربعين عاماً جمع مؤذنى الجوامع والمساجد كلهم وقاضى القضاء مالك بن سعيد الفارقى ، وأمرهم بإسقاط (حى على خير العمل) من الأذان المحمدى ، وقراءة (الصلاة خير من النوم) فى أذان صلاة الصبح فقط . وأصدر فرماناً لمؤذنى القصر بقراءة (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله) عقب كل أذان . ومن الجدير بالذكر أن أبا على العباسى هو الذى قرأ هذا الفرمان .

ومع أن مؤذنى جوامع مصر القاهرة امتثلوا لهذا الأمر وتركوا (حى على خير العمل) ، فقد عادوا لقراءتها مرة أخرى بعد عام واحد . وبعد أربع سنوات أى سنة ٤٠٥ هـ أبدلت (حى على خير العمل) بـ (حى على الصلاة) . وأمر مؤذنو القصر بقراءة (الصلاة رحمك الله) بدلا من (السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله) عقب كل أذان .

والسبب الذى دعا لصدور أمر لمؤذنى القصر بهذا الخصوص ، هو التصور بأن ذلك إنما حدث لإحياء سنة نبوية متروكة ! لأن بلالا كان يقف أمام باب غرفة السعادة (الحجرة النبوية

الشريفة) ، ويقول : (السلام عليك يا رسول الله) . وأحياناً : (السلام عليك بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة السلام عليك يا رسول الله) [١] . وأحياناً أخرى يقول : (السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح . الصلاة يا رسول الله) [٢] . ولما جلس الصديق على كرسى الخلافة ، كان سعد القرظى يقف أمام باب الخلافة ، ويقول : (السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة حى على الفلاح ، الصلاة يا خليفة رسول الله) . وقد اهتم بهذه الأصول عمر بن الخطاب فى بداية خلافته ، إلا أن الخليفة المذكور كان يقول للناس : (أنتم مؤمنون ، وأنا أميركم) ، ولهذا جرت العادة فى الأذان على قول : (السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، يا أمير المؤمنين) . ثم زيدت عليها جملة (رحمك الله) امتثالا لأمر الخلافة لصادر[٣] .

ولم يترك المؤذنون هذه العادة الحسنة فى عصرى الأمويين والعباسيين ، فقد كان هذا النداء يقرأ عند أبواب الخلفاء والأمراء . وكانت صلاة الجماعة تقام فى مواعيدها [٤] .

وعلى الرغم من أن الفاطميين أرادوا أن يتتبعوا نفس الأثر ، إلا أنهم لم يعتادوا على صلاة الجماعة . وكان مؤذنوهم يسلمون على الملوك والأمراء لدى رفعهم لأذان صلاة الصبح على المآذن . وكانوا يقرءون على المآذن عبارة (السلام عليك . . .) التى جرت العادة على قراءتها عند أبواب الملوك السالفين .

وغير السلطان صلاح الدين الأيوبى هذه العادة الفاطمية . ووضع أصول الصلاة والسلام على الخليفة فى بغداد على المآذن تعظيماً له وتبجيلا . وقد انتشرت هذه الأصول فى جوامع مصر والشام والحجاز . وقد اقتصر ذلك على أذان العشاء من ليلة الجمعة خلال سنة ٧٦٠ هـ. ثم أصبحت قراءة (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله) عادة فى أذان الأوقات الخمسة بعد واحد وثلاثين عاماً .

وعلى الرغم من أن تغيير الأذان المحمدى أمر مستهجن ، إلا أن ذلك حدث أيضاً فى فترة من فترات طائفة الإمامية . ففى ذلك الوقت سجن (أبو على بن كتبغات بن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى) الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله ، وألغى جمل (حى على خير العمل) من الأذان خلافاً لأصحاب المذهب الإسماعيلى عندما تولى الوزارة سنة ٥٢٤ هـ لأنه يعتبر أحد متعصبى طائفة الإمامية . وذكر مكانها جملة (محمد وعلى

---

(١) ناقل هذه الرواية وراويها الإمام الواقدى .

(٢) هذه الرواية منقولة عن البلاذرى .

(٣) هناك روايات تذكر أن جملة (رحمك الله) تعود إلى عهد عثمان بن عفان .

(٤) تركت صلاة الجماعة بعد عصر العباسيين .

خير البشر) . وقد أنكر عليه إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق أحد مجتهدى المذهب الإسماعيلى هذا العمل . ولما قتل أبو على ، ظهر الحافظ لدين الله مرة أخرى ، وألغى جملة (محمد وعلى خير البشر) ، وأعاد جملة (حى على خير العمل) كما كان فى السابق .

وقبل الإمامية رفع شخص يدعى (أمير كابن شكنبة حسين) الأذان ذاكراً جملة (محمد وعلى خير البشر) .

ويقال : إن هذا الشخص ابن على بن محمد بن على بن إسماعيل بن حسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب . ويروى أنه رفع الأذان بهذه الطريقة على إحدى مآذن جوامع حلب ذات ليلة فى عهد سيف الدولة الحمدانى . وقد أصبحت هذه الطريقة عادة فيما بعد لدى أصحاب المذهب الإسماعيلى .

هذه هى رواية الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة .

وقد استمرت جملة (حى على خير العمل) وجملة (محمد وعلى خير البشر) تستعملان فى حلب عند رفع الأذان حتى عهد نور الدين محمود ، أسس نور الدين محمود مدرسة باسم (الحلاوية) . وعند افتتاحها دعا أبا الحسن على بن الحسن بن محمد البلخى الحنفى وهو أحد مشاهير العلماء لتفاؤله بحضوره حفل الافتتاح . قبل أبو الحسن وفقهاء البلدة الدعوة ، وعندما حان موعد الصلاة ، صعد شخص ما إلى المئذنة ، فأمره الحضور بأن يرفع الأذان بالطريقة المشروعة المعروفة . فامتنع عن ذلك . مما دعاهم إلى ضربه وتهديده . وصعد أحد الفقهاء المئذنة ورفع الأذان المحمدى بالطريقة المطلوبة . ومنذ ذلك اليوم لم يتغير الأذان المحمدى .

استمر الأذان فى مصر يرفع بالطريقة التى وضعها الفاطميون حتى عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أى سنة ٥٦٧ هـ ، الذى ألغى جملة (حى على خير العمل) لأنه على المذهب الشافعى ولأن الشيخ أبا الحسن الأشعرى يعتقد أنها بدعة . وبعد ذلك صار الأذان فى جوامع مصر والشام والبلاد التابعة لهما ، مماثلا للأذان الذى يرفع فى مكة المكرمة . واستمرت هذه الأصول متبعة حتى زمن تأسيس الأتراك للمدارس فى مصر أى حتى سنة ٧٦١ هـ . ولما انتشر المذهب الحنفى بعد ذلك ، صار الأذان يرفع فى مدارس الحنفية كما يرفعه الكوفيون وتقام الصلاة كما يقيمها البصريون أيضاً . أما المدارس الأخرى فقد اتبعت الطريقة السائدة فى مكة المكرمة فى هذا الخصوص . إلا أن المؤذنين كانوا يسلمون على رسول الله (ﷺ) بعد أذان العشاء من ليلة الجمعة . وقد اتخذ هذا التقليد فى مصر القاهرة من قبل محتسبها صلاح الدين بن عبد الله البرلسى . وأصبحت عادة أن تقرأ (الصلاة) عقب كل أذان ، تمشياً مع ما أمر به المحتسب نجم الدين الطبندى سنة ٧٩١ هـ . فيقال . (الصلاة والسلام عليك يا رسول الله) [1] .

---

(١) إن قراءة (الصلاة) على مآذن الجوامع فى الممالك العثمانية عادة طية ، اتخذها السلطان مراد الأول بن أورخان . تولى سنة (١٣٥٩ـ١٣٨٩ م = ٧٦١ـ٧٩٢ هـ) .

التسبيح على المآذن :

التسبيح فى أثناء الليل سنة جاءت إلينا من عهد موسى (عليه السلام) . وصل النبى المشار إليه إلى صحراء التيه بعد غرق الفراعنة وهلاكهم ، فأخذ يذكر الله ويسبح بحمده ابتداء من الثلث الأخير من الليل وحتى طلوع الفجر .

وفى عصر الإسلام اتبعت أصول التسبيح لأول مرة فى مصر سنة ٥٩ هـ أى فى عهد مسلمة بن مخلد .

أمر مسلمة بن مخلد بن الصامت (بتاز الأنصارى) الصحابى ، ببناء مئذنة على جامع عمرو بن العاص ، وتعود على الاعتكاف فيها أحياناً . وكان يضيق صدره من صوت أجراس الكنائس ، فاستدعى رئيس مؤذنى الجامع المذكور شرجيل بن عامر ، وسأله قائلا . (لا يرتاح قلبى لدق أجراس الكنائس ساعة الصباح ، فهل لك أن تجد لنا حلا لهذا يا شرجيل ؟) ، فرد عليه قائلا . (إننى سأبدأ فى رفع الأذان فى منتصف الليل ، وأستمر حتى طلوع الفجر ، فمر بألا تدق أجراس الكنائس ساعة قيامى برفع الأذان) . ولما وافق مسلمة بن مخلد على هذا الاقتراح ، اعتاد شرجيل على أن يبدأ فى رفع الأذان اعتباراً من منتصف الليل . وأمر مسلمة بألا تدق أجراس الكنائس ساعة قيام شرجيل برفع الأذان المحمدى ، وبدأ يتعبد بقلب مرتاح .

وفى سنة ٢٥٤ هـ ألغى أبو العباس أحمد بن طولون الأذان الذى يستمر طويلا ، وعين مجموعة من المكبرين ، وخصص لهم الإنعامات الوفيرة ، وجعلهم يتناوبون قراءة التكبير والتسبيح على المآذن حتى قرب الصباح ، ووضع أصول قراءة أشعار الزهد والعشق الإلهى . وسار ابنه أبو الجيش خمارويه على نفس الدرب من بعده ، وأعطى لهؤلاء المخصصات المذكورة كما كانت فى السابق .

وقد استمر هذا التقليد حتى سنة ٥٦٨ هـ . وخلال هذا العام قام شيخ الإسلام (صدر الدين) عبد الملك بن درباس الهدبانى المارانى الشافعى الذى عينه (صلاح الدين) يوسف بن أيوب بإبدال الذكر والتسبيح بالقصائد والمناجاة التى تتصل بالعقائد الأشعرية . ونبه على مؤذنى الجوامع فى مصر والشام بالالتزام بذلك بشدة .

وقام صلاح الدين وشيخ الإسلام فى عهده صدر الدين شيخ أبو الحسن بدعوة الناس إلى اعتناق المذهب الأشعرى لأنهما يعتنقانه ، وتجرأ على تكفير المخالفين لهذا المذهب .

وخلال سنة ٧٠٦ هـ أصبحت قراءة (الصلاة) على المآذن فى يوم الجمعة عادة فى مصر ، لدعوة الناس لصلاة الجمعة . وبعد ٥٥ عاماً سادات هذه الفكرة أرجاء بلاد دمشق الشام وحلب والبلاد الأخرى . وهذه الأصول لا زالت جارية حتى يومنا هذا فى مصر والشام وحلب والممالك الإسلامية الأخرى .

* * *

الفصل السادس

أحوال نجد بعد الإمام عبد الله بن مسعود

تولى الإمام تركى بن عبد الله الحكم بعد أبيه ، وقد امتازت الفترة التى أعقبت الإمام عبد الله بالقلاقل والاضطرابات الداخلية الزائدة ، وكان بينها الخلاف على تولى العرش . وقد ظلت الأحوال مضطربة فترة طويلة من الزمن . وكانت الدولة العثمانية تحاول من آن لآخر بسط سيطرتها على الجزيرة من جديد ، كلما أحست بضعفها واهتزازها ، فأرسلت قائدها نافذ باشا ذات مرة ، على رأس العساكر السلطانية لمحاربة سعود بن فيصل بن تركى ، وتأكيد السيطرة العثمانية .

مسألة اليمن وعسير :

سكن السلفيون جبال السروات الواقعة بين الطائف وصنعاء عند دخولهم منطقة اليمن . وقد نجحوا فى إدخال ما يقرب من مليون من العربان من منطقة عسير فى الدعوة .

والعسيريون قبائل متعددة ، متمردون دخلوا فى الدعوة السلفية ، وانتخبوا أميراً من بينهم سلموه زمام الطاعة والولاء . وقد عرض ولاتهم شديدى الشكيمة الولاء للدولة العثمانية . إلا أن أميرهم السابق (عائض) عصى الدولة العلية ، وحاصر الحديدة عدة مرات . حتى أنه استولى على بعض الأماكن التى تحت إدارة السلطنة السنية أحياناً ، وأشاع فيها القلق والاضطراب ولما لم يمكن مقاومة هؤلاء فى عهد (كرد محمود باشا) . فبانهم هاجموا الحديدة . وقطعت حكومة الحديدة الأمل تماماً فى صد هذا الهجوم . وإيقاف (عائض) ، وسلمت له زمام الحكم .

وبعد وفاة عائض تولى ابنه محمد مكانه ، فاهتمت به الدولة العثمانية وأولته الرعاية والعناية ، إلا أنه عصى كأبيه بعد فترة من الزمن . ولما أرسلت العساكر الكافية لمحاربته ، أبدى استعداده لعرض الطاعة والولاء والتوبة عن أخطائه ، فأحسنت إليه الإرادة السنية بقائممقامية عسير مع رتبة أمير الأمراء لاستقطابه وتأليف قلبه . إلا أن محمد بن عائض أساء

فهم هذه العاطفة السنية وهذا الإحسان السلطاني . وجمع البنادق والمدافع والجنود من أتباعه، ورفع راية العصيان فى رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ، وبغى كأبيه وطغى ، وحاول الاستيلاء على الحديدة ، وأحاط قلعتها من جميع النواحى بحصار محكم . وهاجم المدينة عدة مرات لكى يدخلها ، بعد أن أقام المعابر من أشجار النخيل فوق حوائط القلعة . إلا أن العساكر السلطانية ـ رغم قلة عددها بالنسبة لعدد جنوده ـ واصلت الدفاع ليل نهار والقصف المستمر على الخنادق ، حتى كثرت الخسائر ، وانقطع أمل محمد بن عائض تماماً فى التغلب على العساكر السلطانية ، وفضل الانسحاب .

نظرت الحكومة السنية لما يجرى من محمد بن عائض بعين الريبة والشك واعتراها القلق . وأرادت أن تشيع الأمن والطمأنينة فى نفوس الناس ، فأرسلت إلى هذه المناطق قوة عسكرية تحت قيادة السر دار السابق ـ رديف باشا .

وصل رديف باشا إلى (القنفذة) الميناء الأول لجبال عسير ، وبدأ يعد العدة لبدء الحرب التى يتقن فنونها . أما محمد بن عائض فقد كان صعب المنال فى رأس الناس لتحصنه فى الجبال الشاهقة ، واستيلائه على البلاد وعلى القلاع ، وتحصنه فى قلعة (ريذة) ، وهى حصن ضيق المداخل والمخارج بصورة كبيرة تحاط به الحجارة من جميع النواحى . وقد دمرت هذه القلعة فى حملة واحدة ، وفقد المتحصنون الأمل فى النجاة . إلا أن العفو والأمان صدرا لابن عائض ، وعومل معامل طيبة . ومع ذلك دخل بن عائض أحد مستودعات الذخيرة فجأة ، وأخذ منه ذخيرة كثيرة قضى بها على خيرة الضباط والجنود الموجودين هناك . ولم يعلم أحد بهذه المخاطرة . ولما ظهر فساده وآتضحت صفاته السيئة التى جبل عليها ، ووقف بعض أتباعه على ما قام به ، سفك بعضهم دمه ، انتقاماً لهؤلاء المساكين .

ولما نجح رديف باشا ومعه العساكر السلطانية فى فتح جبل عسير ، صعد على أعلى قمة فى الجبال . وبينما كان ينزل من الجبال فى اليوم الذى فتح فيه قلعة (ريذة) ، زلت قدماه ، وسقط . أمن هذا سقط ؟ أم من كثرة المشى والحركة ؟ لقد ظهر فى أحد قدميه خراج ، كون بثوراً خطيرة من تأثير الطقس المحلى ، مما منعه عن الحركة بعد وقت قصير . ونقل إلى دار السعادة [1] ، لحاجته الماسة إلى تغيير الطقس والمكان . وعين مكانه أحمد مختار باشا ، الذى وفق فى الوصول إلى مراده بإكمال بقية الإصلاحات وتوسيع صنعاء والأطراف والأكناف أيضاً .

---

(١) دار السعادة فى استانبول

ظلت منطقة جزيرة العرب تحت حكم الإدارة العثمانية منذ عهد فاتح الشام ومصر السلطان سليم الأول أى منذ ٣٦٠ عاماً . وبينما عين الولاة لإدارة الحرمين الشريفين وبعض مناطق الحجاز وبعض الأماكن المشهورة القريبة من السواحل اليمنية ، فإن سكان الجزيرة المذكورة من قبائل العرب لم يدخلوا تحت الإدارة والانضباط على أى نحو حتى الآن . وانصاعوا لإدارة مشايخهم وأمرائهم ، الذين كانوا يحثونهم أحياناً على عدم طاعة الحكومة العثمانية .

ومع أن الإدارة السنية لم تكن تأخذ أية إعانات مالية من الأهالى والعربان فى الأماكن الواقعة تحت الإدارة العثمانية فى منطقة الحجاز ، إلا أنها كانت تدفع رواتب نقدية وعينية لقبيلة حرب وبعض القبائل الأخرى لحراسة قوافل الحجاج .

قضت القوة السلطانية الجبارة سنة ١٢٧٧ هـ على بعض أمراء عسير واليمن ونجد الذين كانوا يشيعون الرعب والفزع بين بنى حرب وبعض قبائل العربان الأخرى ، وأصبحوا عبرة للآخرين . واضطربت أحوال الشيخ سعد بن جزاية الذى اعتدى على عربان حرب ، ووقع تحت طائلة العقاب ، وأريق دمه .

واستنجد بن الشيخ سعد بن جزاية بعد وفاة أبيه ومعه بعض مشايخ القبائل الأخرى بحكومة المدينة المنورة . فعفت عنه وعنهم الحكومة وأمنتهم على أرواحهم ، لكيلا يرتدوا إلى طريق الفساد . ولم يحدث من بعد أن تعرضوا لأبناء السبيل أو لقوافل الحج .

وهناك رواية موثوق بها تذكر أن مجموع عدد العرب القاطنين فى جزيرة العرب ، سواء فى الصحارى والجبال أو فى القرى والقصبات ، يبلغ ١٢ مليون نسمة ، يعيش بعضهم حياة حضرية ، وبعضهم الآخر يعيش حياة بدوية .

وجزيرة العرب محاطة بأراض منبتة إلى حد ما مثل اليمن ونجد ومسقط ويكثر نمو أشجار البن فى منطقة اليمن . ويشتغل الناس باستخراج اللؤلؤ والصدف فى كافة سواحل الجزيرة المذكورة خاصة فى خليج البصرة وفى البحرين . وفضلا عن ذلك يشتغل الناس بالزراعة والمشغولات الصناعية فى بعض الأماكن . وأراضيها تنبت أشياء كثيرة . وسكانها مستعدون لعمل المصنوعات التى يرونها .

* * *

الباب الثالث
جغرافية جزيرة العرب

الفصل الأول

الأحوال الجغرافية لجزيرة العرب

جزيرة العرب :

هى شبه جزيرة ضخمة تسكنها قبائل العرب منذ القدم ، وتقع فى الطرف الجنوبى الغربى لقارة آسيا .

يحدها من الشمال بر الشام وصحراء الجزيرة ، ومن الشرق البصرة وخليجها ، ومن الجنوب المحيط الهندى [1] ، ومن الغرب البحر الأحمر [2] ومضيق باب المندب .

يبلغ طول جزيرة العرب من الطرف الشمالى إلى الطرف الجنوبى ٢٥٠٠ كيلو متراً . ويبلغ عرضها من الطرف الغربى إلى الطرف الشرقى ٢٠٠٠ كيلو متر . وكلما اتجهنا جنوباً فى الجزيرة كلما زاد اتساعها من حيث العرض . وتبلغ مساحتها ٣١٥٦٠٠٠ كيلو متر مربع . ويصل تعدادها إلى ١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

ويروى أن الجغرافيين الأوربيين يقدرون المساحة السطحية لجزيرة العرب بأربعة أضعاف مساحة فرنسا ، ويقدرون سكانها بـ ١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

وأكثر الأراضى بالجزيرة غير مسكونة ، لأن مساحتها واسعة جداً وسكانها يبلغ عددهم ١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

وقد قام (عماد الدين الأيوبى) مؤلف تقويم البلدان باختراق الجزيرة بالسير العادى على الأقدام ، فاستغرق سبعة أشهر وأحد عشر يوماً حتى وصل إلى النقطة التى بدأ منها .

وحسب هذا التقدير ، فإن خرج الإنسان من صحراء بر الشام فى نهاية حدود الجزيرة وتوجه إلى المدينة المنورة ، فإنه يصل إلى مينائها ينبع البحر فى (ستة وعشرين) يوماً . ويصل

---

(١) يقال له : بحر عمان .

(٢) يقال له : بحر جدة .

من ينبع البحر إلى ميناء رابغ فى (ثلاثة) أيام ، ومن رابغ إلى جدة فى (ثلاثة) أيام كذلك . ومن جدة إلى عدن ، ومن عدن إلى سواحل مهر ، ومن مهر إلى عمان ، ومن عمان إلى الحسا يعنى إلى (الهجر) فى (ثلاثين) يوماً لكل مرحلة . ومن الهجر إلى أوائل العراق العربى فى (خمسة عشر) يوماً . ومن بداية العراق العربى إلى البصرة فى (يومين) . ومن البصرة إلى الكوفة فى (اثنى عشر) يوماً . ومن الكوفة إلى النقطة التى تحرك منها فى صحراء بر الشام فى (أربعين) يوماً . ويبلغ عدد الأيام التى استغرقت لقطع هذه المراحل كلها مائتين وواحد وعشرين يوماً . بحساب الأشهر سبعة أشهر واحد عشر يوماً .

ويبلغ محيط جزيرة العرب ٧٠٩٢ كيلو متراً ، على اعتبار أن المرحلة ثمانية فراسخ عربية (أو اثنان وثلاثون كيلو متراً) . وهذا الحساب هو حاصل ضرب ٢٢١ مرحلة × ٣٢ كيلو متراً .

وأرض هذه الجزيرة مرتفعة من سطح البحر إلى الخليج وبها أراض منبسطة وقابلة للزراعة . والمنطقة المسماة نجد ، تعتبر نصف المناطق الأخرى بالجزيرة من حيث الطول والعرض . وهى عبارة عن دائرة مكونة من صحارى واسعة جداً ، أراضيها مرتفعة ومنبسطة . والصحارى الواقعة إلى الشرق من الجزيرة وإلى الجنوب والغرب مليئة بالرمال ، والصحارى الواقعة فى الشمال مليئة بالحجارة . وهناك دائرة أخرى ، فضلا عن المواقع التى تتكون من هذه الصحارى . وأكثر أماكن هذه الدائرة عبارة عن سلسلة جبال صغيرة غير منبتة .

وقد أكسبت سلسلة جبال عسير وصنعاء اليمن ، منطقة اليمن وسواحل بحر عمان اتساعاً كبيراً ، وبها أماكن نافعة وصالحة للزراعة .

وهناك أراض رملية ومستوية تقع بين الجبال المنبسطة وسواحل البحر . ويحيط البحر الأحمر بالجزيرة المذكورة من طرفها الثالث . وإذا كان ثلثا الجزيرة عبارة عن أراض منبتة وقابلة للزراعة ، فإن ثلثها الآخر عبارة عن صحارى رملية وحجرية غير منبتة وخالية من السكان . وتعتمد المناطق القابلة للزراعة فى محاصيلها على الأمطار لأن المياه الجارية نادرة . وإذا جفت الأمطار تعتمد على مياه الآبار .

وإذا كانت أكثر مناطق هذه الجزيرة تقع فى نطاق المناطق الحارة ، وحرارتها شديدة ، وأرضها سبخة وغير منبتة . فقد تشرفت أرضها بظهور الدين الإسلامى الحنيف ودعوة إبراهيم (عليه السلام) . وهى لهذا أسعدبقاع الأرض وأكثرها يمناً وبركة .

* * *

الفصل الثانى
البحار التى تحيط بأطراف جزيرة العرب من جوانبها الثلاثة

البحر الأحمر:

يعرف البحر الأحمر بـ (الخليج العربى ، أو بحر القلزم ، أو بحر شعب المرجان أو بحر جدة) .

تقع على ضفته الغربية منطقتنا مصر والحبشة ، وعلى ضفته الشرقية منطقتنا الحجاز واليمن . يتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض من الشمال عن طريق قناة السويس ، ويتصل بالمحيط الهندى من الجنوب عن طريق باب المندب . ويبلغ طوله ٢٦٠٠ كيلو متراً ، ومتوسط عرضه ٢٤٠ كيلو متراً وينقسم البحر الأحمر من طرفه الشمالى إلى خليجين :

الأول : إلى الشرق ويسمى (خليج العقبة) .

والثانى : ناحية الغرب ويدعى (خليج السويس) .

وجزر البحر الأحمر قليلة جداً ، وإذا نمت الشعب المرجانية كالأشجار وكونت جزراً ، فإن هذه الجزر لن تفيد السفن فى شيء . وتطل بعض الشعب المرجانية هذه من سطح البحر بمقدار ذراع أحياناً ، وبعضها الآخر يمتد من عمق البحر إلى ارتفاع السطح . والشعب المرجانية سوداء فى ساحل البحر وفى أعماقه ، وخضراء بقرب السطح . وأكثر السفن التى تجوب هذا البحر تتردى فى الهلاك من جراء الشعب المرجانية .

وتجبر القوارب الشراعية الصغيرة على الابتعاد عن الشاطئ ، لأن أكثر الشعب المرجانية توجد بالساحل من الشاطئ . ولا تقع السنابق التى غرقت أو تحطمت من جراء الشعب المرجانية تحت الحصر .

والشعب المرجانية قليلة جداً فى وسط البحر . وقد وضعت منارات على بعضها ، أما ما لم توضع عليها منارات ، فهى معروفة ومشهورة لدى البحارة . ولهذا تنجو السفن الكبيرة من شرها إذا سارت فى المناطق العميقة :

فى بحر الشعب المرجانية :

توجد أشياء قيمة فى بحر الشعب المرجانية مثل الصدف واللؤلؤ والباغ واليسر . وأنواع الأسماك فى هذا البحر نادرة فى البحار الأخرى .

بحر عمان :

ويعتبر بحر عمان جزءا من المحيط الهندى ، وهو يحيط بالسواحل الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب وحتى مضيق هرمز . والجزء الأعظم منه المرتبط بالمحيط الهندى يتصل بخليج البصرة عن طريق مضيق هرمز .

ويستخرج من هذا البحر أشياء مثل الصدف واللؤلؤ والعنبر القانى والمرجان .

خليج البصرة :

يقع خليج البصرة أو شط العرب بين منطقتى بلاد العرب وبلاد العجم فى الطرف الجنوبى الغربى لقارة آسيا . يبلغ طوله ٩ كيلو مترات ، وعرضه ٥٠ر٤ كيلو متر .

يتصل ببحر عمان من جهة الشرق عن طريق مضيق هرمز . ويصب نهراً دجلة والفرات فى هذا الخليج بعد اندماجهما فى مجرى واحد .

وأشهر موانى سواحل العجم ميناء (بندر عباس) وميناء (أبو شهر) ، وأشهر موانى سواحل العرب (ميناء البصرة) وميناء (القطيف) . ويوجد فى هذا الخليج أعلى أنواع الصدف واللؤلؤ .

تنقسم الجزيرة إلى ستة أقسام : الطرف الشمالى الغربى وبه أراضى الحجاز والطرف الجنوبى الغربى وبه أراضى اليمن ، والطرف الجنوبى وبه حضر موت ، والطرف الجنوبى الشرقى وبه أراضى عمان ، والطرف الشرقى وبه مناطق الحسا والبحرين والهجر ، وتسمى الأراضى الواقعة فى وسط الجزيرة نجد .

الحجاز :

تقع الحجاز شمال غرب جزيرة العرب ، على السواحل الشرقية للبحر الأحمر من السويس إلى اليمن . ويحد الحجاز من الشمال صحراء بادية الشام ، ومن الشرق نجد ومن الجنوب اليمن ، ومن الغرب البحر الأحمر ومن الشمال والغرب مصر .

وطوله من الشمال الشرقى إلى الجنوب الشرقى يبلغ ١٥٠٠ كيلو متراً .

والمنطقة الواقعة شمال غرب الحجاز تسمى (تيه العرب) أو (تيه بنى إسرائيل) .

وإذا كان الجانب الجنوبى لتيه العرب معموراً ويدر المحاصيل ، فإن الجهة الشمالية منه محاطة بالجبال ، ولا يوجد بها مكان يغل غلة ، وكل موقع فيها خال من العمران .

ويوجد فى تيه العرب جبلان : أحدهما يسمى (جبل سيناء) أو (جبل الطور) أو (طور سيناء) ، والآخر يدعى (جبل الحوراء) .

جبل سيناء :

يبلغ ارتفاع جبل سناء ٢٨١٤ متراً ، ويقع بين العقبة وخليج السويس ويمتد سفحه إلى وسط البحر الأحمر .

جبل الحوراء :

يقع جبل الحوراء بالقرب من جبل سيناء ، ويبلغ ارتفاعه ٢٤٧٧ متراً .

وتسمى المنطقة الواقعة فى الطرف الأوسط والجنوبى للحجاز (بادية العرب) ، وتنقسم إلى قسمين : أراضى تهامة وهى عبارة عن ساحل البحر وسط الحجاز بين الحجاز واليمن وح .

وإذا كانت جدة وينبع والطائف وأبو عريش والطور بلاداً معروفة فى منطقة الحجاز ، فإن أشهر مدينتين مقدستين فيها هما : مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، ويقال لهما : (الحرمان الشريفان) .

ولا تكفى سكان منطقة الحجاز المحاصيل التى تدرها الأراضى الحجازية . وعلى الرغم من أن محاصيلها كالصمغ واللبان والعنبر كثيرة إلى حد ما . وبعض أراضيها مزروعة وممهدة، فإن منطقة الجبال واسعة .

والخيول التى تربى فى هذه المنطقة تعتبر أولى الخيول فى العالم .

* * *

الفصل الثالث

الأحوال الجغرافية لبلدتى جدة والطائف

جدة :

تعتبر جدة إحدى بلاد الحجاز الشهيرة الكبيرة .

تقع جدة إلى الغرب من مكة المكرمة على بعد ٩٠ كيلو متراً منها . وتقع على ساحل بحر السويس عند خط عرض ١١ درجة و ٢٩ دقيقة شمالاً ، وعند خط طول ٣٧ درجة شرقاً . وهى أهم ميناء فى منطقة الحجاز .

تقع جدة إلى الغرب من مكة المكرمة على بعد ٦ أميال منها ، على اعتبار أن الكيلو متر ٣٢٨١ قدماً . ويقطع الجمل هذه المسافة فى يومين أى (فى ١٩ ساعة) .

وتأتى الأشياء التالية على قمة الصادرات فى منطقة الحجاز : (جلود البقر ، والبن ، والصمغ العربى ، والعطور المنوعة ، وريش النعام ، وسن الفيل ، والصبار ، واللؤلؤ ، والصدف ، والبلح ، والمرجان ، دهن البلسان ، والنصل ، والحناء ، واليسر ، والبانمة ، والعسل) . وتستورد منطقة الحجاز من (مصر ، والبصرة ، وأوربا ، وبورصة ، وسوريا ، ويومباى) ، (الأرز ، والقمح ، والشعير ، والدقيق ، والمربى ، وعطر الورد ، والصابون ، والجوخ ، والحرير ، والسكر ، والأخشاب ، وسن الفيل ، وريش النعام ، والمسك ، والأقمشة ، والحلى ، والسجاد ، والبغال) : وتدخل هذه الأشياء إلى الحجاز عن طريق ميناء جدة الذى يبلغ دخله السنوى من الجمارك خمسة أو ستة ملايين قرش .

وقد جعل هذا الميناء الشهير مدينة جدة موئلا للتجار والمسافرين . ولا يمكن تخمين عدد الحجاج والزوار والتجار الذين يترددون على الميناء المذكور ، لأن عددهم فى اطراد مستمر .

ويبلغ عدد السكان الموجودين بجدة ٢٥٠٠٠ نسمة بما فيهم تجار مصر والشام والهند واليمن ومجاوروها من المسلمين [1] .

---

(١) يوجد فيها أيضاً مائتان من المسيحين ، معظمهم من الأصناف وبعضهم يعملون فى القنصليات .

وتعتبر مدينة جدة من الممالك القديمة على ساحل البحر الأحمر . وقد بنى حولها من الجهات الأربعة الملك الأشرف قانصوة الغورى الجركسى سوراً سنة ٩١٢ هـ وعلى قول سنة ٩١٥ هـ .

وعلى هذا السور ستة أبواب هى : (باب مكة ، وباب المدينة ، وباب الشريف ، وباب الشهداء ، وباب البحر ، وباب المغاربة) . وبالمدينة برجان مشهوران هما : (برج ليلى) و (برج المجنون) [1] . وينسبان إلى ليلى والمجنون ، حيث يروى أنهما دفنا فى جدة .

وإطلاق الاسم على هذين البرجين يدل على أن هذه الرواية صحيحة بصرف النظر عن القيود التاريخية .

ويفتح باب مكة ناحية الشرق ، وباب المدينة ناحية الشمال ، وباب الشريف ناحية اليمن ، وباب الشهداء وباب المغاربة جهة البحر .

ويذكر أن السور الذى أقامه قانصوه الغورى حمى جدة من اعتداء الأسطول البرتغالى . حيث إن هذا الأسطول دخل ميناء جدة بعد بناء السور بوقت قصير ، وقصف المدينة بالمدافع . إلا أن أهالى القلعة دافعوا عن المدينة بالمدافع التى وفرها لهم الغورى . فلم يتحمل الأسطول ذلك وانسحب . ولكى يخرج من هذه المأساة ، جاء إلى ميناء (أبى الدوائر) بثمانين سفينة سنة ٩٤٨ هـ ، ثم صعد إلى الشاطئ بالعساكر والمهمات ، ولم يتمكن منْ التقدم خطوة واحدة ، وأجبر على العودة ، بفضل همة الشريف أبى نمى أمير مكة المكرمة ، وسعى على بك وإلى جدة ونشاطه ، وجرأة الأهالى والعربان .

وتعتبر قلعة جدة بمثابة مفتاح للحرمين الشريفين . ولهذا أرسلت استانبول سنة ١١٣٨ هـ فرقة من عساكر الانكشارية تقدر بـ ٧٣ جندياً ومقداراً كافياً من المعاونين للمحافظة على القلعة من اعتداء الأجانب . وبعد عشرين عاماً أى سنة ١١٦٠ هـ . قام والى جدة والحبشة (عثمان باشا التتار) بتحصين المواقع اللازمة وتعميرها طبقاً للإدارة السنية .

يوجد فى مدينة جدة المعمورة معسكر ، ودائرة للميناء (إدارة للميناء) ، و ٥ جوامع ، و ٣٠ مسجداً ، وحكومة ، ودائرة للجمرك (إدارة للجمرك) ، و ٧ مزارات . وبرجان ، و ٣٠٠ صهريج ، وحمام ، و ١٣٠٠ منزل ، و ٩٠٠ دكان ، و ٤٠ مقهى ، و ١١ مستودعاً ، و ٤٧ فرناً ، ومطحن الدقيق ، و ٤٧ طاحونة ، ومصنع للطلاء ، و ١٠ مطابخ ، ومطعمان ، و ٣٠ خاناً للمسافرين ، ومحل لبيع السمك ، ومستشفى ، وصيدلية ، ومصنع للصدف ،

---

(١) المجنون هو قيس بن الملوح الذى جن بحب ليلى العامرية . (المترجم) .

و ١٠ مدارس ابتدائية ، ومدرسة متوسطة ، وإدارة للحجر الصحى ، ودار للبرق ، ووكالة لرعاية السفن ، ومسلخ ، ومصنعان للجير ، ومحل لبيع الغاز ، و ٤ أحواض ، و ٩ عيون ماء ، وناقلة مياه ، و ٦ مخافر شرطة ، وقلعة ، ودائرة للبلدية (إدارة للبلدية) .

وأكثر هذه الأشياء مبانيها متوسطة القوة والمتانة ومنظمة إلى حد ما ، وشوارعها مرتبة على خط مستقيم ، ومحلاتها مملوءة بأنواع الأقمشة والأمتعة الهندية ومزدانة بها .

ويقع مقر الحكومة عند باب سور المدينة ، وهو موقع جميل جداً وهواؤه ألطف من أى موقع آخر .

وقبل ذلك كان موظفو الحكومة يقيمون فى القصر الذى أنشأه طوسون باشا ابن محمد على باشا وإلى مصر ، والذى حول إلى سجن الآن . وقبل الانتقال إلى هذا القصر كانت هيئة الحكومة تقيم فى (قاعة الإمارة) الكائنة بحى اليمن ، وهى أقدم مقر للحكومة بجدة ، ومكانها خراب الآن .

كان مركز إيالة جدة والحبشة فى مدينة جدة حتى سنة ١٢٨٠ هـ ، ثم انتقلت هيئة الولاية فى السنة المذكورة إلى مكة المكرمة . وفى أوائل عهد ولاة الأسلاف فإنهم كانوا يقيمون فى جدة ثم ينتقلون إلى مكة المكرمة فى موسم الحج .

أسس الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا أحد جوامع جدة سنة ١٠٥٣ هـ ، وأنشأ الآخر وإلى جدة والحبشة بكر باشا سنة ١١٣٤ هـ .

وجامع بكر باشا لا زال عامراً حتى اليوم يقصده كثير من الناس ، ويسمى (جامع الإمارة) . وهو مكان لطيف للعبادة ، إذا قيس بجامع قرة مصطفى باشا . ومن جملة الخيرات التى خلفها قرة مصطفى باشا فى جدة هى الحمام وأحد الخانات .

وأكثر منازل جدة متوسط القوة والمتانة . وأغلبها يبلغ من ارتفاعه طابقين إلى ستة طوابق ، وهى على الطراز الهندى .

ومن الخطأ عدم التعود على الجلوس فى الحجرات ، لأن الجليد يملأ الشوارع ولا يستطيع النفاذ من النوافذ لوجود زجاج بها وأطر عليها .

وأهالى جدة مجدون مجتهدون عامة ، وأغلبهم غنى ، وقد اعتادوا على كل أنواع التجارة والتبادل . ولهذا اكتسب ميناء جدة شهرة كبيرة فى العهود السلطانية وانتظاماً فائقاً . وهو ملاذ السفن العابرة للبحر الأحمر وملجأ لها .

ويمارس أهالى جدة التجارة مع مجموعة من المسلمين ومن بلاد الهند والمستعمرات

ـ ع قليل من الأوربيين . ومجموعة من أهالى جدة [1] تمارس التجارة مع (الحبشة وسواكن ومصر وزنكبار وسوماطرة وجاوة واليابان والصين والأناضول والروملى وسوريا وبلاد المغرب ونجد واليمن والعراق والبحرين ومسقط وأوربا وروسيا وإيران) . وترد السفن الأجنبية إلى ميناء جدة متقاطرة من كل صوب يومياً ، إلا أن كثرة الشعب المرجانية تجعل دخول الميناء عسيراً . ويستحيل على السفن دخول الميناء دون دليل من سفن جدة . ولا يمكن دخوله بتاتاف بعد العصر حيث تبدأ المياه فى الاسوداد ويروى أن كثيراً من السفن تلقى مصيرها المحتوم ، نتيجة لمغامرة قباطنتها وجرأتهم على دخول الميناء أو الخروج منه ، لأن الشعب المرجانية الموجودة فى الميناء تشكل وضعاً طبيعياً قائماً . وإذا أجريت توسيعات ولو بسيطة على مدخلى الميناء المنفصلين ، وهما مدخل (السمارية) و (المرجان الكبير) ، فان ذلك سيكون مدعاة للسلامة والأمان .

يبلغ عمق الميناء من الداخل من ٣ باعات إلى ١، باعاً ، ولهذا تدخله السفن الكبيرة إلى حد ما .

وعلى الرغم من أن قسماً من أهالى جدة يتاجر فى (المسابح والذهب والصدف والبقالة والطلاء والدهانات والسمك) وقسماً آخر يتاجر فى (المرجان واليسر والصدف واللؤلؤ) ، فإن قسماً ثالثاً يعمل بحاراً أو قواربيا . والقسم الأخير هذا يذهب البعض منه حتى المحيط الهندى ويعود . وهنا قباطنة يصلون أحياناً إلى موانى الصين ، ويسافرون بصفة دائمة إلى (سنغافورة وزنكبار) .

وتوجد سفن محلية كبيرة تتردد على موانى : (سواكن ومصوع والوجه وينبع البحر والحديدة وزيلع ومسقط والمكلا والبصة وشحر) .

ويطلق على الرياح الشرقية والجنوبية والغربية والشمالية بين الأهالى فى ميناء جدة (النسيم) ، ويطلق على الرياح الشمالية الغربية اسم (البحرى) ، ويقال للجنوبية والشرقية : (الأذية) .

وإذا كانت الرياح الشمالية صحية ونافعة ، فإن الرياح الجنوبية والشرقية سيئة ومضرة .

والرياح البحرية رطبة والرياح الشرقية سامة غالباً . وعلى الرغم من أنهما شديدتا الحرارة، إلا أنه يروى أن الرطوبة مفيدة أما الحرارة مع الرياح السامة فهى مضرة جداً .

---

(١) من هؤلاء من يتاجر مع إنجلترا مثل (محمد يوسف باناجى ومحمود خوجى وعبد القادر جمجوم وموسى بغدادى) . وأشهر هؤلاء هو (سيد عمر السقاف) الذى يتاجر مع (بيت بنان) .

وأقصى درجات الحرارة تبلغ ٤١ درجة بمقياس سانتجرات ، ورطوبة البحر تجعل جو الليالى لطيفاً .

ومن الروايات الموثوق بها أن الحمى التى تنتشر فى موسمى الخريف والشتاء ، تشفى بنسبة ٧٠٪ أو ٨٠٪ إذا استحم المريض بماء عين (الحميدية) [١] .

الشعب المرجانية الموجودة فى ميناء جدة :

تنقسم الشعب المرجانية بميناء جدة إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الشعب المرجانية التى تتصل بالساحل ، وتظهر هذه الشعب مع الجزر الأعظم ، وهى سوداء اللون .

٢ ـ الشعب المرجانية القريبة من سطح الماء ، ومركز ظهورها قاع البحر .

٣ ـ الشعب المرجانية البعيدة عن سطح الماء ، على عكس القسم الثانى .

ووضع هذه الشعب المرجانية أفقى وغير مسلسل ، وتصنع خطوطاً لأنها موازية لبعضها البعض ، كما أن هذه الخطوط تجعل من المياه جداول . والشعب المرجانية المذكورة فى القسم الأول ، كلما نزلت إلى قاع البحر ، فإنها ترتفع عن الشاطئ بنسبة خفيفة ثم تحدث بعض الميل ، وتتكون من ذلك الهضاب .

والشعب المرجانية التى تنمو فى البحر على ثلاثة أنواع من حيث تكوينها الطبيعى :

١ ـ الشعب المرجانية القريبة من سطح البحر ، وهى شعب لا تقبل الكسر بأى آلات أو أدوات .

٢ ـ الشعب المرجانية التى تنمو فى قاع البحر على هيئة أشجار أو أعشاب . وهذا النوع من الشعب قابل للكسر حسب طبيعة تكوينه .

٣ ـ الشعب المرجانية التى فى درجة التصلب ، وهى الشعب التى كقبيعة السيف فى متانتها وصلابتها .

---

(١) نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثانى تولى سنة (١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م) وسيجئ ذكرها بالتفصيل بعد قليل . (المترجم) .

المدو الجزر :

هناك نوعان من المد والجزر في ميناء جدة ، أحدهما يسمى (الجزر الأكبر) ، والآخر يدعى (الجزر الأصغر) .

الجزر الأعظم :

وهو الجزر الذى يستمر ستة أشهر ابتداء من أوائل مايو وحتى نهاية تشرين الأول .

وكلما تحركت الشعب المرجانية المتصلة بالشاطئ إلى داخل البحر ، تحل المياه مكانها متخذة اللون الأسود لأن ارتفاعها يقل حتى يصل إلى متر ونصف المتر خلال الشهور المذكورة، ثم تتدفق المياه وتكثر ابتداء من تشرين الثانى وحتى نهاية نيسان ، حتى تخفى الشعب المرجانية .

الجزر الأصغر :

يقع المد والجزر كل يوم ، وترتفع المياه تبعاً لذلك إلى ٤٥ سم ، وعند الجزر يعود ساحل البحر إلى حالة القديم .

وهكذا تكونت الشعب المرجانية فى ميناء جدة ، كما يفهم من هذا الشرح . وتضطر السفن المترددة على ميناء جدة إلى البقاء فى مكان واسع يبعد عن ساحل جدة بميلين ثم تلقى مراسيها . وتتقدم نحوها السنابيق ، لإخراج المسافرين وأمتعتهم منها .

يا للأسف فبلدة كبيرة كهذه تملك ميناء حيوياً منظماً ، لا يوجد لديها ماء عذب حتى الآن. وقد قام القادرون من الأهالى ببناء صهاريج ضخمة داخل المدينة وخارجها ، وحفروا حفراً كثيرة وكبيرة فى كل مكان ، وكانوا يملأون الصهاريج المذكورة بمياه الأمطار التى تتجمع فى الحفر ، ثم يبيعون المياه التى تزيد عن حاجة الشاربين للحجاج ، وبعد أن يأخذوا مصاريف سنوية على توزيع المياه على المنازل كانوا يعملون بالتجارة . وأحياناً تنقطع مياه الأمطار لمدة سنتين أو ثلاثة ، فيعانى الناس فى هذه الديار من المشقة بسبب قحط الماء . وتباع المياه التى يحملها جمل واحد بثلاثين أو أربعين قرشاً . وقد حفرت عدة آبار فى مكان يدعى (السرورية) على بعد ثلاث ساعات من جدة ، لتلافى أيام قحط المياه . وإذا كانت مياه الآبارهذه صالحة للشرب إلى حد ما ، فإن مياه البحر قد تختلط بمياه السيول ، فتقلل من الطعم اللذيذ لمياه الأمطار . ومع ذلك فالواجب يقتضى أن تشرب هذه المياه فى حينها ، لأنها

إن بقيت ليلة واحدة فى كوب أو فى قربة لتعفنت . ولهذا يقوم السقاءون بطلاء القرب التى يحملون فيها مياه الآبار بالشحم من الداخل ليل نهار تحاشياً لتعفن الماء . والذين لم يعتادوا على شرب المياه بالزيوت ، يصعب عليهم الحصول على المياه من هذه الآبار .

وتوجد عيون ماء متعددة فى قرية (وادى فاطمة) الواقعة على بعد تسع ساعات شرقى جدة بين سلسلة الجبال التى تقع إلى الشرق من مدينة جدة وعلى بعد ست أو سبع ساعات منها ، وإلى الشمال من مكة على بعد ست ساعات . ويمكن للمياه التى تجرى من هذه القرية أن تنزل إلى جدة بسهولة ، لأن القرية ترتفع عن جدة إلى حد ما . خاصة وأن ميناء جدة قد اكتسب أهمية أكثر بعد فتح قناة السويس ، وترتاده سفن كثيرة من كل صوب .

ويروى أن المياه أوصلت إلى المدينة قديماً . فهل حدث ذلك من قبل أرباب الخير ؟ أم من قبل الحكومة ؟ لا نعرف بالتحديد .

يقال ـ حسب رواية ـ أن الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا هو الذى أوصل هذه المياه إلى المدينة سنة ١٠٥٠ ، إلا أن المجرى وصل إلى مشارف المدينة فقط بسبب وفاة هذا الرجل .

ومنبع الماء المذكور يبتعد عن جدة بساعتين أو ثلاث ساعات . وقد تعطل مجراه بمرور الزمن ، بسبب التراب والقش . هذا ما اتضح من الكشف الذى عمل فى العام الماضى .

ويمكن إصلاح هذا المجرى بالصورة المطلوبة ، بعد إنفاق أربعة آلاف أو خمسة آلاف ليرة على الإصلاح ، وبمقدور أغنياء جدة وتجارها ميسورى الحال أن يبذلوا الهمم فى هذا السبيل ، فهو ميسور وسهل بالنسبة لهم ، ولا يحتاج أكثر الأغنياء سالفى الذكر لهذه المياه ، لوجود صهاريج لديهم ، يحققون من ورائها مكاسب كبيرة . ولهذا تتوقف هممهم ولا تنشط عزائمهم ، وإذا كان الأمر بأيديهم ، لعملوا بكل ما وسعوا على منع المياه التى تأتى . إن تحقيق هذه المسائل والأمور لهو من خصائص الحكومة السنية للعمل على استمرار جريان الماء العذب . ويتمنى الأهالى والحجاج أن يتحقق الخير كل الخير على أيدى الخليفة الأعظم الذى يعد عهده عهد الخير والبر : والحمد لله والشكر له سبحانه ، فقد اتخذ قرار توصيل (عين الوزير) بجدة وهى تبعد بمقدار ساعتين عنها ، وذلك فى أثناء ولاية عثمان باشا للحجاز . وقد أعدت الخطوات التنفيذية ، وبذلت الهمم من قبل الأهالى . وتم توصيل العين المذكورة بمدينة جدة ، بفضل موافقة حضرة السلطان ومباركته لهذه الخطوة . وقد عبدت الطرق على أكمل وجه ، وسميت تلك العين بـ (العين الحميدية) .

ولم يقتصر هذا العمل الجليل على تخليص الحجاج والأهالى من شرب الماء المتعفن ، بل

ساعد على عمران البلاد أيضاً ، ودفع الأهالى إلى رفع الدعوات إلى الله لكى يحفظ الخليفة الأعظم .

ومع أن التوفيق فى إتمام توصيل العين الحميدية إلى مدينة جدة قد تحقق فى عهد صفوت باشا وإلى الحجاز الحالى ونسب الفضل إليه ، إلا أن الفضل فى بداية تنفيذ العين المذكورة يعزى إلى عثمان باشا سالف الذكر وهمة خلفه جميل باشا التى تفوق الوصف . ومن الخطأ لهذا السبب قصر الفضل فى هذا العمل على صفوت باشا .

وتصل المياه من مجرى عين الحميدية التى تنبع من سفح الجبل الواقع على بعد ساعتين أو ثلاث ساعات شرقى مدينة جدة ، خلال ثلاثين دقيقة حتى خارج المدينة (مدينة جدة) . ثم تتجمع المياه فى تجويف مستدير خارج المدينة قطره ١٢ سنتيمتراً ، تتفرع منه أربعة فروع للتوزيع عبارة عن قنوات ترابية .

وبعد بناء عين ماء متكاملة على طرف خزان المياه الكبير الذى أقيم كمقسم للعين الحميدية فى موقع يقال له : (عيدروس) متصل بالسور الذى يوجد به باب مكة ، حفر حوض كبير إلى حد مامن أجل عين الماء والحديقة لتوصيل المياه إلى المستشفى العسكرى فى هذه النواحى . وقد أقيمت حديقة جميلة تروى على الفائض من المياه . كما بنيت عيون ماء منفردة ، لتوصيلها ببئر يعقوب فى حى اليمن بجدة وبمنزل شيخ مشايخ جاوة إبراهيم عراقى أفندى .

وقد أقيمت فى ميدان الميناء عين ماء مثمنة الشكل تحمل اسم الخليفة الأعظم . وفى وسط عين الماء هذه نافورة ، كما أن أطرافها محاطة بالصنابير . وحول العين إطار مرتفع إلى حد ما على هيئة سد ، وعلى أطرافه درابزون من الحديد .

دونت على الباب الشمالى للعين المذكورة أبيات من الشعر أرخ بها المعلم الشهير (فيضى أفندى) [١] لبنائها ، ووشحت أعلاها بطغراء السلطان الغراء .

التاريـــخ

سلطان صاحب شيم عالية ، خاقان يتصف بالعدل كل العدل

والكرم ذلك الحاكم العظيم، خانُ الزمان عبد الحميد

---

(١) فيضى أفندى معلم بالمدرسة السلطانية .

ما هذه الذات ؟ . . . إنها ظل الله صاحب الفيض العميم لكل
عباد الله عون المساكين . معمر البلاد والممالك بانى آبار الخير ،
لطفه عميم وإحسانه وفير لم يكن فى مدينة جدة كلها ماء عذب لا
توجد مياه قط فى هذا البلد عدا ماء المطر لقد قام سلطان الدين هذه
المرة بتفجير ماء الحياة فاستفاد الأهالى من تلك العين التى لا مثيل
لها ، وماؤها مثيل ماء النيل « عيناً تسمى سلسبيلا » ، بشرى طيبة
للشفاه العطشى فليقم (فيضى) بواجب الدعاء ، كلما انهمرت
أمطار الكرم فليطل الله عمر هذا السلطان . وليجعل حظه سعيداً
أشرب الماء براحتيك ، وادع لعبد الحميد خان لقد بنى حاكم
الدنيا عبد الحميد تلك العين الجميلة (سنة ١٣٠٤هـ) [١]

تقدم هذه المياه مجاناً للسفن الحربية الشاهانية ولسفن الإدارة الخاصة . وقد أنشئ مرفأ قوى يمتد داخل البحر بطول ستة أمتار وعرض متر. بن من المخزن الكبير إلى رأس الميناء لبيع الماء لسائر السفن [٢]. وتملأ براميل (فناطيس) القوارب والزوارق بالمياه بسهولة بالغة ، عند وضع كواتها على حافة التجاويف الحديدية المستديرة داخل الميناء .

أنشئت عين ضخمة إلى حد ما قرب الجامع الشافعى فى حى مظلوم بجدة وأنشئت عين أخرى متصلة بـ (جامع المعمار) ، وثالثة فى حى الشام . وأقيم صهريج كبير إلى حد ما أمام عين ماء جامع المعمار ، وحوض خاص بالضوء للشافعية . وأنشئت عين ماء متوسطة الحجم أمام منزل أحد التجار ويدعى الحاج محمود أفندى الخونجى ، وعين ماء ذات ثلاثة صنابير فى دائرة الحكومة . وأقيمت حديقة غناء متكاملة فى فناء مستشفى الغرباء القديمة الواقعة . أمام الدائرة المذكورة كما اقيم حوض كبير إلى حد ما داخل هذه الحديقة وأحيطت الحديقة بحائط ودرابزون . أما ناحيتها الغربية فيقع فيها باب السلطان الذى أبدع صنعه والمشتى الهمايونى ، وبداخلها عين ماء جديدة وبستان منسق مكتمل المنظر ، وأنشئ بها أيضاً حوض صغير . وقد أكسبت هذه المناظر كلها المدينة من الداخل والخارج خضرة وأضفت عليها بهجة وجمالاً .

ويتجمع الأهالى رجالا ونساء فى الماء للتنزه والمرح فى هذه الحدائق .

---

(١) توافق سنة ١٨٨٦ م . (المترجم) .

(٢) يروى أن الطن من هذه المياه كان يباع بفرنكين اثنين .

طريق الوادى :

هناك طريق يربط بين جدة ومكة المكرمة يسمى (طريق الوادى) . وهذا الطريق كغيره من الطرق الأخرى تصطف على جانبيه الجبال العالية ، العارية من الخضرة ، مما يجعل حرارة الشمس قاسية لدرجة تجعل السير فى هذا الطريق أمراً مستحيلا .

وإذا ما شجرت قمم هذه الجبال المنتشرة على جانبى الطريق ، فمن الممكن أن تجعل الجو لطيفاً ومحتملا ، مما يزيد من ارتياد هذا الطريق من قبل القوافل .

هضاب الصهاريج :

كما توجد على الطريق الموصل بين جدة ومكة المكرمة بعض الهضاب الصغيرة التى تختلف عن بعضها البعض شيئاً ما ؛ ويسميها الأهالى الصهاريج ، وترتفع هذه الهضاب ما بين ٧٠ ، ٨٠ متراً . وتجعل منظر الطريق جميلا عندما تبدو للناظر إليها .

ولما كانت هذه الهضاب أقل رطوبة بالقياس إلى مدينة جدة ، فإن هواءها لطيف ، مما يجعلها مصيفاً مرغوباً إذا ما أقام بها أغنياء جدة القصور والحدائق ومعالم العمران الأخرى .

وقد قمت أنا الكاتب الفقير إلى ربه بتصوير هذه المنطقة سنة ١٢٨٩ هـ : وطبقاً للمعلومات التى تلقيتها سنة ١٣٠٤ هـ ، فإن من يدعى سيد عمر السقاف قد أقام متجراً على هضبة تبعد ما بين ٣ أو ٥ دقائق عن جدة ، وزينه بتحف هندية وصينية تصل قيمتها ما بين ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ ريال .

وطبقاً لتعريف الراوى وتصويره فإن هذا المتجر كان من الفخامة والأبهة بحيث يجعل متجر (بومبارشة) الذى تزدان به مدينة استانبول وكأنه محل لعب للأطفال فى حى أيوب سلطان .

وأخيراً أقام سيد عبد الرحمن طاهر باشا أيضاً متجراً بالقرب من متجر عمر السقاف هذا ، إلا أنه يعتبر محل سماك إذا قيس به . والمهم هو أن هذه الهضاب أصبحت مرغوبة من قبل أغنياء جدة ، ليقيموا عليها وعلى أطرافها القصور والمبانى الفخمة الأنيقة .

وإنى أتوقع عندما يقبل الأهالى على البناء فى هذه المناطق بشكل أكثر مما هو جار الآن ، أن تتحول هذه الهضاب إلى مصايف جميلة يقضى فيها الأهالى مواسم الصيف . وهذا ما يكسب المنطقة اتساعاً وعمراناً رائعاً .

وليست هناك صعاب فى الحصول على الحاجيات الضرورية لمن يسكنون فى تلك الهضاب، نظراً لترددهم على المدينة باستمرار .

مقام حواء :

هناك مقام بالقرب من جدة يطلق عليه الأهالى (التربة الشريفة) ، ويظنون أنه يعود إلى حواء أم البشر . والمقام المذكور مقبرة عادية خالية من كل معالم الزينة والرونق . ويوجد فى مقدمة المقام وفى مؤخرته شاهدان ، وبينهما قبة جميلة إذا ما تناولتها الأيادى بالرعاية والحماية . وقد أوصت اللجنة المشكلة لرعاية مياه عين زبيدة بأن يجرى الاهتمام بهذا المقام الذى من الممكن أن يضفى على منطقة الساحل رونقاً وجمالا إذا ما أضيف إلى القصور والمبانى الفخمة والحدائق الغناء التى سيقيمها الأهالى على الهضاب السابق الإشارة إليها . وقد أشرت على الدولة السنية ببذل الهمم لإنقاذ هذا المقام .

وعلى طول الطريق من جدة إلى مكة توجد أربطة محلية ، يطلق عليها العربان مقاهى . ولو أنها زينت وشجرت أطرافها وأقيمت بالقرب منها بعض الخانات ، لتحول هذا الطريق إلى طريق مأهول جميل المنظر ، ولقلل ذلك من تعرض القوافل لمخاطر قاطعى الطريق .

ولقد عرضت على الولاية فكراً مفاده ، أن تؤسس على هذا الطريق بعض المخافر التى تستوعب كل منهامائة جندى بمهماتهم العسكرية وخاصة بجوار مقاهى (الشمسيه) و (بحرة) و (جدة) بالقرب من الأربطة السابقة . وأتعشم أن يتفهم المسئولون فى الولاية هذه الأفكار .

الطائف :

هى البلدة المشهورة التى تسمى أيضاً (وادى عباس) . تقع على بعد ثمانى عشرة ساعة من مكة المكرمة شرقاً ، وفى أحضان جبل غزوان [1] الذى يرتفع خمسة وستين وخمسمائة وألف متر عن سطح البحر . وتبعد عن مكة المكرمة وعن طريق جبل (قرا) مرحلتين وتبعد ثلاث مراحل عن طريق (سيل) وخلف جبل قرا بأربع ساعات . تحتوى مدينة الطائف على أربعمائة منزل ، ويبلغ عدد سكانها حوالى ألفى نسمة . وبها معسكر همايونى (سلطانى) يتسع لأربعة طوابير من الجنود .

---

(١) جبل غزوان ، جبل مرتفع من سلسلة جبال السراة .

وتحتوى المدينة على ستة مساجد صغيرة وفى الجهة الغربية منها مسجد كبير ، وبها ستة جوامع وحرم شريف ، ومدرسة واحدة ، وأربعة كتاتيب للصبية . وبها سبيل ماء ، وقصر للمدير ، ودائر للولاية وستة عشر قصراً للتصيف ومائتان من المحال التجارية ، وقلعة وسور وتسعة أفران وعشرة دكاكين للقصابين ومجزران وحمام عام وثلاثة أحواض .

وفى ساحة الحرم الشريف توجد مقابر عبد الله بن عباس وخدم سيد البشر المطهرين طيب الله ثراهم . وفى الجهة الغربية من الحرم الشريف سالف الذكر ، وفى مواجهة الباب خارج السور يوجد مدفن زيد بن ثابت كاتب الوحى الإلهى . كما يوجد قبر عكرمة أحد أصحاب النبى (ﷺ) الأجلاء فى موقع يبعد ساعة ونصف الساعة يسمى وهد ، وإن كان مشهوراً بين الناس بـ (وحاد) .

لقد نزل رجل من قوم العمالقة يسمى (وج) بن عبد الحى بأهل قبيلته إلى الطائف وتوطن بها ، ولذلك كانت الطائف تعرف بـ (وج) لفترة ما . وإذا كان الاسم العام الذى يشمل كل الأراضى التى تشملها الطائف الآن هو (وج) فإن أصل كلمة (وج) تعنى المحترق ، وهو الاسم الخاص الذى يطلق على الوادى المحصور بين جبلى الأصجدين . وقد حرم هذا الوادى من قبل نبينا قبل غزوة الطائف . وقد أورد محيى الدين بن عربى أحد العلماء الأجلاء فى كتابه الفتوحات المكية العبارة التالية فى مبحث (أحاديث مكة والمدينة شرفهما الله تعالى فى سبب تحريم وادى وج) . ذكر تحريمه أبو داودعن عروة بن الزبير قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الثنية حتى إذا كنا عند الدرة وقف رسول الله ﷺ فى طرف القرن الأسود خذوها فاستقبل (وجا) ببصره وقال : مره واديه ووقف حتى فقد الناس كلهم . ثم قال : إن صيد وج وعظامه حرام محرم لله وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفاً .

وتعيش بالقرب من هذا الوادى شجرة نبق . ومن المحتمل أن تكون هذه الشجرة من أنواع الشجر المشقوق التى ذكرها المؤرخ مطرى .

وبعد انقراض قوم العمالقة اتخذ آل ثمود من الطائف وطناً لهم وأخيراً سيطر عليها بنو ثقيف واستقروا بها .

ولما كانت أراضى الطائف مرتفعة جداً بالنسبة لمكة المكرمة فإن درجة الحرارة بها تقل ست أو سبع درجات عنها فى البلدة المقدسة هذه ، وبسبب لطف هوائها وجماله فإن أكثر أهالى مكة المكرمة يذهبون إلى أعالى الطائف ويبقون بها طوال الأشهر التى تشتد فيها الحرارة . ففى الخامس والعشرين من شهر أبريل تكون درجات الحرارة فى مدينة الطائف اللطيفة كالتالى :

١٧ درجة فى المساء و ١٨ درجة فى الصباح أما عند الظهر فلا تتعدى ١٩ درجة . أما فى شهر مايو فتكون فى الصباح ١٩ درجة وقبيل الظهر ٢٣ درجة وأحياناً ٢٤ درجة ، أما فى ليالى هذه الشهور فيكون الجو لطيفاً مائلا للبرودة لدرجة لا تمكن الإنسان من التجول فى الأماكن المكشوفة بدون ملابس ثقيلة أو معاطف الفراء أحياناً .

وليس فى ديار الحجاز مكان أبرد من الطائف ؛ حتى لقد شوهدت المياه فى الطائف نفسها وفى القرى والأبار الموجودة فى أعالى الجبال المذكورة وقد تجمدت فى أيام الشتاء .

وسواء مدينة الطائف المليئة باللطائف أو القرى الواقعة فوق سفح الجبل المذكورة فإنها مليئة بالحدائق والبساتين وتجود بها شتى أنواع الخضر والفواكه وخاصة العنب بكل أنواعه والتين والخوخ والتوت والمشمش الأصفر والبرقوق والبلح والليمون والرمان . أما مياهها ، فهى أعذب مياه منطقة الحجاز برمتها وأحلاها ، وأعذب آبارها هو بئر (ماء سلامة) .

وهذه المياه كانت تنبع من جبل يقع خلف (المثنى) وللأسف الشديد سدت مجاريه ولم تعمر أو تصلح فيما بعد مما أدى إلى فقدانها .

وأحسن المياه الموجودة الآن وأعذبها هى مياه بئر (عجلان) الموجودة فى سلامة وتليها المياه الموجودة بالقرب من مسجد بن عباس .

وبالقرب من قبر عكرمة (مولى بن عباس رضى الله عنهما) الذى يبعد ساعة ونصف الساعة عن الطائف يوحد نبع ماء ومياه جارية فى المنطقة المعروفة والمشهورة باسم وحاد (يعنى وهد)[1] .

وفى جبل (كرا) يوجد بئر آخر يعرف باسم (مرسين) وتمر مياه هذا البئر من تحت أشجار العرعر وتنساب من فوق مجموعة كبيرة من الأحجار المتنوعة مما يجعلها أنقى مياه الحجاز قاطبة وأصفاها .

وحول المدينة مجموعة من الشعاب والنهيرات المتناثرة كالمثنى وشورة ، ومياهها جارية ، وإذا ما وضعت مياه أى من هذه النهيرات فى القلل الفخارية وعرضت قليلا للرياح فإنها سرعان ما تبرد لدرجة لا تتحملها أسنان المرء .

عندما اعتلت صحة المرحوم الشريف عبد الله باشا أوصته اللجنة الطبية المشكلة من ستة أطباء لفحصه بمعاينة الماء الذى يشربه . وعلى الفور أمر المرحوم عبد الله باشا بفحص وتحليل

---

(١) وحاد : اسم قرية فى المنطقة و (ماء وحاد) نسب إلى القرية وعرف بها .

المياه الموجودة بالمنطقة ، ونتيجة لفحص وتحليل المياه المتوفرة فى المناطق المجاورة من قبل الأطباء المشار إليهم تبين من مقارنة مياه الآبار ببعضها البعض من ناحية الخفة واللذة والنفع ما يلى : مياه (مرسين) السالفة الذكر الأولى ومياه بئر (عجلان) الثانية . ومياه البئر الواقعة فى حديقة الشيخ المفتى فى (جلع) الثالثة . وقد اتفقت راءآ اللجنة الطبية على أن توصى الباشا المشار إليه بالشرب من مياه مرسين .

السلفيون والطائف :

دخل السلفيون مدينة الطائف التى تعتبر ألطف مدن منطقة الحجاز سنة ١٢١٧ هـ . وقدتم تعيين (عثمان المضايفى) المعروف بـ عثمان ا بن عبد الرحمن المضايفى) والياً عليها بعد فتحها . وأعقاب ذلك أرسل الشريف غالب (محسن الخادمى) إلى الدرعية لعقد الصلح مع السلفيين الذين حاولوا دخول أم القرى . إلا أن عثمان المضايفى نجح فى إغراء محسن الخادمى صديق الشريف غالب على التخلى عن صديقه والانضمام إلى السلفين . بل وصل الأمر بمحسن الخادمى أن قاد فرقة من الجنود السلفين بأمر من الإمام سعود بن عبد العزيز وتوجه بها إلى موقع يقال له (العبيله) قرب الطائف للاستعداد لدخول الحرمين الشريفين .

وعلى الرغم من أن الشريف غالب قد بذل كل المساعى لإثناء عثمان المضايفى عن عزمه إلا أن الأخير لم يتجاوب معه ولم يصغ إلى الرسائل التى كان يرسل بها غالب بل وصل به الأمر أن أخضع الفرق العسكرية التى كان يرسل بها الشريف غالب من مقر الإمارة ، مما دفع الشريف غالب إلى التخلى عن حصار الطائف .

ولما أحس عثمان المضايفى من هذا التصرف بأن الشريف غالب لن يقدر على مواجهة السلفين تمركز بجنده فى قرية (مليس) القريبة من الطائف فى أواخر شوال سنة ١٢١٧ هـ . وقرر محاصرة منطقة الطائف مقنعا سالم بن شكبان أمير بيشة بالانضمام إليه لتحدى الشريف غالب .

صاحب عشرون من أمراء بيشة سالم بن شكبان الذى كان تحت امرته ألف مقاتل عندما توجه إلى السلفين وكان تحت قيادة كل شيخ من الشيوخ العشرين خمسمائة مقاتل .

وقد بادر الشريف غالب ومعه أهالى الطائف بالهجوم على مقر الجيش فى مليس منزلا الخسائر الكبيرة بسالم بن شكبان ورجاله ، إلا أن سالم بن شكبان عاود الكره على جنود الشريف غالب ، ودخل القرية المذكورة مرة أخرى ، مما اضطر الشريف غالب إلى التقهقر

تاركاً الأهالى ليقرروا مصائرهم بأنفسهم ، فهرب البعض وقتل البعض وبقى آخرون فى الطائف مستسلمين لقضاء الله وقدره .

وقد شدد السلفيون من قبضة حصارهم حول مدينة الطائف وكانوا يزيدون قواتهم من وقت لآخر غير مبالين بخسائرهم ، مما اضطر الأهالى إلى إرسال مبعوث من قبلهم لطلب العفو والأمان وتقديم طلب الاستسلام . وما أن أقترب المبعوث من مركز قيادة الجيش المحاصر حتى بدأ يصبح بصوت عالى (أيها الجند ، الشجعان المنتصرون . . إن الشريف غالب لم يصمد أمام هجماتكم وولى هارباً ، وأن الأهالى يطلبون العفو والأمان منكم بعد أن خارت قواهم ، على أن تفكوا الحصار عنهم ، وقد كلفونى بنقل مطلبهم هذا إليكم ولم يعد هناك ما يتمسكون به . فامنحوهم الأمان من فضلكم . وإنى أرى ألا تضيعوا هذه الفرصة بعد ما بذلتموه من جهد وعطاء . وأقسم لكم أننى أضمن تنفيذ ذلك بحذافيره . وأن الأهالى سيسلمون لكم القياد دون مقاومة ، وسيقبلون كل ما ستكلفونهم به .

وعلى الرغم من ذلك فقد توجس السلفيون خيفة من احتمال كذب هذا الخبر انطلاقاً من الحكمة المشهورة (الخائن خائف) . ولذلك أرسلوا مبعوثاً من قبلهم لأهالى الطائف للتحقق من صحة هذه الأخبار قبل الشروع فى فك الحصار .

فصعد إبراهيم بن محمد الأمين المبعوث من قبل السلفيين أعلى الحصن وخاطب الأهالى قائلا : (أيها الأهالى . إذا كنتم تطلبون التسليم حقيقة وتريدون العفو والأمان ، طبقا لما ورد فى كلام رسولكم ، فعليكم أن تجمعوا أموالكم كاملة وتقيمون عليها قيما من قبلكم حتى يثبت حسن نواياكم ثم ترد أموالكم إليكم . . وإلا ستكونون جميعاً عرضة للأسر ولن يفلت أى منكم من العقاب) .

وفى تلك الأثناء تقدم المحاربون من أبواب الحصن . وحتى لا يعطوا للأهالى فرصة للتردد أخذوا يصوبون إلى الأبواب قذائفهم ويعدون آلاتهم لاقتحام الحصون وكانت النتيجة أن كلت الأبواب أمام شدة الهجوم واقتحم المحاربون الحصن وأنهوا الحصار بعد أن قضوا على أى مقاومة كانت تعترضهم ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى سيطروا على كل منافذ الطائف والطرق التى تربط بينها وبين مكة المكرمة .

وجمع عثمان المضايفى قواته وتمركز فى (العبيلة) وبعد أن استتبت الأمور بعض الشى بدأ الحراس يسمحون للأهالى بالخروج من أبواب الحصن والتوجه إلى حيث يشاءون .

وكانت نتيجة تصفية جيوب المقاومة ورجال الشريف غالب وفرض الأمن والأمان الذى

استمر اثنى عشر يوماً من قبل ابن شكبان أن سقط ٣٦٧ قتيلا من كلا الطرفين .

وقام ابن شكبان بتوزيع الغنائم على جنوده ، وأمر بهدم الزوايا والتكايا التى كان يتجمع فيها من يتمسحون بالدين وأصدر أمره بجمع الكتب الدينية وعدم المساس بها خشية أن يقوم بعض المتطرفين بحرقها أو إتلافها ظناً منهم أنها من الكتب التى تروج للبدع والخرافات المنافية للدين الإسلامى الحنيف ، خاصة وأن مدينة الطائف كانت تزدان بالعديد من المكتبات الخاصة والعامة والتى تحتوى على نسخ عديدة ونادرة من القرآن الكريم وكتب الحديث .

كما أمر عثمان المضايفى وابن شكبان بعدم التعرض للجوامع والمساجد والمدارس ، وإن كانا قد أمرا بهدم القباب .

وقد بقيت الطائف فى أيدى السلفيين حتى فى فترة النزاع الذى نشب بينهم وبين محمد على باشا وعودة الحكم العثمانى إلى مكة المكرمة . وكان عثمان المضايفى هو وأولاده وعياله قد لجأوا جميعاً إلى الجبال عندما توجهت الحملة المصرية إلى الطائف بقيادة مصطفى بك الذى تابع سيره إلى موقع (سيل) حيث كان عثمان المضايفى يحشد أتباعه لشن هجوم كبير على مكة المكرمة . وأنزل بهم هزيمة مؤثرة [١] .

ويوجد بمدينة الطائف كل أنواع الأشجار . حتى أن المؤرخ مطرى المشهور يذكر أن بها عدة أشجار من النبق منذ عهد الرسول محمد (ﷺ) وأن أهالى الطائف يعرفون هذه الأشجار من بعضها البعض .

وحسب رواية مطرى فإن قطر إحدى هذه الأشجار خمسة وأربعون شبراً وقطر شجرة أخرى واحد وأربعون وثالثة على أقل الأقوال سبعة وثلاثون شبراً .

ومن الروايات التاريخية الموثوقة التى يتناقلها المؤرخون أن نبينا (ﷺ) قد تصادف مروره من بين حديقة السرو هذه وكان على متن ناقته وما أن اقترب من شجرة العرعر هذه حتى انشقت إلى شقين احتراماً له وأفسحت الطريق لسيد البشر فمر من وسطها بناقته المباركة .

ويذكر الإمام مطرى بالتفصيل فى تاريخه أنه زار هذه الشجرة سنة ست وتسعين للهجرة النبوية وأنه أكل من ثمارها كما أن سكان الطائف يزورنها تبركاً بها ويقطفون ثمارها ويأكلونه بمحض اعتقاداتهم الخيرة .

---

(١) وردت هذه العبارة فى المتن بعد أن أشار المؤلف أنه أخذها من مؤلف آخر تحت اسم (تاريخ وها بيان) أى تاريخ الوهابيين ص (٧٠ـ٩٧) .

ويروى ابن فورك [1] بالذات أنه رأى تلك الشجرة التى تعد أثراً من آثار الإعجاز النبوى حيث يقول : (غفا الرسول الكريم) ﷺ ذات ليلة فى أثناء قيادته للقافلة المتجهة نحو الطائف ، بينما كان يمر فى منطقة شجيرة ، ولما صادفت الناقة التى كان يركبها إحدى شجر السدرة ، انشقت تلك الشجرة ، وأفسحت الطريق لمرور الناقة دون مشقة تكريماً لقدوم أشرف المرسلين (ﷺ) . ومر المصطفى من بين شقى تلك الشجرة المذكورة بكل العز والتبجيل . ومازالت هذه الشجرة المشرفة قائمة إلى الآن فى طريق الطائف .

وللأسف الشديد أن الشجرة المذكورة قد جفت جذوعها واختفت تماماً سنة ٧٢٩ هجرية وبعض الروايات تذكر أن جفافها واختفاءها كان سنة ٨٠٠ هجرية . والآن لا يوجد من يعرف شيئاً عن هذه الشجرة . أو من يعرف أين كانت . ولكن معجزة هذه الشجرة من الأشياء المؤكدة .

ومما يتناقله أهالى الطائف عن العصور السابقة أن المواطنين قد استكثروا بعض أغصان هذه الشجرة وأوجدوا منها شجيرات صغيرة غرسوها وتعهدوها بالرعاية والنماء على اعتقاد أنها من تلك الشجرة الميمونة ويقطفون ثمارها ويأكلوها .

مآثر مدينة الطائف :

توجد ثلاثة مآثر شريفة فى مدينة الطائف ، ويعتبرها الأهالى – حتى النساء منهم – من الأماكن المستحب زيارتها .

مسجد العداس :

يعتبر مسجد الـ (عداس) من المآثر الشريفة المذكورة . وهو مسجد جميل يقع داخل

---

(١) ابن فورك هو أبو بكر محمد بن حسن ، من مشاهير العلماء ، له معرفة واسعة بعلم الكلام وأصول الفقه والنحو والأدب . أصفهانى النشأة ، قضى فترة بالتدريس فى العراق ، ثم استدعاه أهالى نيسابور وأنشأوا له مدرسة لكى يقوم بالتدريس بها ، كما بنوا له منزلا يسكن به ، وقد بدأ التأليف والتصنيف والكتابة فى نيسابور ، حتى بلغت مؤلفاته مائة كتاب . وذات يوم دعى إلى غزنة للاشتراك فى مناظرة ، وفى أثناء عودته تسمم فى الطريق ، وتوفى سنة ٤٠٦ هـ .

(انظر : شمس الدين سامى ، قاموس الإعلام ، برلجى جلد ، استانبول سنة ١٣٠٦ هـ ص (٦٥٤)) ، (المترجم).

حديقة (عداس) التي تبعد عشرين دقيقة عن الطائف وسط موقع (المثنى) . وكان سلطان الأنبياء (عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم) قد شرف الطائف وفى معيته بن مسعود لدعوة بنى ثقيف إلى دين الله الحنيف ، ولما لم يقبلها قوم بنى ثقيف هؤلاء وردوا الرسول (ﷺ) ولم يتبعوا دعوته ، عاد يائساً . وجلس هو (ﷺ) وابن مسعود فى ظل ناحية من نواحى حديقة (عداس) سالفة الذكر .

فقام عداس هذا مولى صاحب الحديقة بإحضار بعض العنب وقدمه إلى المصطفى (ﷺ) وصحبه الكريم دون أن يعرفهما . فما كان من النبى (ﷺ) إلا أن سأل هذا العبد من أين يكون، وما أن أجاب بأنه موصلى حتى قال النبى (ﷺ) ملاطفاً لـ (عداس) : (إذن فأنت مواطن لأخى موسى) . فقال عداس : (إن موسى كان نبياً فكيف يكون أخا لك ؟) فأجاب الحبيب (ﷺ) : (أنا أيضاً نبى) . وأسلم عداس وصلى مع حبينا المصطفى (ﷺ) فى نفس هذا المكان . وأخيراً تحول هذا المكان إلى مسجد . وهكذا فإن (مسجد العداس) كان ذلك المصلى القديم .

مسجد النملة :

ومن المآثر الثلاثة الموجودة فى الطائف (مسجد النملة) وهو المكان الذى دارت فيه أحداث قصة النملة مع سليمان عليه السلام والتى ذكرت فى القرآن الكريم . وبعد أن قام المصطفى (ﷺ) بزيارة هذا المكان خصيصاً وأدى الصلاة فيه ، أقام المواطنون مسجداً فى نفس مكان المصلى . وقد سمى هذا المسجد بمسجد النملة .

مطمخ الغزال :

وهو ثالث المآثر الثلاثة .

ويقع هذا المكان المبارك فى الجهة الشمالية من الطائف ، فى موقع يسمى (جعل) وهو عبارة عن مكان صخرى يتراوح طوله وعرضه بين عشرين وثلاثين ذراعاً . وفوق هذه الصخور كلها توجد آثار غزلان ، وحسب أقوال أرباب المعرفة من الأهالى فقد جرت فى هذا المكان أحداث معجزة الغزال (تلك المعجزة التى مفادها أن غزالا قد وقعت فى شباك صياد ولكنها بكت متوسلة أن يتركها الصياد حتى ترضع صغارها وتعود . وقد كفلها المصطفى) ﷺ (فى ذلك) . وهذا المكان الذى وقعت فيه هذه الأحداث مزار يتردد عليه الأهالى ويسمونه (مزار أثر الغزال) أو مطمخ الغزال .

الآثار العتيقة : أو (صورة إيبوقراط) :

توجد (عقبة) مشهورة فيما بين المجارى المعروفة بمجرى السيل الكبير ومجرى السيل الصغير بين مكة المكرمة والطائف . وعلى بعد عشرين ذراعاً من هذه العقبة قد نحتت صورة إنسان مدهش عارى الرأس طويل اللحية على الصخرة الوحيدة الموجودة على الجانب الأيمن من الطريق عند الاتجاه من مكة إلى الطائف . وتحت هذه الصورة كتب بالخط اللاتينى الإفرنجى اسم (إيبوقراط) على النحو التالى : Hypocrate

وتمثل هذه الصورة النصف العلوى فقط وقد حفرت فى الصخر ، وقد دهش الشريف عون الرفيق باشا لوجود هذا الرسم هنا وتعجب لذلك وأراد أن يعلم سره وسر وجوده فى هذا المكان . فاستعان بأهل العلم والمعرفة . وأجرى كل ما يلزم من التحريات والدراسات فى الكتب العربية القديمة التى تتناول الحجاز إلا أنه للأسف الشديد لم يصل إلى نتائج مؤكدة فى هذا الخصوص .

وخلال إمارة الشهيد حسن باشا شقيق المشار إليه ، وقع أحد السياح الإنجليز الذى كان متخفياً فى زى بدوى فى أيدى العربان فى منطقة (سويلة) بينما كان متجهاً من جبل شمر إلى الطائف ، وظهرت هويته الحقيقية وسيطر البدو على ما كان معه من أمتعة ومهمات ومذكرات سياحية ، وقرروا قتله ، وبينما كانوا يلقونه على الأرض لتنفيذ الحكم ، وصل معتوق المرحوم الشريف عبد الله باشا والذى كان متعهداً بحديقة المرحوم الكائنة بـ (سويلة) وبعد محاولات شاقة استطاع أن ينقذ السائح ويخلصه من بين أيدى البدو وسلمه إلى حسين باشا الموجود بالطائف .

فاستضاف حسين باشا هذا السائح الإنجليزى فى منزل كاتم أسراره محمد أغا ورد إليه كل مسروقاته وحاجياته وقرر توصيله إلى جدة مع مأمور خاص يرافقه بشرط ألا يمر على مكة المكرمة .

وقد لفتت الزينة والزخرفة الموجودة على قبة قبر عبد الله بن عباس (رضى الله عنه) نظر هذا الرجل ، ودهش بما فيها من فنون خطية ، وزخرفية . وقد التقط هذا الرجل المذكور صوراً ورسم رسوماً لهذه القبة ولصورة إيبوقراط التى كانت تلفت نظر كل المارة من هذا الطريق المذكور .

إخطار :

من المعلوم لنا احتمال أن تكون مكة والطائف وجدة وضواحيها لم تكن من المناطق غير المأهولة . عندما كان إيبوقراط حياً . وأنه أى إيبوقراط لم يقم بأى سياحة فى منطقة الحجاز ، ولكننى ذكرت ما سبق انطلاقاً من أن مهمة المؤرخ هى تسجيل كل ما يسمع أو يشاهد وقد اكتفيت بذكر ذلك على أنه مما سمعناه هناك .

* * *

الفصل الرابع

التعريف بمدن ينبع ورابغ وخيبر والحناكية

ينبع :

توجد فى الأقطار الحجازية بلدتان تسميان ينبع ، احداهما (ينبع البحر) والأخرى تسمى (ينبع النخل) .

ينبع البحر :

وتقع على شاطئ البحر الأحمر فى الجانب الشرقى منه ، وتبعد عن المدينة المنورة مسافة مائتين وخمس وعشرين كيلو متراً من الجهة الغربية ، وهى مرفأ جيد يقع على بعد ثلاث وخمسين ساعة من مكة المكرمة . ويسكنه حوالى خمسة آلاف نفس .

وأطراف القصبة محاطة بسور قديم قام عثمان أغا المبعوث من قبل دار السعادة بتجديده وترميمه سنة ١١٢٦ هـ .

ويوجد بداخل السور ثمانمائة منزل وثلاثمائة دكان وثلاثة جوامع وشونة غلال وقصر حكومى . ويستقر بالمدينة طابور من المشاة السلطانية وطاقم كامل من المدفعية ، لأنها ميناء جميل ومرفأ للمدينة المنورة .

وينبع البحر مثلها مثل جدة ليس بها مياه عذبة ولذلك فإن ساكنيها يشربون من مياه الأمطار التى تتراكم فى الصهاريج ومن الآبار المحفورة عن طريق السيول فى بلدة (سهيلى) التى تبعد ثلاث أو أربع ساعات . ومياهها تميل إلى الملوحة بعض الشىء .

ينبع النخل :

تقع هذه القصبة فى الجهة الشرقية من ينبع البحر وعلى بعد ست ساعات ، وهى عبارة عن

عدة قرى صغيرة . تحاط كل قرية من هذه القرى من جهاتها الأربعة بالمياه الجارية ، مما ساعد الأهالى على الزراعة وإقامة الحدائق والبساتين التى تغلب عليها أشجار النخيل . ولما كانت هذه الأشجار والشتلات لا حصر لها ولا عد لذلك سميت هذه القرى جميعها (ينبع النخل) وفى منطقة ينبع النخل عيون جاريه لا حصر لها لدرجة أنها تنساب بعد رى الحدائق والبساتين دون أن يستفاد منها .

ولم يظهر أحد من أرباب الخير حتى الآن ، لديه الاستعداد لدفع ألف كيس [1] من النقود أو ألفين لتوصيل هذه المياه الكافية إلى ينبع البحر .

رابغ :

تقع على شاطئ البحر الأحمر فيما بين ينبع البحر وجدة ، وهى عبارة عن مرفأ صغير يبعد عن جدة سبعة أميال بحراً وثلاثين ساعة براً ناحية الشمال .

والمرفأ المذكور عبارة عن قرية صغيرة بها جامع واحد وعدة أكواخ من سعف النخيل وسكانها عبارة عن موظفى الجمرك والحجر الصحى ونفر من الضبطية الأمنية (الشرطة) وبضع نواطير وعدة أنفار من أصحاب الزوارق ومستعمليها .

وأصل مركز رابغ التى ذكر مرفؤها تبعد مسافة ساعة فى الجانب الشرقى من المرفأ ، وبها قلعة محكمة وسبعة آبار وعشرة صهاريج وخمسة جوامع وستون دكاناً ومائة وستة عشر منزلا وعدد سكانها ثلاثمائة وتسع وستون نسمة .

والقصبة المذكورة رملية تقع فوق واد منخفض ، يعد معبراً للسيول . ولذلك فإن أرضها مشبعة بالمياه ، بحيث تخرج المياه الصالحة للشرب من أى مكان يتم الحفر فيه ومع ذلك فليس بها مياه جارية .

والبلدة محاطة من جهاتها الأربعة بالبساتين ومزدانة بأشجار الموز والنخيل وعلى الرغم من أن سكانها يتجاوزون الألفين إلا أنهم جميعاً مازالوا يعيشون حياة البداوة . والقصبة على بعد أربع مراحل من مكة المكرمة وست مراحل من المدينة المنورة . وقوافل الحجيج سواء أكانت قادمة من المدينة المنورة أو من مكة المكرمة لابد وأن تستريح يوماً أو يومين عند وصولها إلى هذا المكان . كما أن الحجاج الوافدين من شتى البقاع والأطراف وليس لهم ميقات وقوافل

---

(١) كيس النقو عبارة عن ٥٠٠ قرش . (المترجم) .

مصر والشام ، يحرمون عند وصولهم إلى هذا المكان عند اتجاههم من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

ولما كانت قصبة رابغ هى معبر محمل الشام ، ومصر فلذلك يوجد فى قلعتها عدة عنابر مخصوصة لحفظ الذخائر الواجب تزويد المحامل بها فى الذهاب والإياب ، كما تقيم بها إقامة دائمة فرقة واحدة من العساكر الشاهانية ومقدار كاف من المدافع وأطقمها .

خيبر :

ربما تعنى باللسان العبرى اليهودى (القلعة) . لأن الأهالى عندما يريدون ذكر القلاع يعبرون عن ذلك بالخيابر .

وفى رواية ما يقال : أن (يثرب) ذلك الشخص الذى بنى المدينة المنورة فى بادئ الأمر كان له أخ يدعى (خيبر) ، وهو الذى شيد القلعة المذكورة ولذلك أطلق اسمه كذلك على هذه المنطقة .

وإذا كانت قصبة خيبر فى يوم من الأيام تشتمل على مزارع النخيل وحدائق الفواكه وحقول القمح والشعير والمياه الجارية ، فإنها اليوم عارية من حلية العمران ، وسكانها عبارة عن ألف شخص من السود الذين نشأوا من نسل العبيد السود المعتقين .

ولما كانت مجارى المياه وطرقها لم تنظف منذ القدم ولم تتم إزالة المعوقات أو التسليك فتراكمت المياه وتحولت إلى برك وبحيرات ذات مياه ساكنة راكدة تكاثر فيها العفن ، فاعتلت صحة الأهالى ، وكثرت أمرض الحمى القاتلة والطواعين ، مما دفع بالبقية الباقية من الأهالى الذين أفلتوا من براثن المرض إلى الهرب والتوطن فى أماكن أخرى .

وفى موسم البلح وجنى الثمور أى فى موسم الصيف يفد كثير من العربان إلى القرية المذكورة ويقيمون فى ضواحيها وحولها . وبعد انتهاء موسم حصاد البلح يعود كل منهم إلى موقعه الأصلى . وتكثر زراعة القمح والشعير أيضاً فى خيبر .

ولو توصل المواطنون إلى وسيلة لدفع العفونة التى هى السبب فى خراب خيبر أى لو تمكنوا من فتح الأماكن التى سدت من مجارى المياه ، لتحسنت الظروف المعيشية والصحية ، ولتوطن العربان فى هذه الأماكن التى يمكن أن تكثر فيها الزراعة ، وكل عوامل الحضارة ، ولتحولت إلى مكان مرغوب من قبل القبائل ولشملتها العناية الإلهية بتهيئة كل أسباب الحياة الرغدة التى يمكن أن تعيد لخيبر شرف عمرانها الذى إفتقدته .

الحناكية :

الحناكية قرية صغيرة تقع على بعد ثلاث مراحل إلى الشمال الشرقى من المدينة المنورة .

وإذا كانت هذه البلدة فى القدم معمورة وكانت قصبة مشهورة ، فإنها اليوم عبارة عن قرية صغيرة تحتوى على عدة منازل وقلعة متواضعة جوها لطيف ، وأرضها تكثر فيها الزراعة ، وهى الحدود الفاصلة بين بلاد نجد والأقطار الحجازية .

وبينما قلعتها على مشارف الخراب والدمار فإن الإرادة السنية قد أمرت بتعميرها وتوفير القوة العسكرية اللازمة لها وزيادتها .

ولما كانت أراضيها صالحة ومنبتة ومياه آبارها كافية إلى حد ما ، أدى ذلك إلى توافد الكثير من البدو والعربان إليها والتوطن بها ، بل وسعوا إلى الاستقرار فيها والعمل بالزراعة والحرث وأظهروا نوعاً من الرغبة فى التحضر والإقامة المستقرة بها .

تنبيه :

سيرد فيما بعد كلام مفصل عن قبائل العربان التى توطنت والوديان والأودية التى سكنتها ، وكذلك المناطق التى وفدت منها .

* * *

بعض أحوال أراضى الحجاز ومحاصيلها الداخلية وحياة سكانها وصور من إدارتها

إن أكثر أراضى البلاد الحجازية عبارة عن جبال مكونة من الرمال والحجارة ووديان منخفضة فى بعض مناطقها المحصورة بين الجبال وفى بعضها الآخر عبارة عن صحراء سبخة.

ولا تهطل بها الأمطار فى معظم المواسم، ولذلك فإن محصولاتها الداخلية ليست كافية، وجبالها وصحاريها لا ينبت بها العشب أو الكلأ بالقدر الكافى. ومن هذا المنطق فإنها غير قابلة لإنتاج المحاصيل الكافية لسد احتياجات ساكنيها.

أما الأجزاء الداخلية من تهامة وبعض الأماكن المسطحة من جبالها فهى منبتة ومياهها جارية، وموقعها مناسب، وما ينتج هنالك نال شهرة كبيرة بين الممالك الحجازية إلا أن الأهالى يحصلون على احتياجاتهم من القمح والحبوب وسائر الحاجيات الضرورية من بومباى ومصر والبصرة وبغداد.

أما ما ينتج فى هذه البلدان المباركة من محصولات فهى كالتالى:

البلح، وزيت البلسان، والصمغ العربى، والحناء، والخوخ، والبرقوق، والتفاح، والمشمس، والكمثرى، والتوت، والسفرجل، والعناب، والتين، واللوز والجوز والموز، والتمر هندى والعنب، والشمام والبطيخ، والبرتقال والليمون، والخيار واليقطين والعجور والجميز والرمان وأنواع الخضراوات: كالبصل والثوم، والبامية والملوخية والفاصوليا والبازلاء والكوزبرة والجزر والجرجير والفجل والطماطم والفول والباذنجان والكرات والكرنب وما شابه ذلك.

أما الأغنام والحيوانات التى تكثر فى هذه المنطقة فأهمها ما يلى:

الجمال، والماعز، والخيول، والحمير، والبغال والأبقار، والهجين والثيران. أما الحيوانات الوحشية فيكثر منها: الحمر الوحشية، والغزلان، والأبقار والثيران البرية والقردة والذئاب والثعالب والفهود والضباع، أما الطيور فمنها: البط والدجاج والأوز والديك الرومى، والحمام والهدهد، والغربان والصقور والنسور والعقاب وما شابهها. كما تكثر

على جبل الكرا النباتات والأعشاب البرية : كالزيتون واللوز والعرعر والياسمين . كما توجد فى أطراف تهامة أشجار التمر هندى والتوت والنخيل والحناء والخشخاش والطرفاء .

إن أعلى نقطة فى جبل الكرا والمسمى جبل السراة والتى تبعد اثنتى عشرة ساعة عن سلسلة جبال مكة المكرمة من الجهة الشرقية ترتفع قمتها بمقدار ألفى متر عن مستوى سطح البحر .

إذا كانت سلسلة جبال السراة فى معظمها مناطق صخرية منخفضة لم تكثر بها الأعشاب والأشجار ، فإن جبال الكرى تتمتع بغابات جميلة ومياه جارية ومواقع ذات هواء عليل .

مواسم بلاد الحجاز :

تنقسم بلاد الحجاز من ناحية المناخ إلى منطقتين : إحداهما ممطرة والثانية جافة .

إذا كان فصل الأمطار يترك البلاد يانعة وفى خضرة كاملة ، إلا أن استمرار الرياح وحرارتها لا تجعل هذه الخضرة اليانعة والنضارة الشاملة تستمر وقتًا طويلا .

والرياح التى تهب فى هذه المناطق شديدة وذات أضرار شتى بالمواطنين ، إلا أنها تكون أكثر ضرراً فى سنوات الحسوم .

إن العربان الذين يسكنون الجبال والوديان المنحصرة فيما بين تلك الجبال وخاصة وديان تهامة - يعيشون على زراعة الذرة والدخن أما الذين يسكنون سواحل البحر الأحمر من جهة الحجاز فإن حياتهم تعتمد فى الغالب الأعم على الأسماك .

إن أسماك البحر الأحمر كثيرة ومتعددة الأشكال والألوان ، وبه أنواع ضخمة من السلاحف والأسماك الطائرة . حتى أن سكان (جدة ورابغ وينبع البحر) يعيشون على المخلوقات التى يقذف بها البحر ، وخاصة الأسماك ، إنها تؤمن لهم معيشتهم بما يكسبون من ورائها ، أما على سواحل اليمن فليست هناك رغبة فى الأسماك كما هو الحال فى مناطق الحجاز ، بل إنهم يجففون الأسماك التى يصطادونها ويطعمون بها الماشية بدلا من التبن والأعشاب .

إن سكان جدة وسائر السواحل الأخرى يقومون باستخراج الصدف من البحر وبيعه للتجار ، ونادراً ما يستخرج اللؤلؤ من هذه الأصداف ، كما أنهم يستخرجون اليسر الذى يصنعون منه المسابح ومباسم السجائر وغيرها من المشغولات من سواحل البحر فى جدة .

* * *

الباب الرابع

طرق قوافل الحج

الفصل الأول

الطريق السلطانى « الرئيسى »

بيان بالطرق الرئيسة الواقعة بين الحرمين والمعروفة بالطريق السلطانى ، أو الرئيسى :

إن أهل المؤمنين الذين يزورون مكة المكرمة لأداء فريضة الحج يتوجهون أيضًا إلى المدينة المنورة (على ساكنها أفضل التحية)، بغرض زيارة الروضة النبوية المطهرة والحجرة المعطرة. وفضلا عن أن الطرق الواقعة بين البلدتين المباركتين متعددة. إلا أنها خطرة ومخيفة. ولذلك رأينا أنه من الواجب أن نبين الطرق الواقعة بين الحرمين الشريفين :

الطريق السلطانى :

إن أول منزل [1] للخارجين من مكة المكرمة هو القرية المشهورة المعروفة بـ(وادى فاطمة).

إن هذه القرية تبعد عن مكة المكرمة مسافة ست ساعات سيرًا بالجمال. وتشتهر بعيونها الجارية، وحدائقها وبساتينها اليانعة التى تشتمل على النخيل وسائر الأشجار الأخرى.

إن الليمون والنارنج وأكثر الخضروات التى تباع فى مكة المكرمة تزرع فى هذه القرية.

والمرحلة الثانية للخارجين من مكة المكرمة تكون عند البئر المسمى (بئر عسفان). كما تسمى هذه المرحلة أيضًا (بئر التفلة).

وتبعد مرحلة بئر عسفان اثنتى عشرة ساعة عن قرية (وادى فاطمة)، ومياه تلك الآبار رقراقة وعذبة حلوة المذاق.

ولما كانت مياه تلك الآبار مخلوطة بمياه وجه الأنبياء وبريق سيدنا ونبينا (عليه وعليهم

---

(١) المنزل أو المرحلة أو الاستراحة الموقف أو القوناق ، كلها كلمات تدل على المسافة التى كانت تقطعها قوافل الحج أو التجارة . والمرحلة مسيرة يوم واحد بالجمال أى مسافة سبعة وعشرين ميلا . (المترجم) .

التحية)، فإن مياه النيل والفرات وربما ماء الكوثر تغبطها على طلاوتها . وهنا فى هذا الموضع يوجد البئر المشهور بين العرب بـ(بئر التفلة).

والمسافرون من بئر التفلة يصلون إلى قرية (خليص) بعد ثمان ساعات من تحركهم . وقرية خليص تبعد عن مكة المكرمة بثلاث مراحل، وتشتمل على العديد من الآبار والعيون الجارية، كما أن بها الكثير من البساتين، وحدائق النخيل المثمرة.

والقوافل المترددة بين مكة والمدينة تواصل سيرها إلى (قضيمة) بعد استراحة قصيرة تمكنها من الاستسقاء فى مرحلة خليص.

وقضيمة هى المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص إثنتا عشرة ساعة سيراً بالجمال.

ومرحلة قضيمة بها ثلاثة آبار، إلا أن مياهها مالحة بعض الشىء، وذلك لقربها من البحر. ولما كانت هذه القرية المذكورة وفيرة الأسماك فقد لقيت استراحتها رواجًا بين المسافرين المحليين المترددين عليها.

والقوافل المتحركة من هذا الموضع تصل إلى (رابغ) التى تبعد مسيرة ست عشرة ساعة عن قضيمة من ناحية المدينة المنورة.

ومع أن هناك بعض التباب الصغيرة الممتدة على طول الطريق بين مكة المكرمة ورابغ، إلا أنها غير مرتفعة بالقدر الذى يحجب الرؤية. ولذلك كانت معظم المواقع فى هذا الطريق ترى البحر بسبب قرب منطقة رابغ من البحر كذلك.

ولما كانت الطرق الموصلة بين قضيمة ورابغ معبدة ورملية فى معظمها، فلذلك كان السير فيها مريحًا.

وكانت الطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تتعدد عند رابغ، وكان أكثرها استعمالا يسمى (الطريق السلطانى).

والمرحلة الأولى للطريق السلطانى (الرئيسى) أى الاستراحة الأولى للقوافل المتحركة من رابغ، كانت فى موقع (مستورة) الذى يبعد ست ساعات عن رابغ.

وبهذه المرحلة التى تقع فى الميدان الصحراوى المسمى(منخفض ميمون) بئران: أحدهما عذب المياه، والآخر مالح.

وبعد مرحلة مستورة تصل القوافل إلى استراحة (بئر الشيخ)، وهى ذات نبع عذب المياه، وتبعد اثنتى عشرة ساعة عن مستورة.

والمسافرون من بئر الشيخ يصلون إلى قرية (صفرا) التى تبعد عن بئر الشيخ اثنتى عشرة ساعة. وبين هاتين المرحلتين بئر مشهور يسمى (ابن حصانى).

وإذا كانت قرية صفرا كبيرة إلى حد ما ويقطنها حوالى خمسمائة نفس، إلا أنهم جميعًا ما زالوا يعيشون حياة البداوة.

ومع أن هذه القرية المذكورة تمتلك المياه الجارية والأشجار المتعددة، إلا أن معظم مغروساتها محصورة فى أشجار النخيل والليمون والحناء.

وبعد صفرا بثلاث ساعات تقع قرية (حمراء)، وهى أيضًا ذات مياه جارية وأشجار يانعة متعددة. وتنتج هذه القرية أجود أنواع الحناء وزيت البلسان الذى يتكالب عليه الحجاج والمسافرون عند المرور بها.

تنبيه:

إن العرب كانوا يخلطون زيت البلسان بالصمغ العربى والماء لكى لا يرتفع ثمنه، ويبيعونه بأسعار مخفضة، ولهذا يجب الحذر من هذه الناحية فى البيع والشراء. وللتفرقة بين الصافى والمغشوش من زيت البلسان يزج فيه بعود عشب كالكبريت، فإذا كان زيتًا أصليًا، فإن الزيت العالق بالعود يحترق فورًا بوهج واضح. وبعد أن ينتهى الزيت ينطفئ العود من نفسه على الفور، أما إذا كان الزيت مغشوشًا فإن العود يحترق هو الآخر مع الزيت. (انتهى).

وأكثر القوافل المسافرة من صفرا لا تتوقف فى الحمراء، بل تواصل سيرها إلى الموقع الموجود فى مدخل (جديدة) الضيق والمسمى (الحوبه جية). والمسافة بين هذين المنزلين ست ساعات. وتوجد المياه الجارية فى موقع الاستراحة.

وتصل الرحلة بعد (الحوبه جية) إلى (بئر عباس). ويقع بئر عباس على بعد خمس ساعات من المدينة المنورة من جهة (الحوبه جية)، وعند التوجه إلى هذه المرحلة تمر القوافل من ممر (جديدة). وتوجد قريتان صغيرتان بين هذين المنزلين.

والقوافل المسافرة من بئر عباس تصل إلى (بئر الشربوفى) بعد اثنتى عشرة ساعة، وهنالك أيضًا بئر مياهه عذبة حلوة.

وبعد التحرك من (بئر الشربوفى) بأربع ساعات، تصل القوافل إلى موقع (شهدا)، وهناك أيضًا بئر مياهه عذبة مستساغة.

وبين هذا الموقع والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة، وأهالى المدينة المنورة الكرام يستقبلون

زوار مكة المكرمة وحجيجها القادمين لزيارة المدينة المنورة فى البستان المسمى (بيار على) الواقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة.

وليس من المعتاد توقف المارة من هذه الطرق فى هذه المنازل والبقاء بها، إنما الأمر حسب رغبة الجمالين الذين يودون التوقف فى كل مرحلة بها آبار للتزود بالمياه. ولا يتوقفون فى الاستراحات التى ليست بها مياه. وعلى أى حال فإن دخول المدينة المنورة فى اليوم السادس من القيام من رابغ يعتبر من العادات القديمة التى تعودت عليها القوافل.

والطريق المذكور قديم بالنسبة [1] للمحامل الشريفة وقوافل الحجاج، وبالرغم من قلة مياهه، إلا أن منازله ومطالعه شبه معدومة، أما الطريق المذكور آنفًا فتوجد عليه سلاسل الجبال التى تحيط بجانبيه حتى مرحلة (بئر عباس). ولما كان الطريق يمر ببعض الممرات الضيقة فى أكثر مراحله، فإن هذا يشجع البعض من عربان قبائل [2] (بنى حرب) على السيطرة عليه من حين لآخر والسطو على أموال القوافل المترددة. وربما وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى القتل والسلب معًا مما يدفع قوافل الحجاج المسلمين ومواكب الزوار وسائر المسافرين إلى أن يسلكوا الطرق المسماة بـ(الفرع وغاير) والتى كان قد افتتحها حضرة السلطان منذ بضع سنين خلت بسبب عمرانها وعدم خطورتها.

* * *

---

(١) المحافل الشريفة = المحمل الشريف مصطلح إداى يستخدم للدلالة على الوسيلة التى كانت تستعمل لحمل، ونقل الصرة الشريفة، وستارة الكعبة، والهدايا المقدمة من السلطان، أو الحاكم، أو الخليفة إلى الحرمين الشريفين وأهل الحجاز. وكانت هذه الأشياء تحملّ على الجمال. وكان السلطان ، أو الوالى يشيع بنفسه المحمل الشريف عند سفره مع آلاى الصرة. وكانت تتم هذه المراسم فى أواسط شهر شعبان من كل عام. وسطه احتفالات شعبية ورسمية بديعة. وكان كل والى يتولى شئون المحمل ورعايته خلال مروره عبر ولايته. ثم يتم استقباله من قبل أمير مكة وآغوات الحرمين، وقائد الحامية العسكرية فى كل من المدينة المنورة، ومكة المكرمة. وسط حفاوة بالغة. «المترجم».

(٢) قبائل بنى حرب :

انظر فى ذلك تفصيلاً كتابه ، حمد الجاسر، «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» من منشورات النادى الأدبى فى الرياض المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٠٤٠١ هـ = ١٩٨١م

الفصل الثانى
الطـــرق الفرعيـــة

تعريف بالطريق المعروف بـ (الفرع):

يطلق على الطرق المؤدية من رابغ إلى المدينة المنورة عن طريق بريدة (الفرع).

إن المسافرين أو القوافل التى تخرج من رابغ قاصدة الفرع يصلون فى أول الأمر عند المرحلة التى تسمى(بئر رضوان). وهذه المرحلة تبعد اثنتى عشرة ساعة عن رابغ، وبها بئران مياههما عذبة مستساغة. وإذا كان هناك رأى يقول: إن بئر رضوان يبعد عن رابغ ثلاث عشرة ساعة، إلا أن الصحيح أن المسافة اثنتا عشرة ساعة، وبعض الجمالين يقسمون هذه المرحلة إلى مرحلتين: الأولى: (ظهر العقبة)، والثانية: (بئر رضوان)، ويستريحون قليلا فى كليهما. وبين ظهر العقبة ورابغ سبع ساعات.

وتصل القوافل بعد اثنتى عشرة ساعة من بئر رضوان إلى قرية (أبى ضياعة) ويسميها البعض (أم ضياعة) ويقولون: إن الجمال القوية تصلها فى ثمان ساعات.

وتمتلك هذه القرية من الآبار العذبة والبساتين اليانعة الشىء الكثير، وإن كانت تغلب عليها أشجار النخيل.

والمسافرون من أبى ضياعة يصلون بعدها إلى القرية المسماة (ريان). وتبعد (ريان) عن أبى ضياعة مسافة عشر ساعات. وبين أبى ضياعة وهذه القرية توجد أيضًا قريتا (أم العيال) و(مضيق) وكلهما يعج بالآبار الحلوة والبساتين الوفيرة.

وتوجد (ضمد) بعد ريان بثمان ساعات. ومع أن مياهها عذبة وحلوة إلا أن أشهر الآبار الواقعة فى هذه المنطقة هما بئر (أغصب) وبئر (رخيص) المعروفان بحلاوة مياههما وغزارتها.

وبعد التحرك من (صمد) تصل القوافل بعد مسيرة ثمان ساعات متواصلة إلى استراحة (حجز). وهناك منطقة منخفضة يطلق عليها (الغدير)، وتتجمع فيها مياه الأمطار فتحولها إلى ما يشبه البحيرة.

وتصل القوافل إلى (بئر ماشى) بعد مجز، وبينهما اثنتا عشرة ساعة، وبهذه المنطقة بئر عذب المياه.

وفى هذه المرحلة تتواجد بعض قوات الضبطية من قبل حكومة المدينة المنورة لحماية المسافرين والقوافل من هجمات العربان وغاراتهم فى هذه المناطق.

والمسافة بين بئر ماشى والمدينة المنورة تبلغ ثمان ساعات، وطريق الفرع الذى نحن بصدد تعريفه يتصل بالطريق السلطانى عند موقع (بيار على) على بعد ساعتين من المدينة المنورة.

وبعد الخروج من رابغ بأربع ساعات وحتى المدينة المنورة، فإن الطريق محاط بسلاسل جبلية وبه الكثير من الممرات والدروب الضيقة المخيفة والمحفوفة بشتى أنواع المخاطر. إلا أن قبيلة (بنى عوف) المشهورة بنجدتها ونخوتها كقبيلة (بنى حرب) تسكن المناطق المجاورة لهذا الطريق، وفيها كثير من الأخيار الذين يكفون أذى الأشرار عن عابرى السبيل، بحيث أن القوافل العابرة من هذا الطريق لا تصاب الأذى فى الأموال والأرواح إلا فى النادر القليل جداً، وعلى هذا الأساس فإن أكثر القوافل ومواكب المحمل الشريف تفضل المرور فى طريق (الفرع) هذا وسلوك دروبه.

* * *

الفصل الثالث

طريق غـــايـــر

ذكر طريق المدينة المنورة المسمى بـ(طريق غاير) :

أما الطريق الثالث بين الطرق المؤدية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فهو الطريق المسمى (غاير).

وإذا كانت مسافة هذا الطريق يمكن قطعها فى خمسة أيام حتى المدينة المنورة، إلا أن هذا الطريق جبلى مطالعه مرتفعة، تجعله صعب المنال بالنسبة للجمال التى غالبًا ما تكون محملة بأشياء ثقيلة، وتجعل قطعه مرهقًا، كما أن الجبال تجعله سهلا لقطاع الطرق والأشقياء مما يدفع الجمالين إلى الابتعاد عنه وعدم سلوكه، إلا أن قصره بالنسبة للطريق السلطانى والطريق الفرعى تجعل منه معبراً مطروقًا من قبل المشاة أو من يمتطون صهوة الخيول أو من قبل فرسان الهجانة.

ومن الراويات التى تتردد كثيراً أن سيد البشر (عليه من الصلوات أوفرها) قد سلك هذا الطريق إلى المدينة المنورة فى سنة الهجرة الميمونة.

والخارج من رابغ يصل إلى (بئر مبيرك) بعد قطع مسافة اثنتى عشرة ساعة. وإذا كان هذا البئر كبيراً إلى حد ما، إلا أن مياهه تميل إلى الملوحة.

وبعد مرور إثنتى عشرة ساعة على الخروج من (بئر المبيرك) تصل القافلة إلى مرحلة (رصفه). ولما كانت هذه المنطقة ذات مياه وفيرة وبها المستنقعات المسماة (أشمه)، فإنها كانت تجعل المسافرين والعابرين يستغنون عن مياه الآبار.

وتستمر الرحلة من رصفة المشار إليها إلى حافة جبل غاير ست ساعات، وتظهر المياه الجارية عند حافة هذا الجبل فى أكثر الأحيان.

ويمكن الصعود من حافة جبل غاير هذا إلى قمته فى ثلاث ساعات، ويوجد البئر المعروف باسم (رصد) على بعد مسيرة نصف ساعة إلى الجهة الشرقية من سطح هذا الجبل.

وبين بداية سطح جبل غاير ومرحلة (بئر ماشى) اثنتا عشرة ساعة ويتحد هذا الطريق مع الطريق الشرقى فى هذا المكان.

ومن بئر ماشى حتى المدينة المنورة مسافة ثمان ساعات، وهناك عدة آبار عذبة فى هذه المسافة.

* * *

الفصل الرابع
الطريق الشرقى

تعريف بالطريق الشرقى الذى يربط بين المدينة المنورة ومكة المكرمة :

والطريق الشرقى أيضًا طريق كبير ومتسع إلى حد ما ، وكثيراً ما تسلكه القوافل المترددة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة والعكس ، وكذلك محافل المحمل الشريف خاصة فى المواسم التى تشتد فيها الحرارة وأوقات تسلط الأشقياء والخارجين على القانون على الطرق الأخرى .

ولما كان هذا الطريق واقعًا فى الطرف الشرقى من الحجاز ، فقد تعارف الناس على تسميته بـ (الطريق الشرقى) وعرف به .

والقوافل التى تسلك الطريق الشرقى متجهة من مكة المكرمة ، تصل إلى القرية المسماة (وادى الليمون) بعد مرور أربع عشرة ساعة .

ويوجد بئر عذب المياه يسمى (بئر برود) على بعد أربع ساعات من مرحلة وادى الليمون فى الاتجاه من مكة المكرمة ، ومعظم القوافل تقضى كثيرا من وقت راحتها بجوار هذا البئر حى تتجمع بقية القوافل ، وبعدها تتجه نحو وادى الليمون .

وخلال مرحلة وادى الليمون تمر القوافل بعدة آبار عذبة المياه ، وكثير من الحدائق التى تتوافر بها أشجار النخيل والليمون والنارنج أيضًا .

والسالكون لهذا الطريق يصلون إلى استراحة (ضريبة) بعد عشر ساعات من قيامهم من وادى الليمون ، وهناك أيضًا يجدون بعض الينابيع التى تفى بحاجتهم من المياه ، وبعد هذه الاستراحة تصل القوافل إلى (بركة زبيدة) التى تبعد مسافة عشر ساعات عن الاستراحة السابقة . وهذه المرحلة وإن لم يكن بها آبار ، إلا أن مياه السيول قد تجمعت ، وكونت هذه البركة الضخمة .

والقوافل التحركة من مرحلة بركة زبيدة تصل إلى القرى المسماة (حاده وفرع) بعد اثنتى عشرة ساعة . وبهذه القرى أيضًا عدة آبار .

وبعد القرى المذكورة تصل القوافل إلى مرحلة (سوارقية) التى تبعد عن هذه القرى بثمان ساعات.

وسوارقية مركز كثير المياه عذب الآبار، يسكنه سادات بنى الحسين.

وبعد مرحلة سوارقية تصل القوافل إلى المنطقة المسماة (حجرية)، التى تبعد عن المرحلة السابقة عشر ساعات، وهذه المرحلة أيضًا بها العديد من الآبار ذات المياه العذبة.

والمسافرون من (حجرية) يصلون إلى مرحلة (غراب) بعد اثنتى عشرة ساعة من قيامهم.

ومنطقة غراب منطقة وفيرة المياه لدرجة أنه لو تم الحفر على بعد ذراعين من البئر، لتدفقت المياه من البئر الجديد، وكلها مياه عذبة.

ومن هذه المرحلة تبدأ القوافل فى الدخول إلى ممر (خنق).

وتستمر الرحلة بين استراحتى غراب وخنق ثلاث عشرة ساعة. وفى مضيق (خنق) بحيرة كبيرة تجمعت مياهها من مياه الأمطار [1]، وهى تبعد عن المدينة المنورة اثنتى عشرة ساعة.

وإذا كان الطريق الشرقى فى معظمه لايمر وسط سلاسل الجبال، ومعظم مراحله بين الأراضى الصحراوية المنبسطة إلا أن جانبى الطريق بين مرحلة خنق سالفة الذكر والمدينة المنورة محاط بالجبال كسائر الطرق الأخرى.

* * *

---

(١) كانت مياه هذه البحيرة لا تقل ولا تنقص أبداً، وقد رآها المؤلف بنفسه وتأكد من ذلك من معمرى هذه المنطقة. (المترجم).

الفصل الخامس

طريق ينبع البحر

التعريف بطريق (ينبع البحر) التى تعد ميناء المدينة المنورة:

إن القوافل المتحركة من ينبع البحر التى تعتبر مرفأ المدينة المنورة، تصل أولا إلى (بئر سعيد) عند اتجاهها إلى البلدة الطيبة.

ومن بئر سعيد تصل القوافل إلى قرية صفرا إلتى تبعد عشر ساعات عن بئر سعيد، وعندها يلتقى طريق ينبع البحر بالطريق السلطانى.

واعتباراً من هذه المرحلة، فإنه لا داعى لتكرار الحديث عن المواقف والاستراحات التى يمر بها هذا الطريق حيث سبق الحديث عنها عند الحديث عن الطريق السلطانى، ومن ينبع البحر حتى المدينة المقدسة توجد خمس مراحل سيراً بقوافل الجمال.

ويوجد مرفأ صغير يسمى مرفأ (رايس) بين رابغ وينبع البحر حتى أن المسافرين بحراً ينزلون أحيانًا فى مرفأ رايس هذا، ويتابعون سيرهم إلى المدينة المنورة.

والذين يتحركون من مرفأ رايس يصلون إلى قرية بدر المباركة بعد ثمان ساعات من تحركهم، وإذا استمر سيرهم خمس ساعات أخرى فإنهم يصلون إلى قرية (صفرا).

ومقابر الصحابة الكرام الذين نالوا شرف الشهادة فى غزوة بدر الكبرى، توجد فى ساحة قرية بدر هذه.

ويتحد طريق مرفأ رايس مع الطريق السلطانى عند قرية (صفرا). وتبدأ بعد ذلك نفس مراحل الطريق السلطانى، ولذلك فلا داعى لإعادة الحديث عن نفس المراحل.

وبالرغم من أ ن الطريق بين رايس والمدينسة المنورة سهل ومستو لدرجة يمكن بها تشغيل العربات على هذا الطريق، إلا أن الأهالى بسبب اعتداء البدو وغاراتهم المستمرة على هذا الطريق، لم يجرؤوا على الذهاب والإياب على هذا الطريق بالعربات.

والقبائل العربية تعيش منذ القدم حياة الفطرة والبداوة، حذرة كل الحذر من تيارات المدينة

ـديثة . لم يكن كثير منهم يستطيع التفريق بين الحلال والحرام . ومن هنا لم يكن القوى يتورع عن التهام الضعيف ، فقد كان قانون القوة هو السائد بينهم ، مال الضعيف بل وروحه نهب للقوى . وكانوا يطلقون على الأموال التى تصل إلى أيديهم عن هذا الطريق بـ (مال الغزو) حتى جاء الإسلام فهذب من سلوكهم بعض الشيء .

وبناء عليه ، إذا كان أعراب إحدى القبائل لم يسلموا من اعتداء إحدى القبائل الأخرى ، فإن عابرى الطرق السابقة وسالكيها ما كانوا يسلمون هم أيضًا من اعتداءات هذه القبائل وغاراتها .

وكان من الممكن أن يدخل أحد الطرق سالفة الذكر تحت حماية إحدى القبائل . فكان على هذه القبيلة أن تؤمن عابرى هذا الطريق ضد غارات القبائل الأخرى ، حسب القوانين المرعية بينهم حتى يومنا هذا ، وإذا حدث أى اعتداء من أى قبيلة أخرى كانت الحرب تقوم بين ـ ... بسبب هذا الاعتداء . فحماية اللاجئ من الأمور المرعية عند العرب ، حتى ولو أدى ذلك إلى فناء القبيلة كلها ، ومن الأعراف المرعية بين العرب حتى يومنا هذا الثأر الذى لا يسقط إلا بالدية أو تنازل صاحب الثأر عن رضى وطواعية ، وهذا لا يحدث إلا فى النذر اليسير .

* * *

الفصل السادس

طـــرق القوافـــل

بيان بسائر الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والتعريف بها :

هناك سبعة طرق أخرى تؤدى إلى مكة المكرمة ، كانت قوافل الحج القادمة من الممالك الإسلامية تسلك تلك الطرق منذ القدم .

١ ـ طريق الشام

كان طريق الشام هو أحدى الطرق السبعة المذكورة التى كانت تسلكها قوافل الحج فى الذهاب والإياب ، كما كان (محمل الشام الشريف) يسلك هذا الطريق .

كانت قافلة الشام تتحرك ـ فى أغلب الأحيان ـ فى الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج ، والتى كان يتولاها فى العادة والى سوريا . وكان يسبق التحرك احتفال مهيب ينظمه قائد الجيش الخامس ، وبعد القيام بالتشريفات المعهودة فى مثل هذه الأمور ، تخرج القافلة من الشام من (قبة الحاج) التى كانت تعد نقطة البدء للقافلة ، ومن هناك أيضًا تتحرك إلى (الكسوة) وينضم إليها الحجاج الذين يجمعوا فى (مزيريب) ، وتتجه القافلة نحو المرحلة الأولى من هذا الطريق والتى تسمى (خان ذى النون) .

ومنذ القدم كانت تقدم وجبة ساخنة للحجاج والحراس من وقف ابن الحصن عند استراحة خان ذى النون . كما كانت توزع عليهم كمية من المأكولات نظير رسم معهود فى نفس المرحلة أيضًا .

والقافلة المتحركة من خان ذى النون تمر من المكان المسمى (خان الزيت) حتى تصل إلى استراحة (خيمن) . والمرحلة المذكورة هى بعينها قرية ابن قواص التركمانى . وهذه القرية ذات مياه وفيرة وطيورها متنوعة وكلاب الصيد فيها مشهورة ، حتى أن معظم كلاب الصيد التى يستخدمها أهالى الشام الشريف تستجلب من هذه القرية ، والقافلة التى تغادر مرحلة خيمن تتوقف فى موقع (غباغب) بعد أن تكون قد عبرت (تل فرعون) .

وفى غباغب قلعة حصينة هى من آثار المرحوم السلطان سليم الأول [1] الذى أوقف حمايتها على أحفاد ابن قواص التركمانى سالف الذكر . وهى قلعة حصينة بقدر ما هى جميلة .

ومن الوظائف والواجبات المنوطة بأحفاد ابن قواص سالف الذكر أيضًا، المحافظة على طريق الحج ، الممتد من ذى النون حتى خيمن وحمايته .

والقوافل التى تترك غباغب تصل إلى مزيريب بعد أن تكون قد مرت ببشر (ديله) . ومن العادات القديمة التوقف عند ديله بعض الوقت لإناخة الجمال حينا لتلتقط أنفاسها .

مزيريب :

مزيريب اسم متنزه كبير ومشهور داخل بلدة حوران ، والمرحوم السلطان سليم هو الذى أمر ببناء قلعة جميلة بجوار عين مزيريب من أجل راحة الحجاج والعناية بهم ، وقد أمر بوضع بعض الجنود بهذه القلعة للمحافظة عليها .

ولما كان هذا الطريق فى مأمن من تسلط الأعراب وغاراتهم ، فإن المحمل الشريف يقيم فى هذه المنطقة بضعة أيام . كما يقام بها ما يشبه السوق ، حيث يتم بين الحجاج وبين التجار ، الذين يتوافدون من المناطق المحيطة ، بعض المعاملات التجارية .

والقوافل المتحركة من قلعة مزيريب تتوقف عند مرحلة (كتيبة) التى تقع إلى الجنوب قليلا من القلعة المذكورة ، وهذه المرحلة تتمتع بكثرة الآبار ذات المياه العذبة المتدفقة ، وبالرغم من هذا ، فإن الم[illegible]ين لا يقضون لياليهم فى نفس المكان ، بل يستمرون فى سيرهم حتى (ازرغات) .

---

(١) السلطان سليم الأول : (١٤٧٠ ـ ١٥٢٠ م) ولد السلطان سليم الأول فى العاشر من أكتوبر سنة ١٤٧٠م فى قصر آماسيا . وتمت تنشئته وتربيته على أيدي علماء ، وفقهاء عصره كانت له مهاراته العسكرية إلى جانب قرضه للشعر ، وحسن خطه .
ولاه السلطان على طرابزون ، وتابع دراسته وتعلمه للفروسية هنالك كان معجبًا أشد الاعجاب بجده محمد الفاتح . ومتابعًا جيدًا لتجسس الشاه إسماعيل الصفوى على الإمبراطورية ومحاولاته لنشر المذهب الشيعى . بعد أن تولى العرش بعد بايزيد الثانى كانت أولى مهامه هو اعادة الوحدة والاتحاد بين ربوع البلاد كان يؤمن بوحدة العالم الإسلامى ، ولذلك جعل ذلك هدفًا لفتوحاته وسياسته القادمة . فهزم اسماعيل الصفوى فى معركة جالديران سنة ١٥١٤م بعد أن أمن نفسه بعقد اتفاقيات مع دول الأنلاق ، والبغدان ، والمجر ، ومصر ، ثم تابع فتوحاته وانتصاراته ؛ فضم الشام ، والحجاز ، ومصر فيما بين ١٥١٦/ ١٥١٧ وعند عودته من مصر اصطحب معه العديد من المهندسين والمعماريين والصناع ، والحرفيين المهرة للمشاركة فى تجميل عاصمة الخلافة .
هو أول من أطلق عليه لقب «خادم الحرمين الشريفين» .
توفى ليلة الثانى والعشرين من سبتمبر = أيلول سنة ١٥٢٠م
بعد حياة حافلة بالجهاد ، والانتصارات والاعمار الحضارى فى كل ربوع الإمبراطورية العثمانية «المترجم» .

ازرغات :

وازرغات هذه قرية بالقرب من حوران. ومع أنه توجد استراحة تقع على بعد نصف مسافة من هذه القرية، إلا أن القوافل لا تتوقف عندها لعدم وجود المياه الكافية بجوار هذه الاستراحة، بل تستمر فى سيرها حتى ازرغات.

والقوافل المتحركة من قرية ازرغات هذه تصل إلى (الزرقا)، ومنها تصل إلى (أزرق).

الزرقـــا :

وقرية الزرقا قرية تحتوى على مياه كثيرة جارية. كما تحتوى أزرق على أطلال قلعة قديمة، وكثير من حدائق النخيل. والمكان الذى تتوقف فيه القوافل كثير المياه. وتقع قرية أزرق هذه على بعد مسيرة يوم واحد إلى الشمال الشرقى من الزرقا.

والقوافل التى تغادر أزرق تصل أولا إلى (عمرى) وبعدها إلى (بلقا) (١).

وعلى طريق عمرى وعند استراحة (دومة) وفى الجهة الشرقية توجد ساقيتان لإخراج المياه. وهذه المياه تأتى من عمان وتتجه ناحية الغور فى جريانها. وتقع بلقا فى أقصى جنوب ولاية سوريا على درجة ٣٣ خط عرض و١٢ دقيقة شمالا و٣٣ْ ودقيقة واحدة على خط طول شرقى. ولكن القوافل لا تتوقف فيها لعدم توافر المياه بها.

وتصل القوافل المتحركة من بلقا إلى استراحة (قطران) بعد اجتياز سبع عقبات، ومن هناك تتحرك القوافل حتى تصل إلى منزل (حسا).

والسلطان سليمان (٢) هو الذى أمر بتأسيس قلعة كبيرة عند مرحلة قطران، وهو الذى أمر

---

(١) يطلق على بلقا أيضاً اسما بلاط ومثنا.

(٢) السلطان سليمان القانونى: (١٤٩٥-١٥٦٦م) ولد فى طرابزون فى ٢٧ إبريل = نيسان سنة ١٤٩٥م. عند وفاة والده السلطان سليم الأول، كان الأمير سليمان واليًا على ما ينصه. تولى السلطة ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره بعد. وكان عليه أن يتابع انتصارات والده؛ ففتح بلجراد وردوس. والمجر، وحاصر فينا، ولولا خيانة زوجته اليهودية روكسلانه، وصدره الاعظم إبراهيم باشا لتحولت عاصمة النمسا إلى ولاية عثمانية.
لقب بالقانونى لكثرة ما أصدر من قوانين وتشريعات لتنظيم حياة الأمة الإسلامية.
حول البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر إلى بحيرات إسلامية لم تكن الأساطيل الأجنبية تستطيع دخولها بدون إذن مسبق، وذلك لاعتماده على خير الدين باربروس فى قيادة الأسطول العثمانى.
لم يغفل السلطان سليمان القانونى عن انشاء الصروح المعمارية؛ من جوامع، وكليات = صحن ثمان وجسور، وطرق وخانات، وكروانسرايات فى شتى بقاع الامبراطورية. وكان للمدن الإسلامية المقدمة الثلاثة؛ مكة، والمدينة والقدس مكانة خاصة فى نفس القانونى، فأوقف عليها الكثير من الأوقاف وولى عليها من خيرة رجاله، ما كفل لها تطوراً معماريًا وحضاريًا مشهوداً به. فجدد الحرمين الشريفين، والمسجد الأقصى. وأمن القواقل المؤدية إليها وزاد من عمرانها «المترجم».

بحفر وتطهير بركتها التى كانت قد سويت بالأرض لامتلائها بالمخلفات. وقد أرسل خمسة عشر ألف فيلورى[1] للصرف منها على هذه الأغراض.

ولم تكن قوافل الحج التى لا تجد المياه اللازمة لها فى بركة قطران، تتوقف فى هذه المرحلة، بل كانت تتابع سيرها حتى تحط رحالها عند جسر (لجون) الواقع فى الطرف الغربى للمرحلة السابقة.

ثم تصل القوافل إلى قريتى (الكرك والشوبك) الواقعتين فى الشمال الشرقى للمنزل السابق، وعندما تصل قافلة الحجيج إلى الحسا كانت ترسل مؤنها من هذه القرى.

وعلى الرغم من أن قرية الشوبك هذه تقع بين الجبال، إلا أنها تتمتع بالمياه المتدفقة، ومراعيها الخضراء الكثيرة. وفوق الجبل الواقع فى الطرف الغربى، يوجد نزل ونبع ماء، وبالقرب من هذا النزل يوجد جسر صغير.

أما الكرك فهى مركز ملحق بسنجق الشام، ومرتبطة بالدوائر الحكومية الموجودة فى (نابلس)، وأراضيها خصبة وذات محاصيل وفيرة. إلا أن سكانها من قبائل البدو، وعشائرهم لا يعرفون شيئًا عن المدنية الحديثة. وتعداد سكانها حوالى ثمانية آلاف ستة منهم أو يزيد على الدين الإسلامى، أما البقية الباقية فهى على الدين المسيحى.

والقوافل التى تغادر الحسا تصل إلى (ظهر عنيزة)، ثم تصل بعد ذلك إلى قلعة معان.

وإذا كان الطريق الممتد بين (الحسا) و(عنيزة) فيه الكثير من المنحنيات والانحدارات، إلا أن الحدائق التى ترى فى (الشوبك) و(عنيزة) من بعيد تجعله طريقًا مأمونًا.

أما مرحلة (معان) فهى تتبع ناحية (شراه). وكانت هذه المنطقة مقر إقامة بنى أمية فى القدم ومأوى رجالاتهم. وللسلطان سليمان القانونى فى المنطقة قلعة وينبوع ماء. ومع أن مياه هذه العين لا تستحق المدح والثناء، إلا أنها تدفع عن المسافرين والقوافل شدة العطش والحاجة الملحة إلى المياه.

---

(١) فيلورى : "Flörin - Flöri - " Filori

عملة ذهبية سكّت قبل القرن الحادى عشر الميلادى فى مدينة فيلورنسا وكان على أحد وجهيها زهرة الزمبق. ثم انتشرت هذه العملة بعد ذلك فى كل أوروبا. واستخدام العثمانيون، ثم اطلقوا هذا الإسم على عملتهم الذهبية. وكان الفاتح هو أول من سك عملة ذهبية فى مدينة استانبول سنة ٨٨٣هـ = ١٤٧٨م. ثم رويدًا، رويدًا بدأ العثمانيون يكتفون باسم «ذهبى» «آلتين» لأنها كانت تضرب من الذهب.

ومع تدهور الحالة الاقتصادية للبلاد، كانت تتغير القيمة النقدية للفيلورى. وفى الأزمنة الأخيرة سك من الفضة فى النمسا. وكان مستخدمًا فى الجزيرة العربية؛ سواء أكان من الذهب أو الفضة «المترجم».

وبعد قلعة معان تصل القوافل إلى (ظهر العقبة)، ومن هناك تتحرك نحو (ذات الحج).

وتسمى ظهر العقبة بـ(عبادان) أيضًا. وإذا كانت هذه المرحلة تعوزها المياه، إلا أنها مشهورة بتمورها وبلحها الذى يسمى (طبيليات).

كما أن ذات الحج أيضًا لها اسم آخر وهو حجر، وقد أمر المرحوم السلطان سليمان القانونى بإقامة قلعة فى هذا المكان أيضًا. وتأتى مياه ذات الحج من الحفر والآبار التى يقوم الأهالى بحفرها، ويصنعون لها المجارى، ويقيمون المشاتل والمزارع على مياهها. وتشتهر هذه المنطقة بالعديد من أنواع التمور والبلح الذى تشتهر به بساتينها.

والحجاج الذين يغادرون ذات الحج يصلون إلى (قاع البسيط)، ومن هناك يشدون الرحال إلى (تبوك) (١).

ومنطقة قاع البسيط منطقة رملية، تسمى أيضًا بـ(عرابد)، وقمة الجبل المرتفعة التى يسميها العرب (شرورًا) تقع فى مكان يتوسط هذه المنطقة الرملية.

وتشتهر منطقة تبوك بالبلح والتمور. وقد أمر المرحوم السلطان سليمان بإقامة قلعة حجرية منيعة فى هذا الموقع أيضًا.

ومما يروى أن المصطفى ﷺ قائد المجاهدين أثناء غزوة تبوك الشهيرة، قد ملأ راحتيه الكريمتين من نهر تبوك ونثرها فى الوادى الذى كانت مياهه قليلة وراكدة آنذاك. فتدفقت مياها وبدأت فى الجريان، وما زالت تلك المياه تسيل حتى الآن.

وتوجد بركة ذات مياه وفيرة بالقرب من قلعة تبوك.

والقوافل المسافرة من تبوك تصل إلى منزل (مقابر القلندرية) (٢)، ومنها تتجه إلى مرحلة (أخيضر) (٣).

---

(١) يسمى الأهالى تبوك أحياناً بالتمرة العاصية.

(٢) مقابر القلندرية: القلندرية: قلندري مصطلح صوفي يستخدم للدلالة على المتصوفة الذين قطعوا صلتهم بالدنيا، وأوقفوا حياتهم للعمل فى سبيل الله. وكانت لهم زواياهم، وتكايا خاصة بهم، تقدم فيها الرعاية والطعام للفقراء، والدراويش. وأتباع هذه الطريقة يشعرون بسعادة غامرة لاستغراقهم فى الحالات المعنوية. وقد عرفت طريقها إلى معظم دول العالم الإسلامي منذ القدم. كما كانت تُدَرَّس فيها علوم الدين، والشعر الصوفى، والأذكار. وقد صدر عن أقطابها كتبًا توضح مفاهيمها، وفلسفتها، ومقاصدها كانت لها فروعها فى مصر، وسوريا، والعراق، وإيران، والهند وأواسط آسيا وجزيرة العرب، وشمال أفريقيا. ولهم أسفارهم باللغة التركية العثمانية، وغيرها من اللغات الإسلامية. «المترجم».

(٣) تقع مرحلة أخيضر هذه فى منتصف المسافة بين الشام ومكة المكرمة.

ومقابر القلندرية هذه عبارة عن هضبة صغيرة إلى حد ما ليست بها عيون ماء. أما أخيضر فتقع بين الجبال، وهى ذات مساحات واسعة، وقلعتها تحت إدارة حكومة الشام. وتوجد ثلاث برك ملاصقة للقلعة تمامًا لدرجة أن سكان القلعة يأخذون المياه من الآبار الواقعة داخل الحصن ويملأون بها البرك المذكورة.

وقد أمر السلطان سليمان القانونى فى بداية جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ (١٥٢٠م)، واليه على الشام مصطفى باشا بأن يشيد قلعة أخيضر. وبناء على هذا الأمر قام مصطفى باشا هذا بتكليف (طريان بن قراجا) شيخ عربان بنى حارثة ببناء هذه القلعة، فقام بتشييدها على الفور، لأن عربان بنى عقبة وبنى لام كلما نشب الخلاف ودب العصيان بينهم، قاموا بإغلاق الآبار وتصفية البرك من مياهها.

وتصل القوافل بعد مرحلة أخيضر إلى (بركة المعظم)، وتتجه من هنالك إلى (مغارش الزير). وبعد هذه المرحلة تتجه القوافل إلى مرحلة (جبل الطاق).

بركة المعظم:

وهى عبارة عن حوض كبير أقيم ليملأ بمياه السيول وسط منطقة صحراوية، ويظل فارغًا من المياه عند انقطاع الأمطار، ويروى أن هذا الحوض من آثار الملك المعظم عيسى أحد سلاطين بنى أيوب.

مغارش الزير:

ويطلق عليها أيضًا (فرح وأفرع) وهى تبعد عن جبل الطاق بنصف مرحلة فقط.

جبل الطاق:

وهو الموقع الذى عقرت فيه ناقة صالح عليه وعلى نبينا السلام، وبعد أن تصل قوافل الحج إلى هذا الموقع، تتجه ناحية الشرق، وتعرج نحو (مبرك الناقة) ثم تتابع سيرها حتى تنزل فى مرحلة (حجر).

الحجر:

ويطلق عليه أيضًا (قرى صالح). وهذه القرى عبارة عن هضاب رملية وبيوت منحوتة فى الصخر على قمم الجبال. وهذه المنطقة وإن كانت آبارها كثيرة إلا أنه قد نهى عن الشرب منها.

قرى صالح :

وهى عبارة عن موقع رملى ويابس به بعض الجبال المنخفضة [1]. وقد مر الرسول الكريم ﷺ بهذا المكان عند ذهابه إلى غزوة تبوك. وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى تناول بعضًا من مياه آبارها ثم نهى عن شربها، بل وأمر بسرعة المرور والعبور من هذه المناطق.

الحجر :

وهى الأراضى التى تعرف بديار ثمود. وتوجد بها بعض المنازل التى نحتت فى الجبال. وبها أيضًا مسجد صالح الذى حفر فى البقعة الشريفة من هذه الديار. وحول هذا المسجد الشريف توجد بعض الأطلال والآثار التى بقيت من عهد ثمود.

ويطلق على الجبل الذى توجد عليها استراحة الحجر (جبل أثان). وكان صالح بن عبيد بن أسفان ماشيخ بن عبيد بن ثمود [2] بن عابر بن إرم ابن سام وأولاد عمومتهم جديس وعاد يسكنون بجوار الحجر هذا، وكانوا يعبدون أصنامهم فى تلك البقاع، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى، صالح إليهم ليدعوهم إلى التوحيد. وقد أرادوا هم بدورهم إعجاز صالح (عليه وعلى نبينا السلام)، بأن طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من الصخر. وبناء على إصرارهم هذا أخرج لهم الحق جل وعلا ناقة من الصخر. وتمادى بعضهم فى غيه وعناده: ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه صالح، وحددوا يومًا لكى تشرب فيه الناقة من البئر الذى منه يسقون. ثم قر قرارهم على أن يعقروا ناقة صالح. وعقرها رئيسهم (قدار)، فأنذرهم صالح بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام. وهاجر عليه السلام إلى بلدة (الرملة) فى فلسطين واختارها موطنًا ومقامًا له. وبعد أن انقضت المهلة الممنوحة لهم، أتاهم عذاب الله. إذ أنزل عليهم من السماء حجارة كأنها سهام القضاء، ونالهم الهلاك المبين. وأصبحت جثهم هامدة، وديارهم خاوية. ولم يحمهم ما شيدوه من قصور شامخة، وما جمعوه من أموال وافرة، ونحتوه من بيوت آمنة. وكان ذلك تصديقًا لوعده، ومظاهرة لنبيه، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم «فأصبحوا فى ديارهم جاثمين».

والقوافل التى تغادر مغارش الزير تواصل سيرها جهة القبلة مسافة نصف منزل أى حتى المكان الذى عقرت فيه ناقة صالح. ثم تتحرك من هناك حتى تنزل فى منزل (الحجر) سابق الذكر والواقع فى الجهة الشرقية. وتمر القوافل مسرعة أمام الصخرة التى عقرت فيها ناقة

---

(١) وتسمى هذه الجبال بالأثالب أيضاً.

(٢) تسب العشائر وأبناء القبائل التى تنتهى إلى أبناء عمومة ثمود إلى ثمود أيضاً.

صالح حتى لا يسمعون صدى صوت الناقة عند عقرها لأن الجمال والنوق التى يقدر لها أن تسمع صدى صوت ناقة صالح تنخ باركة، ولا تستطيع أن تنهض مرة أخرى، ويعتقد البعض أن هذا هو السر وراء دعوة المصطفى عليه الصلاة والسلام لرجاله أن يمروا خفافًا من هذا المكان عند توجههم إلى غزوة تبوك.

العلا:

وتتجه القوافل القائمة من الحجر إلى موقع (العلا) الموجود فى الجهة الجنوبية، وعلى مسيرة نصف مرحلة من ديار ثمود.

تبعد العلا عن المدينة المنورة بست مراحل، وهى من توابع المدينة المنورة وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين. كما توجد بها قلعة حصينة، وتتمتع بانخفاض فى أسعار منتجاتها.

وكان السلطان سليمان القانونى قد أمر بتجديد قلعتها وحصنها. وقد ضرب حولها حصار من الجند لحراستها، على أثر الشكوى التى قدمها الأهالى إلى والى الشام من غارة بعض العصاة من الأعراب على نخيلها. وبعدها بدأت الحكومة فى تقاضى درهم عن كل نخلة، حتى يصرف من هذه الحصيلة على الجند. ويروى البعض أن هذه الضريبة قد ارتفعت إلى أربعين درهمًا عن كل نخلة.

والقوافل التى تغادر (العلا) تتجه نحو (قطران أو طوامير). وهذا المكان حجرى صلب صعب الاجتياز يخلو من المياه والسكان.

وتصل القوافل من هناك إلى (شعب النعام). وهذا الموقع وإن كانت لا تتوفر فيه الآبار، إلا أن الحجاج ينالون حاجتهم من المياه التى تراكمت على جانبى الطريق بعد هطول الأمطار.

شعب النعام:

وبعد (شعب النعام) تصل القوافل إلى مرحلة (هدية). ومع أن هذه المنطقة تتوافر فيها المياه من الحفر، إلا أن أحدًا من المسافرين لا يقربها لأنها تسبب الإسهال، وبعد هدية تصل القوافل إلى منزل (فحلتين).

منزل فحلتين:

ومنزل فحلتين هذا عبارة عن هضبتين صغيرتين، تخلو أن تمامًا من المياه، ويوجد بالقرب من فحلتين جبل مرتفع فوق قمته حصن حصين.

والقائمون من (فحلتين) يمرون بـ (وادى القرى) ومنه إلى (بيار حمزة). وبعد ذلك يصلون إلى (المدينة المنورة)[1]، ثم تستمر حركتهم إلى (بيار على).

وادى القرى :

ووادى القرى هذا موقع تكثر فيه الغابات والأشجار، وإن لم توجد به المياه. وتنسب (بيار على) إلى الحيدر رضى الله عنه. وهى عبارة عن عدة آبار عمق كل منها ثلاثة أذرع.

ولما كانت القوافل تصل إلى هذا المنزل فى وقت الإحرام، فإن الحجيج جميعهم يلبسون ملابس الإحرام فى هذا الموقع.

والقافلة التى تتحرك من (بيار على) تصل إلى (قبور الشهداء)، وبعدها تصل إلى الجديدة.

قبور الشهداء :

وهى عبارة عن مكان محصور بين جبلين، تعتمد مياهه على البحيرة التى تتجمع مياهها من أثر هطول الأمطار. وإذا لم تسقط الأمطار، تعذر الحصول على المياه فى هذا الموقع.

جديدة :

وهى عبارة عن هضبة صغيرة محصورة بين جبلين، فوقها قرية صغيرة كثيرة المياه ياسعة البساتين مليئة بالحدائق، تمورها وقثاؤها وشمامها وبطيخها كثير حلو المذاق.

والقائمون من الجديدة يصلون إلى (بدر)، ومنها إلى (قاع البرو)، ثم يتجهون نحو (رابغ). وتوجد عدة قرى عامرة بين قرية جديدة ووادى خضر. كما أن ناحية بدر تكثر فيها المياه الجارية والبساتين وارفة الظلال والحدائق ذات المحصول الوفير.

قاع البرو :

وهو عبارة عن واد رملى منخفض يخلو من المياه. وإذا كانت رابغ هى الأخرى واديًا رمليًا، إلى أن قربها من البحر جعل مياه الآبار العذبة تتدفق إذا ما حفرت الآبار فى أى موقع من المواقع. وتكثر حدائق النخيل والبساتين فى وادى رابغ هذا. كما يكثر فى هذا الوادى نوع من السمك الذى يسمى (علف الغنم). وهناك طائفتان تقطنان رابغ : إحداهما (روى)، والأخرى (روى جماع) وكانت ترسل لهم صرة خاصة بهم.

---

(١) تستمر رحلة القوافل من الشام إلى المدينة المنورة ٢٤٧ ساعة . وتصل إليها فى الثالث والعشرين من ذى القعدة من كل عام .

والقوافل المتحركة من رابغ تصل إلى (طارق)، ومن طارق تتجه إلى (عقبة السويق).

بلاد الطارق :

تقع قرى بلاد الطارق فى الجهة الشمالية من مرحلة طارق، والبلاد المذكورة عبارة عن مجموعة من القرى والمزارع العامرة بأشجار اللوز، تقع فوق قمة جبل عال.

وعندما ينزل الحجاج فى استراحة طارق، يفد عليهم أهالى قرى بلاد الطارق ليبيعوا لهم السمن والزبد والجبن والحبوب المنوعة.

عقبة السويق :

وتقع على طريق (خليص). وعلى الرغم من أن المسافة التى بينها وبين استراحة طارق كلها جبال صخرية صلبة صعبة الاجتياز، إلا أن المسافة التى تبدأ من عقبة السويق فى اتجاه مكة عبارة عن أرض سهلة منبسطة، ولذلك تتمتع ببساتين جميلة، وبها بئر وماء جار وبحيرة صغيرة.

ولما كان أعراب زبيد وهم أسوأ قبائل العرب يسكنون فى هذه النواحى، فقد خصصت لهم الدولة صرة خاصة بهم لكى لا يعتدون على القوافل، وينهبون متاعها.

والقوافل المتحركة من عقبة السويق، تواصل سيرها حتى تصل إلى المرحلة المسماة (عسفان).

عسفان :

وهى من الآبار النبوية المأثورة. وتكثر الآبار فى هذه المنطقة، ويطلق على بعضها (بطن مر). ويقع مدرج عثمان فى الطرف الشرقى لبطن مر هذه.

وتصل القوافل قرية أبى عروة بعد مغادرة مرحلة عسفان، ثم تدخل القوافل مكة المكرمة[1] أو تقوم من عسفان حتى تصل إلى طريق البرقا، ثم تصل إلى مكة المكرمة عن طريق وادى المر [2].

---

(١) كانت تقطع القوافل المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فى مائة وست ساعات. وكانت تدخل مشارف مكة فى أوائل ذى الحجة.

(٢) يعتبر الطريق الذى يمتد من المدينة المنورة إلى وادى المر من أصعب الطرق وأكثرها خطراً ولذلك كانت لا تسلكه القوافل إلا نادراً.

أبو عروة :

قرية صغيرة تقع فى حضن الجبل فى الجهة الغربية من الطريق، وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين .

وهناك طريق آخر يؤدى إلى مكة المكرمة من الشام، إلا أنه غير مطروق فى زماننا لانعدام المياه والأمن فيه. وهذا الطريق المذكور يقع على الجانب الشرقى من الطريق الذى سبق أن عرفناه. والذين يرغبون فى اجتياز هذا الطريق ويخرجون من الشام حتى (أرايانى البصرة). ومن هنالك يصلون إلى قلعة الأزرق. ومن الأزرق يتجهون نحو (قراقر). ثم يتجهون منها إلى (قلته). ومن قلتة إلى (صبيحة)، وبعدها (تيما). ومن تيما تتجه القوافل نحو (وادى الصوان)، ثم تسلك الطريق إلى مكة المكرمة عن طريق العلا سالف الذكر. وهناك خمسة منازل فى المسافة الواقعة بين الشام وقلعة أزرق، ومن قلعة أزرق إلى مرحلة قراقر.

وتوجد بعض الآبار قليلة المياه، وبعض أشجار النخيل فى هذه المنازل، ويوجد بين قراقر وقلتة منزلان، وبين قلتة وصبيحة منزلان آخران. ومن صبيحة حتى تيما ثلاثة منازل، ومن تيما حتى العلا أربعة منازل. واحتمال الحصول على قليل من الماء فى كل منزل من هذه المنازل أمر وارد.

ويشتمل هذا الطريق على عشر مراحل . وبين كل مرحلة وأخرى سبعة وعشرون ميلا .

وهناك طريق آخر بين مكة والمدينة، كثيراً ما يسلكه أهل المدينة أنفسهم .

والذين يسلكون هذا الطريق يتحركون من آبار على إلى (سمحان)، فـ (جبل مفرح) فـ (قريش) فـ (قبور الشهداء). ومن قبور الشهداء إلى (روحا). ومنها إلى (شعب)، ومن شعب إلى (تازى) [١] ثم (حنيف بنى عمرو)، ومن هناك يمرون بطريق الوادى الصغير الذى يؤدى إلى المكان المقصود.

سمحان :

جبل صغير مثل جبل مفرح يقع بين جبلين شاهقين، وقد اعتاد الجمالون على أن ينالوا العطايا والهدايا والمنح من الحجاج منذ القدم، عند وصول القوافل إلى هذه المرحلة.

روحـا :

ويوجد بها بئر عميق الأغوار.

---

(١) كان الطريق الممتد من المدينة المنورة حتى هذه المرحلة مخيف وخطر جداً .

شعب :

وتقع بين جبلين . وبئرها يقع فى الجهة اليمنى من الطريق .

حنيف بنى عمرو :

واد طويل محصور بين جبلين ، توجد به عدة قرى ، وتوجد بهذه القرى عيون جارية وآبار عذبة المياه وحدائق نخيل . وتسكن هذه القرى قبائل بنى عمرو وبنى سالم الذين يبلغ عددهم ألفًا تقريبًا . وهم ذوو شهرة واسعة فى الحرب والقتال ، وخاصة فى رمى السهام . ويعتبرون من أكثر قبائل العرب غنى وثراء .

وادى الصفير :

يقع منزل وادى الصفير عند حافة جبل . وهو يتمتع بعيون جارية ومياه عذبة وأشجار للنخيل ذات محصول وفير . وماؤه أعذب وأحلى من مياه بدر وبنى حنيف .

وتقيم فى هذا الموقع طائفة من الأشراف الزيدية الذين يقومون بحماية المارين والعابرين من هجمات البدو وغارتهم . ويتقاضون صرة من الدولة فى مقابل ذلك .

* * *

٢ ـ طريق مصر

بركة الحاج :

وهى أول مراحل قافلة الحج المصرية .

جرت العادة منذ القدم أن يصحب أمير الحج المحمل المصرى الشريف ، وسط احتفال كبير من مصر القاهرة ، ويتجه به إلى (بركة الحاج) ، وهناك يلتقى بقافلة الحج المصرية ، ثم ينضما إلى بعضهما البعض . ويتجه الموكب بعد ذلك إلى (هدف البويب) .

هدف البويب :

وهو ممر ضيق جداً محصور بين جبلين ، توجد فى طرفه الأيمن من ناحية الشرق هضبة مرتفعة .

ويتجه الموكب نحو منزل (الحمرا) ، بعد أن يغادر هدف البويب . وقد أقامت السلطات المعنية فى هذا الموقع عدة أبنية وفسقية ماء من أجل الحجاج .

الحمرا :

تصل القوافل بعد الحمرا إلى (نخيل غانم)، ثم إلى (بركة عجرود).

بركة عجرود:

تعتبر هذه المرحلة المنهل الأول. وفيها نهير يصب مياهه فى الوادى. وبها (*)خان كبير ينسب إلى السلطان قانصوه (**) الغورى وثلاث فسقيات أقيمت خصيصًا من أجل الحجاج. وهى تقع تجاه السويس، وتسمى أيضًا عيون موسى.

وتصل القافلة المصرية إلى (منصرف) بعد أن تتحرك بركة عجرود، ثم تنزل فى استراحة (قبيات).

منصرف:

وتوجد بهذه المرحلة بعض المنخفضات. ويظن البعض أن تلك المنخفضات كان قد حفرها الملوك السابقون فى العهود الغابرة، للربط بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، وهى التى حفرت مكانها الآن قناة السويس.

وسبب تسمية قبيات بهذا الاسم راجع إلى وجود عدة كثبان رملية صغيرة فى هذا الموقع.

(*) خان: = Han نزل = استراحة أو فندق. الخان يبدو من الخارج في شكل قلعة، ولكن عند الولوج داخله نجده في صورة مضيف، أو محطة على طريق ما، ودورها تأمين القوافل المارة وتوفير كل ما تحتاج إليه من خدمات، وتحمل هذه الخانات قيمًا تاريخية عظيمة؛ فيندر أن نجد مثيلاً لها خارج مناطق العالم الإسلامى، فقد أقام سلاطين السلاجقة هذه الخانات على كل الطرق التجارية الرئيسة، وعلى مسافات تتراوح ما بين ٣٠ ـ ٤٠ كيلو مترًا وتبعهم في ذلك رجالات الدول الأخرى وحكامها على امتداد العالم الإسلامى، فكل الخانات أو النزل تعد وثيقة تاريخية حية، تسجل أهمية الطرق التاريخية في عصرها، وكذلك الأوضاع الاقتصادية فى المنطقة التى أصبحت بها النشاط التجارى الذى يدور في البلاد خلال مدة ما والسياسه التى اتبعتها الدولة بهذا الصدد. «المترجم».

(**) قنصوى الغوري: Kansu, Kansuk Al - Gavri هو الملك الأشرف سيف الدين من بايباردي الغورى (١٤٤٠ ـ ١٥١٦م). جاء إلى مصر ضمن المماليك الذين جاءوا من منطقة عورفى أفغانستان. ظل إلى سن الأربعين واليًا على ولاية البحيرة. وتولى منصب حاجب الحجاب فى حلب سنة ٨٩٣هـ = ١٤٨٨م. وفى عهد السلطان جانبولاط تولى نيابة النواب سنة ٩٠٣هـ = ١٤٩٧م. عينه طومانباى الأول سنة ٩٠٦هـ = ١٥٠٠م دوادارًا كبيرًا. اختاره المماليك سلطانًا، وقد تجاوز الستين من عمره. لم تكن الأوضاع الاقتصادية فى بداية حكمه مستقرة، اشتط فى جمع الضرائب للصرف منها على القلاع التى انشأها فى حلب والحجاز، وشق القنوات، وحفر الآبار فى كل بقاع البلاد. زاد من رسوم الجمارك، ومرور قوافل التجارة، والسفن فى موانئ الإمبراطورية المملوكية. مما اضطرها إلى الاتجاه إلى موانئ أخرى، وأفاد بذلك البرتغاليين، وتعرضت البلاد لكساد اقتصادى. استطاع أن يؤمن السواحل العربية، عيَّن القبطان حسين على حامية جدة، فأنشأ بها قلعة وابراجًا، وأحاطها بسور، وحولها إلى قاعدة بحرية مملوكية، هزم أمام سليم الأول فى معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م. ولما فتح سليم مصر تحولت كل الديار المصرية إلى الإدارة العثمانية. مازالت العديد من أعماله العمرانية ماثلة حتى الوقت الراهن. «المترجم».

قبيبات :

بعد أن يغادر الموكب قبيبات يصل إلى (أول التيه)، وبعدها يحط رحاله فى الموقع المسمى (وسط التيه) الذى يدعى (روض الجميل) أيضًا.

أول التيه :

هو بداية التيه لبنى إسرائيل. والتيه المذكورة عبارة عن صحراء مترامية الأطراف على جانبها الأيمن جبل الطور، وعلى جانبها الأيسر جبل العريش. طوله وعرضه أربعون فرسخًا، شديد البرودة شتاءًا، مرتفع الحرارة صيفًا. لا يوجد فيه ما يحتمى به من البرودة أو الحرارة، ومياهه معدومة. وقد تاه فيه بنو إسرائيل مدة أربعين سنة، وظلوا حيارى ذهابًا وإيابًا بين هاتين المرحلتين. ولذلك سميتا بتيه بنى إسرائيل. ويلى وسط التيه مرحلة (بطن النخيل) ويعدها (وادى التجر)، وبه ينبوع ماء. وقد أمر السلطان قنصوه الغورى بإقامة حصن وفسقية فى هذا الموقع. وأخيرًا قام أمير أمراء مصر على باشا بتوسيع الحصن والفسقية المذكورة.

ويقوم حراس الحصن المذكور بملء حوض الفسقية بمياه البئر قبيل وصول قافلة الحجاج، ويدافعون عنه ضد هجمات الأعراب المنشقين الذين يريدون تفريغ هذا الحوض.

وتحط القافلة رحالها قليلا من الوقت فى (أبيار علايا) بعد مغادرة موقع وادى القريض، ويعدها تصل إلى (عراقيب البغلة)، ثم تتجه إلى استراحة (الملاحة) ومنها إلى (صقارات) ثم (رأس الركب) فـ (سطح العقبة).

أبيار علايا :

وهذه المرحلة عبارة عن صحراء مسطحة واسعة تقع فى نهاية منحدر طويل، وبها بئران: أحدهما ينسب إلى (بيره) والآخر إلى (علاتى). ويمتلئ البئران من مياه المطر، كما يوجد بهذه المرحلة حوض ماء لا بأس به.

رأس الركب :

والقوافل المتحركة من هذه المرحلة تصل بعدها إلى (سطح العقبة) ومنها إلى (منزل). ومرحلة منزل هذه عبارة عن مطلع حجرى يؤدى إلى مرحلة (ظهر الحجار)، ومنه إلى (الجرفين) فـ (شرفة بنى عطية) التى تشتهر بكثرة أخشابها ورخصها، وتتجه القوافل منها إلى (مطلات) ثم تحط الرحال للاستراحة بجوار (مغارة شعيب)، كما يسمى سطح العقبة بعقبة (أيلة)، وهناك أطلال قصبة كبيرة على أطرافها توجد قرية لبدو قبيلة (الحويطات).

وإذا كان الحجاج لا يجدون ماء يشربونه فى هذا المنزل الذى يحطون رحالهم فيه، فهناك على بعد ميل واحد بئر عذب المياه حوله حديقة نخل كثيفة الأشجار.

منزل :

وتمثل هذه المرحلة نهاية الربع الأول لطريق مصر ـ مكة المكرمة ، ومياهها كثيرة عذبة المذاق قريبة من ساحل البحر ، وتمتد نحو ميلين على الطرف الأيسر من جبل الطور . ويوجد فى نهاية هذا الجبل منحدران ومضيق ضيق ، إلا أن مياهها عذبة وآبارها كثيرة .

مطلات :

تقع هذه المرحلة بين جبلين ، ويقطنها طائفة من جماعة بنى لام .

مغارة شعيب :

وهى تتمتع بحفر ومنخفضات ذات مياه عذبة وأشجار كثيفة من تلك التى تسمى (أثل مقال) . وفى هذا الموضع بعض اللوحات التى كتبت عليها أسماء الملوك القدماء .

وبعد مغارة شعيب تصل القوافل إلى (قبر الطواشى) ، فـ (عيون القصب) .

عيون القصب:

وهو واد كثير المياه ، كثير الغابات ، شديد الحرارة ، ويحكى البعض أن الكثيرين ممن يتواجدون فى هذا المكان خلال أيام الصيف يتعرضون للموت الفجائى . وبهذا الوادى مكان قريب من الساحل ملئ بالقبور يزوره الناس ويظن الأهالى أن أحد هذه القبور ينسب إلى واحد من أبناء إبراهيم (عليه التحية والتكريم) .

وبعد مغادرة عيون القصب تصل القوافل إلى منطقة (شرم) ومنها إلى مرحلة (مويلحة) ، ثم إلى (بطن كبريت) ثم تصل القوافل إلى (قبر الشيخ الكفافى) .

شرم :

موضع قريب من البحر ، يسمى الجبل الواقع على طرفه الأيمن (إشارة) .

مويلحة :

تميل مياهها إلى المرارة لوقوعها على ساحل البحر ، قد نزل السلطان قايتباى [1] بهذا

---

(١) السلطان قايتباى : Kayit Bay الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين المحمودى الظاهرى سلطان مصر وسوريا (٨٧٣ ـ ٩٠٢هـ = ١٤٦٨ ـ ١٤٩٥م) . اشترى كمملوك من قبل بارسباى ، وأطلق سراحه من طرف السلطان جقمق ، ثم أصبح «دوادار» ثم فى سنة ١٤٦٨ عرض عليه العرش فى مصر ، قبله بعد تردد . بعد أن استقر به الحال فى الحكم ، اشتدت المنافسة بينه وبين العثمانيين من جهة أو بين الآف قيونليلر = الشاة البيضاء ، من جهة آخرى . استقبل فى القاهرة الأمير جم منافس السلطان بايزيد على العرش وساعده على ذلك عقد مع العثمانيين صلحًا سنة ٨٩٦هـ = ١٤٩١م .

عاش بقية حياته فى السلطة فى سلام مع جيرانه . ويعتبر من أهم سلاطين المماليك البورجيه . وإن لم ينجح فى اقرار نظام ضريبى مستقر فى البلاد . وهذا مما جر الإمبراطورية المصرية المملوكية إلى الدمار والخراب . أعاد اعمار الكثير من المنشآت ، وانشأ الجديد منها فى شتى بقاع البلاد . أقام القلاع والحصون ، وجدد المسجد النبوى فى المدينة المنورة ، بالرغم من توليه السلطة وعمره يناهر الستين ، إلا أنه قضى السنوات الأولى من السلطنة فى نشاط ودأب مستمر ، =

الموضع للاستراحة عندما كان متوجهًا إلى الحج، ولذلك يطلق عليه أيضًا اسم (دار قايتباى). وما زالت قائمة إلى اليوم.

قبر الشيخ الكفافى:

وهو مدفن شخص يدعى مرزوق.

الشيخ الكفافى:

تصل القوافل إلى منزل (أزلم) بعد منزل الشيخ الكفافى، ومنه إلى (سماق رخانين) ثم إلى (اسطبل عنتر) فـ(شريت) حيث الصحراء الممتدة الواسعة، ثم تصل القوافل إلى مرحلة (الوجه).

أزلم:

تمثل هذه المرحلة نهاية الربع الثانى من طريق مصر ـ مكة المكرمة وهى عبارة عن موقع منحصر بين جبلين أرضه سبخة ومياهه مالحة وأعشابه مسهلة.

رخانين:

ولما كان هذا الموقع قريبًا من الحج، فإن الحجاج المصرين يبدأون الإحرام من هذا الموقع.

اسطبل عنتر:

مرحلة صحراوية محصورة بين لجبال، ذات مياه عذبة وأشجار ظليلة.

الوجـه:

منزل يشبه الوادى، به آبار عذبة المياه وحوض كبير. وقد قام إبراهيم باشا والى مصر بتجديد الحوض المذكور سنة ١٢٣٩هـ، وهذا الحوض يمتلئ بالمياه عند هطول الأمطار وتدفق السيول.

والوجه قصبة صغيرة تقع فى الجهة الغربية للمدينة المنورة وتحتوى على مائتى دار وعشرين دكانًا وستة أقسام للحجر الصحى وجامع ودائرة حكومية، وقلعة كانت تحت إدارة المدينة المنورة. وقد انتقلت إدارتها مؤقتًا إلى الخديوية المصرية لوقوعها فى طريق المحمل المصرى، وتوجد الآن فى حوزة قائمقام مصرى. يستعين بطابور من الجنود النظامية الموجودة فى ينبع البحر وخمسة عشر نفرًا من المدفعية للمحافظة عليها.

= حج البيت الحرام، وكان يقوم بالتفتيش بنفسه على مناطق دجله والفرات، ونجح فى اخضاع القبائل العربية فى الللتا، وحماه وحمص. كان حاكم مثاليًا بالنسبة لكتاب الوقائع، وإن كان يتسم بالشدة والغلظة. «المترجم».

تصل القوافل المتحركة من الوجه إلى (بئر القروى) ومنها إلى (حرير) فـ (حورا) المشهورة بجفافها وانعدام مائها. ثم تواصل القافلة سيرها إلى (عقيق) وبعدها تنزل فى (صحن بياض) أى الصحن الأبيض.

صحن بياض:

هو منزل رملى كثير الثعابين والحيات مخيف الأطراف.

وبعد هذا الموضع المخيف تتجه القوافل إلى (نبعا) ومنه إلى (طراطير الراعى) فـ (وادى النار).

وادى النار:

هو وادى رملى وحجرى بين الجبال، ويطلق الناس على هذه المرحلة (السبع الوعرات) لوجود سبع صخور خطرة وكبيرة فيها.

نبعا:

وهذه المرحلة ذات مياه عذبة وفيرة ويطلق عليها أيضًا: (فقاع الحجار).

وتتجه القوافل من وادى النار إلى (حجرا) إحدى توابع ينبع، ومنها إلى (جبل حمر) فوادى تيما. ثم تصل المواكب إلى جبل الزيت.

جبل الزيت:

يطل جبل الزيت على ينبع. ولهذا يستقبل حاكم ينبع المحمل الشريف فى هذا المكان. ويتقدم جمل المحمل حتى السجادة المفروشة ثم تؤدى ركعتان للصلاة حسب العادة.

وتتجه القافلة التى تخرج من جبل الزيت إلى (ينبع) ومنها إلى قرية (عديبية) فأول (دهنا). ومن هناك إلى (واسط) ومنها إلى بدر، ومن بدر إلى صحراء (خيب البز) الواسعة، ثم إلى (عتيق) القريبة من ساحل البحر، ومنها إلى عقبة (ودان). وتستمر القوافل من عقبة إلى (رابغ) ثم تواصل سيرها فى الطريق المعروف تجاه مكة المكرمة.

* * *

٣ـ طريق عدن

هو الطريق الثالث من بين الطرق الستة المعروضة.

تخرج قوافل الحجاج من مدينة عدن حتى منزلها الأول وهو (لحج)، ثم تتجه إلى المرحلة الثانية وهى (يكرد) فالثالثة (تعز) والرابعة وهى (كرايجة). ثم تصل إلى المرحلة الخامسة وهى وادى الحسنا.

وتنزل القوافل المتحركة من الحسنا إلى (حيس).

كان محمل صنعاء يخرج من حيس، عندما كانت منطقة عدن تحت الإدارة العثمانية.

بداية المحمل اليمنى وانقطاعه:

بدأ الوزير مصطفى باشا والى اليمن ينظم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن منذ سنة ٩٦٣هـ بعد الفرمان الصادر بهذا الخصوص والذى يسمح له. بذلك وعند وصول المحمل المذكور إلى مكة المكرمة، كان المرحوم الشريف حسن يستقبله فى (بركة ماجن) ثم تدخل المدينة المنورة.

تتحرك القوافل من حيس وتتجه نحو زبيد وتبقى فى موقع (المخا) الواقع إلى الجنوب من الموقع السابق.

وتتحرك القافلة من زبيد متجهة نحو مرحلة (رفع) ومنها إلى (بيت العقبة الصغيرة) ومن هناك إلى (قطيع) ومنها إلى (المنصورية) ثم قلعة (فراوع) ومنها إلى (غاغية)، ثم تنزل القوافل فى (بيت الفقيه الكبير). وأحيانًا يسلك حجاج صنعاء طريق بلاد (حباب وطويلة وبلاد بنى الخياط وبلاد بنى الأهلية) ثم يواصلون سيرهم فى الطريق المعتاد.

وتتجه القوافل التى ترد من أحد هذين الطريقين من بيت فقيه إلى (صعلب) ومنها إلى (دومة)، ومن هناك إلى (حيوان) وبعدها إلى (عالية) ومنها إلى (أبو عريش) ثم (سلامة) ومنها إلى (ريش)، ومن هناك إلى (ثماو) ومن ثماو إلى (عتود) ومنها إلى (شفيق) ثم (أبيار)، ومن هناك إلى (دهيان) حيث تحط القوافل رحالها لتستريح وتتزود بزاد الطريق، وتكثر الأشجار المسماة (شجر المقل) فى أراضى مرحلة دهيان هذه.

وتدخل قوافل الحج التى تغادر دهيان إلى منزل (بركة) التى من جملة آثار عمرو بن منصور من ملوك بنى رسول. ثم تتحرك القوافل نحو (شفق) ومنها تعاود سيرها حتى تنزل فى استراحة (قنونا). وهذه الاستراحة فى واد مياهه وفيرة وله اسم آخر هو (الواديين).

وتصل القوافل التى تغادر مرحلة قنونا إلى (ليثة)، ثم منزل (مصم) المشهور بكثرة مائه. ثم تصل إلى مرحلة (سعدية) التى تعد ميقات سكان تهامة اليمن.

وتعتبر مرحلة سعدية هذه من أكثر المراحل ماء وتبعد عن منزل (ويلملم) ثمانية عشر ميلا . ثم تتحرك القوافل من هناك إلى منزل (أيدر) .

أيـــدر :

وتعتبر أيدر و(أم بيضا) مرحلتين متواليتين بعد الميقات ، فى اتجاه مكة المكرمة . ومياه أيدر وفيرة . وتتحرك القوافل إلى (بيضا) ومنها إلى (أم قرين) ذات المياه العذبة الوفيرة . وتتجه من هناك إلى مكة المكرمة لكى تنزل بها .

وهناك طريق آخر يمكن أن يسلكه حجاج صنعاء وعدن هو طريق (نجد اليمن) . والقوافل التى تريد أن تسلك هذا الطريق تخرج من عدن بمحاذاة الجبل متجهة نحو الشمال . وأثناء سيرها تنضم إليها قوافل حجاج صنعاء . ثم يتجه الجمع نحو صعدة ومنها إلى الطائف ، ثم إلى مكة المكرمة .

ويوجد طريق آخر من عدن يمر بـ (قطب) ومنها إلى (حقب) وبعدها إلى (دمت) ، ثم (شلالة) فـ (بوريم) ، ثم (زمار) . ومن زمار تتجه القوافل إلى (زراج) ومنها إلى (خزف) ثم (سيان) متجهة نحو صنعاء ، وفى صنعاء تنضم إليهم قافلة حجاج صنعاء ، ثم يسلك الحشد الطريق المعهود .

أما حجاج شحر فإنهم يتجهون من حضرموت براً إلى صنعاء . وهناك ينضمون إلى قافلة صنعاء ويتجهون سويًا نحو مكة المكرمة .

ومن شحر إلى حضرموت خمسة منازل . ومن حضرموت إلى صنعاء أربعة منازل أخرى .

وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء براً ، أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة حتى يصلوا إلى صنعاء . ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التى احتشدت هناك ، ثم يتجهون سويًا نحو (زيد) ومنها إلى (أيافث) ثم (خيوان) ومنها إلى (أعمش) . ومن هناك إلى (عرف) ومنها إلى (هجر) ثم (سروج) وبعدها (شج) ثم (كشب) . ومنها إلى (أبيات) ثم (جرم) وبعدها (حسن) و(نيش) و(بنيال) ثم (وبيى) ومنها إلى (كدمى) وبعد ذلك (صغر) و(بوى) و(عتيق) ثم (جدر) ومنها إلى (عمر) فمكة المكرمة .

* * *

٤ ـ طريق عمان

طريق عمان هو الطريق الرابع من بين الطرق السبع السالكة. يتجه حجاج عمان إلى (تروى) بعد أن يخرجوا من حصن المدينة، ثم إلى (عجلة) ومنها إلى (عضوة) فـ (بئر السلاح)، وبعد ذلك تشد رحالها نحو مكة المكرمة.

والطريق المذكور عبارة عن عشرين مرحلة بدء بالحصار وانتهاء بمكة المكرمة. وفى المرحلة الرابعة تتوقف القوافل قليلا لدفع العطش والتزود بالماء. أما بقية المراحل فتنعدم فيها الآبار وتندر فيها المياه، لأن المكان رملى جاف. لذلك يفضل حجاج عمان الذهاب والعودة عن طريق البحر.

* * *

٥ ـ طريق الحسا = الاحساء

يعتبر هذا الطريق هو الطريق الخامس بين الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة.

إن جموع الحجاج التى تحتشد فى الحسا تخرج منها متجهة نحو (جود) ومنها إلى (ضان) ثم (دهنا) وبعدها (دحلمى). ثم تتجه القافلة إلى (جبل أبو عرب) فـ (ملهم) ثم (جعر) و(ريض) ثم (الدرعية) فـ (الحيسية) و (مراة) وبعدها (الشعرا) ثم (جنايح). ومن هناك إلى (مرقب) وبعدها (مخنا) ومنها إلى (عبل)، ثم إلى (ذكية) ومنها إلى (ذات عراق) فساحة الكعبة المشرفة.

* * *

٦ ـ طريق البصرة

وهو الطريق السادس بين الطرق السبع التى تسلكها قوافل الحج إلى مكة المكرمة.

إن القافلة التى تخرج من البصرة تتجه إلى (الدرهمية) التى تسمى أيضًا البصرة القديمة، ومنها إلى (صفوان) وبعدها تصل إلى منزل (جهر) حيث تحط رحالها.

وبعد أن تأخذ القافلة قسطها من الراحلة فى (جهر)، تتجهه إلى حصن النبى موسى عليه السلام الموجود فى المكان المعروف بـ (أضافا)، ثم تتجه إلى (ماو) وبعدها تصل إلى (عالج الصغير) ثم تعرج إلى (دجانى) ذات المياه الوفيرة. ومنها تخرج القافلة نحو (صدير) ثم

(الوشم) وبعدها (سر). ثم تدخل القافلة إلى مرحلة (حماين) التى تعتبر ثلاثة منازل. وبعدها تنزل فى (مران) حيث تنال قسطًا من الراحة. وهذا الطريق يعتبر طريقًا صيفيًا فقط. ولا يمكن أن تسلكه القوافل إذا ما صادف موسم الحج فصل الشتاء، حيث تقوم قوافل الشتاء من (عالج الصغير) متجهة نحو (عالج الكبير). وينقسم الطريق فى هذا الموقع إلى فرعين: أحدهما شتوى والآخر صيفى.

تخرج القوافل من هناك متجهة نحو (الشوم) ومنها إلى (قصم غيرى) التى تشتمل على منزلين. ثم تعرج إلى (رسه) ثم تخرج منها إلى (ضرية)، ثم تتجه نحو (مران).

تتحرك القوافل من مران إلى (حر) ثم إلى (ذات العراق) التى تعد ميقات حجاج نجد التى يحرمون فيها. ثم تتجه القوافل إلى بستان (بنى عامر) فمكة المكرمة حيث بيت الله الحرام.

٧ـ طريق بغداد

طريق بغداد: هو الطريق السابع بين طرق قوافل الحج.

تخرج قافلة بغداد من مدينة بغداد وتنزل بهضبة (صرصران).

يخرج الموكب جميعه متجهًا نحو هضبة (قراشر)، ومنها إلى (شط الفرات)، ثم إلى الكوفة ومن الكوفة إلى (مشهد على) المسمى (سد بيداء النجف) ومن هناك إلى (متعب) ومن متعب إلى (فرع) ومنها إلى مسجد (سعد الفرارى) ومنها إلى (الواقصى) ثم (عقبة الشيطان) وبعد ذلك إلى(قاع الرمال) ومنها إلى (بارطان) التى تسمى أيضًا (قبة العبادى) والتى تشتهر ببركها الكثيرة. ثم يتحرك الركب إلى (ثعلب) حيث يلتقى هناك مع قافلة (واسط).

أما قافلة واسط فإنها تخرج من مدينةواسط متجهة نحو مرحلة (شعشع) ومنها إلى (عيص) ثم (ذات معين) ومن هناك إلى (شاهى) ثم (أحادى) ومنها إلى (عوج) ثم (سوى) وبعدها إلى (ثعلبى) ثم إلى (خريم) فـ(حقوقية الفيد) التى تتمتع بالمياه الجارية والبرك الكثيرة. وتتجه القوافل من هذا المنزل إلى برك (شور) ثم تنزل فى (شحر) حيث يتفرع طريق آخر متجهًا إلى المدينة المنورة.

والموكب الذى يتحرك من هذا المنزل يتجه نحو (معدن بنى سليم) ومنها إلى (سلسل) وبعدها (عمس) ثم (قعب) ومنها إلى (مسلح) وتتركها القافلة متجهة نحو (بستان بنى عصر). وتدخل القوافل من هناك أيضًا إلى الحرم المكى الشريف.

ويزدان الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة بالأبنية وسبل المياه والخانات وغيرها من الأبنية

رفيعة المستوى، والتى يعجز اللسان عن التعريف بها، وخاصة تلك التى شيدتها (زبيدة) زوجة هارون الرشيد العباسى، والسلطان ملكشاة السلجوقى[1] .

استطراد :

أسماء الذين تولوا إمارة الحج منذ فتح مكة حتى سنة ٣٣٥هـ أورد المؤرخ الشهير المسعودى : أسماء أمراء الحج على النحو التالى :

السنة	أمير الحج [2]
الـ ٨	فتح الله على رسوله المصطفى بفتح مكة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وبعد أن عين (عتاب بن أسيد ابن أبى العيص بن أمية) (رضى الله عنه) واليًا أراد أن يعود ولكنه رجع وقاد قافلة الحجيج بناء على النداء الإلهى، وهو الذى تفضل بخطبة يوم عرفة هذه السنة.
٩	تولى أبو بكر الصديق إمارة قافلة المدينة المنورة، وخرج موكب الحج المكون من ثلاثمائة حاج من المدينة المنورة. وكان فى معيتهم الضحايا التى أعدت من قبل سلطان الأنبياء (عليه وعليهم السلام). ثم بعث الرسول ﷺ بصهره على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فى أعقابهم، فلحق بهم الحيدر فى الموقع المسى (عرج). وكان قد استودعه

(١) ملكشاه السجلوقى : MelikSah : Maliksah (١٠٥٥ ـ ١٠٩٢م) هو سلطان السلجوقى الكبير الملقب بـجلال الدولة معز الدين أبو الفتح. والده هو السلطان آلب آرسلان . ولد فى أغسطس سنة ١٠٥٥م، اهتم بالإدارة منذ أن بلغ التاسعة والعاشرة من عمره. شارك فى الحروب التى قادها والده ووزيره الأعظم نظام الملك ضد القوات البيزنطية . وقد أعده والده لتولى العرش من بعده، ومهد له الأمر بين أخوته حتى لا تنشب الصراعات فيما بينهم تولى السلطة بعد وفاة والده سنة ٢٥ تشرين الثانى سنة ١٠٥٢ ولم يتجاوز الثامنة عشر من عمره.

استمرت مدة سلطته عشرون سنة . وسَّع خلالها حدود الدولة السلجوقية حتى بلغت من كاشغر حتى البوسفور، ومن بلاد القفقاس حتى عدن واليمن. واستمر فى الفتوحات والتوسّع حتى وفاته. وافته المنية ولم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره فى ١٦ شوال سنة ٤٨٥هـ = ٢٠ تشرين الثانى سنة ١٠٩٢م.

اعتمد على وزيره نظام الملك فى تنظيم أمور الإمبراطورية؛ سواء فى العاصمة أو الأقاليم الشاسعة. وتعتبر فترة حكمهما من أعظم الفترات التاريخية فى تاريخ الإمبراطورية السلجوقية وظلت أعماله الخالدة ، ومؤسساته العلمية، والإدارية ، والخيرية ظاهرة، وباهرة للعيان حتى انتقلت إلى الدولة العثمانية «المترجم».

(٢) أمير الحج : مصطلح إدارى، يستخدم للدلالة على قائد قافلة الحج المتجة إلى مكة المكرمة. وكان أبو بكر الصديق هو أول أمير للحجيج سنة ٩هـ = ٦٣٠م. وبعدها صارت الإمارة تحول إلى مَنْ يراه الخليفة مناسبًا لها من الصحابة، أو الأمراء ثم القادة العسكريين فى العصور التالية. وكان أمير الحج مكلف برعاية قافلة الحج وحمايتها فى الذهاب والإياب من الأراضى المقدسة. واقامة الشعائر، والحفاظ على الأمن عند أداء المناسك.

وبعد فتح سليم الأول مصر ٩٢٣هـ = ١٥١٧م ، صار السلطان العثمانى هو المخوَّل باختيار أمير الحج. وكان لمصر أميرها، وللقافلة التى تخرج من استانبول أميرها الذى يقود القافلة عبر الأناضول ، وسوريا حتى يصل بها إلى مكة المكرمة. وفى أواخر عهد الدولة العثمانية ، أصبح أمين الصرة هو الذى يقوم بهذه المهمة. «المترجم».

سورة البراءة، وقام الحيدر بقراءة هذه السورة المباركة فى يوم النحر مع الحجاج فى المكان المسمى (العقبة). وقد قام الصديق الكريم بإلقاء خطب مكة وعرفات ومنى.

١٠ كان الرسول نفسه أمير قافلة الحج، وقد تفضل عليه الصلاة والسلام بقراءة كل خطب هذه المناسبة.

١١ ترأس عمر بن الخطاب إمارة الحج وقرأ الخطب.

١٢ ترأس أبو بكر الصديق إمارة الحج وقرأ الخطب.

١٣ ترأس عبد الرحمن بن عوف إمارة الحج وقرأ الخطب.

١٤ـ٢٣ ترأس عمر بن الخطاب إمارة الحج وقرأ الخطب.

٢٤ ترأس عبد الرحمن بن عوف إمارة الحج وقرأ الخطب

٢٥ـ٣٤ ترأس عثمان بن عفان إمارة الحج وقرأ الخطب

٣٥ ترأس عبدالله بن عباس موكب الحجيج

٣٦ـ٣٧ ترأس عبدالله بن عباس موكب الحجيج

٣٧ قام معاوية بن أبى سفيان بإرسال (سحرة الرهاوى) على رأس قافلة الشام، وبناء على الخلاف الذى نشب أسندت أمور الخطابة إلى (شيبة بن عثمان الجمحى وبذلك أزيلت الخلافات.

٣٨	قثم بن عباس	٣٩	شيبة بن عثمان
٤٠	مغيرة بن شعبة	٤١	عتبة بن أبى سفيان
٤٢ـ٤٣	مروان بن الحكم	٤٤	معاوية بن أبى سفيان
٤٥	مروان بن الحكم	٤٦ـ٤٧	عتبة بن أبى سفيان
٥١ـ٥٣	سعيد بن العاص	٥٤ـ٥٥	مروان بن الحكم
٥٦	عتبة بن أبى سفيان	٥٧ـ٥٨	وليد بن عتبة بن أبى سفيان
٥٩	عثمان بن أبى سعيد	٦٠	عمرو بن سعيد بن العاص
٦١ـ٦٢	وليد بن عتبة بن أبى سفيان	٦٣ـ٧٣	عبدالله بن الزبير
٧٤	الحجاج بن يوسف الثقفى	٧٥	عبدالله بن مروان
٧٦ـ٨٠	أبان بن عثمان بن عفان	٨١	سليمان بن عبد الملك

٨٢ أبان بن عثمان

٨٣ـ٨٥ هشام بن إسماعيل بن هشام بن وليد بن مغيرة المخزومى

٨٦ عباس بن وليد بن عبد الملك

٨٧	عمر بن عبد العزيز بن مروان	٨٨	وليد بن عبد الملك
٨٩ـ ٩٠	عمر بن عبد العزيز	٩١	وليد بن عبد العزيز
٩٢	عمر بن عبد العزيز	٩٣	عثمان بن وليد بن عبد الملك
٩٤	مسلمة بن عبد الملك	٩٥	وليد بن عبد الملك

٩٦ أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم

٩٧ سليمان بن عبد الملك

٩٨ عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن سعيد بن العاص بن أمية

٩٩ـ ١٠٠ أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم

١٠١ عبد العزيز بن عبدالله والى مكة

١٠٢ عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى

١٠٣ ـ ١٠٤ عبدالله بن كعب بن عمير بن سبع بن عوف بن نضر ابن معاوية النضرى

١٠٥ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى

١٠٦ هشام بن عبد الملك

١٠٧ ـ ١١٢ إبراهيم بن هشام المخزومى

١١٣ سليمان بن عبد الملك

١١٤ خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم بن العاص بن أمية

١١٥ محمد بن هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة

١١٦ وليد بن يزيد بن عبد الملك

١١٧ خالد بن عبد الملك

١١٨ محمد بن هشام بن إسماعيل

١١٩ مسلمة بن هشام بن عبد الملك

١٢٠ـ ١٢٤ محمد بن هشام بن إسماعيل

١٢٥ يوسف بن الحجاج الثقفى

١٢٦ عمر بن عبدالله بن عبد الملك

١٢٧ـ ١٢٨ عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز

١٢٩ عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك

١٣٠ محمد بن عبد الملك

١٣١ عروة بن محمد بن عطية السعدى. وقد ألقى الخطب المتعلقة بموسم الحج. وهو آخر أمراء الحج المرسلين من قبل بنى أمية

١٣٢	داود بن على بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب وهو أول أمير لقافلة الحج التى خرجت من بغداد بعد تولى بنى عباس بن عبد المطلب الحكم
١٣٣	زياد بن عبدالله الحرثى
١٣٤	عيسى بن موسى بن محمد بن عبدالله بن عباس
١٣٥	سليمان بن على بن عبدالله بن عباس
١٣٦	أبو جعفر المنصور
١٣٧	إسماعيل بن على بن عبدالله
١٣٨	فضل بن صالح بن على بن عبدالله
١٣٩	عباس بن محمد بن على
١٤٠	أبو جعفر المنصور
١٤١	صالح بن على
١٤٢	إسماعيل بن على
١٤٣	عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبدالله
١٤٤	أبو جعفر المنصور
١٤٥	سرى بن عبدالله بن الحرث بن العباس
١٤٦	عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبدالله ابن العباس
١٤٧	أبو جعفر المنصور (وعلى رواية محمد بن إبراهيم الإمام)
١٤٨	محمد بن إبراهيم الإمام
١٤٩	عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم
١٥٠	عبد الصمد بن على
١٥١	محمد بن إبراهيم بن محمد بن على
١٥٢	أبو جعفر المنصور
١٥٣	مهدى محمد بن عبدالله بن محمد بن على
١٥٤	محمد بن إبراهيم
١٥٥	عبد الصمد بن على
١٥٦	عباس بن محمد بن على
١٥٧ـ١٥٨	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على
١٥٩	يزيد المنصور بن عبدالله بن شهر بن يزيد بن ثوب الحميرى

١٦٠ـ١٦١	الهادى بن موسى بن مهدى
١٦٢	إبراهيم بن جعفر بن أبى جعفر
١٦٣	على بن المهدى
١٦٤ـ١٦٥	صالح بن أبى جعفر
١٦٦	محمد بن إبراهيم بن محمد بن على
١٦٧	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن على
١٦٨	على بن محمد المهدى
١٦٩	سليمان بن أبى جعفر المنصور
١٧٠	هارون الرشيد
١٧١	عبد الصمد بن على
١٧٢	يعقوب بن منصور
١٧٣ـ١٧٩	هارون الرشيد
١٨٠	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على
١٨١	هارون الرشيد
١٨٢	موسى بن موسى
١٨٣	عباس بن محمد المهدى
١٨٤	إبراهيم بن المهدى
١٨٥	منصور بن المهدى
١٨٦	هارون الرشيد
١٨٧	عبدالله بن العاص بن على (وعلى رواية منصور بن المهدى)
١٨٨	هارون الرشيد
١٨٩	عباس بن موسى بن موسى بن محمد بن على
١٩٠	على بن الرشيد
١٩١ـ١٩٢	عباس بن عبدالله بن جعفر بن أبى جعفر المنصور
١٩٣	داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن على
١٩٤	على بن الرشيد
١٩٥	داود بن عيسى بن موسى
١٩٦ـ١٩٨	عباس بن موسى
١٩٩	محمد بن داود بن عيسى بن يحيى. تولى إلقاء خطب موسم الحج

إلى جانب إمارته . وقد اختفى قبل الصعود على عرفات ولذلك وقف الحجاج على عرفات بدون إمام .

٢٠٠	معتصم بن إسحاق
٢٠١	إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على
٢٠٢	إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على الحسين بن على ابن أبي طالب (رضى الله عنه)
٢٠٣	سليمان بن عبدالله بن جعفر بن سليمان بن على
٢٠٤ ، ٢٠٥	عبدالله بن الحسن بن عبدالله
٢٠٦ ، ٢٠٧	أبو عيسى بن الرشيد
٢٠٨ـ٢١٠	صالح بن لرشيد
٢١١	إسحاق بن إلياس بن محمد بن على
٢١٢ ، ٢١٣	أحمد بن العباس
٢١٤ ، ٢١٥	عبدالله بن عبدالله
٢١٦ ، ٢١٧	سليمان بن عبدالله بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس
٢١٨ـ٢٢١	صالح بن العباس بن محمد
٢٢٢	محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن على بن عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب
٢٢٣ـ٢٢٧	جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد
٢٢٨ـ٢٣٥	محمد بن داود بن عيسى
٢٣٦	محمد المنتصر
٢٣٧	على بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٣٨ـ٢٤١	عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن على ابن عبدالله بن عباس
٢٤٢ـ٢٤٤	عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد ابن على بن عبدالله بن عباس
٢٤٥ـ٢٤٨	محمد بن سليمان بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم الإمام
٢٤٩	عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن على ابن عبدالله بن عباس
٢٥٠	جعفر بن فضل بن موسى بن عيسى بن موساى ساسان

٢٥١	إسماعيل بن يوسف العلوى
٢٥٢	كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٥٣	عبدالله بن محمد بن سليمان بن عبدالله الرسى
٢٥٤_٢٥٥	على بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن على
٢٥٦	كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر بن المنصور
٢٥٧_٢٥٨	فضل بن عباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد ابن على
٢٥٩_٢٦٠	إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على ابن بويه
٢٦١_٢٦٣	فضل بن عباس بن الحسن
٢٦٤_٢٦٨	هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن محمد بن على ابن عبدالله بن عباس
٢٦٩_٢٨٧	أبو عبدالله بن محمد بن عبدالله بن داود بن عيسى ابن موسى
٢٨٨	محمد بن هارون بن العباس بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر ابن أبى جعفر المنصور
٢٨٩_٣٠٥	فضل بن عبد الملك بن عبدالله بن العباس بن محمد بن على
٣٠٦_٣٠٧	أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان بن محمد ابن إبراهيم الإمام
٣٠٨_٣١١	إسحاق بن عبد الملك بن عبدالله بن العباس بن محمد
٣١٢	حسن بن عبد العزيز بن عبدالله بن العباس بن محمد بن على ابن عبدالله بن العباس
٣١٣	أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز بن عبدالله ابن عباس بن محمد
٣١٤	عبدالله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد الأكبر
٣١٥_٣١٦	عبدالله عبيدالله بن العباس بن محمد أبى أحمد الأزرق
٣١٧	عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى، وقد ألقى خطب الحج كما هى السنن ولكن الحجاج لم يتمكنوا من الوقوف بعرفات فى هذه السنة بسبب سيطرة سليمان بن الحسن القرامطى على مكة المكرمة وقتله الأهالى والحجاج بغيظ وغضب
٣١٨	عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى

٣١٩	جعفر بن على بن سليمان
٣٢٠ـ ٣٣٥	تولى عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمى الذى كان قاضيًا على مكة المكرمة إمارة الحج، وألقى الخطب المسنونة فى أيامها المحددة ومنذ ذلك الحين تولى قضاة مكة مهمة إمارة الحج، ولذلك كان القضاة الذين يرسلون من قبل الخلافة يخضعون لمواصفات معينة. وكان يتم انتخابهم من بين أصحاب الفضل والعلم المشهود لهم بالتفوق.

* * *

ملاحظة هامة:

إن السادة السالفة أسماؤهم كانوا هم وأمناء الصرة [1] يعينون للقيام بالمهام والأمور المتعلقة بمشيخة مكة المكرمة. فإلى جانب إشرافهم على إحضار قوافل الحج إلى أماكن الشعائر المقدسة، كانوا كذلك يقومون بإلقاء خطب عرفة والتروية والمزدلفة ويوم النحر. وبعد عرفة يتولون إعادة القوافل إلى مركز السلطنة. ولكن الخطابة والإمامة كانتا تسندان أحيانًا إلى ولاة مكة المكرمة، وأحيانًا أخرى إلى ولاة المدينة المنورة، أوتحال إلى موظفين آخرين فى إدارة

(١) أمناء الصرة: أمين الصرة: مصطلح إدارى يُطلق على الموظف الذى تعهد إليه أمانة الصرة السلطانية التى كانت ترسل سنويًا إلى الحرمين الشريفين. وكان يختار من بين المشهود لهم بالتدين، والعلم، والاستقامة من بين رجال الدين، أو رجالات الدولة، أو القادة العسكريين. وكان يخرج على رأس قافلة الحج وآلاى الصرة. وبعد توزيع الهبات وتسليم الأمانات، وأداء فريضة الحج يعود إلى استانبول.

ولما كانت هذه المهمة شرفية فى المقام الأول، فقد كان الأمين المختار لها يضيف عليها الكثير من أمواله الخاصة. ولهذا فقد كان يختار لها أيضًا بعض الأثرياء الصالحين. وخلال فترات ازدهار الدولة العثمانية، كان يتم الاختيار من بين رجالات الدولة الذين يتشرفون بهذه المهمة، فيصرفون عليها من أموالهم ولكن بعد القرن الثانى عشر الهجرى، أى الثامن عشر الميلادى، وبسبب ما حاق بالدولة، فنرى أن الكثيرين من الذين كانوا يرشحون لهذه المهمة، يطلبون اعفاءهم منها. مما اضطر السلطان سليم الثالث (١٧٦١ ـ ١٨٠٨م) أن يزيد مخصصاتها بخمسين ألف قرش سنة ١٢٠٧هـ = ٩٢/ ١٧٩٣م مما جعل الذين كانوا يرفضونها، يسعون إليها. ثم تحولت فى الأزمنة الأخيرة إلى وظيفة رسمية. وكان آخر من تولى هذه المهمة فى الدولة العثمانية هو المرحوم الحاج كامل أفندى أحد رؤساء محكمة الاستئناف. ولكنه لم يتمكن من اكمال الرحلة بسبب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م = هـ فعاد من الشام. وبعد هذه السنة أصبحت هذه المهمة فى ذمة التاريخ.

ولقد كان المقتدر بالله العباسى هو أول من اعتاد على ارسال هذه الصرة فقد بعث بها سنة ٣١١هـ = ٢٣/ ٩٢٤م. ثم استمرت هذه العادة فى عهد الفاطميين، والمماليك. وكانت ترسل من مصر، وظلت على ذلك حتى بعد أن ضم سليم الأول مصر ٩٢٣هـ ١٥١٧م، وأقر اصدار الصرة من مصر كل سنة. وبهذا كانت هناك الصرة المصرية «الصدقة المصرية» والصرة الهمايونية «الصدقة الروحية. «المترجم».

قوافل الحج. وما لم يحدث ذلك فقد كان ولاة مكة المكرمة أو المدينة المنورة يقومون بأنفسهم بالخطبة وإمامة الحجاج. ولكن أسندت خطبة يوم عرفة ويوم التروية ويوم النحر وإمامة المزدلفة والوقفة إلى قاضي مكة المكرمة منذ سنة ١٣٢٠هـ كما سبقت الإشارة.

وقد أسندت شياخة مكة إلى عمر بن الحسين بن عبد العزيز الهاشمي الذي كان يعد فريد عصره ومن فضلاء قومه، ولما كان هذا العالم الجليل ممن لهم باع طويل في تقويض أركان الشرك والضلال، فقد أوفى هذه الوظيفة حقها. ثم أسند إليه قضاء مكة، وظل بهذه الوظيفة مدة خمس عشرة سنة، وقد أداها أيضًا خير أداء. ولم يكن يرسل من يقوم بهذا العمل فيما بعد. بل كان أمير الحج هو الذي يقوم بالخطبة والإمامة. ثم كان أمير الحج يقوم بإحالة هذه المهمة الجليلة إلى قضاة مكة المكرمة. وقد كانت الأصول المرعية تقضي بأن ينتخب لقضاء مكة وإمامتها خيرة فحول العلماء المتبحرين على مستوى العالم الإسلامي كله.

ومازالت هذه الأمور من المحاسن المرعية.

وقد كان أمراء الحج وأمناء الصرة الذين يتم تعيينهم من قبل السلطنة السنية، هم الذين يتولون إحضار المحامل وقوافل الحج وإعادتهما. أما خطبة عرفة وسائر الخطب الأخرى، فقد كانت تسند إلى قضاة مكة أو إلى آخرين يتم تعيينهم لهذا الغرض الجليل.

وقد كانت إمارة الحج حتى عهد قريب تسند إلى ولاة الشام. وكان ولاة الشام هؤلاء يشرفون بأنفسهم على توصيل المحامل إلى الحرمين الشريفين ثم يعودون بعد عرفة مصطحبين معهم موكب المحامل. والآن فإن كان أمناء الصرة هم الذين يذهبون ويعودون وحدهم، فإن المحامل وإمارة الحج قد أسندتا إلى هيئة عسكرية لكي تتولى المحافظة عليهما وتوصيلهما في أمان وسلام.. انتهى.

* * *

الباب الخامس

قبائل العرب التى تسكن الجزيرة العربية

الفصل الأول

قبائل العرب التى تسكن الأقطار الحجازية [1]

تنبيـه :

لقبائل العرب التى توطنت جزيرة العرب، شُعَبٌ كثيرة، ومن الملاحظ أن أفراد أى أمة ، كيفما كانوا، يسعون لكمال قوة عصبيتهم، وبقاء شرفهم، وخلود عزتهم. ويناضلون بدافع الغيرة الوطنية، والقومية، للوصول إلى أهدافهم السامية. سلكت القبائل العربية أيضًا نفس الطريق وكافحت نفس الكفاح.

ولما كانت قبائل العرب تسكن كل منها منازل خاصة بها، وتشغل مواقع وقفًا عليها، فنحن فى هذا الفصل وبعض الفصول القادمة سنتناول إن شاء الله القبائل العربية الواجب ذكرها، والتى تسكن المناطق الـ... للجزيرة العربية، مع بيان أحوالها ومنازلها المحدودة، والقوانين السائدة بينها، وبعض عاداتها وتقاليدها المرعية.

بنو هاشم :

يطلق على أصلاب وأنساب السادات والأشراف التى تنحدر إلى الإمامين الحسن والحسين رضى الله عنهما بنى هاشم.

إن نفوذ وسلطة أفراد القبائل التى ينسب إليها الأشراف والسادات ذوى الاحترام سائر ومرعى بين جميع القبائل منذ القدم. وإن حصر إمارة مكة المكرمة ووقفها على هؤلاء الأشراف لدليل كاف على إثباب هذا الادعاء.

---

(١) قبائل العرب التى تسكن الأقطار الحجازية :

« انظر لتفصيل ذلك كتاب علامة جزيرة العرب محمد الجاسر المسمى « معجم قبائل المملكة العربية السعودية، من منشورات النادى الأدبى فى الرياض الرياض. المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م.

توضيح :

يطلق على أولاد السبطين المكرمين (رضى الله عنهما) وأحفادهما (الأشراف والسادات) الكرام.

يذهب بعض المؤرخين إلى إطلاق لقب (الأشراف) على أولاد الإمام الحسن (رضى الله عنه) ولقب (السادات) على أولاد الإمام الحسين (رضى الله عنه). وفى هذا مغالطة تاريخية ظهرت فى الأزمنة المتأخرة، حيث أطلق لقب الأشراف على أولاد الحسن الكرام، ولما كان تولى إمارة مكة المكرمة والمدينة المنورة قد جرى أيضًا من بين أولاد الحسين بن على (رضى الله عنهما) حتى عهد (قتادة بن إدريس) ـ حيث اتضح ذلك فى بحث طبقات الأشراف بالتفصيل ـ كما كان يجرى من بين أولاد الحسن ابن على (رضى الله عنهما)، فإن قصر الأشراف على أولاد الإمام الحسن ابن على (رضى الله عنهما) وحده يعتبر خطأً.

انحصرت الشرافة فى عموم أبناء هاشم بن عبد مناف. واقتصرت الشرافة والسيادة معًا على أولاد السبطين المكرمين فقط. حتى أن بعض كبار المحدثين، وفحول المفسرين، وأعلام المؤرخين السابقين؛ كانوا عند ذكر معالى أحفاد السبطين المكرمين يدعونهم بـ (السيد الشريف الحسنى، والسيد الشريف الحسينى). ولكنهم إذا ما أرادوا التعريف بواحد من بنى هاشم والتفريق بينه وبين السادات، بمعنى أنه لكى يبينوا أن كل (شريف) ليس (سيدًا) كانوا يلقبونه بـ (الشريف العباسى) و (الشريف الزينبى) و (الشريف العقيلى).

ومن الجدير بالذكر أن الملك الأشرف[1] أحد سلاطين مصر قصر الشرافة على أحفاد السبطين المكرمين باتفقا رجال عصره، عندما أوقف لبس العمامة الخضراء على السادات الكرام.

---

(١) قنصوى الغوري : Kansu, Kansuk Al - Gavri هو الملك الأشرف سيف الدين من باياردي الغَورى (١٤٤٠ ـ ١٥١٦م). جاء إلى مصر ضمن المماليك الذين جاءوا من منطقة غورفى أفغانستان. ظل إلى سن الأربعين واليًا على ولاية البحيرة. وتولى منصب حاجب الحجاب فى حلب سنة ٨٩٣هـ = ١٤٨٨م. وفى عهد السلطان جانبولاط تولى نيابة النواب سنة ٩٠٣هـ = ١٤٩٧م. عينه طومانباى الأول سنة ٩٠٦هـ = ١٥٠٠م دوادارًا كبيرًا. اختاره المماليك سلطانًا، وقد تجاوز الستين من عمره. لم تكن الأوضاع الاقتصادية فى بداية حكمه مستقرة، اشتط فى جمع الضرائب للصرف منها على القلاع التى انشأها فى حلب والحجاز، وشق القنوات، وحفر الأبار فى كل بقاع البلاد. زاد من رسوم الجمارك، ومرور قوافل التجارة، والسفن فى موانئ الإمبراطورية المملوكية. مما اضطرها إلى الاتجاه إلى موانئ أخرى، وأفاد بذلك البرتغاليين، وتعرضت البلاد لكساد اقتصادى. استطاع أن يؤمن السواحل العربية، عيَّن القبطان حسين على حامية جدة، فأنشأ بها قلعة وابراجًا، وأحاطها بسور، وحولها إلى قاعدة بحرية مملوكية، هزم أمام سليم الأول فى معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦م. ولما فتح سليم مصر تحولت كل الديار المصرية إلى الإدارة العثمانية. مازالت العديد من أعماله العمرانية ماثلة حتى الوقت الراهن. «المترجم».

ر كان يطلق على أبناء السبطين سواء فى بلاد الحجاز أو فى البلدان الأخرى حتى عصر (الشريف أبى نمى) ، (السيد الشريف). وهناك ملاحظة تاريخية جديرة بالتسجيل، فقد كان يطلق على أولاد الحسن (رضى الله عنه) (الأشراف)، وعلى أولاد الحسين (رضى الله عنه) (السادات) حتى عهد الشريف أبى نمى. ومنذ ذلك التاريخ بدأت تسمية أبناء الحسن بالأشراف الحسنية وأبناء الحسين (بالسادات الحسينية). وقد انتقل ذلك إلى ما يشبه العادة فى بلاد الحجاز. ومع هذا ظل الأهالى فى بلاد العراق، وبلاد الشام يطلقون على كل واحد من أبناء السبطين(السيد الشريف).

وبعض الأشراف الحسنية مازالوا حتى يومنا هذا (عصر المؤلف)، يعيشون فى مكة المكرمة، وبعضهم فى وادى فاطمة وخاصة فى (ليمون)، وبعضهم فى منطقة الحسنيه التى تقع خلف جبل عرفات، وبعضهم فى المدينة المنورة. وقليل منهم فى ينبع البحر وينبع النخل وخاصة فى (سويق) التى تعتبر أكبر مراكز ينبع النخل.

ويسمى فريق من الذين يعيشون فى ينبع البحر بـ (ذوى هجار). ويطلق على فريق آخر (العياشية) وهم الذين يعيشون فى مركز (سويق). ويرى البعض أن الجد الأعلى لشاه إيران الحالى، يرجع نسبه إلى الأشراف الذين كانوا يسكنون منطقة (سويق).

تشعب السادات الحسينية إلى عدة شعب: شعبة منهم عاشت فى مكة المكرمة، وشعبة أخرى فى المدينة المنورة، وشعبة ثالثة شرفت ينبع البحر بإقامتها فيها، وقلة منهم فضلت الهجرة إلى بلدان متعددة.

ويطلق على السادات الحسنية الذين سكنوا ينبع البحر (الزراعية)، أما الذين تشعبوا منهم وسكنوا فى (السوارقية) فقد أطلق عليهم (سادات بنى حسين).

وتوجد شعبتان من السادات الحسينية فى اليمن. وشعبة فى حضرموت، وتسمى إحدى الشعب الموجودة فى اليمن (بالسادات المراوعة) والأخرى (السادات المهادلة). أما تلك التى تقيم فى حضرموت فقد كان يطلق عليها (السادات العلوية).

وهناك شعبة أخرى من السادات الحسينية تعيش فى بلاد الحسا. وتعداد كافة الأشراف والسادات الذين يعيشون فى هذه البلاد وفى مناطق جزيرة العرب كلها يبلغون خمسين ألفًا تقريبًا.

قبيلة عنزة :

تنقسم قبيلة (عنزه) التى تسكن البادية فى جزيرة العرب وخاصة فى الطرف الشمالى من الأقطار الحجازية إلى أربع قبائل كبيرة هى :

١ ـ أولاد على .　　　٣ ـ حلاس .

٢ ـ الحسنة .　　　٤ ـ بشر .

أولاد على :

يعيش أفراد قبيلة أولاد على على طريق الممتد بالقرب من خيبر حتى قلعة (الزرقا) الواقعة على طريق الحج . وهم بدورهم ينقسمون إلى قبائل :

١ ـ المشادقة .　　　٣ ـ الحمامدة .

٢ ـ المشطا .　　　٤ ـ الجدالة .　　　٥ ـ الطلوح .

وقد تفرع عن قبيلة المشادقةكل من قبيلة (طيار)و (منزقان) و(الحوين) .

وتفرع عن قبيلة المشطا : (العواض) و (الطيور) و(العطفان) و(المقيل) .

أما الحمامدة فقد ظلت قبيلة واحدة ، يعيش أفرادها على أطراف (معان) .

ولكن الجدالة تشعبت وخرجت منها قبيلتا (القربنات) و(الطوزشات) . وبقيت طلوح قبيلة واحدة ، وأكثر أفرادها يسكنون طريق جدة . ولما كان يتولون حماية قوافل الحجيج ، ويحافظون على أموالهم وأرواحهم ، فقد خصصت لكل منهم مرتبات من الصرة الهمايونية . وكانت تخصص لهم الخلع والعطايا أيضًا .

وإذا ما انتقلنا إلى قبيلة الحسنة وجدنا أنها تشعبت إلى مجموعة كبيرة من القبائل والمسميات ، إلا أنهم جميعًا اختاروا الإقامة فى البيداء الممتدة فيما بين الشام وحمص وحلب وبغداد . وليست هناك حاجة إلى بحث أحوالهم هناك .

جلاس :

خرج من قبيلة جلاس كل من قبيلتى الروالة والمخلف . ومن روالة تشعبت قبائل : (قنعيسان) و (دغمة) و(فرلفة) و(نصير) . وتفرعت من قبيلة المخلف قبائل : (عبدالله فرسه) و (بروز) و(السوالمة) .

وعلى العموم اتخذت قبيلة جلاس لنفسها موطنًا فى الصحارى الممتدة بين جبل (شمر)

و(ناحورا) فى الجوف. ويلاحظ أنها تتجول فى المنطقة الممتد[illegible] [illegible] [illegible]غرات، وأحيانًا تنزل أيضًا فى المنطقة المجاورة لخيبر.

وإذا ما وصلنا إلى قبيلة بشر نرى أنه قد خرجت منها بطنًا جد وسلقا. وتفرعت عن قبيلة (جد) بطون (فدعات) و(سبعة).

إن أكثر عربان قبيلة (السلقا) يقيمون فى منطقة الحسا. وتعد هذه القبيلة أكثر العربان عصيانًا ضد الحكومة، وقد كانت من أوائل القبائل التى أيدت السلفيين وتابعت مسيرتهم النضالية.

تعتبر قبيلة السلقا من أكثر القبائل شعبًا وعددًا، ويعيش أغلب أفرادها فى (حائط وحويط) القريبتين من جبل شمر وضواحى خيبر، وهم من (أولاد سليمان).

قبيلة عنزة:

إن عدد أفراد قبيلة عنزة أكثر، وشهرتها أعظم، إذا ما قورنت بالقبائل الأخرى. وأكثر أفراد هذه القبيلة يقضون الصيف بالقرب من ولاية سوريا. أما أيام الشتاء فيقضونها فى التنقل والترحال فى المناطق الشمالية من الجزيرة العربية فيما بين الشام وحمص وحلب وبغداد. ولا يستقر بهم المقام إلا حيث توجد المياه والعشب والكلأ. وتعدادها يبلغ ثلاثمائة وخمسين ألفًا.

* * *

الفصل الثانى

قبائل الحويطات وجهينة

الحويطات :

يعيش أفراد هذه القبائل فى حالة ترحال وتنقل مستمر على السواحل الشرقية للبحر الأحمر، فى المنطقة الممتدة من قلعتى (عقبة) و(إزلم) حتى السويس. ولما كانوا يجلبون من مصر كل حاجياتهم الضرورية من الملابس وما شابهها، لذلك فهم على علاقة طيبة بسكان تلك المنطقة.

ولما كانت المناطق التى يسكنونها شحيحة المطر قليلة الكلأ، فإنهم يتجهون فى الأوقات التى تجوع فيها أغنامهم ويشتد بهم العطش إلى نواحى (عنزة).

وقد تفرع عن القبيلة المذكورة اثنتا عشرة شعبة تقريبًا. وتعتبر كل من (الجازاى) و(الربضات) أكثرها عددا.

ويعتبر بطن (بنى عطية) الذى يقيم فى منطقة طريق (حسما) الذى تسلكه قوافل الحجيج المصرية فى ذهابها وإيابها من بطون الحويطات أيضًا.

كما أن قبيلة (عمران) تعتبر من القبائل المهمة التى استقلت عن الحويطات. وتقيم فى الأماكن التى تقيم فيها الحويطات. وهذه القبيلة على اتفاق ووئام مع قبيلتى (دبور) و(بدول) اللتين تقيمان فى نواحى العقبة، ولذلك فهى فى حالة استقرار دائم فى المكان الذى تسكن فيه.

سبايحة :

ومع أن أفراد هذه القبيلة يقيمون فى هذه النواحى، إلا أنهم يتجولون فى المناطق القريبة

من غزة ـ حيث تعيش (تباها) و(ترابين) ـ حتى مرفأ (الوجه)[1] ومن مرفأ الوجه هذا حتى وادى حمص بل يصلون فى تنقلاتهم حتى قلعة (إزلم).

ويبلغ عدد أفراد القبائل التى تعيش فى هذه المواقع من البلاد الحجازية، أى من الشمال الغربى من بلاد الحجاز وقلعتى أزلم والعقبة ومرفأ الوجه حتى السويس حوالى مائة ألف نفس من العربان.

وهناك قبيلة أخرى تتوطن جبل (الحساين) الذى يقع على شاطىء البحر الأحمر على بعد ثلاث مراحل من ينبع البحر شمالا. وأكثر أفراد هذه القبيلة مشهورون بالفروسية، كما أنهم حسب بعض الروايات ينتمون إلى قبيلة (بنى عيسى) التى تسكن بلاد اليمن اليوم.

قبيلة جهينة:

يعيش أفراد هذه القبيلة فى حالة تنقل وترحال دائم بين المناطق الممتدة من جبل الحساين حتى ينبع البحر ومن ساحل البحر حتى نبع (هدية) الواقع فى جبل الحساين، ومن قلعة (شجوة) حتى بئر (فقير). ومن وادى (عباس) وينبع البحر إلى جبل (رضوة) الذى يبعد خمس ساعات عن ينبع البحر شرقًا. كما يقيمون فى ينبع النخل أحيانًا، ولما كانوا جميعًا من البدو الرحل غير المتوطنين، فإنهم ينتقلون حيث يشاءون ووقتما يشاءون.

وتنقسم القبيلة المذكورة إلى قسمين، عرفا بـ(أولاد مالك) و(أولاد موسى).

وقد تشعب عن قبيلة البراهمة بطون: (صبحة) و(عبايشة) وأشرافهما و(عروة) و(كومة) و(سنسات) و(حصينات) و(أساورة) (ومسادى) و(رفاعة) و(بنى كلب) و(الحيادلة) و(حمدة) و(مواليد). وخرج من كل بطن من هذه البطون عدة خمسات وفروع أخرى. وكل هذه البطون أو الخمسات[2] التى تفرعت عنهم من القسم المسمى (أولاد مالك).

وكذلك انقسم الفرع الثانى من قبيلة جهينة المسمى (أولاد موسى) إلى قبائل عديدة، منها (موال، مراوين، علاوين، زيبان، عوامرة، نزة، سمايحة)، وهم من شعب قبيلة البراهمة. وقد تفرع عن كل قبيلة أيضًا خمسات أخرى.

إن قبيلة جهينة بكل تفرعاتها تصل إلى ما يقرب من خمسين ألف نسمة تقريبًا. بعضهم بدأ يتوطن بالقرى والقصبات ويعمل بالصيد والملاحة، وبعضهم يعمل بالفلاحة والزراعة من أجل لقمة العيش. ولكن القسم الأعظم منهم يقضى حياته تحت الخيام فى حالة ترحال دائم حيث يتوفر الماء والكلأ.

---

(١) كان الحجر الصحى للحجاج المصريين يقام بالقرب من هذا المرفأ، الذى كانوا يقضون به وقت الحجر الصحى حتى عصر المؤلف.

(٢) يقصد بالخمسة والخمسات: الرجل ووالده وعمه وخاله وولداه الذكور وما يولد منهم جميعاً. وكان العرب قديماً، لو قتل أحدهما الآخر، انتقم أحد خمسة المقتول من القاتل وبذلك يسقط دمه. وهذا التعبير كان يطلق إطلاقاً على كل أفراد العشيرة الواحدة أو القبيلة كلها (المترجم).

قبيلة هيتم :

وقبيلة هيتم فرع من قبيلة بنى عبس.

الشجاعة والسياسة البدوية بين القبائل:

تشتهر هذه القبيلة بين القبائل بالشجاعة، والبطولة، إلا أن أحوالها ساءت وتدهورت شهرتها، بسبب حرب نشبت بينها وبين قبيلة مجاورة. ذلك أن هذه الحرب التى اشتعلت بينها وبين القبيلة المجاورة منذ خمسمائة سنة، أتت على الأخضر واليابس.

واجتمع ثلاثة وثلاثون شيخًا من مشايخ القبائل الأخرى لوقف القتال بين القبيلتين وأحصوا عدد القتلى، ودفعت الدية، وساد السلام بين القبيلتين المتخاصمتين. إلا أن شباب قبيلة هيتم نقضوا العهد وهاجموا القبيلة الأخرى، وقضوا على كل أفرادها من شيوخ وشباب وأطفال ونساء، ونهبوا كل ما وصل إلى أيديهم من أموال ومتاع. وهذه الغارة لم تقرها العادات والتقاليد العربية المتعارف عليها بين القبائل، ولذلك اجتمع المشايخ السابق الإشارة إليهم، وقرروا إعدام أفراد هذه القبيلة المعتدية، وإزالة أخبارها من صحيفة الأيام، وأخذوا فيما بينهم العهود والمواثيق. إلا أنهم بعد أن هدأت الأمور صرفوا النظر عن هذا العمل اللاإنسانى، واكتفوا بالتعهد والاتفاق على أن ينظروا إليهم باحتقار وازدراء حتى يوم الساعة، وألا ينزلوهم فى منازلهم أو يزوجوهم أو يتزوجوا منهم، أو يسموا أيا منهم باسم (عبس)؛ وأن يسموهم بأسمهم الحقيقى وهو هيتم الذى يعنى الحقير والذليل. وتناقل العربان ذلك فيما بينهم حتى يومنا الحاضر، مما دفع بهم فعلا إلى المذلة والفاقة

والعرب جميعًا ينظرون إلى أفراد هذه القبيلة كنظرتهم ونظرتنا إلى الغجر.

ومن القبائل العربية الموجودة فى منطقة الحجاز من بنى هيتم، بطون:

(مهيمزان ، ذوى رشيد، ذوى براك، نوامسة، شرارات، وهتمان).

مهيمزان :

تقيم قبيلة مهيمزان بين (الحاكية وكريزية) فى المدينة المنورة. أما عن ذوى رشيد، فإنهم يقيمون فى قرى (حائط وحويط وأبو حبان) وصحراء (وادى الرما). أما بالنسبة لذوى براك، فإنهم يتجولون فى الصحراء الممتدة من جبل (السراة) حتى نهاية جبل (شمر). ويقيم النوامسة، والشرارات فى الأماكن القريبة من قبائل عنزة، كما يستقر بعضهم فى أراضى جهينة. أما القسم الأكبر ممن يدعون بالهتمان فيعيشون فى أطراف مكة المكرمة ويسكنون داخل بلاد اليمن أيضًا.

* * *

الفصل الثالث

بدو قبيلتى النخاولة وبنى حرب

النخاولة:

تعد قبيلة النخاولة من القبائل التى كانت تقوم بالأعمال الدون بين أهالى الحرمين الشريفين.

ومن المعروف أن الجند الذين أتى بهم يزيد للاستيلاء على المدينة المنورة، أغاروا على ممتلكات أهالى المدينة، وأموالهم، واعتدوا على أعراض بعض نسائها، ثم فروا ناحية الشام. وكان أهالى هذه القبيلة يعملون فى مهنة البستنة فى حدائق المدينة، والحدائق المجاورة، وضواحيها. وهكذا نشأت قبيلة النخاولة وأطلق هذا اللقب على الذين اشتغلوا فى الحدائق، وأطلق عليهم النخاولة بسبب كثرة أشجار النخيل فى هذه الحدائق وعملهم بها، ومهارتهم فى التعامل مع النخيل.

وكان منذ أمد بعيد أهل المدينة المنورة، يتجنبون الاختلاط بأفراد هذه القبيلة، وكانوا لا يتزوجون منهم، ولا يزوجونهم من بناتهم، وكلهم من الرافضة، ولذلك يصعب على الباحث أن يجد بينهم من يتسمى باسم أبى بكر، وعمر وعثمان وعائشة (رضى الله عنهم).

وأفراد هذه القبيلة يختلطون ببعضهم البعض، ويزوارهم الذين ينتمون إلى نفس المذهب، ويتبادلون بناتهم ونساءهم عن طريق زواج المتعة، وهو الزواج لمدة معينة، ومحددة[١].

إن عدد أفراد النخاولة الذين بقوا على قيد الحياة ويسكنون الحدائق والغرف التى يعبر عنها (بالحوض) لا يتجاوز الاثنى عشر ألفًا.

ومن الجدير بالذكر أن الرفضة، والملاحدة الذين يتوافدون على المدينة المنورة، ينزلون على منازل النخاولة، ويسكن أبناء النخاولة فى الأحياء التى تسمى (حوش النخاولة) والتى تقع فى الحدائق خارج المدينة، ويقيمون بها.

(١) هذا الزواج هو الذى يطلق عليه بالفارسية «صيغة» وكان معمول به بين أصحاب المذهب الشيعى. ولهم مبرراتهم فى ذلك. إلا أن أصحاب المذهب السنى لايأخذون به، بل ويحرمونه تمامًا. «المترجم».

قبيلة بنى حرب:

تنقسم قبيلة بنى حرب إلى شعبتين كبيرتين هما : بنو سالم، وبنو مسروح، وقد انقسمت شعبة بنى سالم بدورها إلى فرعين كبيرين هما : فرع ميمون وفرع المراوحة.

تتفرع الشعبة الأولى لبنى سالم وهى بنو ميمون إلى اثنتى عشر بطنًا هى: (محمادى، رولوعى، رحيلى، حيدرى، عمرى، سريجى، يحيوى، مورعى، قايدى). وقد اشتهرت هذه البطون بين العرب، وتشعبت عن كل منها خمسات، أما البطون الثلاثة الباقية فهى: (أحمدى، محمدى، صبحى)، فقد انقسمت كل منها إلى أربعة فروع. فظهر عن أحمدى: (حميدى، ضميرى، فضيلى، وذكيرى)، وعن محمدى: (تمم، سعادين، لويلح، سواعدة)، وعن صبحى: (علياتى، لبيدى، فخمى، مرزوقى). ومن هذه الفروع أيضًا نبتت خمسات أخرى وترعرعت.

وقد ظهرت عن المراوحة التى تعد القسم الثانى من بنى سالم قبائل وعشائر وبطون متعددة اشتهرت بين العرب أهمها: (نوامية، قراف، ظواهرة، جبول، حنيطات، ذرعات، حجلة، مزينة، ردادة، حناينة). وإن كانت قبيلة الحوازم أكثرها عددًا وشهرة.

وكافة هذه القبائل تقوم على خدمة الحجاج الكرام، وتأجير الجمال لهم، ونقل المهمات، والمؤن فى المدينة المنورة، وفى هذه المناطق، ويعيشون على الدخل المتحصل من هذا العمل، وهم جميعًا أهل طاعة وانقياد، لا يميلون إلى التمرد أو العصيان.

ويسكن بدو القبائل السابقة المناطق التالية: تقطن محمادى فى طريق ملف ورلوعى، فتقيم قرب (خيف الكسا). أما قبيلة الرحيلى فمقامهم حول بئر الروحا. وتقيم حيدرى فى ينبع النخل. وقبيلة عمرى حول مضيق (جديدة) و(أم ديباندة)، وقبيلتا (سريجى) و(يحيوى) وكذا (مورعى) و(قايدى) حول ينبع النخل وداخلها. وتقيم قبيلة (أحمدى) خيامها حول بوغاز جديدة وجبل (فقرة) المشهور والجبال الأخرى المنتشرة حوله. أما (رحقان) و(جفر) فتسكنان القرى، وتتنقل قبيلة (محمدى) بين المدينة المنورة و(شجوة). ولكن قبيلة (صبحى) تسكن الجبال الموجودة على مشارف بدر والحسينية.

أما القسم الثانى من بنى سالم وهم طائفة المراوحة فهى عبارة عن قبائل: (نوامية، قراف، حنيطات، جيول، حجلة، مزينة، ردادة، حناينة). إنهم عشر شعب، وكل شعبة تفرع عنها العديد من الخمسات، وجميعهم يطلق عليهم الحوازم. وسيأتى ذكر أفراد هذه الخمسات عمومًا فيما يلى وموطن إقامتهم.

يتجول أفراد قبيلة النوامية فى القسم الجنوبى من الطريق السلطانى ومنطقة (خيف الكسا)، أما أعراب قبيلة القراف فيقيمون فى قرية (حمرة) والجبال المحيطة بها. ويسكن قسم

من عربان الظواهرة فى قرية حمرة وقسم آخر فى نجد، أما الحنيطات والجيول والدرعات. فيتنقلون بين الجبال المحيطة بقرية (صفرا) ويترددون على القرية أيضًا. أما بدو حجلة فيعيشون حول بئر الشريوفى. واختار عربان مزينة لأنفسهم المنطقة الممتدة بين نجد والمدينة المنورة ساحة لترحالهم وتنقلهم وخاصة المنطقة الشرقية منها، أما عربان الردادة فيقيمون بين المدينة المنورة وبئر الشريوفى. ويسكن قسم من أعراب الحناينة فى ضواحى المدينة المنورة وقسم آخر فى نجد.

ولما كان أكثر عربان بنى سالم يقيمون بين المدينة المنورة وينبع البحر، فإن القسم الثانى من بنى مسروح أقام فى المناطق التالية: فضل أعراب جرم الإقامة على جانب طريق غابر والطريق الفرعى وبين عطور ومناشك، ويقيم فريق فى قرية مضيق الواقعة على الطريق الفرعى، ويقيم فريق آخر فى بادية نجد. ويفضل أعراب بشر البقاء حول المدينة المنورة بالقرب من حارة عربان (معبد بن عبدالله). أما عربان حمران والبلادية ففى شعاب مكة المكرمة. وبعضهم فى قرية البلادية وضواحيها الجبلية، ويقيم عربان بدارين وبنو جابر فى الجهة الشرقية من الحناكية وفى بعض مناطق بلاد نجد.

ولما كانت أكثر شعب وبطون مسروح التى تعد القسم الثانى من بنى حرب تقيم فى المناطق الواقعة بين الحرمين الشريفين، لذلك فإن الأراضى الواقعة بين البلدتين المباركتين تسمى الأراضى المسروحية.

وتعد قبيلة حرب من أكبر قبائل العرب، وخاصة فى الأقطار الحجازية. ولو أجرى تعداد يضع فى الحسبان فروعهم جميعًا، فهم على أقل تقدير ٨٥٠٠٠ نسمة.

ويوجد فى قبيلة بنى حرب ما لا يقل عن ثلاثين ألف مسلح بالبنادق.

وتنشب الحرب بين بعضهم البعض من حين لآخر، لعدم وجود فكر واحد يشملهم أو اتحاد فى الرأى.

ومع أن الدولة العثمانية قد ربطت معظمهم بمرتبات ثابتة وتجزل لهم العطايا والمنح من حين لآخر من أجل تأمين سلامة طرق القوافل وحجاج بيت الله الحرام، إلا أنهم يرفعون لواء العصيان بين الفينة والأخرى، ويسلبون متاع عابرى السبيل، ولا يتورعون عن قتل من يعترض سبيلهم فى هذا المضمار، كما أنهم يغيرون على قبيلتى مطير وعنزة فى أكثر الأوقات.

ومن يتذكر الآية الكريمة: ﴿الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا﴾، لا يجد غرابة فى الاعتداءات التى يقوم بها البدو فى هذا المضمار، ولما كانوا لا يخالطون العلماء ولا يسمعون شيئًا عن القرآن والسنة، لذلك ظلوا يعيشون حياة البداوة والصرامة، وهم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر لهذا السبب.

* * *

الفصل الرابع
قبائل مضير وبنى سليم وبنى عتيبة وقريش وهذيل وثقيف وبنى عدوان

قبيلة مطير:

تشعبت عن قبيلة مطير قبائل الدويش وميمونة وبنى عبدالله، وتفرع عن كل منها مجموعة من الخمسات والبطون.

والقبائل السابقة وفروعها وبطونها تقيم وتتنقل فيما بين قرية (حازة) ومضيق (حنق) الواقع فى الجانب الشرقى من مكة المكرمة على مسافة ليست ببعيدة، كما يطيب لها المقام أحيانًا فى قرى (سوارقية) و(صفينة).

ومن عاداتهم القديمة التنقل والترحال حيث الكلأ والمطر، فما أن يسمعوا بهطول الأمطار فى ناحية من النواحى حتى يشدوا رحالهم إلى هناك، ويقيمون خيامهم إلى أن تأتيهم الأخبار بهطول الأمطار وتكاثر المراعى فى مكان آخر.

ويشتهر بنو مطير بين القبائل العربية بالسلب والنهب وسفك الدماء وشن الغارات. ويذكرون بالغدر والإثم والعدوان على ألسنة الأنام. وكثيرًا ما يهبون للإغارة على من جاورهم من القبائل الأخرى، وخاصة (عنزة) التى كانت تتوقع إغارتهم فى كل لحظة وفى أى مكان.

وتعداد أفرادها ومن تشعب عنهم من بطون، يقرب من أربعين ألف نسمة.

قبيلة بنى سليم :

يعيش أفراد قبيلة بنى سليم على جانبى الطريق المؤدى إلى مكة المكرمة من الجهة الشرقية للمدينة المنورة، وكذا فى قربة حازة الواقعة على نفس الطريق وبين مكة المكرمة، ويظن أن تعدادها يبلغ ألفى نسمة.

ويعتبر بدو قبيلة أحمدى التى تسكن جبال (قفرة) الموجودة على بعد ست ساعات من قرية الجديدة الواقعة فى الجانب الأيمن من الطريق السلطانى عند التوجه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فرعًا من فروع بنى سليم، ويسمى عربان قبيلة أحمدى أيضًا بالأحامدة.

قبيلة عتيبة:

تنقسم قبيلة عتيبة إلى قسمين : أحدهما : (برقا) والأخرى : (بريا) وقد تفرع عنهما العديد من القبائل والبطون والخمسات.

فعن برقا تفرع :

روسان، روقة، مفطة، شياين، دعاجين، عصمة، جذعان، حتاتيس، وعن بريا خرجت ثمان قبائل وعدة بطون وعشائر. وعلى العموم فإن تعدادهم لا يتجاوز العشرين ألفًا.

وهناك بعض القبائل الأخرى التى تقطن ضواحى الطائف وبعض المواقع فى جهتها الشرقية وينسبون إلى بنى سليم وبنى مطير.

قبيلة قريش:

قبيلة قريش غنية عن التعريف. فقد كانت لها شهرتها التى لا تدانى حتى قبل بعثة نبينا المصطفى ﷺ. وكانت ذات قوة وسطوة بين كل قبائل العرب.

ومن الجدير بالذكر أن الجزء الأعظم من أفراد هذه القبيلة الشجاعة قد هاجر مع النبى ﷺ إلى المدينة المنورة، والكثير منهم سواء فى عهد الرسول ﷺ أو فى عهد الخلفاء الراشدين صاحبوا جيوش الفتح المبين إلى مصر والشام والعراق. وطاب لهم المقام فى تلك الديار بعد الفتح، واستوطنوا هناك. أما الذين بقوا فى الوطن الأصلى، فقد أقام بعضهم بجوار الحرم فى مكة المكرمة، وتفرق البعض الآخر حسب مطالب الحياة والدعوة. وأما الذين بقوا منهم ويحافظون على بصمات قبيلة قريش، فهم لا يزيدون عن ألفى نسمة على أحسن تقدير.

والذين أقاموا فى مكة المكرمة اختاروا لأنفسهم بعض الأماكن الخاصة بهم كـ (وادى الخيف) والوديان المحيطة به مثل عرفات وأخشبان وسلاسل الجبال الممتدة بين هذه الوديان أو المحيطة بها.

قبائل الأشراف :

تتفوق قبيلة قريش على سائر قبائل العرب من ناحية القوة والنفوذ، وتسلم لها القبائل بالنسب والحسب والأصالة، وبنو هاشم هم أشراف هذه القبيلة.

ويعتبر القريشيون من نسل (بنى فهر) وكانوا قد تفرقوا فى زمن (كنانة). وقد جمعهم (قصى بنى كلاب) فى ظواهر مكة وبطاحها، فسموا بالقريشيين. وانقسموا إلى قسمين: القسم الأول: هو قريش البطاح ويشمل هذا القسم بطون: بنى عبد مناف، وبنى زهرة، وعبد العزى ابن قصى، وبنى عبد الدار بن قصى، وبنى بتم بن مرة، وبنى سهم، وبنى جمح ابنى عمرو بن هصيص بن كعب، وبنى عدى بن كعب وبنى هلال بن مالك بن حبنة بن الحارث بن فهر، وبنى عامر بن لوى.

أما قريشيو الظواهر فهم: بنو معمر بن غالب بن فهر، وبنو بعيض بنى عامر ابن لوى، وبنو محارب بن فهر، وبنو الحارث بن فهر، وهم يمثلون القسم الثانى من القريشيين.

أما جماعات اسامة والحارث وسعد وعوف فهم أيضًا من أولاد لوى ابن غالب. ولما كانوا قد هاجروا وتفرقوا فى سائر الديار والأقطار، فإنهم لم يدخلوا فى عداد قريشى البطاح أو الظواهر.

قبيلة هذيل :

تسكن قبيلة هذيل قمم الجبال الوعرة والمرتفعة جدًا وخاصة جبال (القرى) الواقعة على الطريق بين مكة المكرمة ومدينة الطائف الشهيرة.

وتعتبر قبائل العلويين، التدوين، وبنى خالد، أشهر القبائل التى تشعبت عن بنى هذيل، وتعداد أفرادها يزيد عن عشرة آلاف تقريبًا.

قبيلة ثقيف :

تسكن قيلة ثقيف الطائف والقرى المتناثرة على أطرافها وخاصة تلك التى تقع بين صحراء الطائف وجبالها، وكذا قرية (بجيلة) التى تقع فى الجانب الجنوبى من الطائف، ونصف أهالى الطائف تقريبًا ينتمون إلى هذه القبيلة، ومن أشهر من خرج منها الحجاج بن يوسف الثقفى ومختار الكذاب الذى ادعى النبوة فى الجاهلية، كما يعتبر عربان بنى سفيان من بين الذين تفرعوا عن بنى ثقيف أيضًا.

أما قبائل بنى سعد، الناصرة، ربيعة، عيلة، وإن كانوا ينتمون من ناحية النسب إلى قبائل

أخرى، إلا أنهم عاشوا بين ظهرانى بنى ثقيف، وظاهروهم فى ملمات الحياة وصعابها، وهم من ناحية المجموع يتراوح تعدادهم بين خمسة وعشرين وثلاثين ألف نسمة.

وكذا قبيلة البقوم وعربانها وإن كانوا يقيمون فى قرى (عشرة، بركة، رنية) الواقعة فى الطرف الشرقى من الطائف، ويخالطون بنى ثقيف ويقضون الأوقات الطويلة معًا متحدين، إلا أنهم ليسوا من قبائل بنى ثقيف نسبًا ولا يعدون منهم.

قبيلة عدوان:

وأعراب قبيلة عدوان، هم أشهر قبائل العرب كرمًا وشجاعة، وقد نالوا شرف مصادقة أشراف مكة المكرمة الكرام وسعدوا بعطفهم.

وإن حليمة أم النبى المصطفى ﷺ فى الرضاعة تنتسب إلى هذه القبيلة الطيبة. فهى حليمة السعدية من فضليات نسائها. وقد اتبع كرام مكة - إلى عهد قريب - هذه السنة السنية حيث كانوا يرسلون أولادهم الذكور إلى سيدات هذه القبيلة المذكورة لكى يرضعوهن ويتولين تربيتهن فى الصغر. وقد كانت هذه القبيلة من أوائل القبائل التى أيدت الدعوة السلفية منذ بداية ظهورها، وربما يكون هذا السبب هو الذى دفع بكرام مكة أن يوقفوا هذه العادة فى فترة النزاع بين الحجازيين والسلفيين، وظلت متوقفة، إلا فى النادر اليسير.

وقد اتخذ عرب قبيلة عدوان الذين اشتهروا بالكرم والشجاعة كما سبق القول من الوديان والوهاد والجبال والصحارى الممتدة بين جدة والطائف مرتعًا ومقامًا لهم. وبعد أن قل عددهم وقلت شهرتهم، اختاروا الطرف الجنوبى من الطائف مقامًا لهم. ومجموعهم الكلى يتراوح بين الألفين أو يزيد قليلا.

قبائل ابن الحارث وبنى سعيد:

اختار أفراد قبيلة ابن الحارث الذين يبلغون الألفين، الإقامة فى الطرف الشرقى من الطائف. أما أعراب (بنى سعيد) الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف فقد اختاروا الطرف الجنوبى مرتعًا ومقامًا لهم. وكلاهما يخالط (بنى ثقيف)، ويأنس بالإقامة معهم وبين ظهرانيهم، ويشاركهم الماء والكلأ.

* * *

الفصل الخامس

قبائل العرب التى تسكن بين مكة المكرمة وجده والقنفذة وساحل البحر الأحمر والتى تعد جزء من تهامة والحجاز

بنو لحيان :

يسكن أعراب قبيلة بنى لحيان الأماكن الواقعة بين جدة ومكة المكرمة . يعيش بعضهم على ما يأخذونه من المسافرين والحجاج المترددين ذهابًا وإيابًا على هذا الطريق . والبعض الآخر يعيش كما يعيش غيرهم من البدو والأعراب وذلك عن طريق رعى الحيوانات وتربيتها ، وعدد نفوسهم يبلغ ألفًا وخمسمائة نسمة .

بنو جحادلة :

يسكن بدو الجحادلة فى الطرف الجنوبى للمناطق التى يسكنها عربان (لحيان) وخاصة فى (وادى لملم) . وأفراد هذه القبيلة يعيشون على ما يكسبونه من نقل أمتعة المسافرين المترددين بين مكة المكرمة واليمن ذهابًا وإيابًا على ظهور جمالهم . ونشاطهم محصور فى ذلك فقط .

وعدا القبائل السابق ذكرها فإن القبائل التالية تسكن وادى القنفذة وحول آباره :

تسكن قبيلة (بنى فهم) فى (وادى خضر) وتسكن قبيلة (يزيد) فى (وادى يزيد) (وقبائل بحالة ، وبنى منعان) فى (وادى ليت) .

أما أشراف قبائل (ذوى زيد ، وبنى هلال ، وبنى عفيف) فإنهم يقيمون فى (وادى عصم) . وأشراف (ذوى حسن بالأسود وبالأعور ، وبنى سليم) فى وادى (دوقة) . ويقيم (بنو ناشر وبنو عاصم) فى وادى (أجية) . وتفضل قبائل (بنى عمر وبنى على وزياد وبنى زيدان) الإقامة فى وادى قنفذة ذاته .

ويبلغ تعداد أفراد هذه القبائل مجتمعة حوالى عشرة آلاف نسمة . ولما كانت مواقع إقامتهم غير منبتة ، فإن البعض منهم يعيش على زراعة الذرة والدخن وقت الأمطار وحصادهما ، أما البقية الباقية فتعيش على صيد الأسماك من سواحل البحر الأحمر .

* * *

الفصل السادس

القبائل العربية فى اليمن وملحقاتها

تمثل بلاد اليمن جزءًا كبيرًا من جزيرة العرب، تقع بين خطى الطول ٤٣ْ، ٤٥ْ شرقًا و١٢ْ خط عرض شمال. وبلاد اليمن تقع فى الطرف الجنوبى الغربى من الجزيرة المذكورة.

وبلاد اليمن محاطة من الغرب بالبحر الأحمر، ومن الجنوب بخليج عدن، ومن الشرق بحضر موت، أما فى الشمال فتحدها بلاد الحجاز. وتمتد حدودها الشمالية الجنوبية سبعمائة وخمسة وخمسين كيلو مترًا. أما حدودها العرضية فتمتد من الغرب إلى الشرق مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلو مترًا. ويبلغ سكانها مليونين وخمسمائة ألف نسمة.

وطبقًا لوضعها الجغرافى فهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: ويشمل الأراضى المستوية الواقعة على ساحل البحر. ويسمى هذا القسم (تهامة) ويمتد مسافة اثنتى عشرة ساعة من ساحل البحر الأحمر إلى الداخل، وهو عبارة عن واد منخفض.

أما القسم الثانى: فيمثل المناطق المرتفعة التى تطل على تهامة وهى التى يطلق عليها أهل اليمن أنفسهم (الجانب الأيمن). وهذا القسم يقع على سلسلة جبال السروات الممتدة من الطائف حتى صنعاء. وأكثر سكان اليمن يقيمون بالقرى والمدن والمراكز، وقد ألفوا حياة الزراعة والتجارة. ولهذا فإن البدو الذين يسكنون الخيام فى بلاد اليمن قلة إذا ما قيسوا بأقرانهم فى المناطق الأخرى من جزيرة العرب.

وقد ألحق إقليم اليمن بالبلاد العثمانية فى عهد المرحوم السلطان سليمان القانونى وقد قسمت بلاد اليمن إداريًا إلى إيالتين [1] هما: اليمن ومركزه الإدارى مدينة (صنعاء) وتهامة ومقرها الإدارى (زبيد).

---

(١) إيالتين: أيالة: مصطلح إدارى كان يُستخدم فى الدولة العثمانية قبل قبول مصطلح الولاية. وكانت الأيالة تدار فى بادئ الأمر من قبل أمير للأمراء وحده، ثم أصبح هناك وزير يعاونه، ثم استقل أمير الأمراء، ثم الوزير وحدة فى فترات مختلفة. وكانت له صلاحيات إدارية تفوق ما هى معطاة للولاة أو المحافظين فى العصر الحاضر. كان هو الحاكم المطلق فى أيالة. وخلال الحروب كان أمير الأيالة ينضم إلى الجيش الهمايونى، ويتولى مهام قتالية. =

وتبعد مدينة (زبيد) عن ساحل البحر ثلاث مراحل، ولذلك تغرق أهلها وأصابها الخراب. ولما كانت مدينة الحديدة تقع على ساحل البحر، فقد توافد عليها أهالى زبيد وغيرها حتى تعد الحديدة الآن المركز الإدارى الفعلى لولاية تهامة.

وتعتبر البلدان التالية التى تقع على ساحل البحر الممتد من جدة إلى عدن، من البلدان التابعة لولاية (تهامة).

ليت:

بلدة ليت قصبة صغيرة وقديمة تقع على بعد ٩٠ ميلا إلى الطرف الجنوبى الشرقى من جدة.

وإذا كانت هذه البلدة تتمتع بالكثير من الآبار عذبة المياه وكثير من حدائق النخيل ذات التمور الوفيرة، إلا أن مناخها ردئ ورمالها المتحركة كثيرة، تتطاير فى الهواء كثيراً بشكل يعجز الإنسان أمامه عن فتح عينيه.

ويوجد فى نفس هذه القصبة قصر للحكم وجامع شريف وحوالى خمسمائة وخمسين بيتًا وخمسين دكانًا. ويوجد فى المرفأ الذى يبعد عنها نصف ساعة سيراً بالجمال، وأربع مراحل من مكة المكرمة، الحجر الصحى ودائرة للجمرك.

وسكانها الأصليين عبارة عن ألفى شخص تقريبًا. ولما كانت هذه البلدة تعتبر أقرب مرفأ للبدو المحيطين بها، فإن كل من لديه شيء يباع يأتى به إلى هذه المدينة فيبيع [1]، يشترى ما يحتاجه من أمتعة أخرى. وبناء عليه ففيها تتم عمليات الاستيراد والتصدير.

إن مرفأ ليت له شهرة كبيرة بين موانئ البحر الأحمر، ويقع على بعد نصف ساعة من مركز ليت وفى الجهة الشمالية منها، ودائرة الجمرك والحجر الصحى يوجدان فى هذا الميناء.

ولم تكن مبانى هذه الدوائر الحكومية من الأبنية الحجرية أو الترابية إلى عهد قريب. إنما كانت عبارة عن كوخين من الأعشاب العادية فقط. وخلال سنة ١٣٠٥ من الهجرة النبوية،

= ثم قسمت الأيالة إلى مجموعة من السناجق = المراكز، وكان لكل سنجق أمير = قائد لإدارته. ويطلق على مجموعة هؤلاء القادة = الأمراء. وكانت لهم صلاحية الولاة. ثم تقسم السناجق إلى إدارات صغيرة على كل منها «مدير».
كانت هناك أيالات عسكرية، وأيالات ممتازة، وكل أيالة معتمد لتسيير أمورها لدى الإدارة المركزية فى العاصمة «المترجم».

(١) تشتهر منطقة ليت منذ القدم بأغنامها وأبقارها التى تدر كميات كبيرة من اللبن، ويقوم الأهالى بتصنيع الزبد والسمن الحيوانى منه.

صدر الأمر العالى من قبل السلطان عالى المقام، بإعادة تعمير الميناء المذكور على أساس أنه المدخل الملاصق للجزيرة العربية مباشرة. ولكونه فى موقع مسيطر على تلك المداخل، فقد تم فيه تأسيس دائرة حكومية فاخرة وجامع شريف وفرن ومدرسة ابتدائية (مكتب صبيان) ولسانين ممتدين داخل البحر ومتصلين بالبر من جهة الجزيرة المذكورة للدفاع عن الميناء. كما حفر خندق عميق متصل بالبحر، وبنى فوق هذا الخندق برج ذو خمسة أبواب قوية.

والميناء المذكور محدد ومحاط بخط منحن من حجر الزاج القوى منذ الخليقة. ووسط هذا الخط مدخل طبيعى أيضًا يستوعب دخول عشر سفن، والسفن التى تدخل الميناء تكون فى منأى عن الرياح والعواصف التى تهب على هذه المنطقة. وعمق الميناء لا بأس به.

وهذا الميناء يقع فى نقطة قريبة من موقع يمكن أن يتحكم فى منطقتى عسير والحجاز، ويسمح بتوسيع وتطوير المعاملات التجارية بين هاتين المنطقتين الواسعتين، ولذلك وانطلاقًا من هذا الهدف فقد صدرت الإرادة السنية بتوزيع بعض الأراضى على المواطنين المحليين وعلى بعض الوافدين وخاصة من موظفى الدولة وكذلك على الموظفين المحليين لإقامة المساكن والمبانى. وبناء عليه فقد تم بناء وتشييد خان تجارى له عشرة أبواب وكذا عدة محال تجارية. وقد أقيمت إدارة محلية للإشراف على تلك المنشآت العمرانية، توسعت فى بناء المتاجر والمبانى والمحال بناء على الإرادة السلطانية. وقد أطلق على هذه الإدارة (معمورة الحميد).

وقد تم نقل موظفى الدولة إلى (معمورة الحميد). وأحضرت قطعتان من قطع المدفعية من جدة مع بلوك من العساكر النظامية، وطام من أطقم المدفعية تم توزيعهم على الأبراج والأبواب، وإيواؤهم فى هذه البلدة الجديدة. ومما لا شك فيه أن هذه البلدة ستكتسب شهرة كبيرة وتمتلئ بالعمران فى وقت وجيز.

القنفذة:

مركز يقع على ساحل البحر فى الجنوب الشرقى من مدينة ليت سابقة الذكر. سكانه المحليون حوالى ألف وخمسمائة شخص. وقد توطن بها الجيش الهمايونى [1] الذى استدعى

---

(١) الجيش الهمايوني: أوردبي همايون الجيش السلطاني؛ هو الجيش العثماني. المتمركز فى كل ولايات الدولة العثمانية. وكان مقسمًا إلى سبعة جيوش موزعة على سائر الولايات. وأهمهم الجيش الهمايوني الأول، ومقر إدارته فى العاصمة، ومعسكراته فى ضواحي العاصمة. وبه قوات يمكن تحريكها لمساعدة أى جيش آخر، أو للإنضمام إلى أى حرب فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية.

يشتمل الجيش الهمايونى على كل أفرع الجيوش المعروفة من بيادة، وسباهية، وتتلائم أسلحته مع العصر. ومنذ تأسيس الدولة العثمانية والجيش الانكشارى هو ركيزة الجيش الهمايونى. «المترجم».

من دار السعادة استانبول لمجابهة العصيان الذى قام به أمير عسير محمد بن عائض سنة ١٢٨٠هـ ضد الحكومة الشرعية، وذلك لقربها من جبال عسير. وقد اتخذها الجيش مقرًا لقيادته ومنطلقًا لعملياته. وقدم إليها الكثير من المواطنين للعمل بالتجارة وتوطنوا بها. وصارت هذه المدينة تجتذب إليها من الأطراف والأكناف من تهفو نفسه للتوطن أو العمل أو التجارة، وهذا ما جعل سكانها يزدادون يومًا بعد يوم.

لحية:

مدينة لطيفة وميناء ذو شهرة تجارية كبيرة، تقع على ساحل البحر الأحمر وتبعد مائة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى من القنفذة. وهى صالحة تمامًا للعمل التجارى. وإذا كانت تشتمل على حوالى أربعة آلاف منزل، إلا أن معظمها عبارة عن عشش صنعت من سعف النخيل. وسكانها حوالى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف على أكثر تقدير.

أبو عريش:

أبو عريش مركز يقع بالقرب من ساحل البحر الأحمر، وعلى بعد تسع وثمانين كيلو مترًا من الجانب الشمالى لمدينة لحية. ومن المتوقع أن يكون سكانها حوالى خمسة آلاف تقريبًا.

الحديدة:

مدينة عامرة بالحياة محاطة بسور قوى، تقع على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقى من مدينة لحية. وبها قلعة حصينة جدًا.

ولما كانت المدينة المذكورة تعتبر أهم المدن اليمنية الساحلية وأكثرها ملاءمة للتبادل والتعامل التجارى، لذلك اتخذت مقرًا لإدارة متصرفية اليمن.

وجميع السفن والمراكب الشراعية المتجهة إلى جدة والقادمة من خليج البصرة وزنجبار وجاوة وبلاد الهند، تتوقف فى هذا الميناء للتموين والتزود فى موسم الحج. كما يتم فيها أيضًا تحميل السفن بالمحاصيل والمنتجات المحلية، ولها علاقات تجارية مع أهالى جدة ومصر وحضرموت منذ القدم.

ولما كانت مدينة الحديدة تخلو تمامًا من المياه الجارية، لذلك عمل الأهالى على تأمين المياه اللازمة لهم من الآبار الستة التى تبعد عن المدينة مسيرة نصف ساعة.

وفى الحقيقة فإن مياه هذه الآبار بالرغم من أنها تميل إلى الملوحة كمياه البحر، إلا أنها تساعد على هضم الطعام إلى جانب أنها لا تضر بالصحة إطلاقًا.

المخا :

تقع مدينة المخا على ساحل البحر الأحمر بالقرب من مضيق (باب المندب)، وتبعد ٩٠ ميلا عن الحديدة، وبينها وبين مدينة (زبيد) ثلاث مراحل فقط.

وهذه البلدة كانت ذات شهرة كبيرة قديمًا وذات ميناء عامر بالتجارة فى قديم الزمان. وكان سكانها يبلغون عشرين ألف نسمة منذ خمسة وعشرين عامًا. ولكنهم لم يتحملوا اعتداءات بدو عسير المتلاحقة، فتفرقوا وتشتتوا هنا وهناك، ولم يبق داخل المدينة سوى خمسمائة شخص فقط. وبناء عليه تحولت المدينة إلى ما يشبه الأطلال. ولكن الإرادة السنية، أعادت إليها أمل الحياة، بعد أن أوقفت هجمات البدو وغاراتهم عليها تمامًا. وأغرت الأهالى وشجعتهم على العودة إليها والإقامة بها ثانية.

عــدن :

مدينة تمثل نقطة النهاية بالنسبة لجزيرة العرب جنوبًا وهى على مقربة من مضيق (باب المندب) وعلى بعد مائتين وخمسة وعشرين كيلو مترًا من مدينة المخا.

وفى سنة ١٨٣٩م قامت إنجلترا بشراء هذا الموقع من أحد مشايخ البدو وشيدت به قلعة صغيرة تحت ستار مخزن للمؤن وتموينات السفن. وإذا كان تعدادها آنذاك لا يتجاوز الألفين، فقد أخذ الأهالى يتوافدون عليها رويدًا رويدًا حتى وصل سكانها إلى ما يزيد على العشرين ألفًا.

ولما كان باب المندب ممتدًا ومحصورًا بين عدن والمخا، فإن عدن تعد بمثابة مفتاح البحر الأحمر.

والمسافة التى بين مدينة عدن ومدينة صنعاء ثلاث مراحل، ويتوطن أعراب لحج فى الأراضى الواقعة بين هاتين المدينتين.

وادى كنونة :

يقع وادى كنونة بالقرب من القنفذة فى الطرف الشمالى من بلاد اليمن وإلى الجنوب.

وتسكن قبائل: بايعر وبنى زيد وبنى حرب وبنى عبس وبنى سهيم داخل وادى كنونة. ويبلغ تعداد نفوس هذه القبائل ما يربو على ستة آلاف شخص.

وهناك وادى (ويبة) ملاصق للوادى سابق الذكر، وتسكنه قبيلتا (بجير وبنى الروحة). والسكان من هاتين القبيلتين لا يتعدى ثلاثمائة شخص كما يوجد مكان يسمى (وادى حلى)

فى نهاية وادى وبية ، تقيم فيه قبائل (بالمنتشر ، بالعريان ، عوامر ، بالكنانى) ويبلغ تعدادهم حوالى أربعة آلاف نفس .

وبجوار أبى العريش وبالقرب من (مسارحة) و(جيزان) ، تسكن قبائل (بنى سبيل وبنى شبيل) . ويزيد عددهم إلى ستمائة شخص .

أما قبائل بنى مروان وحرض ، فقد اختاروا المنطقة الممتدة بين جيزان ولحية مقراً لإقامتهم ، كما اختاروا السرقة والأفعال اللامشروعة واللاأخلاقية للتعيش منها . وعددهم لا يتجاوز ألفا وخمسمائة نسمة .

وقد فضلت قبائل (بنى قصير) و(بنى جامع) و(بنى شيبة) و (بنى شايع) الذين يبلغ تعداد نفوسهم ألف نفر تقريبًا الإقامة والسكن بجوار (لحية) .

ويقع وادى (الواعظات) فى الجهة الشرقية من لحية ، وقد اتخذته قبائل (بنى زين) و(بنى راجح) و(الفراتة) و(بنى طاهر) و(بنى هيجان) مسكنًا لها ومرتعًا ومرعى لأغنامهما وحيواناتهما . وعدد سكان هذا الوادى حوالى سبعة آلاف تقريبًا .

أما قبائل (بنى حسن) و(بنى عبس) و(اسلم) ، فقد فضلت القرى المجاورة لوادى الواعظات مرتعًا لها وعرفت كل قرية باسم القبيلة التى سكنتها . وتعدادهم كما هو ثابت ، وكما يردد أرباب المعرفة خمسمائة فرد تقريبًا .

ومن لحية حتى مضيق باب المندب ، تخلو هذه المناطق تمامًا من البدو والعشائر التى تسكن الخيام . ويقطن هذه الأماكن من فضل العيش فى المدن والقصبات والقرى وامتهن التجارة والزراعة حرفة يعيش منها .

ولما كانت درجات الحرارة العالية تسود منطقة تهامة كلها تقريبًا ، لذلك لا تنمو فيها أشجار البن ، بل تجود زراعته على قمم جبال اليمن ووديانه .

اليمن وصنعاء ذاتهما :

أما أراضى اليمن ذاتها فهى تقع فوق الجبال العالية والوديان والسهول المرتفعة . وتشمل المدن والبلاد والقرى العديدة ، وأراضيها قابلة للزراعة .

وسائر جبالها ليست جرداء صلدة كالجبال الأخرى المتعارف عليها ، بل هى مناطق قابلة للزراعة والتوسع فى الاستزراع ، محاصيلها وفيرة ، أى أن جبالها عبارة عن وديان مرتفعة . وتدخل جبال عسير ضمن هذا النطاق .

وأشهر مدن اليمن وأجملها هى مدينة صنعاء التى تقع على مسافة تسع وخمسين ساعة من الحديدة جهة البر.

والمدينة المذكورة فى الشمال الشرقى من (المخا)، وعلى بعد مائتين وخمسة وأربعين كيلو مترًا، على خط طول ٤١ْ، ٣٩ دقيقة شرقًا، وخط عرض ١٥ْ و٢٠ دقيقة شمالا. وكانت فى زمن ما عامرة جدًا وفى قمة الشهرة. وإذا كان الخراب قد ألم بها فيما بعد، فإن الإرادة السنية الشاهانية، مدت إليها يد العمران فى العصر الحاضر، فى محاولة لفرض الأمن والأمان على المنطقة. وعلى أى حال، وبأى صورة من الصور، فإنها مدينة جميلة لطيفة، بدأت منذ فترة وجيزة تحيط بأطرافها البساتين والحدائق الغناء. يبلغ تعداد سكانها ٢٣٤٠٠ نسمة، منهم تسعة عشر ألفًا وثمانمائة مسلم والباقى من اليهود.

مياهها وثمارها وفيرة كدمشق الشام، ومن أشهر آثارها وأطلالها العتيقة (قصر غمدان) الواقع بالقرب من صنعاء. وأصل المدينة تقع فى حضن جبل، يلف حولها سور ذو سبعة أبواب. وفى داخلها أربعة وعشرون جامعًا كبيرًا وحوالى عشرون مسجدًا وكثير من القصور، وخانات كبيرة ذات حمام بعشرة أبوب يطلق عليها الأهالى (كاربان سراى) (١).

إن الأراضى الممتدة على ساحل البحر فى اليمن والتى يعبر عنها بـ(تهامة) صالحة للزراعة طوال العام، ومن الممكن أن تعطى أربعة محاصيل سنويًا. وحرارتها السائدة من الممكن أن تنضج محاصيل كثيرة كالقمح والشعير والخضروات.

تزرع بها بعض الحبوب كالذرة والدخن. وعلى قمم الجبال تزرع الحنطة والشعير والسمسم مرتين كل عام، كما يزرع هنا كل ما يمكن إنتاجه على مستوى البلاد كلها من خضروات وفاكهة بشتى أنواعها. ويعتبر محصول البن على رأس قائمة المحاصيل المحلية من ناحية المكاسب المادية.

---

(١) كاربان سراى: كاروان سراى = كروان سارى = كروانسراى مصطلح معمارى؛ يُطلق على الأماكن التى كانت تقام على طرق القوافل، أو فى المدن لإقامة المسافرين، أو التجار بدوابهم، وأمتعتهم. كما كان بها مخازن لحفظ البضائع وتخزينها إلى حين عودة أصحابها، ودكاكين لتأمين الاحتياجات.

وقد عرفت الدول الإسلامية كلها هذه المؤسسات وكان السلاطين، والخلفاء، والملوك وأهل البر والخيرات يُقيمون مثل هذه الكروانسرايات، ويوقفون عليها أوقافًا كثيرة للصرف عليها وكانت تُقدم فيها الأغذية، والرعاية الطبية، والبيطرية بالمجان، دون تفرقة بين الأجناس، أو الأديان، أو الغنى أو الفقير. وقد تحولت بعضها إلى قلاع وحصون متينة. كما كانت تقام بالقرب من قلاع الحدود، وفى المناطق الوعرة لتأمين مسيرة قوافل التجارة، والحج، وتأمين حياة العابرين لهذه الطرق «المترجم».

وإذا كانت أشجار البن وقفًا على اليمن فى وقت ما، فإن الكثير من الممالك قد أخذتها عن اليمن، وبدأت فى زراعتها فى الوقت الحاضر.

وأهالى اليمن هم أول من عرف خاصية القهوة النافعة بعد أن جربوها، ثم استمروا فى شربها، وتبعتهم الشعوب الأخرى فيما بعد.

ومن مظاهر الإعزاز والتكريم بين الناس اليوم، هو تقديم القهوة كنوع من الإكرام والاحترام، وأصبح ذلك من التقاليد المرعية بينهم.

وقد أقر الأطباء بعد التجربة والدراسة العلمية على خاصية التنبيه وتنشيط الأعصاب المتوافرة فى القهوة، ونال البن اليمنى فى ذلك شهرة فاقت جميع الممالك الأخرى.

الأنبا :

نوع من الفاكهة التى تشبه الخوخ الهندى، وتنمو فى مدينة صنعاء، ورائحتها طيبة وجميلة جدًا، وطعمها لذيذ. وثمرة واحدة كافية لتعطير غرفة كاملة برائحتها الطيبة، تصنع منها الصلاتة والمخللات قبل أن تنضج. وعند كمال نضجها تكون لينة طرية كالليمون الحلو. ولما كانت غير قابلة لنزع قشرتها، فإنها تثقب من أحد أطرافها ويمص عصيرها. كم هى فاكهة حلوة وطيبة الرائحة!

إن البدو الذين يشكلون أشهر القبائل المسيطرة على جبال اليمن وخاصة قبائل (بنى رفاعة، عبيدات، هجاهجة، بنى كبير، أو كلوب، العبادلة، بيشه) يسكنون الأراضى الواقعة نحو الجنوب الشرقى للطائف.

ولما كانت قبيلة بيشة تجاور العسريين فى الحدود، فإن الحروب الطويلة كانت تنشب بينهم، وكان النصر النهائى للعسيريين.

إذا كان الطرف الجنوبى من الطائف، يعنى ما بين جبل عسير والطائف هو مقر قبائل بنى سعد فإن قبائل (بنى ميمون، بنى مالك، الناصر، زهران، غامد، شمران، بالقرن، بنى الأسمر، بنى الأحمر، شهران) قد اختاروا الإقامة أيضًا فى الأراضى المذكورة، وقد تشعبت عنهم كثير من البطون والعشائر الأخرى. وتعدادهم جميعًا يربو على مائة وستين ألفًا. وأغلبهم يعلمون بالزراعة فى السهول والوديان والسهول، أما على قمم الجبال فتجود محاصيل الشعير والقمح والدخن والبن.

وجبل زهران الذى اتخذت منه قبيلة بنى زهران مقرًا لها هو أيضًا من مناطق تهامة، ولما

كانوا جميعًا من أصحاب الزراعة والفلاحة، فقد شيدوا لأنفسهم ما يزيد عن ثلاثمائة قرية، لتكون مقرًا لإقامتهم.

والأعراب الذين يسكنون الأراضى المستوية فى الجهة الغربية من جبل زهران والتى يطلق عليا أراضى (تهامة) يزرعون الذرة والدخن فقط، أما الذين تمكنوا من قمم الجبال فقد زادوا على ذلك القمح والشعير، وازداد اهتمامهم بأشجار اللوز.

وهناك جبل آخر على الناحية الجنوبية من جبل زهران يسمى جبل (غامد)، ويسمى العرب الذين يقيمون فى هذا الجبل أيضًا بـ (غامد)، وقد أقاموا لأنفسهم أيضًا نحو ثلاثمائة قرية ليسكنوها.

ومن الخمسات التى تفرعت عن القبائل المذكورة (بنو عمر) وهم من ذوى الشهرة الكبيرة فتى زراعة البن والعناية به إلى جانب زراعة الحبوب الأخرى.

ويطلق على عرب غامد وعلى العرب الذين يسكنون فى وديانه (بلدى)، أما الأرض فتسمى الحجاز وساكنها (حجازى)، أما قبائل (بنى كبير، هجاهجة، عويضاضى، زهران، رفاعة) الذين يسكنون فى الناحية الشرقية من جبل غامد، فيطلق عليهم (غامد البدوى) وذلك لحياتهم البدوية بالنسبة لأقرانهم فى المناطق السابق ذكرها.

وهناك جبال (ميمون، شمران بالقرن) وموقعها بين جبلى عسير وغامد، ولأنها تقع فى بلاد اليمن فسنترك الحديث عنها إلى حينها.

أعراب عسير:

إن أصلى العسيريين هم قبائل : (بنى علقم رفيرة، بنى ربيعة، مقيد) التى تسكن المنطقة الممتدة بين شمال عسير وجنوبها، وعددهم يصل بالكاد إلى ما يقرب من عشرة آلاف نسمة.

وقد استطاع أمير عسير السابق محمد بن عائض أن يجمع تحت طاعته معظم قبائل عسير، ورفع راية العصيان ضد الدولة العلية؛ إلا أن الجيش الهمايونى استطاع أن يعيد الهدوء والأمن والأمان إلى ربوع البلاد.

قحطان:

تقيم قبائل : (رقيف اليمنى، عبيدة، شريف، سحان، داعة) التى تسمى جميعًا (قحطان) فى الأراضى الممتدة بين شمال جبل عسير وإلى الجنوب منها.

إن أشجار البن تنمو بجودة فائقة على الجبال الممتدة من الجبل الذى تسكنه قبائل وداعة

حتى محاذاة باب المندب وبين تلك الجبال. وتعرف القبائل التى اختارت لنفسها الإقامة فى القرى والمراكز باسم المنطقة التى تقيم فيها.

وهناك وادى فى الجهة الشرقية من جبال عسير يسمى وادى (نجران) وسكانه حوالى ثلاثون ألف نسمة وهم شعبة أو فرع من فروع قبيلة (يام) الكبيرة.

وتمتد مساحة وادى نجران إلى ما يقرب من مسيرة ثلاثة أيام، وبهذا الوادى نبعان متدفقان مياههما جارية، ونخيله وفير.

وتقيم شعبة من قبيلة (يام) فى جبل حراز، أما قبيلتا (ذوى محمد، ذوى حسين)، ذاتا الأعداد الوفيرة فهما تسكنان فى الطرف الشرقى لوادى نجران حيث يوجد جبل (برط).

وقد كان أعراب هاتين القبيلتين من أشد الأعراب بأسًا، وقد كان لها سطوة ونفوذ، حتى أنهم كانوا يفرضون أتاوة على كثيرة من العربان الآخرين فى بلاد اليمن، لدرجة أن الأئمة الزيديين الذين كانت لهم حكومة فى صنعاء لم يكن فى وسعهم وقف الاعتداءات هاتين القبيلتين وغاراتهما.

وهناك ثلاث قبائل أخر تسكن المنطقة الممتدة بين جبل برط وبلاد حضرموت وتعرف بـ (آل مرة، الكرب، الصيعر).

وإذا كانت أعداد هذه القبائل الثلاثة غفيرة كذوى محمد وذوى حسين أيضًا، إلا أنهم جميعًا يسكنون الخيام ويعيشون فى حالة ترحال وتنقل مستمر.

وتسمى البلاد الواقعة فى جنوب جبل برط بلاد (حاشد) وتسكن هذه المواقع قبيلتا (نهم، أرحب) اللتان يبلغ عدد أفرادهما ألفين وخمسمائة شخص .

بلاد عمران:

وهناك فى البلاد التى تسمى (بلاد عمران) أى تلك المناطق الواقعة بين بلاد (حاشد) وحدود (همدان) تعيش بعض القبائل التى لا يتجاوز تعدادها خمسمائة أو ستمائة فرد، وكلهم يعملون بالزراعة والفلاحة فى هذه المناطق.

أما قبيلة (همدان) التى يبلغ عدد أفرادها حوالى ألف شخص فقد اختارت المناطق الواقعة بين مدينة صنعاء وبلاد عمران مقامًا لها.

قبيلة بنى مطر:

يسكن أفراد هذه القبيلة الأراضى الواقعة بين صنعاء و(جحة)، وعدد نفوسها حوالى عشرة آلاف فرد، يعيش جميعهم على الزراعة والفلاحة.

البروية:

وكذا قبيلة (البروية) التى يبلغ تعدادها هى الأخرى حوالى عشرة آلاف شخص احترفت الزراعة والفلاحة وتزرع إلى جانب البن الحنطة والشعير والذرة والفواكه وتعيش على زراعة هذه المزروعات وبيعها، وتسكن الجبال والوديان.

حضور:

أما الوديان الملاصقة للمناطق التى سكنتها قبيلة البروية فقد اختارتها قبيلة (حضور) التى تبلغ أربعة آلاف نفس مسكنًا ومرتعًا لها، وتعيش هى الأخرى على الزراعة والفلاحة.

وتسكن قبائل : (بنى شداد، الخولان، بنى جبر، بنى عبس، بنى فلاح ، ضبيان، بنى مجاهد، بنى قيس الأعماس) والتى يبلغ تعدادهما ما بين خمسة أو ستة آلاف فرد، المناطق الشرقية لصنعاء.

* * *

بلاد حضرموت، موكلا ، شحر، تريم

حضرموت :

تعتبر حضرموت من الأقسام الكبيرة فى جزيرة العرب . ويقع هذا الجزء كما سبقت الإشارة فى الجانب الجنوبى من جزيرة العرب ، وتنحصر بين اليمن والبلاد اليمانية ، بين درجة ١٣ ـ ١٧ْ على خط عرض شمال و ٤٣ ـ ٥٤ْ خط طول شرقًا . وحضرموت يحدها غربًا اليمن ومن الجانب الشرقى عمان ومن الطرف الشمالى الأحقاف ، أما فى الجنوب فيحدها بحر عمان . وأشهر مدنها الساحلية : (شمر ، ظفار ، مرباط ، الحاسك) .

وقد ظلت حضرموت مدة تحت سيطرة الأئمة الزيدية الذين حكموا صنعاء منذ سنة تسعمائة حتى سنة ألف من الهجرة ، ثم انتقلت إلى سيطرة أسرة (كثيرى) التى تعد من أعيان حضرموت ، وبعد ذلك تشتتت بين نواب (آل كثير) الذين ينتسبون إلى قبيلة يافع ، خاصة بعد أن دب الضعف فى أوصال آل كثير .

وفى فترة من الفترات التاريخية اتجه الأمير غالب المنتسب إلى آل كثير إلى الهند وعاد ومعه الكثير من الذهب والعبيد ، وفى سنة ١٢٦٠هـ قام بالهجوم على رأس القبائل التى جمعها ، وسيطر على بلدة (تريم ، عرف ، مريمة ، سيوون ، تريس) . وقد توفى الأمير المذكور سنة ١٢٨٧هـ .

وبوفاة الأمير غالب اعتلى ابنه منصور العرش مكانه ، وقد قام بدوره بالاستيلاء على كثير من المناطق ، ولكن لم يوفق فى ضم كل حضرموت ، ولذلك انقسمت إلى الممالك التالية :

موكلا :

تقع حضرموت على الساحل كما سبقت الإشارة ، ولذلك فإن مكلا من البلدان الساحلية الجميلة التى تقع على الجانب الشرقى من (عدن) وتبعد عنها اثنتى عشرة مرحلة .

ويحتمل أن يكون عدد سكانها أربعين ألف نسمة تقريبًا .

والبلدة المذكورة هى : (بروم ، الديس ، الحض ، روكب) تحت إدارة أمير نير الضمير يسمى (صلاح) بعد الفتح العثمانى .

والمملكة المد[illegible] [illegible]ها مورد آخر يحقق لها حوالى أربعة أو خمسة آلاف كيس من الأقجة[1] آلا وهو الجمرك، عدا المحاصيل المتعارف عليها فى المنطقة.

شحر:

بلدة تقع على الطرف الشرقى من موكلا وعلى مسافة مرحلتين منها، وهى بدورها من المدن الساحلية لحضرموت، وتعداد سكانها خمسة آلاف نسمة تقريبًا.

وهذه المنطقة تقع فوق جبل، وقد عين (يعرب بن قحطان) أخاه (عامر) واليًا على هذا الجبل. وقد حضر عامر بنفسه كل الحروب التى وقعت فى عصره، وكان رجلا شديد المراس لا يعرف الرحمة فى الحرب، كان الموت رفيقه أينما حل؛ ويعتقد البعض أن اسم هذه المنطقة (حضرموت) قد استخدم دلالة على هذا الرجل أى حضر الموت، ولكن بعد ذلك بدأ الأهالى فى تسكين حرف الـ (ض) وتحويل الحاء إلى (خاء) بحيث أصبحت (خضرموت) بدلا من (حضرموت).

وتقع الآن بلدة شحر وبلدتا شيام وقطن الواقعتان ناحية الجبل، تحت إدارة أمير يدعى (قعيطى)، وقد اتخذ الأمير المذكور من شحر مقرًا لإدارته وإقامته.

ويجود الدخان (الطباق) فى أراضى هذه البلاد إلى جانب المحاصيل الأخرى، مما يحقق لها دخلا مرتفعًا. وتتمتع بكثير من ينابيع المياه الجارية وحدائق النخيل.

تريم:

وهى الأخرى تقع داخل حضرموت وتبعد عن مكلا بإحدى عشرة مرحلة من الناحية الشمالية وعلى بعد خمسة عشر ميلا عن زمار. وهذه المدينة الرائعة هى وقصبات (غرف، مرية، سيون، تربس) تحت إمرة وإدارة أمير يسمى (منصور).

وكانت هذه البلاد فى بادئ الأمر عامرة جدًا، مترامية الأطراف، مكتظة بالسكان، وإلى جانب ذلك كانت مزدهرة بالعلماء. ذات موقع رائع فريد، ولكن بعد سيطرة أعراب المتغلبة وكثرة غاراتهم، اضطر سكانها تحت هذا الضغط إلى مغارتها منذ عشرين سنة، ولذلك بدأ الخراب والكساد يسودانها، بعد أن كان بها ما يزيد على ثلاثمائة جامع ومسجد. ولم يبق بها الآن سوى ما يقرب من ثلاثة آلاف نفس.

---

(١) الأقجة: كلمة تركية تدل على سكة فضية صغيرة، وتعتبر من أكثر العملات العثمانية تداولا. تغيرت قيمتها تبعًا لتغير الظروف الاقتصادية للدولة العثمانية. وكانت السكيسة منها تحتوى على خمسمائة قرش. (المترجم).

الوديان:

وتنقسم حضرموت إلى مجموعة من الشعاب والوديان، وأهم هذه الوديان هو وادى (يبعث) المشتمل على ثمان قرى، منهم بلدة (بروم) الواقعة على الساحل الغربى لبلدة مكلا والممتد حتى المكان المسمى (نبى الله هود) والواقع ناحية الشمال الشرقى.

وتسكن قبائل: (آل عمودى، آل بالعبيد، كرب) البالغ عددها ألفًا وخمسمائة شخص الوادى المذكور. ويذكر السياح العرب ورحالتهم أن هذا الوادى يتمتع بمياه جارية وحدائق نخيل غناء.

وادى حجر:

من أشهر وديان حضرموت أيضًا، وادى حجر الذى تقع داخله بلدة بروم على مسافة ثلاث مراحل.

وبهذا الوادى ما يقرب من عشرين عينًا جارية وأربعمائة ألف نخلة، وتمتد حدوده مسيرة أربعة أيام من طرف إلى الطرف الآخر. وتسكنه جماعة من قبيلة (نوح).

ومن أودية حضرموت الرئيسية التى تلتى وادى حجر فى الأهمية، وله شهرة كبيرة بين العربان بنخيله اليانع وارف الظلال، وادى (ريدة الديك). وتسكنه قبيلة (دين) جميعها.

دوغن:

ويعتبر وادى دوغن من الوديان المهمة بعد وادى ريدة الديك، وطول هذا الوادى مسيرة أربع وعشرين ساعة أما عرضه فلا يستغرق أكثر من نصف ساعة.

ويحتوى وادى دوغن على إحدى وعشرين قرية كبيرة وصغيرة، تعداد سكانها حوالى ألفين وخمسمائة شخص من أعراب قبائل: (آل العمودى، المراشدة، القشم، الخامعة، نوح)، وإذا كان وادى دوغن لا يتمتع بالعيون الجارية فإنه يروى بماء المطر، كما يمكن الاستسقاء من مياه الآبار النادرة أحيانًا، وبه كثير من حدائق النخيل التى تشتمل على ما يقارب الأربعين ألف نخلة، وتمثل التمور موقعًا مهمًا سواء فى الزراعة أو التجارة.

وادى ليسر:

ويعتبر وادى ليس شعبة من شعاب وادى دوغن وهو واد ممتد مشهور، طوله مسيرة ثنتا عشرة ساعة وعرضه مسيرة نصف ساعة فقط.

وبه خمسون ألف نخلة تقريبًا عدا المغروسات والمزروعات الأخرى التى تزدان بها حدائقه وبساتينه الغناء. كما يحتوى على عشر قرى بين كبيرة وصغيرة.

وتسكنه قبائل : (الخالكة، آل محفوظ، آل يزيد، آل بطاطى، آل كثير) المعروفة والتى يبلغ تعدادها حوالى ألف شخص.

وادى العين:

وادى العين طوله مسيرة أربع وعشرين ساعة، ويحتوى على خمس قرى صغيرة وثلاثين ألف نخلة وحدائق وبساتين عدة، يسكنه (آل عوايسة) الذين يبلغ تعدادهم خمسمائة شخص.

وادى عمد :

وادى عمد، واد طوله مسيرة اثنتى عشرة ساعة وعرضه نصف ساعة فقط.

يشتمل على عشرين قرية متفاوتة الأحجام وحدائق نخيل بها ما يقرب من مائتى ألف نخلة، وتقطن قبائل : (باصليت، باتيس، بنى ماضى، الجعدة، الصقرة، نهد، بنى مخاشن) البالغ عدد أعرابها ألفين وخمسمائة أعرابى هذه القرى.

تصل حدود وادى عمد ووادى دوغن السابقين إلى حدود مركز (قفل) ويمتد إلى الأمام مسيرة أربع وعشرين ساعة حتى موقع (كز) حيث حدود قصبة (حزير).

وادى رخية:

تبلغ مسافته ست ساعات طولا ونصف ساعة عرضًا. ويشتمل على عشرة قرى وعلى عشرة آلاف حديقة من حدائق النخيل. تسكن فيه قبائل : (آل على، بنى حيدرة، بنى باليث وشحا). ويبلغ تعدادهم ثلاثمائة شخص تقريبًا.

وادى دهر :

هو موقع يمتد مسافة ثلاث ساعات سيرًا ويحتوى على عدة قرى وكثير من حدائق النخيل.

وتقطن هذا الوادى قبائل : (آل بالعبيد ، الصيعر ، يافع) والبالغ عددهم ٢٥٠٠ نسمة.

وادى ابن راشد :

ينقسم هذا الوادى إلى منطقتين :

إحداهما : تبدأ من الموقع المسمى (شبام) ويطلق عليه أيضًا (وادى سر) و (وادى قيلى).

. أما المنطقة الثانية : فهى الممتدة فيما بعد قرية (ساه) ويطلق عليها (وادى بحرى) و (وادى عدم).

ويلتقى هذان الواديان عند المكان المسمى (غرف) ويمتد نحو الطرف الشمالى مسيرة ثلاثة أيام طولا عند منتهى وادى ابن راشد حيث تقع قرية (نبى الله هود).

ويشتمل وادى ابن راشد على ما يقرب من مليون نخلة وست وستين قرية صغيرة وكبيرة.

وتقطن هذه القرى قبائل : (آل كثيرة، العوامر، آل باجرى، آل جابر، آل تميم) البالغ عددهم ستة آلاف شخص.

وإذا كانت القرى والمدن التى حكمها الأمير منصور بن غالب الكثيرى تقع داخل هذا الوادى، فإن أهالى القرى المذكورة من أعراب غير أعراب القبائل الخمسة سالفة الذكر، وستتناول فيما يلى أهم قبائل العرب التى سكنت نواحى حضرموت.

يافع:

تسكن قبيلة يافع الجبال الواقعة فى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة عدن وأعداد أفرادها تقرب من عشرين ألف فرد.

آل حموم:

تقطن قبيلة (آل حموم) ضواحى وأطراف بلدة (شحر) وأطرافها، ويبلغ تعداد أفرادها ألفًا تقريبًا.

بنى نبى الله هود (عليه السلام) ومناهل ومهرا:

يسكنون المواقع الممتدة فيما بين قرية نبى الله هود عليه السلام التى تعتبر نهاية وادى ابن راشد ومدينة ظفار، ويبلغ عددهم ألفى نسمة.

ومن بين سكان حضرموت ما يقرب من ثلاثة آلاف من السادات الكرام الذين يصل نسبهم إلى سيدنا ونبينا عليه الصلاة والسلام ويحطهم الأهالى بكل التبجيل والاحترام.

وهم أنفسهم الذين يطلق عليهم العامة (السادات العلويين) والسادات العلوين المتواجدون فى مكة المكرمة والمدينة المنورة فرع منهم.

والمناطق المتاخمة للجبال فى حضرموت وإن كانت صالحة للزراعة، إلا أن حجم محصولاتها ضعيف، وأكثرها برك ومستنقعات.

ولذلك فإن سكانها يعملون بالصيد وخاصة صيد الأسماك التى يغذون بها حتى حيواناتهم. أما الملاصقون للسواحل فيجمعون العنبر الخام ويبيعونه.

وإلى جانب الجوز والطياق والصمغ العربى والبخور والحنطة والتمور وأجود أنواع الصبر الأصفر التى تجود فى بلاد حضرموت، فإن كل الحاصلات والنباتات الهندية تجود أيضًا فى جبال هذه البلاد.

أما صحراء الأحقاف التى تقع فى شمال حضرموت والتى يطلق عليها (بحر الصاف)، فهى عبارة عن صحراء متحركة الرمال، وفى الأيام التى تشتد فيها الرياح يدفن كثير من العابرين والمارة تحت هذه الرمال، ويصعب الاستدلال عليهم، كما أنها غير صالحة للزراعة، ولذلك فهى غير مسكونة أو مأهولة. وكانت مناطق (البئر المعطلة) و(قصر المشيد) والقصبة المعروفة فى التاريخ بـ(رس) تقع أيضًا داخل منطقة حضرموت.

كان سكان هذه المناطق فى الحقبة الماضية يعانون أشد العناء من قلة مياه الشرب وكانوا يجلبونها من مناطق بعيدة جدًا. فأنعم عليها صاحب الوجود ببئر عميق الأغوار أخيراً. إلا أنهم كانوا من عبدة الأصنام ومن قتلة أنبيائهم، فكتب الله عليهم العذاب، وجفت مياههم ونالهم الهلاك الذى كانوا هم له ناكرين.

ومن هنا سمى البئر بـ(البئر المعطلة) لهذا السبب.

القصر المشيد:

وقد بناه أحد رؤساء العرب البائدة وهو (صد بن عاد) كحصن أو برج عال ليصد به الرياح العاصفة وليحتمى به وقت اشتداد هذه العواصف.

وإذا كان صد بن عاد قد بنى هذا القصر ليحتمى به من الغضب الإلهى، إلا أن هذا القصر المنيف لم يستطع أن يصد عنه أو عن أولاده وأحفاده غضب الله فقط، بل تحول إلى خرابات وأطلال يسكنها اليوم والغربان: ويرى البعض أن بعض هذه الأطلال ما زالت موجودة حتى الآن.

ظفار:

تقع بلدة ظفار على ساحل بحر عمان وبين بلاد حضرموت والبلاد العمانية، طولها ست مراحل وعرضها ثلاث بامتداد الساحل.

ولظفار واد منخفض يمتد مسيرة عشرة ساعات بعد الساحل ولها تسع قصباتٍ فوق هذا الوادى.

وتسكن قبيلة آل كثير البالغ عددها خمسمائة نفس القصبات المذكورة . أما قبيلتا (قرا ، شحرة) اللتان يبلغ تعدادهما ثلاثة آلاف فرد تقريبًا ، فقد فضلتا أن تسكن الجبال المطلة على هذا الوادى سالف الذكر .

ومناخ ظفار هو نفس مناخ بلاد الهند تهطل الأمطار لمدة أربعة أشهر كل سنة وتنساب المياه المتجمعة فوق الجبال إلى أسفل حيث المنخفض، مكونة ما يقرب من عشرة أنهار .

وهذه المياه المتدفقة بعد أن تروى المنخفض بوديانه ، تنساب متدفقة نحو البحر ، وأحد هذه النهار المذكورة كبير لدرجة أن الأهالى استطاعوا أن يسيروا فيه القوارب ، ويعرف فيما بينهم بـ (حور بلد) أى بلد الحور ، أما فى موسم الخريف فتتوافر المياه وتزداد التربة خصوبة وتنمو النباتات ، حتى أن جميع المحاصيل التى تجود فى بلاد الهند تجد لها مثيلا فى بلاد ظفار وبنفس الجودة . وليس لظفار حكم مستقل ، بل أن سكانها تابعون لإدارة مشايخها المحليين .

* * *

عمان وما تشتمل عليه من بلدان:

إن عمان تمثل إحدى المناطق الكبيرة التى تحتويها جزيرة العرب .

وتقع هذه البلاد فى الجنوب الشرقى للجزيرة وعلى ساحلى خليج البصرة وبحر عمان ، وعلى خط طول بين ٥٣° إلى ٥٧° و ٥٠ دقيقة طول شرقى وعلى خط عرض شمالا من ٢٢° إلى ٢٧° . يحدها شرقًا المحيط الهندى وشمالا خليج البصرة وجنوبًا الأحقاف وغربًا جبال اليمامة . طولها ٥٤٠ كم وعرضها ٢٨٠ كيلو مترًا ، وعدد سكانها حوالى مليون وستمائة ألف نسمة .

ومناخ بلاد عمان وظروفها الطبيعية رائعة وقوتها الإنتاجية أكثر من سائر المناطق الأخرى ، وقراها ومراكزها ومدنها تنتج كل المحاصيل الزراعية وكل أنواع الفواكه ، ولذلك فسكانها يتمتعون بلين الجانب وطيب الخصال وحسن الطوية .

ولما كانت معظم مراكزها وقراها ومدنها واقعة على ساحل البحار ، فإن الأهالى إلى جانب الاشتغال بالزراعة والفلاحة ، يهتمون بالصيد كما يعملون باستخراج الصدف واللؤلؤ والاتجار فيهما ، ويكسبون من هذه الحرف الكثير .

وقد أسندت إدارة عمان إلى (عمان بن قطحان) أخى (يعرب) ، الذى أعلن استقلاله بعد مدة . وعقب وفاته انتقلت إدارتها إلى يد (قضاعة ابن مالك بن حمير) . وأخيرًا استطاع حاكم

اليمن (سكسك) أن ينتزع عمان عن طريق الحرب من قضاعة، إلا أن حفيد قضاعة (مالك بن الحاف) استطاع أن يستردها مرة أخرى أثناء حكم يعفر بن سكسك. وبعد أن استعادت حكومة اليمن قوتها ونفوذها تمكنت من أن تعيد إدارة عمان تحت نفوذها، يديرها الولاة الذين يعينون من قبلها. وبعد أن حل الضعف بسلطة اليمن مع مرور الزمن، فإن أئمة المشايخ استفادوا من ذلك، وبقيت عمان فى أيديهم.

وخلال حكم القرامطة كانت عمان تُحكم بواسطة الأئمة المحليين الذين كانوا ينتخبون من بين المواطنين كالسنوات السابقة، ومنذ سنة ٩٠٠هـ تركزت أطماع البرتغاليين والهولنديين والإيرانيين على هذه البلاد. وفى سنة ٩١١هـ تمكن البرتغاليون من فرض سيطرتهم ونفوذهم على كل سواحل البلاد، ولكن الأهالى نجحوا فى التغلب على البرتغاليين، وانتزاع أراضيهم من بين براثن الأعداء فى الفترة من سنة ١٠٤٦ إلى سنة ١٠٥٧هـ، وبعد ذلك أستولى الهولنديون، على بعض مناطقها. وما أن نجح الأهالى فى دفع أخطار الهولنديين وأطماعهم، حتى بدت إيران، وقد كشرت عن أنيابها وفرضت نفوذها وسيطرتها، ولكن المواطنين وحدوا صفوفهم تحت قيادة (أحمد بن سعيد) حاكم شحر، واستطاعوا أن يخرجوا الإيرانيين من بلادهم بفضل شجاعته وإقدامه، وعلى أثر ذلك، اختير الأمير السابق أميراً على البلاد وبايعه الأهالى فى سنة ١١٦٧هـ.

وفى سنة ١١٨٨ هـ رحل أحمد بن سعيد عن الدنيا بعد أن حكم البلاد إحدى وعشرين سنة، وحل محله ابنه (صمد) الذى استمر هو الآخر فى الحكم مدة عشرين سنة. ثم تولى (سلطان بن صمد) الحكم. وعقب وفاته تولى سعيد بن أحمد بن سعيد أخو صمد مقاليد الحكم فى الإمارة.

وكان سعيد بن أحمد بن سعيد من أكثر هؤلاء الحكام فطنة وذكاء فى أمور الحكم، كما أنه كان ذا شجاعة نادرة مكنته من توسيع ملك بلاده.

واتجه إلى إنشاء السفن الحربية التى مكنته من الاستيلاء على جزيرتى زنجبار، وسومطرة[1] والسيطرة عليهما. ووصلت قوته الحربية إلى السيطرة على بعض المناطق داخل أمريكا[2]. وقد تمكن أيضًا من الاستيلاء على الجزر والمناطق الساحلية التى كانت تحت الإدارة الإيرانية مثل (هرمز) و(كشم) و(رج) و(البحرين). وبعد أن انتهى من الفتوحات بدأ يتجه بكل قوته نحو الإصلاحات والتنظيمات الإدارية الداخلية.

---

(١) ذكرها المؤلف فى المتن (سيقطرة). (المترجم).

(٢) ذكر فى المتن أمريكا ويبدو أن ذلك خطأ مطبعى إذ المقصود إفريقيا. (المترجم).

وفى تلك الأثناء ظهرت الدعوة (السلفية) وبدأت تسيطر رويدًا رويدًا على المناطق التى كانت تحت نفوذه. ولم يملك سعيد إلا أن يتابع ما يحدث، آملا أن يعود نجمه إلى التألق مرة أخرى.

وقد حاولت الحكومة السنية فى دار السعادة مساعدة سعيد بن أحمد للعودة إلى سابق عهده، أملا منها فى أن يتمكن من القضاء على السلفيين. وقبل مماته كان قد قسم البلدان التى تحت سيطرته إلى ثلاث مناطق: أولهم: الجزر الواقعة فى خليج البصرة و(برقة) ومناطق الجبل الأخضر، وأسند إدارتها إلى ابنه الأكبر (توينى). أما السواحل الواقعة فى إفريقيا وزنجبار وسومطرة، فقد ولى عليها ابنه الثانى (ماجد)، والمناطق الواقعة فى غرب عمان أسندها إلى ابنه الثالث تركى [1]. ولكن هذا التقسيم إلى جانب أنه مناف لأصول الحكم، فقد خلق نوعًا من التنافس والتطاحن بين الإخوة أيضًا. فعلى أثر وفاة الأب قام (توينى) الأخ الأكبر بالضغط على أخيه ماجد لكى يبايعه. وبعد أن استمرت الحروب بينهما سنتين، تدخلت إنجلترا بينهما، وجعلت ماجد يدفع لأخيه ضريبة سنوية مقدارها أربعين ألف ريال، لكى يستقل هو بحكم جزر زنجبار وسواحل إفريقيا.

وبينما أصبح (توينى) بمساعدة الإنجليز مسيطرًا على ما يزيد عن ثلثى بلاد عمان، فقد طمع فيما تحت يدى أخيه الأصغر تركى، وأراد أن يضم إلى نفوذه ما تحت سيطرة أخيه، ولذلك دب الخلاف بينهما.

وإذا كان توينى يبدو أكثر قوة من أخيه تركى، إلا أن تركى كان يتمتع بتأييد سائر الأهالى القاطنين فى المناطق التابعة له. وفضلا عن ذلك تحول سكان الأراضى التى تحت نفوذ توينى إلى مناصرة تركى ومبايعته أثناء الحرب.

وتدخلت إنجلترا لإصلاح ذات البين بين الأخوين، وهدأت من روع تركى، ولكن توينى استغل الموقف وقبض على تركى وحبسه، فازداد غضب الأهالى، وأرادوا أن يفتكوا بتوينى، ولكنه فر. وفى سنة ١٢٧٠هـ عرض على الشيخ فيصل أمير نجد التدخل فيما بينهما، وقبل الشيخ فيصل الوساطة، وعلى الفور أرسل ابنه عبدالله على رأس قوة كبيرة إلى الأراضى العمانية.

وقام عبدالله بن فيصل بالسيطرة على أكثر البلاد التابعة لتركى، وأجبر الأهالى على طاعة

---

(١) كان (تركى) له اسم آخر هو (ماجد) أيضًا عرف به بين المواطنين.

توينى. واضطر توينى إلى دفع كافة مصاريف الحرب؛ وبعد أن تعهد توينى بدفع مبلغ عشرة آلاف ريال سنويًا لإمارة نجد، عاد عبدالله بكل قواته إلى نجد حيث يوجد والده.

واستمرت عملية تدخل أمير نجد حتى سنة ١٢٧١هـ، وبعدها استمر نفوذ توينى فى بلاد عمان. أما أخوه فقد فرض نفوذه كما كان على زنجبار وسواحلها.

وبعد وفاة توينى تولى ابنه سالم العرش، وما أن استقرت له الأمور حتى قام بالقبض على عمه تركى وأودعه السجن، ولكن الإنجليز تدخلوا وعرضوا وساطتهم، فأطلق سراحه، وذهب إلى بومباى.

وفى السنة التالية مباشرة أعلن شخص يدعى (عزان) العصيان ضد سالم، وانتزع من يده أمور الدولة ومقاليد الحكم. وما أن سمع تركى الذى كان قد هاجر إلى الهند بهذه الحوادث، حتى عاد إلى البلاد، وعلى أثر مقتل عزان انتقلت كل المناطق التى كانت تحت سيطرة توينى ونفوذه إلى يدى تركى سنة ١٢٨٧هـ. ولما كان ماجد حاكم زنجبار قد توفى منذ خمس سنوات خلت على هذه الحوادث انتقلت السلطة إلى أخيه (برقش).

مسقط(١):

تقع مسقط على ساحل بحر عمان وعلى بعد ألفى كيلو متر من المدينة المنورة شرقًا، وعلى خط طول شرقى ٥٩ْ، ٢٠ دقيقة، وخط عرض شمالى ٣٣ْ، ٣٨ دقيقة، وهى مدينة مشهورة، تعد أشهر مدن البلاد العمانية.

يبلغ سكان مدينة مسقط ستين ألف نسمة تقريبًا، والميناء يتمتع بحركة تجارية نشطة إلى جانب كونه ميناء كبيرًا ومحكمًا جدًا، ومرساه فى مأمن من كل أنواع الرياح، مما يجعل السفن الراسية فى أمن كامل.

عمان:

وتعتبر مدينة عمان من أشهر مدن المنطقة العمانية، وتقع على ساحل البحر فى الجانب الشمالى الغربى من مدينة مسقط وعلى بعد مائتين وعشرين كيلو مترًا.

وتحصل عمان على المياه من الجبل كثير الينابيع الذى يجاورها. وإلى جانب حدائقها وبساتينها الكثيرة فإن القمح والشعير والذرة تمثل المحاصيل الرئيسية بها.

وتعتبر (قطر) الواقعة بين الحساوعمان و(فارستان) الواقعة على الساحل الإيرانى من

(١) يكتبها المؤلف أحيانًا (مسكت) ويعنى بها مسقط نفسها. (المترجم).

خليج البصرة و(كرمان) و(زنجبار) وجزر سومطرة، وغار دافوى الواقع فى الطرف الشرقى للقارة الإفريقية والتى يطلق عليها جميعًا (كرمد) من ملحقات مسقط وتوابعها، وإذا وضع سكان هذه المناطق فى الحسبان، فإن تعداد البلاد العمانية كلها يبلغ مليونين ومائتين وثمانين ألف نسمة تقريبًا.

زنجبار:

تعتبر زنجبار واحدة من جزر المحيط الهندى، وتنتشر مدن زنجبار على سواحل هذه الجزيرة، وتقع على خط طول ٣٧ْ شرقًا وخط عرض ٦ْ ودقيقتين جنوبًا.

وجزيرة زنجبار تمتد ثمانين كيلو مترًا طولا وخمسة وعشرين كيلو مترًا عرضًا وعدد سكانها خمسمائة ألف نسمة تقريبًا.

ومناخ الجزيرة المذكورة مشهور جدًا، وعلاقتها التجارية مع جزيرة (مورس) الإفريقية كبيرة. وأرضها قابلة للزراعة والفلاحة وتصلح لكل أنواع المحاصيل، كما أن العنبر يكثر على سواحلها.

سقطرة - سوقطرة:

سقطرة أو سوقطرة جزيرة من جزر المحيط الهندى، فى الجهة الشرقية من الساحل الإفريقى وخليج (غار دافوى) على بعد مائة وستين كيلو مترًا على الطرف الشرقى، وتقع على درجة ٥٠ْ، ٤٥ دقيقة و ٥٢ْ، ١٠ دقائق خط طول شرقًا و١١ْ، ٥٠ دقيقة و١٢ْ و٣٠ دقيقة خط عرض شمالا.

وجزيرة سقطرة تمتد مائة وخمسة عشر كيلو مترًا طولا وأربعين كيلو مترًا عرضًا، وسكانها ستة آلاف فرد تقريبًا. وتنتج أجود أنواع (الصبر الأصفر، اللبان «العلك»، المرجان، الياقوت الأحمر) وتعد هذه المنتجات من الإنتاج العالمى المعقول.

* * *

الفصل السابع

منطقة الحسا = الإحساء

تعتبر الحسا [1] من أكبر المناطق فى جزيرة العرب حيث تشتمل على أكثر من مائتى بلدة وقصبة وقرية .

والحسا أصلا اسم دائرة ، وعند فتح القرامطة لهذه البلاد قام أبو طاهر القرامطى ببناء مركز (الهجر) وأطلق عليه أيضًا (الحسا) ومن هنا يطلق على هذا البلاد الهجر ، أو الحسا أو البحرين أيضًا .

وهذه البلاد الواسعة تقع فى شمال غرب بلاد عمان ، وغرب خليج البصرة . وتمتد بطول ساحله الغربى على خط طول ٤٨ْ ـ ٥٢ْ شرقًا ومن ٢٠ْ ـ ٢٩ْ خط عرض شمالا .

وسكانها مائتان وخمسون ألف نسمة تقريبًا ، وتدخل (القطيف) و(رأس الخيمة) و(الخفوف) = الهفوف داخل منطقة الحسا .

وأرضى بلاد الحسا صالحا للزراعة ، ولها عدة جزر على ساحل البحر ، أهمها جزيرة (البحرين) حيث يستخرج أجود أنواع اللؤلؤ والصدف ، وأكثر سكانها يجمعون الثروات الطائلة من جمع اللؤلؤ ، والصدف ، والاتجار بهما وكذا صيد السمك والتعيش عليه .

كانت الحسا قديمًا أكثر عمرانًا مما هى عليه الآن حسبما يروى . ففى الأزمنة الغابرة ، كان أهالى إفريقيا ، يفدون إلى مدينة القطيف بحراً ، ويتبادلون الأموال التى يحضرونها بالصدف ويستمر موسم استخراج اللؤلؤ من شهر حزيران (يونية) إلى شهر سبتمبر من كل عام . ويشكل صافى المحصول السنوى حوالى أربعمائة ألف ليرة إنجليزية . وبها حوالى أربعة آلاف مركب صيد وغوص ؛ وهذا ما يثبت أن القطيف كانت منطقة مهمة ومدينة كبيرة وأن أهلها من ذوى الثروات الطائلة .

ويروى البعض أن منطقة القطيف بئرًا مياهه عذبة تحت أعماق البحر ، وأن غطاسى سفن الغطس ينزلون إلى الأعماق ويجلبون مياه الشرب اللازمة للسفن من تحت هذه الأعماق .

---

(١) يطلق عليها أيضًا الإحسا والإحساء والحسا . (المترجم) .

وتتمتع منطقة الحسا بكثير من العيون المعدنية، ولكن سكانها ليست لديهم المقدرة العلمية الكافية لتحليل هذه المياه كيميائيًا والاستفادة بها، وما زالت هذه المياه المعدنية على حالتها الطبيعية، وإن كانوا يستخدمونها كحممات مثل تلك التى توجد في مدينة بورصة (١).

وعلى العموم فإن الحدائق والبساتين الموجودة بهذه المنطقة تسقى وتروى من العيون المائية الأخرى التى تنبع بالقرب من عيون المياه المعدنية.

وتربة بلاد الإحساء خصبة، وتنبت بها الأشجار والنباتات فى وقت قياسى، وتنتج إنتاجًا كبيرًا إذا ما قيست بغيرها من المناطق.

وسيقان نخيلها ضخمة لدرجة أن الساق الواحد يستطيع أن يحتضنه ثلاثة أو أربعة أفراد. وتنمو سائر الأشجار والنباتات الأخرى بهذه المناطق نموًا مائة متر مربع وعمقها من أربعة عشر إلى خمسة عشر ذراعًا. بحيث يمكن تصورها على أنها بحيرة صغيرة. ويقيم أصحاب المزراع والأراضى منها جداول صغيرة لرى أراضيهم ومزارعهم.

كما تروى من هذه الآبار البساتين والمتنزهات العامة التى تزدان بها مدن هذه المناطق، والتى تتمتع بجمال ورونق يعجز اللسان عن وصفها وبيان محاسنها.

وفى الهفوف وعلى بعد ساعة، نبع (عين النجم) ذو المياه العذبة الساخنة، ويمكن أن يكون هذا النبع هو أشهر ينابيع منطقة الحسا كلها من هذه الناحية، وقد استخدمه الأهالى بديلا عن الحمامات العامة.

ومن الأشياء الشائعة بين الناس أن كثيرًا من الأمراض والعلل المستعصية، قد شفيت بإذن الله بدوام الاستحمام فى هذا البئر لما فيه من مواد كيميائية مناسبة لمثل هذه الحالات. وقد أهمل هذا النبع لفترة زمنية طويلة، حتى قامت حكومة السلطان بتطهير منبعه، وأقامت حوله بناءًا جميلا وحولته إلى حمامات معدنية راقية.

إن أراضى الحسا الملاصقة للسواحل مستوية جدًا حتى أن مياه البحر عند المد تغمرها جميعها، وعند الجزر تبقى بعض الأماكن مليئة بالمياه وبعض المواد المتعفنة، مما يفسد الهواء ويؤدى إلى انتشار مرض الحمى، والتيفود اللذين يخطفان رونق الصبا. وينتشر بين الأهالى

(١) بورصة مدينة بآسيا الصغرى شهيرة بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية وبها مياه معدنية كثيرة شافية للعديد من الأمراض، وبها عيون باردة فى الصيف ساخنة فى الشتاء، يرحل إليها الكثير من الناس صيفًا وشتاء. وظلت بورصة عامة للدولة العثمانية من سنة ١٣٢٧ ـ ١٣٦١م ثم انتقلت العاصمة إلى أدرنة ثم إلى استانبول سنة ١٤٥٣م.

وفى بورصة حاليا منشآت صناعية وسياحية كثيرة كالتلفريك والتزحلق على الجليد وبها إلى جوار ذلك مدافن ستة من سلاطين آل عثمان فى صحن أو لو جامع. وقد زرت بورصة عدة مرات أثناء مقامى بتركيا من سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣م (المترجم).

أيضًا اصفرار الوجه ومرض الطحال مما يقضى على زهرة شباب المنطقة.

إن جزر البحرين تقع على خط طول ٤٨ْ ، ٢٠ دقيقة شرقًا وخط عرض ٢٦ْ، ٢٦ دقيقة شمالا. وأشهر أنواع اللؤلؤ وأجوده يستخرج من هذه الجزر.

وطول جزيرة البحرين سعة فراسخ وعرضها فرسخان جغرافيان. وفى وسطها وأطرافها بعض المناطق الأكثر ارتفاعًا.

وعدا البحرين فهناك جزر (آرآد) و(تاروت) و(المنامة) تطل على ساحل خليج البصرة من جانب الحسا مرتبطة بقائمقامية [١] نجد، ويطلق على جزيرة البحرين أيضًا اسم (أوال).

ولما كانت أراضى منطقة الحسا خصبة وصالحة للزراعة، لذلك تجود بها كل أنواع الفواكه والخضروات والمحاصيل الأخرى. وأكثر مزروعاتها عبارة عن أشجار النخيل، والقطن، والأرز واللوز والليمون والرمان والعنب والتين والقمح والشعير والذرة أيضا. ومع أن قصب السكر ينمو فى هذه المناطق بكثرة، فإن عدم وجود الخبرات الفنية التى ترعاه هى التى تحول دون طور هذه الزراعة.

والصوف الكيلانى المشهور ينسج فى هذه المناطق، كما تصنع بها أجود أنواع العباءات والمشالح.

وكان سكان البحرين الأقدمين من العمالقة، وقد انتشرت قبائل : (جديس) و(طسم) اللتان كانتا تسكنان اليمامة فى هذه المناطق، ثم استولى (الأزديون) على البحرين.

ثم وقعت فريسة للتمزق والتقسيم بين بعض القبائل العربية بعد الضعف الذى حل بالعرب إثر حروب (بخت نصر) حتى انتقلت إلى سيطرة العجم فى عهد (أردشير بن بابك) [٢].
ومع أن العرب قد استطعوا أن يرفعوا لواء الاستقلال عن الفرس بعد وفاة أردشير، فإن

---

(١) قائم مقامية : قائم مقام: معتمد، أو زير أو مسئول يحل محل الصدر الأعظم أو الوزير، أو الوالى فى الإدارة حين سفر، أو غياب، أو توجه الرئيس إلى الحرب. وكان هناك «ديوان للقائمقام» وقائممقام فى الآستانة. لإدارة الأمور السياسية والإدارية كما كان هناك قائممقام متولى للشئون الإدارية والأوقاف وفى التقسيمات الإدارية؛ كانت السناجق والقصبات تقسم إلى قائمقاميات لتسهيل أعمال الإدارة. واستتباب الأمن، وإحلال الضبط والربط، وسرعة اعداد المنطقة فى حالة الحرب. «المترجم».

(٢) أردشير بن بابك: هو ابن ساسان من إبنة بابك، وطبقا لما ذكرته الشاهنامة؛ فقد هرب ساسان ابن دارا بعد مقتل أبيه إلى الهند، وظل أولاده فى الهند عدة أجيال. وقد حضر الإبن الرابع والمسمى ساسان إلى پارس= إيران، وقد تولى بابك، وظيفة أمير الاسطبل. وذات ليلة رأى بابك فى منامه ساسانًا وهو =

(شابور ذى الأكتاف)[1] استطاع أن ينتصر على العرب ويلحق البحرين ببلاد الفرس. ثم انتقلت إلى إدارة المناذرة الذين كانوا يسيطرون على الحيرة. وفى السنة السادسة للهجرة، دخلت مجموعة من سكان البحرين فى الإسلام، وقبل البعض الآخر دفع الجزية؛ فعين الرسول ﷺ (علاء الحضرمى) واليًا على البحرين.

* * *

=جالس فوق ظهر فيل ضخم، وكل من يأتى إليه يسجد له، فطلب بابك ساسان ولما علم أنه من بيت أمراء وملوك، زوجه من إبنته، وأنجب منها أردشير.

تولى، وتعلم فى أحضان القصر، وعندما سمع أردوان بشهرة أردشير طلبه من بابك، فوجده شابّ يليق به. ولكنه بعدة مدة عهد إليه بقيادة الجيوش الشاهانية بسبب الوقيعة التى كانت بينه وبين أردوان.

هرب أردشير إلى پارس مع جلنار محظية أردوان، وجمع مؤيدى بابك، وتوجه لمحاربة أردوان، وتمكن من هزيمته وسبيى إبنته، وعاد إلى پارس، حيث شيد مدينة حره أردشير، وجلس على العرش، إلا أن ابنة أردوان قامت تبغى الثأر لأبيها، وتمكنت من دس السم لأردشير. لكن الملك أدرك تدبيرها وعهد بها إلى وزيره لكى يقتلها. عندما علم الوزير بأنها حامل لم ينفذ أمره، واحتفظ بها حتى ولدت شابور، وعند وصل شابور إلى سن السابعة علم أردشير بهذا السر سعد به إيما سعادة بأن يكون له ابن بهذا الشكل «المترجم».

(١) شابورذى الأكتاف: هو الملك الساسانى العاشر، وهو ابن أورامزد ومعروف بشابورذو الأكتاف. وقد وصل إلى الحكم وهو مازال فى بطن أمه. وحكم لسنوات طوال. وبذل جهدًا كبيرًا فى بسط نفوذ الساسانيين. وقد قتل مانى المصدر الذى أدعى النبوة بأمر من شابورذى الاكتفاف. «المترجم».

قبائل العرب التى تسكن الخيام فى منطقة الحسا

سبقت الإشارة إلى سكان منطقة الحسا الذين يسكنون المدن والقرى والقصبات. وفى الجزء التالى نبين ونعرف بالقبائل التى تعيش فى حالة تجول وترحال فى نفس هذه المناطق مع تعدادهم.

المرة :

يبلغ عدد أفراد هذه القبيلة ثلاثة آلاف نسمة. ويعيش أفرادها فى حالة تنقل وترحال مستمر حول القطيف.

بنو هاجر:

ومع أن قبيلة هاجر قبيلة مستقلة، إلا أنها تفرعت فى الأصل عن قبيلة قحطان. وهم يعيشون حول القطيف، وتعدادها يربو على أربعة آلاف وخمسمائة نسمة.

بنو خالد:

يبلغ تعداد أفراد قبيلة بنى خالد عشرة آلاف نسمة. يعيش منهم سبعة فى نجد وفى المنطقة الغربية من جبالها والتى تنسب إلى الزبير بن العوام (رضى الله عنه) كما أنهم يتجولون حول مدينة الحسا.

وتنقسم قبيلة بنى خالد إلى قسمين:

أحدهما : ينتهى إلى الصحابى الجليل خالد بن الوليد (رضى الله عنه).

أما القسم الثانى : فينتهى إلى إخوته وأبناء عمومته. وكلاهما من جماعة بنى مخزوم، كما أن بنى مخزوم من البطون الكرام لقبيلة قريش.

فخالد بن الوليد (رضى الله عنه) هو ابن الوليد بن المغيرة بن عبدالله ابن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب. ومن هنا تصل شجرة نسبه الكريم إلى الشجرة النبوية المطهرة.

وقد كان زمام إدارة منطقة نجد وإمارتها حتى نهاية القرن الثانى محصورة فى أسرة من قبيلة بنى مخزوم ينتهى نسبها إلى أبناء عمومة خالد بن الوليد. ثم انتقلت مقاليد الأمور إلى محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن منيع بن خالد ابن عبد الرحمن بن الوليد. وظل الحكم فى أيدى هذه السلالة حتى انتقلت إلى سلالة عبد العزيز بن سعود بعد ظهور الدعوة السلفية. وقد كانوا مع أهل السنة والجماعة بذلوا قصارى جهدهم فى حسن الإدارة وتطبيق الشرائع الإسلامية. اشتهروا بين القبائل بـ (آل عريعر). وقد كان أهل نجد يحترمونهم احترامًا كبيرًا.

وقد ظل الحكم وزمام الإمارة فى أيد آل عريعر هؤلاء حتى انتقل إلى السعوديين.

آل عريعر:

هم أبناء عمومة أمراء بنى خالد الذين كانوا يتنقلون فيما بين بلدة حماة وبادية الشام، حيث أن أمراء بنى خالد الذين توطنوا فى بلدة حماة وبادية الشام كان يطلق عليهم آل عبد القادر. وقد كان عبد القادر هذا هو عبد القادر ناصر بن العاصى بن مهنا بن سليمان بن مهنا بن محمد بن فارس ابن عبد الكريم بن مهنا[1] بن فضل بن محمد بن عبد الرحمن. وهكذا تلتقى سلالتهم مع سلالة آل عريعر حيث أن خالد بن الوليد (رضى الله عنه) والد لعبد الرحمن.

وقد انقسمت عائلة ناصر أيضًا إلى قسمين:

أحدهما: هو بطن مراد بن جابر بن ناصر وقد كانت كريمة ابن جابر هى (زيانة الخالدية) زوجة سيد حسين برهان الدين الصيادى الرفاعى.

(وزيانة الخالدية) مدفونة فى قرية حسين من ملحقات قضاء (معرة النعمان). ومن أولادها النجباء سيد على الحزام بن سيد حسين بن برهان الدين.

وقد انحصرت إمارة عشائر الشام فى أسرة مراد بن جابر سالف الذكر.

أما القسم الثانى: فقد كانت إمارته وسيادته للأمير عبد القادر أخى جابر من قبائل بنى خالد.

واليوم فإمارة ورياسة جماعات قبائل بنى خالد محصورة فى أبناء وأخلاف وأحفاد الأمير عبد القادر هذا. فمن ابنه دندن إلى محمد بن دندن إلى الحاج درويش إلى المرحوم عبد الرازق الذى يعد من أحفاد الأمير عبد القادر.

انقسمت قبائل بنى خالد التى توطنت فى بادية الشام، إلى سبع بطون، أحد هذه البطون المذكورة هم: بنو خالد الموجودون فى منطقة الزرقا الواقعة بالقرب من الشام. وتعدادهم يقرب من أربعة آلاف نسمة. أما أفراد البطون الستة الأخرى التى تطوف فى بوادى حمص وحماة ومعرة النعمان وجسر الثغور، فإن تعداد أفرادهم ما بين ثمانية إلى عشرة آلاف نسمة. والبعض من أفراد هذه الجماعة سكن البوادى وفضل الخيام. أما الأكثرية الأخرى فقد سكنت القرى وعملت بالزراعة والفلاحة منذ القدم.

سبيع:

قبيلة سبيع قبيلة عربية، يطوف أفرادها الذين يبلغون ستة آلاف نسمة فى الأماكن الممتدة بين مدينة الرياض ومناطق الإحساء والكويت.

* * *

---

(١) كان ابن مهنا هذا أميرا ورئيسًا لقبائل العرب التى تسكن أطراف الشام.

الفصل الثامن

نجد والممالك التى تشتمل عليها

تعتبر نجد من الأقسام الكبيرة فى جزيرة العرب. يحد هذه المنطقة الشاسعة بر الشام شمالا والعراق العربى والإحساء شرقًا والأحقاف واليمامة جنوبًا والحجاز غربًا، وتمتد إدارتها حيث حدودها تلك.

ومن ناحية التربة والأراضى، فإن أراضى نجد من أشهر أراضى الجزيرة العربية. وتقع بين خط طول ٣٩ـ٤٦ْ شرقًا ومن ١٩ ـ ٣٠ْ خط عرض شمالا. وتنقسم إلى منطقتين: نجد الحجاز ونجد العارض.

نجد الحجاز:

وتقع فى الطرف الشرقى لبلاد الحجاز. أما (نجد العارض) فتقع فى الطرف الشمالى. وتشتمل نجد الحجاز على النواحى والبلدان التالية: (العارض اليمامة) الشعرا، الحرق، الضرية، الأفلاج، الهيلك وادى الدواسير، الرس، وادى السرا، السلايل، النيرين والمرثد، وبلاد الوشم، وكرموسة، وبلاد الفصم، وثمن، وسدير، وبشهر، والدرعية، وربطة، والعيينة).

وحسب رأى أهل العلم والإطلاع فإن المنطقة المذكورة تحتوى على ثلاثمائة وأربعين قرية وقصبة، وما يزيد على أربعين ألف حديقة وبستان، وسكانها يتجاوزون المليون، أما نجد العارض فتشتمل على ثلاثة آلاف قرية، وأن هذه القرى تابعة لإدارة مشايخها المحليين، ولم تتبع أى حكومة قط حسب رواتها.

الشعرا:

تقع على بعد خمس مراحل من مكة المكرمة ناحية (ضرية) عند طرفها الشمالى. وتقع هيلك على الطرف الشرقى للشعرا وعلى بعد ثمان مراحل، أما اليمامة فتقع على الناحية الغربية منها.

ومنطقة الشعر تحتوى على بعض الينابيع والمزارع، أما ضرية ففيها بحيرة صغيرة، كما أن اليمامة بها الكثير من المزارع وحدائق النخيل وارفة الظلال.

ثمن :

تقع ثمن فى الطرف الجنوبى لـ (كرموسة). وتقع كرموسة فى الناحية الجنوبية لنجد العارض، أما الرس فإنها تبعد مرحلة واحدة عن الضرية. وتتمتع هذه المنطقة بحدائق النخيل الكثيرة وفيها مياه تجرى من غرب كرموسة إلى شرقها، كما أن الرس بها بئر مشهور، وهى بالقياس إلى المناطق الأخرى تتمتع بعدد كبير من الآبار.

نجد العارض :

تقع داخل أراض واسعة، وفى طرفها الشمالى جبل طويل ممتد يسمى جبل العارض، و(بدا) التى تبعد ثلاث مراحل عن الحجاز. ولهذا الجبل مدخلان: أحدهما: الدرعية، والثانى: العيينة.

كما يقع الجبل المسمى (سرين) فى هذه الديار أيضًا. ويوجد الوادى المسمى (وادى بنى حنيفة) فوق هذا الجبل.

وإلى جوار المنابع المائية والعيون التى يشتهر بها وادى بنى حنيفة، فإن النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة تكثر به.

وتقع الدرعية التى كانت موطن العديد من الحركات الدينية، ومنشأ ظهور القرامطة والسلفيين فوق هذا الجبل المذكور. كما يوجد فوقه ممر قوافل حجيج الإحساء ومواكب الحج وعيرها من القوافل.

وقد كانت الدرعية مركز السلفيين فى بادئ أمرهم، ولكن بعد أن قامت القوات المصرية بتنفيذ المهام التى أوكلتها إليها السلطة السنية فى دار السعادة تحولت الدرعية إلى أطلال خاصة بعد انتقل مركز الإدارة إلى الرياض.

تتمع أطراف الإحساء وضواحيها بأرض منبتة خصبة؛ تجود فيها أشجار الخوخ وحدائق النخيل ومزارع العنب والتين.

وقصبة (الملهم) التى تشتهر بعنبها وخوخها ونخيلها وقصب السكر تبعد ست مراحل عن الإحساء. وتجود فى كل بقاع قصبة (مقرن) التى تحتوى على طابية ترابية قديمة بساتين النخيل ومزارع العنب ولا تبعد عن الدرعية كثيراً، وتجاور اليمامة من الناحية الجنوبية.

وتقع الرياض التى هى اليوم مقر الإدارة والحكومة، والتى يرتبط بها العديد من المراكز والقرى، فى مكان قريب من الإحساء أيضًا.

المزج:

ناحية المزج على حدود اليمامة وفى نهاية الصحراء الرملية المسماة (وادى السرا) أو بلاد القصيم. والمزج ونواحى القصيم خالية تمامًا من أشجار النخيل أو غيرها من الأشجار. فنواحى المزج صحراء رملية مترامية الأطراف تمتد مسافة خمس عشرة مرحلة. ولما كانت خالية من المياه الجارية أيضًا، فإن مزوعاتها تروى بالمياه المستخرجه من الآبار عن طريق الدواليب والسواقى.

إن منطقة نجد تحتوى على الكثير من القرى والقصبات والنواحى وجبل شمر وغيره من الجبال الأخرى. ولكن معظم هذه النواحى بيداء رملية مستوية، ولذلك فليس بها جميعًا مياه جارية، إنما مثل هذه المناطق الرملية تروى على المطر، ومزارعها تسقى من مياه الآبار، ومع هذا فإن أرضها صالحة لزراعة كل أنواع المحاصيل الزراعية.

وتربى فى هذه المناطق أجود الخيول العربية كما الكحيل الأصلى والنعمانى الهجين، كما أن النوق والجمال العادية تكثر بها. ولم كان أهالى المناطق والممالك والبلدان المجاورة يشترون احتياجاتهم من الجمال من هذه المنطقة، فقد كان العرب قديمًا يسمون منطقة نجد بـ (أم الإبل).

إن سنجق [1] نجد المرتبط إداريًا بالبصرة هو والمناطق الملحقة به لا يشكل دائرة واسعة، وهو عبارة عن إدارة مركبة من مجموعة مواقع انسلخت عن البحرين.

---

(١) سنجق : Sancak سنجاق : مصطلح إدارى يُطلق على قسم من التقسيمات الإدارية فى البلاد. ويستخدم مكانه أيضًا تعبير لواء. وكانت التقسيمات الإدارية المستخدمة فى الدولة العثمانية حتى نهاينها عبارة عن ؛ ناحية قضاء، سنجق، وولاية. ويتولى إدارة الناحية ؛ مدير الناحية، والقضاء قائمقام، أما السنجق ؛ فيعين عليه متصرف، والوالى هو المسئوول عن إدارة الولاية: والآخرون مسئولون أمامه.
وظل هذا اسم السنجق مستخدمًا حتى فى أصول الإدارة المركزية التى أجراها السلطان محمود الثانى (١٧٨٥ ـ ١٨٣٩م)، وأصبح يطلق مَنْ يتولى إدارة السنجق لقب «أمير السنجق»، وفى هذا التقسيم الجديد شمل السنجق ما بين ٥ ـ ١٠ أقضية. ويتولى قيادته سباهيًا أى أميرًا من الخيالة. «المترجم».

القبائل التى تسكن الخيام فى منطقة نجد

عنزة:

ومع أن أعراب قبيلة عنزة يعيشون فى حالة ترحال فى بلاد الحجاز كما سبقت الإشارة، فإن أكثرهم يتواجدون فى المناطق الشمالية من بلاد نجد.

الذويبى:

تعد قبائل : (الذويبى ، الفرم، بنى سّالم، بنى نخيض) فروعًا من أعراب قبائل الحجاز، وتسكن هذه القبائل المناطق الواقعة فيما بين المدينة المنورة والقصيم، وتعدادها حوالى أربعة عشر ألف نسمة.

عجمان:

ومع أن قبيلة عجمان قد اختارت لنفسها (وادى نجران) كمنزل ومأوى لها، إلا أنها كانت تنتقل كثيراً بين الرياض والرملة. وأعراب هذه القبيلة الذين يبلغ عددهم ستة آلاف نسمة يتصفون جميعًا بالشجاعة والجسارة فى الحرب.

قحطان:

تنقسم قبيلة قطحان إلى قسمين : قسم منها يعيش فى المناطق الممتدة من الرياض حتى (زنبه) ، والقسم الثانى: يقطن بلدة (حوطة) وما جاورها من مناطق. وتعدادها يبلغ ثلاثين ألف نسمة.

وأقدم القبائل المذكورة (بنو قحطان) التى تفرعت عنها منذ القدم كل القبائل التى سبق ذكرها.

وتعيش شعبة من القبيلة المذكورة داخل حدود عسير، وهم بدورهم ينقسمون إلى أربع بطون كبيرة: (قحطان الشام، قحطان اليمن، ورجال الماء والمتصدقة بنفوسها).

الدواسر:

سمى أعراب الدواسر بهذا الاسم لأنهم يعيشون فى (وادى الدواسر) الواقع فى الطرف الجنوبى لمدينة الرياض. ويعتقد أن عددهم يبلغ خمسة عشر ألف نسمة تقريبًا.

القبائل التابعة لإدارة شيخ جبل شمر

جبل شمر :

هو مكان يقع فى الشمال الشرقى للمدينة المنورة، ويبعد عنها بثمان مراحل .

ويتبع هذا المكان إدارة ابن الرشيد الذى يخضع بدوره إلى سيادة أمير نجد وقيادته .

إن سكان (حائل) التى تعد أشهر وأعظم مدن جبل شمر يبلغ عدد سكانها عشرين ألفًا . وهى مدينة معمورة، يقع مركز حاكم جبل شمر ومقره بها .

وعلى جبل شمر - عدا مدينة حائل - ما يقرب من أربعين قرية، ما بين صغيرة وكبيرة .

وإذا كان سكان هذه القرى يبلغ عددهم ثمانين ألف شخص تقريبًا، فإن جموع القبائل الخاضعة لإدارة شيخ جبل شمر ونفوذه لا تتجاوز عشرين ألفًا، وهم عبارة عن قبيلة شمر، وبعضهم ما زال يعش تحت الخيام .

وقد أورد سيد فضل باشا فى مقال له بعض المعلومات القيمة عن جزيرة العرب، وها نحن نورد المقال لما فيه من معلومات قيمة بنصها، خاصة بعد أن وافق الباشا المذكور على ذلك المقال :

تشكل مكة المكرمة وصنعاء والشام وبغداد ومصر، الدعائم الأساسية لبلاد العرب، ومع كل الملابسات التى صاحبت دخول هذه البلدان تحت الإدارة العلية فإنها الآن من عداد ممتلكات الدولة العلية العثمانية . وحتى تلك الأجزاء البعيدة من جزيرة العرب والتى لم يصلها أى سلطان قط، يقوم مشايخها بالدعاء للدولة العلية على منابرهم، وهذا ما تعرفه كل الدول، وقد قامت الدولة بتأييد بعضهم بالفرمانات الشاهانية [1] والبعض الآخر بتقارير من الولاة والصدور العظام . وتلك الفرمانات مسجلة فى بلاط الديوان [2] الهمايونى . وأهل

---

(1) الفرمانات الشاهانية : الفرمان السلطانى : مصطلح إدارى كان يُطلق على أمر سلطانى بتكليف ما، أو طلب أمر ما . ويعنى الأمر . الإرادة . وقد استخدم هذا المصطلح من قبل الإيلخانيين بعد قبولهم للإسلام، ثم انتقل إلى العثمانيين . واكتسب معانى جديدة . وكان يُزين بطغراء السلطان، ويزيل بتوقيعه . ولذلك أطلق عليه الفرمان الشاهانى . والفرمانات الشاهانية تعنى مجموعة الأوامر أو الإرادة الصادرة عن السلطان بخصوص أمر ما . وكان الفرمان فى العادة مكوَّن من سبعة أركان .

١ - ذكر لفظ الفرمان ٢ - اسم المرسل إليه . ٣ - سبب ارسال الفرمان ٤ - أمر المرسل إلى المرسل إليه .
٥ - التصريح بالمطلوب ٦ - الائتمام بالدعاء والوفاء بالمطلوب ٧ - ذكر التاريخ ومكان الاصدار . «المترجم» .

(2) الديوان الهمايوني : ديوان - همايون : مصطلح إدارى كان يُطلق على المجلس الإدارى أو الهيئة الإدارية =

العلم والمعرفة يؤكدون أن تعدى أحد رعا .. ونة على الآخر أو محاربته له أو إعلانه انعصيان أو عقده علاقة ما مع دولة أجنبية، لا يخرجه من تبعية الدولة التابع لها أو جنسيتها، وأن أكثر العرب الذين يعيشون على السواحل يؤمنون حياتهم عن طريق الاتجار بحرًا؛ فهم يملكون ما يقرب من أربعة آلاف سفينة. وأكبر هذه السفن تستوعب عشرة آلاف وأصغرها ألف كيلة من المؤن، هذا عدا السفن والمراكب الخاصة بالغواصين الذين يعملون فى استخراج الصدف واللؤلؤ والمرجان ويمارسون صيد السمك. وأعلام معظم هذه السفن حمراء، لأنهم لا يعرفون صفة العلم العثمانى ـ أو نوعيته. وكل قباطنة وملاحى ومرشدى وبحارة هذه السفن من العرب، وعدد الذين يستخدمون السفن من السويس إلى البصرة ذهابًا وإيابًا يزيد عن الخمسين ألف راكب، وهذه المسافة تقطعها السفن فى خمسة عشر يومًا.

ومن الواضح أن مشايخ هذه البلاد وأمراءها لو أحسنوا إدارة ما تحت أيديهم من مناطق كسائر أجزاء الممالك الأخرى، فإن ذلك سيعد من الفوائد المادية والمعنوية الكثيرة للدولة. وإذا وقع أى اعتداء أو تدخل فى الجزيرة العربية أو إحدى الجزر التابعة لها، فإن واجب الدفاع يقع على عاتق الدولة العلية، حيث أن حماية أملاكها من صميم واجباتها لأن السكوت يبطل حق المطالبة. وتعتبر سواحل البحر الأحمر وجزره ممالك عثمانية.

وتنقسم السواحل المذكورة شرقًا وغربًا إلى قسمين:

القسم الأول:

ويشمل الجهة الشرقية من جزيرة العرب، أى من السويس حتى باب المندب، ومن باب المندب حتى القصير، ومن الجهة الغربية من السواحل الإفريقية أى من السويس حتى باب المندب ومن باب المندب حتى رأس عسير. وموانى الجزيرة الشرقية هى السويس، الوجه، ينبع البحر، وجدة، والليث، والقنفدة، ولحية، والحديدة، والمخا. أما موانى السواحل الغربية فهى: السويس، والقصير، وسواكن، ومصوع، وعصاب.

= التى كانت تنظر فى أمور الدولة، وكان يرأسه السلطان، ثم الصدر الأعظم وكانت مهامه لدى الترك هى نفس المهام التى كان يقوم بها الديوان فى الدول الإسلامية. وأحيانًا كان يتم اختصار الإسم إلى كلمة الديوان فقط. وكان هذا المصطلح مستخدم لدى السلاجقة والايلخانيين وفى العراق ومصر. ومازال يُطلق فى الكثير من البلدان العربية والإسلامية على الهيئات الإدارية التى تسير أمور الدولة. فهناك ديوان الرئاسة وديوان العدل، وديوان المظالم. ثم حل محله فى الدولة العثمانية أحيانًا «مجلس الوكلاء». «المترجم».

القسم الثانى :

وخروجًا من باب المندب وفى الجهة الشرقية من جزيرة العرب فإن موانى البحر الأحمر وسواحله هى : عدن ، وحسن غراب ، وبروم ، ومكلا وشحر ، ورأس قصير . أما موانى الجهة الغربية على سواحل البحر الأحمر ، فهى زيلع ، وبربرة ، ورأس عسير . وسواحل البحر الأحمر الغربية الإفريقية تقع تحت سيطرة السيادة المصرية ، وسكانها جميعًا من المسلمين ، وهم من السودان والدناكل والصومال . والموانى مليئة بالسفن ، ولكن الأجزاء الداخلية برًا فيها العديد من الأديان والجنسيات الأخرى ، وإن كانت الصومال برًا وبحرًا مرتبطة بالدولة العلية وتحت الإدارة المصرية . وسكانها حوالى أربعة ملايين نسمة كلهم من المسلمين ، ولهم أمراء من بين ذويهم .

وميناء بربرة أكثر هذه الموانى حركة ونشاطًا ، كما أن للصومال موانى على المحيط ، وتكثر فيه الخيول لدرجة أن الحصان يباع بليرتين فقط .

والمسافة من باب المندب حتى عدن برًا أربعة أيام ، ومن عدن حتى شحرة خمسة عشر يومًا ، وعلى السواحل موانى كثيرة تخضع لإدارة مشايخ العرب . ويعتبر عدن المركز الوحيد الخاضع فى إدارته لإنجلترا . والمسافة من شحر حتى القصير ثلاثة أيام ، ومناطق السواحل تخضع للشيخ (تعيط) . أما الأجزاء الداخلية فتمثل حضرموت وتخضع لنوفذ الأمير منصور الكثيرى . وتستمر المسافة من القصير حتى المكان المسمى دمقوط عشرة أيام ، والسواحل غنية بالموانى وكلها تحت الإدارة المستقلة لمشايخ العرب ، وتقطع المسافة من دمقوط حتى مسقط فى خمسة عشر يومًا .

وإدارة المنطقة المسماة ظفار فى يد سيد فضل علوى باشا . أما المسافة من حاسك حتى مسقط فتقطع فى خمسة وعشرين يومًا . وعلى السواحل موان عديدة تحت إدارة مشايخ العرب ونفوذهم ، ويستغرق مربع منطقة مسقط خسمة أيام . وهى تخضع فى إدارتها لأميرها ، أما المناطق الداخلية فخاضعة لنفوذ أمير نجد ، وسائر السواحل العربية الممتدة حتى الإحساء خاضعة لنفوذ مشايخ العرب . أما المنطقة الممتدة من الإحساء حتى البصرة ، فهى خاضعة للإدارة المباشرة للدولة العلية العثمانية .

يعتر الساحل الغربى لخليج البصرة جزء من جزيرة العرب ، وخاضعًا للدولة العلية . وساحله الشرقى المسمى (بر فارس) أى الشاطىء الفارسى ، خاضع لدولة إيران . وبالرغم من أن هذا الخليج يجب أن يكون مشتركًا بين الدولتين ، إلا أن جميع الجزر التى تقع داخل هذا الخليج ، خاضعة فى إدارتها إلى الدولة العلية وتابعة لها . وهذا أمر متعارف عليه منذ القدم .

الباب السادس

عادات العرب وأيامهم

الفصل الأول

العادات والمذاهب القديمة لسكان جزيرة العرب

أولا : العادات القديمة :

كان العرب فى زمن الجاهلية يعبدون الأصنام، وكانت جزيرة العرب فى عهد (عمرو بن لحى) تعج بالعادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة.

كانوا يطلقون سراح حيواناتهم فى المرعى، وكان هذا يعد ثوابًا من وجهة نظرهم، ويحرمون استخدام الحيوانات الطليقة واستعمالها. كما كانوا يسقطون ميراث العبد المملوك بعد عتقه. أما الناقة الولود التى تلد خمسة ذكور متوالية فقد كانوا يطلقونها فى المراعى بعد قطع أذنها علامة على ذلك.

وكان من العادات والبدع التى ابتدعها عمرو بن لحى تحريم أكل لحوم أو شرب ألبان مثل هذه الحيوانات الطليقة. كما كان يحرم استخدامها مرة أخرى بعد أن يطلق سراحها إلى الفيافى والبوادى.

وكان هذا الرجل وأتباعه والذين أتوا بعده يطلقون على الناقة التى تلد خمس مرات متتاليات؛ الأربعة الأولى إناثًا والخامسة ذكرًا لفظ (بحيرة)، ويقطعون آذانها ويطلقونها إلى الفيافى، وكانوا لا يركبونها أو يأكلون لحمها أو يشربون لبنها مرة أخرى.

وكانوا إذا مرض لهم عزيز أو غاب عنهم ينذرون نذرًا قائلين: (لو شفى مريضى أو عاد الغائب فلسوف أطلق تلك الناقة)، ويطلقون سراح الناقة التى وقع عليها النذر إذا ما تحقق مرادهم، وكانوا يطلقون عليها لفظ (سائبة) [1]، ويشمونها بوشم كالـ(بحيرة) ويتركونها فى البوادى. ولا يجوز لأى شخص أن ينتفع بهذه الناقة مرة أخرى بأى شكل من الأشكال.

أما النعاج فإذا ولدت إحداها فى البطن السابعة حملا ذكرًا، فقد كانوا يعبدون هذا الحمل ثم يذبحونه، ويأكلونه طمعًا فى رضائه، أما إذا كانت البطن السابعة أنثى فقد كانوا يتركونها كما هى.

---

(١) يطلق العرب اسم (سائبة) على الناقة التى تلد عشر مرات متتاليات ويكون نتاجها إناثًا.

وإذا ولدت تلك النعجة فى البطن السابعة ذكراً وأنثى معاً، فقد كانوا يطلقون على الذكر (وصيلة)، ولا يذبحون الأنثى بل يهبونها إلى أخيها ومن هنا أطلقوا المثل العربى الذى يقول: (وصلت الأنثى أخاها).

أما إذا أنجبت الناقة عشر بطون، فإنهم كانوا يفقأون إحدى عينيها ويحرمون ركوبها، ويطلقون عليها (حام)، وتكون حرة طليقة ترعى من أى كلأتشاء، ولا تمنع من أى حياض ترد. ويتركونها خليعة العذار، وتكون بذلك قد حمت نفسها من أى أثقال توضع عليها، أو من أى فرد يمتطيها، بل كانوا يعتقدون أن ركوبها أو استخدامها فى حمل أى أثقال من المحرمات.

كانت هذه العادات الباطلة كلها ينظر إليها قبائل العرب السبع الكبار على أنها دين واجب التبجيل، وكلها كانت من اختراع وتأليف عمرو ابن لحى سالف الذكر الذى استخدم قوته وقدرته، وبذل المساعى لكى يحول بين الخليل (عليه صلوات الله) وبين دينه الذى ارتضاه لنفسه وأجبره على الدخول فى دينه الباطل الذى يقوم على عبادة الأوثان.

ولكن الله سبحانه وتعالى رد على الكافرين والمنكرين حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [1]. إن هذه البدع لم تكن إلا من لغو وكذب وافتراء عمرو بن لحى المذكور الذى كان يدعو أفراد قبائله إلى عبادة الأوثان.

وفحوى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى لم يأمر أيا من «بحيرة» أو «سائبة» أو «وصيلة» أو «حام» وأن مثل هذه الأمور لا صلة لها بالدين القويم، إنما هى كفر وبهتان على الله سبحانه وتعالى. وإنما هذه الأمور كلها تقليد للطغمة الكافرة السابقة التى لم تكن تفرق بين الحلال أو الحرام.

وكانت من أشهر العادات فى جاهلية العرب: وأد البنات، والوشم، والتعمية. والتفقية، ومداواة العسر، وضرب الثور على النقر، وبكاء المقتولين، ورمى السن، وخضاب النحر، ونصب الراية، وجز النواصى، والالتفات، والنهق، والاعتقاد، والسلوان، ويرى البعض أن هذه العادات كانت موجودة وأنها كانت من بدع عمرو بن لحى المومى إليه.

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة، ولا وصيلة ولاحام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون﴾. سورة المائدة (٥) الآية رقم ١٠٣.

وأد البنات:

وهى عادة دفن البنات حديثات العهد بالولادة وهن أحياء ، حتى الموت .

كان العربى فى العصر الجاهلى يتوارى من الخجل والعار إذا ما ولدت له زوجته أنثى، وكان يواريها التراب فور ولادتها خشية العار والمذلة التى ستجلبهما عليه . كما كان يشتط غضبًا على من يخبره بمولد أنثى له .

وقد اعتاد أهل مكة على دفن بناتهم فى الجبل المسمى (أبو دلامة) منذ ذلك العهد. وقد كان (صعصعة) جد الفرزدق الشاعر العربى المشهور يتخذ من هذا الجبل مقامًا ومستراحًا له، وكان يصرف الجهد والمال لشراء تلك الفتيات اللائى يحضرهن آباؤهن ليدفنوهن أحياء، غير عابئ بما يدفع من مال فى سبيل إنقاذهن.

الوشم:

وهى عادة عقل ناقة المتوفى وتركها إلى جانب قبره .

لقد كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن موتاهم ستنهض من قبورها، ولذلك كانوا يتركون ناقته مقيدة بجوار قبره حتى إذا ما نهض امتطى ظهرها، وكانوا يتركون البعير على هذا الحال حتى تنفق بجوار مدفن صاحبها .

التعمية والتفقئة :

وهى عادة فقأ أعين البعير احترازًا من الحسد وإصابة العين . . وكانت هذه العادة محصورة فى القبائل ذات الثراء والغنى .

ومفادها أن الشخص الذى تتجاوز ثروته ألف بعير ، كان يتخير جملا ويفقأ إحدى عينيه أما إذا تجاوزت الثروة الألفين فكان على صاحبها أن يفقأ كلتا العينين لنفس الجمل، وكانوا يعتقدون أن هذه العين أو العينين المفقوءتان تبعدان الحسد عن باقى البعير .

مداواة العسر:

وهى عادة كى البعير المعافى . .

كان هناك مرض شبيه بالجرب يصيب الحيوانات، وقد عرفه العرب منذ عصور الجاهلية الأولى، وكانوا بمجرد ظهوره على حيوان من حيواناتهم يقومون بكى بعيرهم كلها على الفور معتقدين أن هذا سيحميهم ويقيهم شر هذا الوباء، وسميت هذه العادة (مداواة العسر).

ضرب الثور عن النقر:

وهى عادة رجز الثور الخائف.

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن الجان يركب الثيران ويمنعها من ارتياد حياض المياه ومساقيها، ولذلك كانوا يرجزون ثيرانهم الولجة الخائفة عند سقيها ويضربونها.

بكاء المقتولين:

وهى عادة البكاء على المقتولين.

كان من العادات المرعية بين عرب الجاهلية أن زوجة المقتول لا تبكيه، إلا بعد أن يثأر من القاتل. وعليه فقد كانت الزوجة الثكلى تحبس دموعها وتدفن حزنها على زوجها حتى ينتقم لها من الجانى، وعندئذ تبكيه وتبدى حزنها عليه.

رمى السن:

من العادات الجاهلية رمى السن.

كان أطفال عرب الجاهلية حين يحين موعد أو عمر تبديل الأسنان وتغيرها، يمسك الطفل سنة المخلوع بين إصبعى الإبهام والشهادة ويلقى به تجاه شعاع الشمس قائلا: (أبدلينى خيرًا منه). وإذا كانت الأمور تسير سيرها المأمول، فإنهم يعتقدون أن السن الجديد سيكون فى استقامة شعاع الشمس، وأن الطفل لن يصاب طوال عمره بأى ألم من آلام الأسنان قط.

خضاب النحر:

وهى عادة تضريج صدر الفرس بالدماء.

كان من الآداب والرسوم المرعية بين العرب فى العصر الجاهلى تضريج صدر الفرس بالدماء، وخاصة ذلك الفرس الذى ينال شرف السبق وكسب السباق فى رحلات الصيد. فما أن تنطلق الخيول خلف صيدها يرصدون حركة الخيول، وكان الفرس الذى يسبق غيره فى اللحاق بالصيد المطارد يضرجون صدره بدماء ذلك الصيد الأول.

نصب الراية:

وهى عادة نصب الأعلام أمام المنازل.

كان أهل الجاهلية يرفعون أعلامًا ورايات على أبواب دورهم، حتى يعرفها السـ الغريب.

جز النواصي:

هي خط الجبهة وتلوينها.

ومن الأعراف المعمول بها بين العرب في العصر الجاهلي، أنه إذا ما نشبت الحرب بين قبيلتين، ووقع أسرى في أيدي إحداهما، فإذا أرادت أن تحسن إلى الأسرى وتظهر حسن نواياها تجاه السلام كانت تخط نواصيهم وتطلق سراحهم.

الالتفات:

عادة الالتفات إلى الخلف والنظر نحو المنزل عند الخروج إلى الحرب:

كان عرب الجاهلية يعتقدون أن الخارج إلى الحرب، إذا ما التفت إلى الخلف ونظر نحو داره بعد خروجه منها، فإنه لن يعود من هذه الحرب قط.

النهق:

وهي عادة كريهة حيث ينهق الإنسان كالحمير.

كان عرب الجاهلية يعتقدون أنه إذا ما انتشر وباء ما في قرية، فإن الداخل لهذه القرية إذا ما نهق كالحمار فإنه لن يصاب بهذا الداء قط، ولهذا المعتقد كانوا يدخلون إلى هذه القرية وهم ينهقون كالحمير.

السلوان:

وهو اسم نوع من الخرز:

إن المبتلى بنار العشق يعتقد أنه لو نثر خرز السلوان على سطح الماء وشرب هذا الماء، فإنه سيكون قادراً على الصبر وتحمل نار الجوى مهما اشتعل لهيبها.

وبالرغم من أن هناك العديد من العادات التي تدل على سوء معتقدات عرب الجاهلية وسوء أحوالهم التي تزخر بها روايات الرواة، إلا أننا سنكتفي بهذا القدر من منطلق أننا لن نستطيع أن نستوعب كل ذلك في هذا المختصر.

* * *

ثانياً: المذاهب القديمة:

كان كل العرب الذين سكنوا جزيرة العرب قد اتبعوا دين وملة خليل الله (عليه السلام)، ولكن مع الأسف بمرور الزمن، ولتفشي الأمية بينهم، ولعدم وجود كتاب يحتوي على السنن والشرائع التي سنها لهم خليل الرحمن (عليه السلام)، ولما لم يبق بينهم من أرباب الشرع

وفقهائه من يستطيع أن يحل لهم مشاكلهم إذا ما لجأوا إليه، بدأ الجهل وانتشرت روح البداوة بينهم من جديد رويداً رويداً. وظهر بينهم كثير من الزنادقة الذين كانوا يفرضون شرائعهم بقوة بطشهم وكان (عمرو بن لحى) الذى استولى على مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية بخمسمائة عام وعلى قول آخر: ثلاثمائة وخمسة عشر عامًا هو أول من قبل عبادة الأصنام وفرض تلك العبادة على سكان المدينة المقدسة. وقد كانوا يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم.

كما ظهر من بين سكان الجزيرة أيضًا، مجموعة من السحرة والكهان الذين كانوا يقولون بالغيب ويشتغلون بالكهانة. وقد التفت حولهم جمع غفير من الأهالى الذين كانوا ينخدعون بأعمال هؤلاء السحرة والكهنة، خاصة إذا ما حدثت بعض الحوادث الكونية التى كانت تأتى مصادفة مطابقة لما كانوا يستنطقون الغيب به. ومع الأسف راجت أعمال كل من السحرة والكهنة فى أرض الجزيرة العربية لفترة ما، وحتى ظهور الدين الحنيف.

وقد حاول قصى بن كلاب بن مرة الذى يعد أحد الجدود الأوائل لنبينا ﷺ، قبل الهجرة النبوية بمائتى سنة، وبعد أن سيطر على زمام الأمور فى مكة المكرمة أن يعيد الناس إلى سنة الخليل ودينه الحنيف. ولكن العادات الباطلة التى استحدثها (عمرو بن لحى)، كانت قد سيطرت على نفوس الناس، وأصبحت تجرى فى عروقهم الفاسدة مجرى الدم مما جعل محاولات (قصى بن كلاب) تبوء بالفشل.

وقد كان عرب الجزيرة عندما ظهر بينهم قصى بن كلاب هذا يعيشون حياة الجاهلية والبداوة المطلقة، كما كانت أكثريتهم منكبة على عبادة الأصنام. وكان لكل قبيلة أصنامها التى يصنعونها بأيديهم. وبالرغم من هذا فقد كان سكان الجزيرة ينقسمون إلى ثلاث فرق من ناحية المعتقدات:

الفرقة الأولى: كانت تعتقد فى الطبيعة وكان أفرادها يقضون أوقاتهم فى محاولة لإثبات فناء الدهر، وكانوا ينكرون وجود الخالق.

أما الفرقة الثانية: فبالرغم من أنها تقر بالخالق وبداية الخلق، إلا أنها كانت معاندة ومنكرة.

أما الفرقة الثالثة: فقد كانت تعترف بالخلق والخالق، وتعود فتنكر بداية الخلق وكانت تنظر إلى عبادة الأوثان والأصنام على أنها نوع من التمنى أو التقرب إلى الله. وأنها أى الأوثان ستكون شفيعة لها. ومن هنا انكب أفرادها على عبادتها، وكانوا يطوفون حولها ويقدمون لها القرابين ويحجون إليها. وكان كل ذلك بقصد التقرب إليها كما كانوا يدخلون الإحرام فى أوقات معينة.

وكان هناك بين سكان جزيرة العرب من عبدوا النجوم والكواكب كالآشوريين، أو

الحيوانات كالمصريين، أو من انكبوا على عبادة الجن والملائكة، ومن كان يؤمن بالتناسخ وما شابه ذلك من المعتقدات.

وقد كان الذين يؤمنون بالتناسخ يعتقدون أنه إذا مات من بينهم ميت فإن أجزاء جسده وأعضاء بدنه تعود وتتحد ثم تظهر على شكل طائر كل مائة عام. وأن هذا الطائر سيحوم ويرفرف فوق القبر الذى دفن فيه صاحبه من قبل.

كما كان هناك أيضًا من آمن باليهودية والنصرانية من بين سكان جزيرة العرب.

ومع كل هذا فقد كان العرب يحرمون الزواج من الأخت أو الأم. كما كانوا ينفرون من الجمع بين الأختين فى زواج واحد. ويأنفون بل وينفرون نفورًا واضحًا ممن كان يرتكب مثل هذه الأمور، كما كانوا يستهجنون ويقبحون من يحاول الزواج بأرامل آبائهم. وكانوا يذمون ويعيبون على كل من يقدم على مثل هذه الأمور.

وفى أمور النظافة كان العرب يعرفون المضمضة والاستنشاق والاستنجاء واستعمال المسواك وتقليم الأظافر واستخدام أمواس الحلاقة. وقد كانت هذه الأمور جميعها من العادات القديمة التى يوليها العربى اهتمامًا بالغًا. كما كانوا يغتسلون من الجنابة ويصومون ويحجون بيت الله الحرام ويزورونه. ويحرمون ويعتمرون ويطوفون ويسعون حول كعبة الله. كما كان العرب يعرفون رجم الشيطان بالحجارة ويقطعون اليد اليمنى للسارق ويكرمون الضيف، ويختتنون، ويشنقون قاطع الطريق. ويتركون الحرب والجدال فى الأشهر الحرم. كما كانوا يغسلون موتاهم ويكفنونهم ويقيمون عليهم الصلاة، ويوفون بالعهد.

كانت كل هذه الخصال الحميدة من الأشياء المحببة إلى نفوس العرب، قبل أن يعتنقوا الإسلام. وجاءت الشريعة الغراء فشذبت وهذبت الكثير من تلك الخصال وقبلتها، ورفضت البعض الآخر الذى لم يكن يتمشى مع طبيعة البشر.

صلاة الجنازة:

كانت صلاة الجنازة عند أهل الجاهلية صلاة غريبة وفريدة، فقد كان ولى المتوفى يقف أمام الجنازة بعد أن توضع فى المكان المعد للصلاة ويبدأ فى تعداد محاسن المتوفى، ويذكرها واحدة واحدة. كما يذكر الذين أحسن إليهم المتوفى، ويعدد الأعمال التى قدمها إليهم ويكررها واحدة واحدة أمام المحسن إليهم. وفى النهاية يردد الجميع (عليك رحمة الله) ثم يصمتون.

هذه كانت صلاة الجنازة عند أهل الجاهلية. وقد استمر هذا الضلال وتلك العادات الآثمة التى سبقت الإشارة إليها إلى أن سطعت شمس النبوة وشملت الكون بأنوارها. وانتشرت شريعة الدين المحمدى فى أقطار العالم. وبعدها زالت ظلمة الكفر وهدمت قلعة الجهل وآمن

الجميع بوحدانية الخالق، وتفرده فى ملكوته. ولكن واأسفاه كلما بعد عنا عصر النبوة وكلما تناقص عدد الصحابة الكرام نجد بعض أفراد القبائل العربية وقد عادوا إلى سابق عهدهم، وبدلا من أن يجعلوا الشرع الشريف يحكم بينهم، نراهم يحتكمون إلى قوانين وضعية سنتها لهم العادات والتقاليد، وآراء وخبرة بعض مشايخهم التى كانت تبعدهم عن الشرع الشريف فى كثير من الأحوال.

ملاحظة:

عندما ظهرت الحاجة إلى تعميم هذه القوانين والأنظمة المطروحة لكى تنظم تحركات بدو البادية جميعًا وتحكمها، انقسمت الأقوام العربية إلى قبائل متعددة. ولكى يقوم شيخ كل قبيلة بإدارتها والسيطرة عليها، كان كبير القبيلة يجمع شيوخها حيث يقيم ويعقد اجتماعًا يتشاورون فيه فيما يعرض عليهم من أمور، ويمكن أن يعد هذا مجلس إدارة القبيلة.

وينبغى علينا أن نقف على الأنظمة والقوانين والأسس التى وضعها مشايخ العرب ووجهاؤهم، والتى وضعت موضع التنفيذ منذ سبعة أو ثمانية قرون خلت، علمًا بأن كثيرًا من أهل العلم وحب الاستطلاع والرحالة جابوا جزيرة العرب وتجولوا فى كل بقاعها وطافوا بكل ديارها واختلطوا بكل قبائلها، وإذا كانوا قد بدأوا فى نشر وطبع الرسائل والكتب التى كتبوها عن أحوال قبائل العرب، إلا أن كل ما كتبوه لا يحتوى على شىء مفصل عن القوانين والأنظمة البدوية. ويتضح ذلك من مطالعة كل الكتب التى نشرت. وذلك لأن الاختلاط بالأعراب وبقبائل البدو يتطلب معرفة باللغة العربية وإلمامًا كاملا بها. ولكن معظم الذين كتبوا فى ذلك كانوا قد وفدوا إلى الجزيرة مكلفين ببعض المهام أو بشكل سياحى محض. وخير ما نطالعه فى هذا الخصوص هى الرسالة التى كتبها (على موسى) أفندى رئيس الكتبة العرب فى دائرة الحكومة بالمدينة المنورة. وقد كتبها باللغة العربية. بتشجيع من الدكتور (رائف) أفندى الذى أقام مدة طويلة فى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة كمسئول عن الشئون الصحية فى ولاية الحجاز. وقد قدم إلى رائف أفندى هذا نسخة من هذه الرسالة، أدرجت منها فى هذا الفصل بعض الفقرات المناسبة.

إن على موسى أفندى يعمل فى وظيفة (باشكاتب) رئيس لكتبة اللغة العربية فى دائرة الحكومة بالمدينة المنورة منذ مدة طويلة. وكان يقوم بالترجمة وخاصة للعربان. وبناء عليه فإنه يعد من أرباب الخبرة بكل العادات والتقاليد والنظم التى كانت تجرى بين قبائل العرب. ويعتبر ما يكتبه فى هذا الخصوص مأخوذًا من أصحاب الشأن مباشرة، وأن القوانين والأنظمة المدرجة فى الكتاب الذى كتبه كتبه مطابقة تمامًا لما هو سائد بين العرب. وقد صدق على ذلك كل من يعرف الأصول والقوانين العربية، ووقع على ذلك أهالى الحرمين الكرام.

* * *

الفصل الثانى

النظم والقوانين الجديدة عند الأعراب

كالـ (خمسة) و(السمية) و(العوانى) و (المنن) و(المحبودة)

الخمسة والسمية:

إذا ما اتصل نسب شخص ما بشخص آخر حتى الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة يسمى (خمسة) أما الطوائف التى يتصل نسب هذا الشخص بها حتى الجد السادس فتسمى (سمية)

وطائفة السمية تستخدم كلها اسم ومخلص وشهرة الجد السادس الذى تنتسب إليه أى أن كل أفراد هذه الطائفة تنسب إلى الجد السادس.

فمثلا لو أن أحد العربان يسمى (عويضة) فإن أولاده وأحفاده حتى البطن السادسة، يلقبون بـ (عويضة) ويكون اسم عويضة هذا هو اسم العائلة أو لقب العائلة الذى يلقبون به[1].

بمعنى أن الولد الرابع للولد الذكر لابن عويضة لو سمى (حميد بن حمدان ابن حمود بن حمد)، فإن حميد يعتبر أيضًا من سمية عويضة ويسمى أولاده وأحفاده أيضًا بـ (عويضة).

ومن الممكن أن تكون هناك سميات تحتية، بمعنى لو أنجب جد أحد السمية أولادًا ونشأت عنهم ذرية ونسل كثير، فمن الممكن أن يتسموا بسميات أو ألقاب أخرى عديدة.

ولنفرض أن لـ (عويضة) ولدين هما: (سالم) و(حامد). وأصبح لسالم وحامد أولاد وأحفاد كثيرون، فإنه بالرغم من أنهم يعتبرون من سمية (عويضة)، إلا أنه من الممكن أن يتلقبوا أو يتخذوا من (سالم) و(حامد) تسمية جديدة لهم على الرغم من أن سالم وحامد أنفسهما يتسميان بعويضة.

وكان إيجاد القبائل العربية لمثل هذه الأشياء يعنى عادات الخمسة والسمية وقبولها قانونًا لهم، مستندة على حكمة مآلها سهولة الحصول على حقوقهم من الأعداء. لأن القبائل العربية

---

(١) هذا ما نطلق عليه فى العصر الحالى اسم العائلة أو لقب العائلة (المترجم).

لو ضرب أو قتل أحد أفرادها أو نهبت أموالها أو أغير عليها وسلبت بعض متاعها، فإن المضروب أو صاحب الحق لو افترضنا أنه لم يصل إلى الجانى الحقيقى، فيكون من حقه أن يظفر بأحد سمية الجد الخامس ويأخذ ثأره أو حقه منه، ويسير بعض موظفى الحكومة على نهج هذا القانون وأحكامه، حتى وقتنا الحالى.

وكانت الأسباب الرئيسية التى دفعت بالحكومة إلى العمل بقانون الأعراب هذا، هو أن القبائل البدوية اعتادت على الاعتداء ونهب وسلب متاع أبناء السبيل والحجاج والزوار، وخاصة الغرباء والتجار، وكثيراً ما كانوا يسلبون أمتعة التجار وأموالهم.

وكثيراً ما كان الأعراب الذى يعتدى على عابرى السبيل أو ينهب مال التجار أو المسافرين يفر إلى الجبال والبوادى حتى لا تصل إليه يد السلطة. وكانت الحكومة تعانى الكثير من المشاكل من جراء القبض على نفس الجانى واسترداد ما سلب. بل كثيراً ما كانت تفشل فى ذلك. وبناء عليه فإن عقلاء المدينة المنورة ووجهاءها رأوا لزامًا على الحكومة أن تعمل على الأخذ بالقوانين والأنظمة التى كانت سائدة ومرعية بين أعراب العرب منذ ثلاثة أو خمسة قرون خلت، لسلامة الناس واستيفاء حقوقهم. وقد قررت الحكومة الأخذ بها بعد دراستها وإجراء بعض التعديلات اللازمة عليها، فبذلت الهمة لبسط رسالة الخير على صحائف الأيام.

وكانت مسألة (الدم والمال فى الخمسة) التى كانت نافذة الأحكام بين الأعراب، إحدى المسائل المرعية فى القانون الذى قبله عقلاء أهل المدينة وأجريت عليه بعض التعديلات.

وقد شكلت لجنة من سادات الأهالى تحت اسم (لجنة تعديل القوانين العربانية) لإجراء بعض التعديلات على المسائل سالفة الذكر. بمعنى أن (يطالب القاتل أو الجانى أو سميته بحق المجنى عليه)، وقد عدلتها اللجنة إلى (الدم فى الخمسة والمال فى السمية) أى أن دم المقتول تطالب به ورثة القاتل حتى الجد الخامس أى من خمسة. أما الأموال المسروقة فيطالب بها سميته زيادة على خمسته، أى أن الحق يؤخذ من الفروع والسميات التى تشعبت عن الجد الخامس والجد السادس، وقد أقر الأعراب هذه الأحكام وبذلوا الجهد والهمة لسريانها وانتشارها، وأدوا بذلك خدمة جليلة لمن أتوا بعدهم.

وقد كانت قبائل البدو تستخدم بعض الأحكام المترتبة على قانون الخمسة والسمية والمتعلقة بهما.

فمثلا، لنفرض أن أحد سمية إحدى القبائل قتل شخصا من خارج عشيرته أو نهب ماله ومتاعه، فكانت تطبق عليه القوانين التى تنطبق على حالته.

وإذا كانت الحالة التى ارتكبها تتعلق بالأرواح واستطاع القاتل أن يهرب ، فإنه من حق سمية المقتول أن تأخذ قصاصها من أى فرع من فروع سمية القاتل، وإذا كانت الدعوى تتعلق بدين أو مال ، فإن الدائن يستلم كل دينه من سميات المديون.

وإذا كان الأمر يتعلق بمال مسروق واستطاع السارق أن يهرب فلا يبحث عنه قط ، بل تؤخذ الأموال أو الأشياء التى سرقت بالكامل من سمية السارق.

وإذا كانت الأشياء المسروقة تخص الحكومة أو من أحد التجار أو عابرى السبيل ، واستطاع السارق أن يفر ، ولم يمكن القبض عليه بالرغم من تحريات الحكومة الدقيقة ، فعلى الحكومة أن تستوفى حقها أو حق التاجر أو عابر السبيل من خمسات أو سميات الشخص الذى فر كاملة.

ولما كانت القوانين المتعلقة بالخمسات والسميات مطبقة تطبيقًا صارمًا بين قبائل العربان ، لذلك أولى العرب أهمية بالغة لحفظ الأنساب ، ولا يمكن أن يوجد بين الأعراب من لا يعرف نسبه كامل ، ولو سئل أى واحد منهم عن نسبه أجاب على الفور : (أنا فلان بن فلان) ويمكنه أن يعدد نسبه حتى الجد العشرين فى سهولة ويسر.

ولو أن أحد خمسة المقتول قبض على طريق الشك أو الظن على واحد من سمية القاتل ، وأنكر الأخير أنه من سمية القاتل ، فعليه أن يثبت نسبه ، وأنه ليس من سمية القاتل . ويكون ذلك أمام عدد من الأشخاص . وكانت العادة تقتضى أن يمسك بعصا فى راحته وقد أطبق عليها بأصابعه الخمسة ، وكلما ذكر جدًا من أجداده ، رفع إصبعًا من أصابعه ، حتى إذا ما وصل إلى الجد السادس تكون العصا قد سقطت من يده . ولا بد أن يشهد على صحة نسبه إلى الجد السادس شاهدان معتبران ويقسما على ذلك . وبهذا فقط يكون قد أنقذ نفسه ، وهذا أيضًا مرتبط بمدى حفظه لنسبه ولا يوجد حل لهذه المسألة غير ذلك.

وعلى الشخص المذكور أن يقسم اليمين على صحة نسبه وعلى ما يقول ، أمام الشهود الذين استشهد بهم على ذلك ، واليمين الذى يقسم به يمين خاص بقبائل البدو ويجدر بنا أن نورد نصه هنا :

نص اليمين :

(أحلف بمن رفع السماوات العلية قاطع المال والذرية ومفرق الخمس قضابة الجنبية أنى ما عددت إلا الصدق وإنى لست للضارب بخامس) .

وكما هو الحال بالنسبة للبدو المعاصرين ، فإذا كانوا مكبين على حفظ نسبهم من ناحية الخمسات والسميات واستظهاره ، فإن عرب الجاهلية كانوا ملتزمين بهذا أبًا عن جد ويفتخرون به أيما افتخار . وكان هذا من أهم الأمور وأجدرها عند أهل الجاهلية .

كانت قبائل العرب التى تتجمع فى صحراء (منى) فى مواسم الحج تتخير كل منها أحد فصحاء أبنائها وأبلغهم، فيصعد مكانًا مرتفعًا، ويأخذ فى تعديد خصال قومه وقبيلته ومحامدهم، ويذكر مكرماتهم وسخاءهم أبًا عن جد، ويتحدث عن شجاعتهم وإقدامهم فى ساحة الوغى.

وكان إصرار عرب الجاهلية على هذه العادة وانكبابهم عليها سببًا فى نزول الآية الكريمة:

﴿ فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرًا﴾ [1].

أما العوانى والمنن والمحبودة فهى اصطلاحات قانونية بدوية شأنها شأن الخمسة والسمية.

فالعوانى تعنى المهلة ومفردها (عانى)، والمنن تعنى المبالغ التى تدفع مقابل المهلة، وهى جمع (منة)، أما (المحبودة) فهى أيضًا تعنى المهلة، ولكنها تزيد أو تنقص عنها بثلاثة أشهر وكل من (العوانى) و(المنن) و(المحبودة) قوانين أعرابية، كل منها مستقل عن الآخر وجارى التنفيذ بين العربان حتى اليوم.

العانى:

هى عبارة عن إعطاء مهلة مدتها سنة وشهران وأحد عشر يومًا، وثلث اليوم.

مثال: لو حدث أن أحد أفراد إحدى القبائل اعتدى بالضرب على شخص من قبيلته أو من إحدى القبائل الأخرى حتى جرحه وأدرك أن الجرح غير خطير، ثم توجه إلى دار أحد مشايخ العربان أو خيمته ودخلها، فعليه أن يعرض ما حدث بالضبط ويستشفعه.

وإذا كان صاحب الدار أو الخيمة سيحسن تلقى واستقبال من احتمى به، فعليه أن يظهر له علامات التلطف والإكرام. فإذا ذبح له ذبيحة وأطعمه طعامًا طيبًا، فهذه إشارة وإيماءة على أن صاحب الدار سيسعى لتحقيق مقصد القاصد. وفى اليوم التالى يجتمع مع كبار القبيلة وأهل الحل والعقد فيها ليناقشوا وسيلة تلافى مسئولية الضارب. وتسمى هذه الهيئة (جاهية).

وبعد أن يبحث صاحب الدار والهيئة الجاهية الموضوع من كل جوانبه، يتوجهون سويًا إلى منزل المضروب أو أحد أقربائه الكبار ويجلسون معه.

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿ فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرًا﴾ «سورة البقرة (٢) الآية رقم ٢٠٠». «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وماله فى الأخرة من خلق».

وإذا كانت الجمعية الجاهية جمعية غير عادية بالنسبة إلى صاحب الدار، واستقبلها استقبالا طيبًا، وحاول أن يقيم لهم وليمة كبيرة تعبيرًا عن احترامهم الزائد فإن الجمعية الجاهية تدرك أن واقعة الضرب قد قبلها المضروب أو أهله قبولا معقولا، وإذا لم يتلقوا مثل هذا التصرف أو ما يشير إلى تحقيق مقصدهم، كانوا لا يشربون حتى قهوة صاحب الدار.

وإذا قبل صاحب الدار جاء الجماعة الجاهية بعبارة (فى وجهى) أو (على خشمى)، فإنهم يشربون القهوة المقدمة إليهم ثم يطلبون مهلة مقدارها سنة وشهران وأحد عشر يومًا وثلث اليوم لكى يسووا الأمر حسب أصول قانون العانى.

والمدة التى تعطى مهلة كهذه تسمى (قانون العانى).

وأقوى أنواع التعهدات التى تعطى هى تلك التى يبدأ فيها المتعهد بالمسح بيده اليمنى على جبينه ولحيته قائلا: (رجاؤكم مقبول) ولكى يؤكد على تنفيذ التعهد وكفالته له، كان يتمم كلامه قائلا : (فى وجهى).

المنن أو العطية:

وهو القانون الذى تحكم بمقتضاه الهيئة الجاهية بما سيدفعه الضارب للمضروب. وعقب انقضاء مدة المهلة المعطاة للجمعية المذكورة، وبحصولها على التأمينات والتعهدات التى تقضى بعدم تعدى المضروب على الضارب خلال هذه المهلة، من الضارب ذاته أو من أحد أقربائه، فإنها تشرع فى تحديد المبلغ الذى سيدفعه الضارب للمضروب حسب قانون العانى.

وتأدية هذا المبلغ الذى حددته الجمعية الجاهية من قبل الضارب إلى المضروب أى الوفاء [illegible] يسمى قانون المنن. أما المبلغ المدفوع فهو المنن ذاتها.

المجبودة:

إذا ما عدلت مهلة قانون العانى المذكور وجددت فإن هذه المدة المحددة تسمى (مجبودة). لأنه إذا ما أقام أنصار المضروب دعوى مفادها أنهم لن ينتظروا انقضاء المدة التى حددتها الجماعة الجاهية، ففى هذه الحالة يقوم الضارب بدفع مبلغ إضافى من أجل المدة التى انقضت من مدة العانى.

وهكذا فإن المجبودة هى المدة المنقوصة أو المزادة التى منحت للضارب لكى يدفع فيها المبلغ المحكوم به للمضروب فى المرة الثانية بمعنى أنها المهلة التى قبلها المضروب بعد تعديل مدة العانى، وفيها يتعهد بعدم المساس بالضارب وأحيانًا تكون ثلاثة أشهر تزاد أو تنقص.

ولما كانت مسألة السماحة من الأمور المرعية بين العربان أيضًا، فإن كان أنصار المضروب من القبائل الكبيرة ذات الحسب والنسب والسمعة الطيبة ومشهورة بشرفها وناموسها بين القبائل، فإنها كانت ترفض أخذ الأموال التى أقرتها الجماعة الجاهية سواء لمدة العانى أو المجبودة.

وبعد أن تقر المدة المطلوبة على الوجه سالف الذكر، فإن الضارب يظل مشغولا بعمله وشغله حتى قبيل انقضاء المهلة. ويكون حراً طليقًا يتجول حيثما يشاء. وعقب انقضاء المدة المضروبة سواء فى العانى أو المجبودة فإنه وخمسته يتجهون إلى منزل المضروب ذاته أو أحد أقربائه بصاحبه الجمعية الجاهية، ويحاول تمديد المدة إما عن طريق قانون العانى أو المجبودة، ولا يستطيع أن يظهر على الملأ إذا لم تمدد المدة بل عليه أن يختفى فى مكان ما. ولكن إذا ما دفع بعض المال الإضافى واستطاعت الجمعية الجاهية أن تمدد له المدة حسب العانى أو المجبودة، فإنه يبدأ فى الظهور والتجول كالفريخ المغرور.

وإذا جلدت مدة العانى أو المجبودة كل سنة بشرط ألا يكون جرح المضروب مهلكًا. أما إذا كان جرح المضروب قاتلا فعلى الضارب أن يحتمى ببيت شخص فى غاية النفوذ والاعتبار، إلى أن يقبل المضروب أو أهل بيته أخذ الدية من الضارب، أو إلى أن ينتهى المدة المحددة وقبل أن تجدد، أو إلى أن يستطيع المضروب أو أحد خمسته أخذ الثأر من الضارب أو من أحد خمسته أيضًا.

وإذا قبلت هذه الشخصية حماية المستجير بها، فإنها لا تلجأ هى والهيئة الجاهية إلى بيت المضروب أو أحد مؤيديه، إلا بعد أن يتبين أن المضروب لن يتوفى من أثر جراحه، وفى لحظة تلقيه خبر التئام جرح المضروب فإنه يقوم على الفور باتباع الأصول السابق ذكرها ويراجع بيت المضروب أو أحد أقربائه للسعى نحو الحصول على المدة المطلوبة.

ولا تقرب الهيئة الجاهية التى تفد إلى منزل المضروب أو أحد خمسته، الزاد أو طعام الوليمة التى أعدها صاحب المنزل على شرفهم، ما لم يتأكدوا أن المدة المطلوبة حسب قانون العانى أو المجبودة ستلقى القبول، حتى ولو استمر بقاء الطعام مكانه أربعا وعشرين ساعة رغم إلحاح أهل المنزل.

أما إذا مات المضروب من أثر الضرب، فلزامًا على الضارب هو وخمسته أن يتركوا المكان الذى يعيشون فيه، ويفروا إلى مكان آخر. ولا يظهروا على العيان ما لم يقبل المضروب أو أحد خمسته الدية من الضارب أو تحديد مدة العانى، وكثيراً ما كان هذا الاختفاء والتستر والعيش فى ديار الغربة يستمر خمسة عشر أو عشرين عامًا يقضيها الهارب فى حياة التشتت والضياع.

وبعد قبول الدية أو مدة العانى فلو حدث وأن أحد جماعة المضروب قام بقتل الجانى الأول أو أحد خمسته قبل انقضاء مدة العانى، فإنه بذلك يكون قد خالف أصول القانون المعمول به. وحفاظًا على القانون، يقوم أفراد القبيلة التابع لها القاتل الجديد بالقبض عليه وتسليمه إلى جماعة المقتول الجديد فى ميدان فسيح، ويطلبون منهم أن يقتلوه بنفس الشكل والكيفية التى ارتكب بها جنايته. وسبب ذلك هو أن رجلا محترمًا من خمسة المقتول قد مسح بيده اليمنى على جبينه ولحيته قائلا: (فى وجهى). وإذا لم تقم هذه الشخصية المعتبرة بالمسح على وجهها قائلة: (فى وجهى)، فمعنى ذلك أنه لا يلتزم بالحفاظ على أحكام القانون مدة العانى. أما إذا

قال الرجل الذى تعهد بمدة العانى (فى وجهى) ماسحًا على جبينه ولحيته، فمعنى ذلك أنه يلتزم بالحفاظ على القانون بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن كل أفراد خمسته بما فيهم القاتل. وأن أى خلاف لهذه الأصول يكون وصمة فى جبينه وكل أفراد خمسته، ولذلك فعلى كل أفراد الخمسة أن يحافظوا على شرف ذلك الرجل المعتبر الذى مسح على جبينه بيده اليمنى وقال: (فى وجهى)، ويصونوا تعهده.

إن العانى هو دستور العمل بين الأعراب وقانون معتمد ومحترم فيما بينهم، ولذلك يقدم الطرفان لبعضهما البعض سندًا يحتوى على مدة المعاهدة المذكورة تسمى (صك الصلح العشائرى). ويشترط أن تشهد الهيئة الجاهية على السند المحرر فيما بينها.

قانون الدية:

إذا كان القتل بالسيف أو بالرصاص ليس من الأمور المعتبرة بين الأعراب، فإن الخنق والإغراق من الجنايات البشعة عند البدو وبناء عليه فإن وقع الإنسان الذى يرتكب جريمة كهذه فى أيدى خمسة المخنوق، ويختنق هو وثلاثة من خمسته. وإذا لم تتمكن خمسة الغريق من القبض على الجانى نفسه، فإنها تقتل أربعة من أفراد خمسته. وإذا عرض خمسة الجانى دفع دية لأهل الغريق أو المخنوق، فعلى الهيئة الجاهية الحكم بدفع دية أربعة رجال.

وكانت الدية الكاملة للرجل (ثمانمائة ريال) تقسط على ثلاثة أقساط تدفع على مدار ثلاث سنوات. ولما كانت هذه الطريقة من الأمور المعترف بها بين الأعراب، فقد كانت الأقساط الثلاثة تدفع حسب القواعد والأصول التالية:

أصول دفع الدية:

يدفع ثلث الدين بالريال نقدًا فى السنة الأولى، وفى السنة الثانية يدفع السدس نقدًا، والسدس الثانى يدفع نصفه أشياء منقولة والنصف الآخر يدفع نقدًا أيضًا؛ أما الثلث الأخير الباقى للسنة الثالثة فيدفع مقابله بالكامل أشياء ومواشى على أن تقدر الأشياء أو الحيوانات المسلمة بمبالغ تساوى ضعف قيمتها الحقيقية. وبعد أن تؤخذ الدية من القاتل فإن خمسته تصر على أن تأخذ كفيلا من منسوبى المقتول حتى لا يتم أى تعد فى يوم ما.

الوجوه:

الوجوه كلمة تعنى الحماية، وقد أصبحت هى الأخرى قانونًا مستقلا من قوانين الأعراب.

إن كلمة وجوه تتضمن مسائل مهمة تندرج تحتها مجموعة من الأصول والقوانين الإجرائية التى تكفل الوفاء بالأصول والقوانين المذكورة فى كافة المعاملات كاملة قانون الوجوه قانون قديم وقد قرر الناس جميعًا الموافقه عليه بالإجماع حفاظًا على استيفاء كافة الحقوق المترتبة على حدوث أى مشكلة فى حينها.

ويوضح أهل الرأى الآن، أن هناك ثلاث قواعد مرعية عند تطبيق قانون الوجوه بين العربان.

القاعدة الأولى:

لو ضرب أحد البدو واحداً من البدو أو واحداً من عابرى السبيل فعلى الضارب أن يلجأ على الفور إلى أحد الشخصيات المعتبرة حسبما هو مبين فى قانون العانى، حتى لا يقع فى أيدى المضروب أو أهل خمسته. وعقب ذلك تقوم هذه الشخصية بإرسال بعض الشخصيات الأخرى التى تعرض على أهل المضروب قبول الدية، وتسمى هذه الهيئة التى أرسلت إلى المضروب بالجاهية، كما سبقت الإشارة.

وإذا لم تستطع هذه الجماعة إقناع المضروب بقبول الدية أو قانون العانى أو المجبودة، فإن الضارب يراقب أحد كبار خمسة المضروب ويرجوه قائلا: (أنا داخل على الله وعليك عن سيئته).

فإذا قبل هذا الرجل شفاعة هذا المعتدى ورجاءه، فإنه يرسل على الفور من طرفه رسولا إلى المضروب، يخبره أنه قبل شفاعة فلان بن فلان لمدة معينة، وليكن معلومًا للجميع أنه خلال هذه المدة المحددة لا يستطيع المضروب أو واحد من خمسته أن يعتدى على الضارب أو على أحد خمسته.

وإذا تصادف أن حاول المضروب أو المعتدى عليه الانتقام لشرفه خلال المدة المحددة، فيكون بذلك قد اعتدى أيضًا على حقوق الحامى الذى لا يستطيع مواجهة الناس لأنه لم يتمكن من الحفاظ على شرفه وكرامته، لأن المضروب تعدى على حق الحماية، ويصل الأمر بالحامى إلى أن يسعى إلى القبض على هذا الرجل وقتله.

وعلى ذلك فإن قانون الوجوه والدخالة من القوانين الصارمة المعمول بها بين عشائر العربان جميعًا. ولذلك كان الحامى أو الضامن يرسل الرسل والدعاة ليعلنوا بين كل القبائل والعشائر أنه قد شمل فلانًا بن فلان وخمسته بحمايته مدة كذا. . وحتى لو انتقل المتضرر وخمسته إلى مكان آخر ليتربصوا بالمعتدى، كان الحامى أو الضامن يرسل رسله. ليعلنوا حمايته على فلان ابن فلان هذا وخمسته، حتى يعرف كل العرب ذلك.

القاعدة الثانية:

إذا تجادل رجلان فى أمر من الأمور ووصلت المناقشة بينهما إلى درجة تهدد حياتهما وكان أحد العربان المحترمين من ذوى الجاه والنفوذ قريبًا منهما، فعليه أن يتدخل على الفور لحسم هذا النقاش، قائلا:

(إنى أقرعكم عن بعضكم بوجهى)، وإذا لم يكن من أهل الحل والعقد بين العربان، فمن الممكن أن يتدخل بينهما بجاه شخص آخر من ذوى المكانة بين الجميع بحيث يقول: (إنى

أقرعكم عن بعضكم بوجه فلان . .) . وعلى المتنازعين أن يسمعا كلامه ويغضا الطرف عن النزاع . أما إذا لم يهتما بوساطته واستمر النزاع حتى وصل الأمر أن ضرب أحدهما الآخر أو سبه ، فعليهما أن يحتكما إلى شخص يثقان فى عدله ونزاهته ، لكى يحكم بينهما .

وإذا ما تبين لهذا الحكم أن أحدهما كان محقًا والآخر ظالمًا ، فإنه لا يترك المعتدى الظالم ، بل يضربه ضربة موجعة بالسيف أو الخنجر أو المزراق أو العصا حيثما وجده .

وكانت هذه الأصول والشرائع البدوية التى سنت للحفاظ على الأرواح ، تراعى مراعاة دقيقة بين الأعراب أنفسهم ، وكان من حق كل من الطرفين أن يقبل وساطة الوسيط أو الاستنكاف من هذه الوساطة . وكان كل الحاضرين والساعين إلى الجاهة والوساطة ينفضون من حول ذلك الذى يستنكف الحماية أو الوساطة .

القاعدة الثالثة :

إذا حاول أحد كبار القوم اتهام بعض الضعفاء بالضرب أو القتل ورفض قبول القسم على نفى الواقعة ، فإن المتهم يلجأ إلى واحد من أقران الخصم وقد لف رأسه ووجهه وأمسك بطرفى كوفية من الحرير أو الصوف ملفوفة حول عنقه ، ويقول راجيًا متوسلا : (إن فلانًا اتهمنى باطلا بتهمة كذا ، ومهما أقسمت على براءتى فلم أستطع إقناعه بذلك ، ولذا لجأت إلى دار الأمان لطلب الحماية من شره ، إنى أتوسل إليك أن تحمنى من شره) . وإذا ما قبل هذا الرجل حماية المدعى عليه فعليه أن يبلغ المدعى ، إما شخصيًا أو عن طريق وسيط آخر أن فلانًا المدعى عليه تحت حمايته ، وعليه أن يعين حكمًا يرضى بحكمه ويصغى إلى كلامه لفض هذا النزاع .

وبناء على ذلك ، يستمع الرجل الذى اختير حكمًا لكلا الطرفين المتنازعين ، ويعلن حكمه ، وبعدها لا يحق للمدعى أن يتعرض قط للمدعى عليه .

رفاقة الطريق ومتعلقاتها :

كان لكل قبيلة منطقة خاصة بها من الأراضى وموقع محدد لها تم تحديده من قبل عظماء القبائل وكبرائها ، لا يجوز لأى قبيلة أن يتعدى نفوذ رجالها هذه الحدود . أما إذا حاول أحد من القبائل الأخرى أو عابر سبيل سولت له نفسه أن يعبر تلك الحدود ، فلا يمكن أن يكون آمنًا على حياته ، بل لابد أن يتخذ لنفسه أثناء عبور هذه المنطقة ، دليلا أو رفيقًا من رجالات القبيلة المشهورين وذوى النفوذ بين أفراد القبيلة كلها .

فإذا اتخذ لنفسه دليلا متصفًا بهذه الصفات يكون بذلك قد أمن على ماله وحياته ، ويصل سالمًا إلى آخر حدود أراضى هذه القبيلة ، وبعد الحدود تسقط حماية هذا الرفيق . وعلى المسافر أن يتخذ لنفسه رفيقًا آخر من القبيلة التى بدأ الدخول فى أرضيها يكون متصفًا بنفس الصفات السابقة ، وإلا فإنه لن يكون آمنًا على حياته وماله .

ومن هذا المنطلق كان هؤلاء الرجال يكسبون أموالا كثيرة من السياح والرحالة والتجار الذين يقطعون جزيرة العرب أو يجوبون ديارها. أما إذا حاول أحد الرحالة أن يقطع المسيرة وحده دون الاهتمام بأصول الحماية وقواعدها، فلو سلبت أمواله ومتاعه أو قتل أثناء الطريق فإن دمه وماله يضيع هدراً، ولا تلزم القبائل بأى شىء طبقًا للأعراف البدوية السائدة بين القبائل.

التبييضية:

موضوع قانون وضع لتبيض وجه الحامى بين الأعراب.

ومع أن الأعراف والعادات لا تجيز أو تبيح الاعتداء على الأشخاص الواقعين تحت الحماية، إلا أن الأعراب أنفسهم يحكون أنه قد وقعت بعض التجاوزات لهذا القانون، وعلى ذلك فإن قبيلة الحامى لا يمكن أن تسكت على هذا الغدر، وتسعى إلى استرداد ما سلب أولا بالطرق الودية السلمية، ثم تلجأ إلى العنف أو القتل لاسترداد أموال محميها إذا استدعى الأمر ذلك.

ويكون القاتل فى هذه الحالة هو نفسه الشخص الذى قبل حماية المعتدى عليه.

وهكذا فإن قانون التبييضية قد وضع بين الأعراف واعترف به، لحماية شرف هؤلاء الرجال الذين يتولون حماية الآخرين الذين لاذوا بهم وطلبوا حمايتهم.

رفيق الجنب:

هو قانون يحدد سلوك الرفقاء ورفاقة الطريق.

إن مسألة الحماية ليست من الضرورى أن تكون نظير أجر مادى مترجم إلى نفوذ، بل من الجائز أن تحدث الحماية بعد أن يتناول الطرفان الطعام سويًا أو يشرب أحدهما قهوة عند الآخر، وبهذا يحق لهما حماية بعضهما البعض.

فمثلا لو أن أحد الأعراب المقيمين على جانبى الطريق الذى ستسلكه القافلة، توجه إليها وأكل طعامها أو شرب قهوتها، فمن حق هذه القافلة عليه الحماية والرعاية طالما أنها تجتاز حدود منطقته. وإذا اعتدى أحد سميته على القافلة أو فرض أتاوة عليها، فالواجب يفرض عليه حماية القافلة من أى تعد، رعاية لأصول الحماية.

وإذا ما نظر الشخص المعنى إلى الأمر نظرة استخفاف أو لا مبالاة، فإنه بذلك يكون قد أظهر عدم اكتراثه، وقوض حيثيته وكرامته وشرفه بين العربان. ويعتبر بذلك حقيراً وضيعًا بين بنى قبيلته وعشيرته.

ولما كانت هذه العادات والأصول مرعية بدقة بين الأعراب، فقد كان يكفى عابر السبيل رشفة ماء من قربة أحد قطاع الطرق، حتى يكتسب حمايته ويسلم من مضاره وشروره.

وإذا لم يحترم أحدهم هذه الأصول والأعراف وأصاب بالأذى هذا الرجل الذى احتمى

... فإن صاحب [illegible] التى شرب منها الماء، يكون ملزمًا بتخليصه من شره وأذاه، وإذا ما أصا[illegible] أو الهلع من توقع اعتداء قاطع الطريق هذا عليه فى المراحل التالية، فإن صاحب القرية يرافقه الطريق حتى يوصله إلى بر الأمان والسلامة.

وكانت هذه الخدمات إذا ما قدمت بدافع الحمية والشهامة العربية، تتم لقاء أجر معين. وهذا كان نادر الحدوث.

وهكذا فإن هذا القانون المسمى (رفيق الجنب) والمعروف بين العشائر العربية كان ينظم رفاقة الطريق.

طنيب الطنب:

وهو القانون الذى يؤمن حق الجوار بين عدة عشائر تجاور مخيماتها بعضها البعض.

كانت العشائر البدوية تعيش فى حالة بداوة وترحال مستمر ولم تكن تعرف التوطن المستمر والاستقرار الدائم، بل كانت تنتقل إلى الأماكن التى تستهويها، وتقيم فيها خيامها فى حالة تجمعات تتراوح أعدادها ما بين عشرين أوثلاثين أو أربعين أو خمسين أو ستين خيمة، وكانت حيواناتهم لا ترحل إلى المراعى الأخرى، مالم يصبها الجوع والعطش ومالم تكتشف مراع أكثر كلأ وماء.

ولم تكن هذه القبائل أو العشائر تستمر فى مكانها أكثر من ثلاثة أيام فى حالة الجفاف. وكانت هذه العشائر - بسبب التنقل المفاجئ - تقدم لمشايخ القبائل رأسًا من الضأن عن كل خيمة مقابل بسط حمايتهم ورعايتهم لها والموافقة على انتقالها.

وكان المشايخ لقاء ذلك يبسطون حمياتهم على هذه العشائر أينما ذهبت ويعتبرونها من سلالتهم ونسلهم. وبناء على ذلك لم يكن أحد يجرؤ على التعرض لها. وإذا تجرأ أحد، لم يكن يفلت من عقاب القبيلة.

وكان العرب يسمون هؤلاء المشايخ الذين يبسطون حمايتهم على العشائر التى تنتقل إلى ربوعهم (طنيب الطنب)، وهى تعنى اتصال خيامهم بخيامه أى مجاورتهم له.

مساعدة الملهوف:

كانت عادة مساعدة الملهوف ورده مكرمًا معززًا إلى أهله وعشيرته من الأعراف المعمول بها بين الأعراب، وأخذت تجرى فيما بينهم مجرى القانون، كان الأمر يقتضى إذا ارتكب واحد من أفراد العشيرة - رجلا كان أو امرأة - جرمًا أو قباحة، ما كان يفر على أثر ذلك. وإذا هرب كان الذين يتعقبونه يطلقون وراءه السهام أو الرصاص حتى يمنعوه من اللجوء أو الاحتماء بخيمة أحد من الأعراب. وكانت هذه الأشياء التى تطلق خلف الهارب سواء أصابته أو لم تصبه، تلفت نظر صاحب الخيمة إلى الهارب.

. إذا ما اقترب الهارب من نطاق الخيمة بما يزيد عن الأربعين ذراعًا وأصيب بأى أذى، ولا تلزم قوانين الأعراب صاحب الخيمة بشىء ما.

أما إذا جرت الأحداث السابقة داخل حدوده أى أن الهارب قد أصيب وهو على بعد يقل عن أربعين ذراعًا من الخيمة أو حتى أطلقت خلفه المزارق أو الرماح أو الرصاص وهو داخل هذه المسافة، فيكون المتعقبون للهارب قد تجاوزوا حدودهم واعتدوا على حرمة صاحب الخيمة وحدود حمايته، ويحق له الرد عليهم بل وتعقبهم وإطلاق الرصاص عليهم، ولا يعود إلا وقد أصاب منهم مقتلا.

وإذا ما وصل الرجل الهارب خارج نطاق حبال خيام الرجال بالمسافة المحددة من جراء مطاردة المتعقبين له، فلا يحق لأصحاب الخيمة التدخل أو عمل أى شىء. ولكن إذا وقعت الأحداث وأصبح الهارب داخل نطاق حبال الخيام وأطلق المتعقبون سهامهم أو نار بنادقهم، فسواء أصابت الهارب أو لم تصبه، فلا بد أن يتصدى لهم أصحاب الخيام ويطاردونهم ولا يعودون إلا بعد أن يقتلوا مجموعة منهم.

ملحوظة:

كان لابد من تحديد مسافة بين خيام الرجال وخيام النساء تقدر بأربعين ذراعًا وهى المسافة التى تقع فى نطاق حق الحماية. وكان الأعراب لا يهابون أى تضحية فى سبيل مسألة الشرف، وهذا ما يدل على اشتداد غيرتهم وحميتهم.

ولا يعرف أحد من الأعراب معنى الفاحشة. لكن ولو فرض وظهر من ارتكب مثل هذا الفعل الفاضح، فقد كان يتم قتل الفاعل والمفعول بها. وكانت الأمور تذهب إلى أبعد من ذلك، حتى أن أولاد من يرتكب مثل هذه الفاحشة لم يكونوا ليسلموا من العقاب، ولكن هناك من البدو من يحكى عن وقوع مثل هذه الأمور فى بعض قرى الأعراب. (انتهت).

وبعد أن يقوم أصحاب الخيمة بالعناية والعلاج اللازم للاجئ إليهم، يتبادلون دعوته، حيث يقيم الجيران الولائم والدعوات ثم يقدمون له العطايا من خراف وأغنام وجمال وما شابه ذلك.

وبعد أن تتم مساعدة الملهوف على هذا النحو، فإنه يعود إلى مقره الأصلى مصطحبًا معه الأشياء والهدايا التى قدمت إليه.. ويسوى أموره بدفع الدية أحيانًا، وأحيانًا بالصلح ودفع بعض الأشياء.

وإذا كانت الأشياء التى قدمت إليه لا تكفى دفع متطلباته لتسوية الأمر أو إذا لم تقدم إليه مساعدة من قبل حاميه، فإن الأمر يرتبط إذن بذويه وأهل عشيرته، حيث يجمعون فيما بينهم كل حسب مقدرته ما يكفى لتغطية نفقات تسوية المشكلة.

وما زالت هذه الأصول والأعراف التى كانت مرعية بين الأعراب وتجرى مجرى القانون فيما بينهم جارية حتى يومنا هذا.

حفظ الأمانة وما يتعلق بها من عادات:

كان حفظ الأمانات وردها إلى أصحابها من الأعراف المرعية بين الأعراب منذ القدم، فكان إذا قدم أحد الأعراب بعض الحيوانات إلى أعرابى آخر قائلا له: إن هذه (أمانة الله)، كان الأخير يرعاها كرعيه لحيواناته الخاصة تمامًا، بل كان يزيد اهتمامه بها لكونها أمانة عنده، كما كان يسعى جهد طاقته لإطعامها ورعايتها.

ولو فرض وتوفى المؤتمن، فقد كان ورثته يهتمون بهذه الأمانات، كما كان يفعل المتوفى تمامًا، ويردوها إلى أصحابها متى طلبوها، وإذا كان ورثة المؤتمن لا يعرفون من هو صاحب الأمانة فقد كانوا يتحرون عنه حتى يجدونه ويردون إليه الأمانة.

وهناك الكثير من الروايات التى تروى عن أمانة الأعراب وحرصهم على توليد النوق التى يؤتمنون عليها ورعايتها.

وقد كان الأعراب يبيعون الذكور التى تولد من الحيوانات المؤتمنون عليها ويستبدلونها بالإناث حتى يزيدوا من تكاثر الأمانة، ولم يكن أى منهم يتقاضى أى شىء من صاحب الأمانة سوى ألبان تلك الحيوانات بالطبع.

وهناك اعتقاد سائد بين الأعراب حتى يومنا هذا مفاده أن الإخلال بالأمانة يضيع البركة. وقد جربوا هذه الأمور بأنفسهم، ولذلك لم يكن أى منهم يجرؤ على الكذب أو الغدر أو التحايل فى هذه الأمور.

وإذا ما نفق واحد من هذه الحيوانات، فقد كان المؤتمن يقطع علامة أو إشارة منها ليقدمها إلى صاحب الأمانة تصديقًا لما حدث.

وإذا ما أغارت إحدى القبائل على هذه الحيوانات، فقد كانت قبيلة المؤتمن تحاول بكل الطرق استردادها بعد إطلاع القبيلة المغيرة على أن هذه الحيوانات أمانة عندهم. وإذا لم يستطيعوا استردادها كلها، فقد كانوا يسلكون شتى السبل لاسترداد ما تبقى.

ومازال حفظ الأمانات وردها وما يتعلق بها من عدات سائدا حتى اليوم.

الجرة:

هو اسم خاص لقانون اقتفاء الأثر

إن ذكاء العرب وفراستهم فى اقتفاء الأثر لمن الأمور التى تستوجب الاستغراب والدهشة. فالأعرابى يستطيع بنظرة واحدة على أثر القدم على وجه الأرض، أن يحدد هويته إن كان إنسانًا أو حيوانًا وفى أى وقت سار.

إن البدو وضعوا فى الاعتبار صلابة الأرض ورخاوتها والأحوال الناتجة عن الرياح والعواصف عند وضع ميزان أو مقياس حقيقى لقياس الأثر، وقد تم ذلك كله عن طريق التجربة . وحسب مقاييس هذا الميزان والمقارنة التى ارتضوها فيما بينهم، يستطيعون أن يحددوا صاحب الأثر ووقت مروره حتى ولو كان ليلا .

ويستطيع البدوى أن يدرك من الآثار التى ارتسمت فى مخيلته ووضحت أمام ناظريه عندما يسلك طريقه ليلا، عدد الجماعة التى مرت من هنا منذ يوم أو يومين وربما من قبل ذلك وعدد الجمال التى كانت معها، وكان بإمكانه أن يستشف أن (هذه الجماعة ستصل إلى قبيلة فلان وستغير على أموالها ومتاعها) . وكثيراً ما كانت فراسته تصح، ويتحقق ما كان يتوقعه .

وإذا ما كانت جماعة متجهة للإغارة على إحدى القبائل أثناء الليل وصادفت فى طريقها بعض مقتفي الأثر، فإنها كانت تغير طريقها .

وهناك طائفة معروفة بين الأعراب بالقصاصين، وهم من ذوى الخبرة فى اقتفاء الأثر، ومعلوماتهم تفوق كل الأعراب فى هذا المجال .

وكانت القبائل تستعين بالقصاص فى تعقب أثار القاتل أو السارق الذين يودون القبض عليه أو معرفة مقصده، وإذا ما وصل إلى منطقة جبلية واختفت أثار الأقدام، فقد كانت يتعقب الأقدام من رائحة الأحجار التى مر عليها . وكان هؤلاء القصاصون من الفراسة بحيث يمكنهم أن يؤكدوا ما إذا كان المار رجلا أو امرأة . وإذا كانت امرأة هل هى عزبة أم ثيبًا . وإذا كانت ثيبًا . فهل هى حامل أو لا . . ؟ وكان بإمكانه أن يعرف ما إذا كان الجمل يحمل حملا أم لا؟

وكانت آثار معظم الناس قد ارتسمت فى ذهن القصاصين بحيث يستطيع عند رؤيتها أن يقول : إن هذا أثر فلان بن فلان . . وكانت الناس تصدق فراستهم .

وإذا ما تواجد شخص ماهر فى اقتفاء الأثر وأصبح مشهوراً فى فنه بين القبيلة أو أهل القرية، لم يكن أى واحد من هذه القبيلة أو تلك القرية يجرؤ على السرقة أو الإغارة .

وقصة القصاص الذى دفعته قريش لاقتفاء أثر النبى محمد ﷺ عندما لجأ إلى الغار المبارك فى جبل النور معروفة، وإلى أى مدى كانت فراسة الرجل صادقة لولا القدرة الإلهية التى أوحت إلى العنكبوت والحمام لكى تصرف قريش بعيداً عن صاحب الرسالة .

تناقل الأخبار :

كانت قبائل العرب تخاف السيول والأمطار وتجزع من الظلم والاعتداء، وتحترس من العدو، وتستعد لتقلب الرياح والأعاصير، وكانت تجمع الأخبار حتى لا تفاجأ بالمصائب والنوائب . وكانت لديها الرغبة القوية فى جمع الأخبار والحوادث من جميع الجهات . ولذلك كانوا إذا ما صادفوا أى عابر سبيل يسألونه عن وجهته، ومن أين أتى، وماذا سمع من

أحداث وأخبار، وهل صادف فى طريقه أى ناهب أو غاصب أو قاطع طريق، وأى القبائل مر بها، وأى المناطق بها أمطار أو مياه أو كلأ. . كما كانوا يسألونه عن أسعار الأرزاق فى البلدان التى مر بها. ولم يكونوا يتركونه مالم يبلغوا الجواب المقنع عن كل أسئلتهم.

وأحيانًا ما كان عابر الطريق لا يصدق القوم بالوجهة التى سيتوجه إليها خوفًا من أن يكمنوا له فى الطريق. أما عن المراحل التى قطعها والأخبار والحوادث التى سمعها أو مر بها، فلم يكن هناك ما يمنعه من سردها.

وكانت العادة المتبعة فى مثل هذه الحالات، أن أحد المسافرين إذا ما رأى خيمة أو جماعة، كان يحط رحاله بجوارها ليستريح بعض الشىء، فيتجمع حوله كل من سمع من هذه الجماعة ويسأله أحدهم قائلا (آيش علومك) ليستفسر منه عن بعض الحوادث فكان هو بدوره يرد قائلا: (خص وأنا أقص) أى خصص سؤالك عن الشىء الذى تريد السؤال عنه وعلى أن أقص عليك ما عندى.

وكان المسافر إذا قال: (خص وأنا أقص) يعود السائل ويوجه أسئلته مرة أخرى الواحد تلو الآخر، ويأخذ الرد عليها واحداً فو احداً.

وكان السامع يحكى كل ما سمعه من عابر السبيل هذا إلى كل من يصادفه فى الطريق، ويسمع منهم كل ما عندهم من أخبار، ولذلك كانت الأحداث تنتقل فى كل ربوع الجزيرة وأركانها البعيدة فى وقت قصير بسبب تناقل الأخبار والحوادث من لسان إلى آخر.

سياسة الأمراء:

إن سياسة أمراء العشائر تحمل مفهوم القانون الخاص، وكان كل أمير يسمح لأصحاب الدعاوى أن يدافع كل واحد منهم عن وجهة نظره أمامه أولا. وإذا اتضح الظالم من المظلوم كان يصدر حكمه بأخذ الحق لصاحبه فوراً. وكانت العادة تقضى بأن يحكم الأمير بمضاعفة الحق المطلوب تنكيلا بالظالم، ثم يقدم النصف إلى صاحب الحق والنصف الآخر يقدمه إلى صندوق بيت المال الموجود فى إمارته.

فإذا اعتدى أحد البدو على شخص آخر، كان الأمير يتحرى الأمور قبل أن يمثلا بين يديه، فإن كان الأمر قصاصًا عفا عن الجانى، وإذا تبين اعتداءه على الآخر، فإنه كان يلقى به فى سجن مكشوف السقف تحت حرارة الشمس وبرد الليل أمام الإمارة. ويظل هكذا حتى يجمع الأمير ذات البين.

وكان لكل أمير عيونه وجواسيسه الذين يأتون إليه بأخبار القوم حتى يكون على علم مسبق بكل مجريات الأمور. وإذا ما تلقى ما يفيد امتلاك البعض لسلالة نقية من الخيول أو الجمال كان يطلب أنثى منها ممن يمتلكها لتهجينها أو الإكثار منها. وإذا ما قدمها صاحبها على شكل

هدية ، فقد كان الأمير يخلع عليه خلعة أو يقدم إليه جزءاً من ثمنها نقداً ، تلطفاً منه على صاحب الشيء .

أما إذا تردد صاحب المال فى تقديمه فقد كان الأمير يجمع رجاله ويهاجم هذه القبيلة بغتة ، وينهب كل ما لدى هذا الشخص من خيول وجمال وأغنام ، بل كثيراً ما كان يصل الاعتداء على الأرواح أحياناً ، وبعد السلب والغارة ، كان الأمير ينتظر بعض الوقت للراحة فى مكان قريب من هذه القبيلة ، فإذا وفد إليه بعض رجالها للاسترحام وعرض الولاء والطاعة والندم كان يرد إليها أموالها ومواشيها .

ولما كان الأعراب لا يسلمون من الغارة والهجوم ، لذلك لم يكن أى منهم يهتم بالثروة الثابتة ، بل كان كل ثرواتهم من الأشياء المنقولة ، وكانوا لا يهتمون بالعمل بالزراعة والتجارة لأنها تتطلب الإقامة الدائمة ، وهم يفضلون حياة التنقل والترحال ، ولذلك استنوا لأنفسهم سنة فيما بينهم تقضى بأنه إذا تعرض البعض منهم إلى النهب والسلب وسلبت كل أمواله ومواشيه ، كان كل منهم يقدم إلى المغبون عوناً يتمثل فى بعض الأغنام أو الإبل حتى يتلافى ما ضاع منه . وكان الجميع ملزمين بهذا القانون .

ولما كانت بلاد الحجاز تخلو من الأنهار والجداول ذات المياه الدائمة ولحكمة ما أمطارها أيضاً قليلة ، فقد تعود سكانها على حياة التنقل والترحال حيث توجد منابع المياه والكلأ . . ومن الجدير بالذكر أن البدو يفضلون حياة البداوة على حياة المدينة ، ولا يرى أى منهم غضاضة فى تنقله وترحاله ، عنيلا جائعاً . بل إن هذه الأمور مدعاة للفخر والتفاخر فيما بين البدو .

إن أمراء البدو المتواجدين فى مناطق غير الحجاز واليمن ، إذا ما أرادوا الاحتكاك بشخص ما ، كانوا يكتبون إليه وريقة صغيرة يطلبون فيها مطالب معينة . والويل له إذا تأخر أو ماطل فى الإجابة عليها ، وكانت الردود السريعة من أحكام قوانين الإمارة .

أما أمراء الحجاز واليمن فقد كانوا يخطون بخناجرهم الخاصة ثلاثة خطوط على العصا التى فى أيد المتخاصمين الذين يمثلون أمامهم . وكان على المدعى أن يظهر هذه النقوش للخصم ويعود أدراجه ماثلا أمام الأمير . وكان هذا معناه استدعاء الخصم إلى الإمارة ليمثل أمام الأمير للتحقيق والويل كل الويل لمن يتأخر .

وكانت هذه الخطوط التى على العصى تسمى بين الأعراب (الوقر) ولم يكن للأمراء جيوش منظمة يخضون بها حربهم ، بل كانت قوتهم تعتمد على ما يتجمع لديهم من فرسان مناصريهم وقت إعلان الحرب أو الغارة على إمارة أو قبيلة أخرى . وكانت قيادة القوات المتجمعة توكل إلى الأمير الداعى للحرب . وقبل بدء الغارة أو الحرب ، كان يلم بكل صغيرة وكبيرة عن القبيلة المعادية عن طريق الجواسيس الذين يبعث بهم لجمع هذه المعلومات .

وقد اعتاد أمراء البدو استخدام الجواسيس. وكانوا يتخيرون لهذا العمل أناسًا يتصفون بالكتمان والقدرة على حفظ الأسرار حتى لا يكشفون الأسرار التى يتوصلون إليها لغير الأمير شخصيًا، مهما كانت الدوافع التى تحيط بهم.

وبعد أن يلم الأمير عن طريق جواسيسه وعيونه، بكل ما يهمه من معلومات عن غرضه المنشود، يبدأ فى إثارة حماس رجاله بالخطب والأشعار التى تلهب الحماس وتؤجج الغيرة والشجاعة، حتى أن هذه الجماعات كانت تقطع المسافة التى تستغرق يومين فى غضون ليلة واحدة من فرط الحماس. وما أن يبزغ الفجر حتى تكون على رأس القبيلة المستهدفة.

وإذا ما قدر لهذه الحملة أن تنكل بالعدو وتغنم منه أغنامًا كثيرة، فقد كان الفرسان يحتفظون ببعض الغنائم لأنفسهم ويقدمون الباقى لقائدهم.

وإذا لم يرد فرسان القبيلة على الهجوم خلال يوم واحد اكتفى المهاجمون بالسلب والغارة. أما إذا أظهروا شيئًا من المقاومة أو الجدال، فقد كان الأمير يصدر أوامره بتعقب الجميع وإباحة أموالهم ودمائهم لرجاله. ولا يتوقفون عن هذه الحرب إلا بعد أن ينصاع الجميع لطاعة أميرهم.

وإذا أعلنت إحدى القبائل الخاضعة لأحد الأمراء العصيان عليه وخالفت أوامره، كانت القبائل الأخرى تنصرف عنها، ولا تتعاون معها فى أى أمر من الأمور مالم تعد إلى طاعة أميرها. بل إن الأمر كان يبلغ أكثر من ذلك، فقد كانت تمتنع عن المشاركة فى القتال معها، إذا ما تعرضت لعدوان من قبائل أخرى. . وكان سبب ذلك بالطبع هو قوة الأمراء وظلمهم وتعسفهم.

حكومة القضاة والفقهاء:

كان أمراء الأعراب يستخدمون نوعين من القضاة: نوع من القضاة وصنف آخر من الفقهاء، فالأول: (قاض)، والثانى: (فقيه).

كانت مهمة الفقهاء نشر مبادئ الدين والدعوة السلفية. أما القضاة فكانت مهمتهم تقتصر على الفصل فى الدعاوى وفقً للأصول البدوية.

كان كل الفقهاء منكبين على المسائل الدينية ويعملون على إظهار سيادة هذه المبادئ والأصول. ويحق لهم توجيه الأسئلة المتعلقة بالموضوعات العقائدية أمام أبواب المساجد لمن شاءوا من الناس. ولا يتورعون عن توجيه اللوم والتوبيخ لمن يظهر قصورًا فى هذا الخصوص. وكان من حقهم قص الشوارب التى طالت مهما كانت شخصية صاحبها، وأمام باب المسجد والجماعة. ويصدرون الأوامر للامتناع عن استخدام الدخان والأنفية وما شابه ذلك من المواد المضرة بالجماعة.

أما القضاة، فقد كانت مهامهم تتلخص فى الفصل فى الدعاوى المخالفة للأحكام

الشرعية، وكذلك الدعاوى القديمة. وكان القضاة لا ينظرون أية دعوى ما لم يقم أصحابها بتسديد الرسم الذى يقرر حسب أهمية الدعوى، والذى كان يطلق عليه اصطلاح (خبذ).

وحسب اصطلاح البدو فإن أجود أنواع الأسلحة وأغلاها ثمنًا تسمى (خبذ).

وبعد تأدية الرسم المقرر يقوم المدعى بعرض دعواه أمام هيئة من كبار المسنين، وعلى المدعى عليه أن يجيب على ما يوجه إليه أمام الهيئة المذكورة أيضًا ويثبت ما يذهب إليه. يستمع القاضى إلى كل من المدعى والمدعى عليه، وبعد التحقق حسب الأصول المرعية، يتم تحويلها إلى أهل الرأى للحل والفصل فيها. ولكن الهيئة قبل أن تصدر حكمها بإجماع الآراء، تحاول أن تصلح ذات البين وتفض الدعوى صلحًا، وبناء على ذلك يقوم أحد أعضاء الهيئة بعرض التصالح بينهما خارج قاعة المحكمة. وإن لم يفلح فى ذلك يخرج إليهم العضو الثانى محاولا بدوره، ويستمر الأعضاء فى هذه المحاولة حتى غروب الشمس. لابد أن يحاول الأعضاء جميعًا إصلاح ذات البين كأمر القاضى. وفى حالة عدم التوفيق فى ذلك، يوجه القاضى سؤالا إلى الجميع هو : (هل يوجد هناك دعوى مماثلة لهذه؟) ويجيب كل واحد من حضور الهيئة على هذا السؤال خلال يوم مستقل.

ويحكم القاضى بأنسب الأجوبة التى تصله، ويعطى مهلة بعد الحكم لتسوية الدين، متحفظًا على كفيل المحكوم عليه. ولو فرض وحق على أحدهما القسم، كانوا يدخلونه فى دائرة رسمت بطرف إحدى العصى على الأرض، ويؤدى اليمين حسب الأصول المرعية.

أما اليمين فينقسم بين العربان إلى نوعين : أحدهما : (للأمور العادية)، والآخر : (للمواد المهمة).

والأمور العادية هى : الأموال المسروقة والمنكرة. أما الأمور المهمة فهى: كالزنا والقتل ومثلهما من الكبائر.

اليمين الأول:

والله العظيم وبالله الكريم، والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية، العالم بكل خفية، رافع السموات العلية، قاطع المال والذرية ، ومفرق الخمس ، قضابة الجنية.

اليمين الثانى:

هو نفس اليمين الأول مضافًا إليه (والله والله)أربعون مرة.

ويطلق الأعراب على هذا اليمين (الأيمان المغلظة) لأن التحليف بين الأعراب تنقسم إلى (يمين مفردة مخففة) و(يمين مخففة غير مفردة) و(يمين مغلظة) أى ثلاثة أيمان.

القسم الأول :

هو القسم المخفف المفرد الذى هو عبارة عن (والله العظيم وبالله الكريم).

القسم الثانى:

وهو القسم سالف الذكر والذى يقول فيه المقسم : (والله الذى لا إله إلا هو خالق البرية ، العالم بكل خفية ، رافع السموات العلية ، قاطع المال والذرية ، ومفرق الخمس ، قضابة الجنبية) ويسمى اليمين المخففة غير المفردة.

القسم الثالث :

وهو نص اليمين الثانى مضافًا إليه لفظ الجلالة (والله والله) أربعون مرة ، ويسمى هذا باليمين المغلظة .

ويطلب من الأعرابى أن يقسم باليمين المخففة فى الأمور العادية كالسرقة والإنكار . أما اليمين المغلظة ففى المسائل المهمة كالزنا والقتل والأمور البشعة كالكبائر وما شابهها .

* * *

الفصل الثالث

الكرم العربي ومدى تحمل البدو للجوع والعطش

كرم الأعراب :

طبع أفراد القبائل البدوية على الكرم وحسن الضيافة، وتحتم عليهم أخلاقهم وعاداتهم إطعام الضيوف بالأطعمة الموجودة لديهم مهما كان نوعها ومهما قلت عندهم.

والكرم هو أجمل الصفات التي يحبون الاتصاف بها. والبخل من أخس الصفات عندهم.

والبدوي مهما كان فقيراً أو محتاجاً، يقدم لضيوفه كسر الخبز ولو لم يمتلك سواها. وكل عربي يخصص في خيمته مكاناً خاصاً لإقامة الضيوف وإعداد القهوة وشربها.

وكان بعض الأعراب يسعدون كل السعادة عندما يلوح لهم من بعيد طيف ضيف قادم. ويتوجهون إلى الله كل صباح بالدعاء والاسترحام، أن يمن عليهم في يومهم بضيف عابر.

وإذا وفد ضيف على قرية ما، سواء أكان معروفاً أو مغموراً، كان أهل القرية جميعاً يتسابقون على استضافته. ومن لم يستطع منهم تقدم الصفوف. فقد كان يلقي بالعصا التي في يده أمام الضيف لإثبات أولويته في دعوته وإدخاله منزله. وأول مظهر من مظاهر الكرم العربي هو أن يقدم إلى ضيفه ثلاثة فناجين متعاقبة من القهوة، بشرط أن تكون من البن الطازج الذي أعد بعد وصول الضيف إلى المنزل، وأن تعد أمام الضيف أو على مسمع منه في الإبريق الذي يسمى الجزية العربية.

وبعض الأغنياء والمقتدرين يفضل تقديم التمر والزبد واللبن قبل القهوة، ثم تقدم القهوة. ويعقبها السؤال عن الصحة والأحوال وعبارات الترحيب والتكريم، وبعدها يأتون بالطعام المعد خصيصاً، ثم يدعو صاحب البيت الضيف إلى الطعام قائلا: (حياك الله على موجودنا)، وهذه الجملة إلى جانب كونها دعوة على الطعام وتحية للضيف على قبوله تناول الطعام، ففيها اعتذار رقيق ومهذب عن عدم كفاية الطعام إن بدا كذلك.

ولما كانت العادات البدوية تقضي بعدم تناول صاحب البيت الطعام مع الضيف، بل عليه أن يضع الطعام في مكانه المخصص في الخيمة أو الدار ويدعو الضيف إلى طعامه، ثم ينسحب هو. أما إذا كان هناك حضور من الجيران فعليهم أن يشاركوا الضيف طعامه.

وإذا كان الطعام عبارة عن خروف أو حمل كامل فعلى الضيف نفسه أن يقسمه إلى أرباع

متساوية، ما عدا الرأس ثم يرسل بربع منها إلى أهل البيت فى الداخل عن طريق واحد من الموجودين على الطعام، ثم يشرع فى تناول الطعام بادئًا باسم الله.

وبعد تناول الطعام يحيى أحد الحضور صاحب البيت قائلا: (يا مضيفنا أنعم الله عليك)، فيرد عليه التحية قائلا: (هنيئًا وعافية ولا تروا علينا فيما قصرنا به، قدركم عند الله أعظم).

وبعد ذلك يتناول صاحب الوليمة ما تبقى على السفرة من طعام هو وكافة الجيران. وكان الأغنياء يذبحون الخراف. أما غير القادرين الذين يعيشون على ألبان الماعز والنعاج، فلم يكن أى منهم يتأخر أو يتململ من ذبحها لإكرام ضيفه. وكان بعض الأعراب لا يهبون لاستقبال الضيف من بعيد، بل إن من ينزل أو يحط رحاله أمام منزله، فهو ضيفه ويحسن قبوله واستقباله. وإذا كان صاحب البيت غير موجود فإن زوجة صاحب الدار تقوم بالحد المطلوب من أمر الضيافة.

وإذا كان صاحب الدار لا يملك سوى ناقته الحلوب، فقد كان يقوم بحلبها وإكرام الضيف بلبنها معلنًا اعتذاره عن ضيق ذات اليد. وكان بعضهم بالرغم من عوزه يتوجه إلى السوق أو إلى الجيران، ويشترى بالدين حملا أو خروفًا لإكرام ضيفه. أما إذا كان الوقت لا يتسع لذلك، أى أن الوقت غير كاف لإيجاد الجار ومساومته على الشراء، فكان يمسك بماعز أو خروف لأحد الجيران ويذبحه، ثم يؤدى الثمن فيما بعد. وكان الجيران لا يعترضون على ذلك قط، بل يستحسنون حدوث مثل هذه الأمور.

أما الضيوف الذين يفدون فى مواسم انعدام اللبن وندرة الحيوان ، فقدكان صاحب البيت مضطراً إلى الاكتفاء بتقديم الجبن الذى جمعه فى موسم الربيع .

وإذا دخل ضيف على خيمة وهم يأكلون الطعام ، فقد كان يجلس إلى الطعام دون أى تكلف . أما إذا لم يجلس إلى الطعام ، فقد كان الكل ينظر إليه نظرتهم للخائن .

وعند دخول الضيف إلى الخيمة أو الدار . كان الكل يهب للقائه وبعد أن تقدم إليه القهوة ثلاث مرات متتاليات، يسأل عن حاله واسمه وعشيرته ويستفسر منه عن سبب قدومه .

وعلى المضيف حماية ضيفه ، وإن بذل فى سبيل ذلك روحه وأولاده وعشيرته . وعلى الضيف أن يعتبر نفسه من أصحاب البيت . بمجرد أن يبسط له الحصير . وعليه أن يقوم بالمشاركة فى الدفاع ، إذا ما وقع أى هجوم ، وأن يشارك فى حل ما يطرأ من مشاكل أثناء مقامه .

تحمل الجوع والعطش :

إن قلة قليلة من البدو هى التى تعد من أهل الغنى واليسار ، والكثير منهم وقع فى براثن الفقر والفاقة . وليس هناك على سطح الأرض كلها من عانى معاناة بدو جزيرة العرب ولا من صبر صبرهم على الجوع والعطش . وانه لسعيد جداً من كان يستطيع أن يشبع جنبيه مرة

واحدة خلال الأربع والعشرين ساعة . والذين يصبرون على الجوع والعطش لمدة يومين أو ثلاثة أيام لعدم وجود ما يقتاتون به من بين بدو قبائل جزيرة العرب ، لا حصر لهم ولا عد .

والأعرابى الذى يخرج إلى الطريق متجهاً إلى ناحية ما ، يصطحب معه زاد يوم واحد ليعيش به أسبوعاً كاملاً .

وكان إذا صادف فى طريقه خيام بعض البدو ، وعرضوا عليه واجب الضيافة ، كان يشبع جوعه . أما إذا لم يصادف أعراباً أو لم يمر بقرية من القرى ، فقد كان عليه أن يعود نفسه على أن يعيش بطعام يوم واحد لمدة أسبوع كامل .

كما كان الأعراب يتعيشون على النباتات التى تنمو على شواطئ الجداول والأنهار إن وجدت ، أو على شواطئ البحيرات التى تتجمع مياهها من مياه الأمطار . وكانوا عند التهيؤ للغارة أو النهب أو السلب . يستخدمون الدخن والبروق بدلاً من الأرز والقمح لتعذر وجود مثل هذه الحبوب ، وعند اشتداد الجوع والقحط ، كانوا يطحنون أوراق الشجر ويضعون بعضاً من هذا الدقيق فى أفواههم ، ويشربون عليه الماء فقط ، وفى أوقات القحط التى تندر فيها المياه ويعم الغلاء ، كانوا يعيشون على حبوب العرعر فقط .

إن تحمل الأعراب للجوع والعطش الذى ليس له مثيل فى العالم ، لا يفوقه إلا قدرتهم على قطع المسافات الطويلة ساعة هبوب رياح السموم القاتلة ، و[illegible] وعطشى أيضاً ركوباً أو مترجلين . ويؤدى الجوع والعطش عادة إلى سقم الجسم وبعض العلل ، أما الأعرابى فعلى العكس من ذلك تماماً ، فهو معافى قوى البدن صحيح الجسم نحيف البنية رشيق المظهر والمخبر .

وبالرغم من أن بعض الأعراب قد جاوز عمره مائة عام ، إلا أن أسنانه وأضراسه لم يصبها التلف ، ولم يفقد منها شيئاً .

ولما كانت طوائف الأعراب لا يقر لها قرار فى مكان واحد ، بل تتنقل من مكان إلى آخر ، لذلك لم يكن عندها إلا المأكل أو المشرب . وكانت تفضل الانتقال إلى الأماكن ذات الأجواء النقية والنسيم العليل ، ولذلك لا يوجد بينهم من يصاب بمرض الجدرى .

والأعراب يعتقدون أن مرض الجدرى مرض مهلك سريع الانتشار ، ولذلك كانوا إذا أصيب واحد منهم أو أحد بينهم ، يبحثون عن شخص سبق أن أصيب بهذا المرض لكى يتركوه إلى جواره . وإذا لم يجدوا ذلك الشخص كانوا يتركون المريض وحيداً ، بعد أن يتركوا إلى جواره المأكولات ، والمشروبات الكافية ويفروا بعيداً .

ولكن هذا الاعتقاد كان قاصراً على بدو البادية فقط ، لأن الأعراب الذين يسكنون القرى والمدن بجزيرة العرب ، لم يكن بإمكانهم الفرار من هذا المرض وهم صغار السن كسائر الناس ، بل كانوا يداوون هذا المرض بالأدوية والعلاج الخاص بهم .

* * *

الفصل الرابع

غزوات العرب وأيامهم وما يتعلق بها من عادات وتقاليد

الغزوة :

إذا هاجمت إحدى القبائل قبيلة أخرى بقصد الغارة ونهب مواشيها وممتلكاتها وسلبها ، سمى ذلك بين الأعراب (غزوة) . والغزوة تعتبر من الأعمال الحميدة فى نظر الأعراب بالرغم من أنها فعل مستقبح ، وهدر للمال وسفك للدماء أحياناً . ويفتخرون بذلك وهذا فى نظرهم أكثر مدنية من العمل بأمور الفلاحة والزراعة أو بالتجارة أو الإشتغال بعمليات التبادل ، التى تعد من الأمور الذميمة والمكروهة من قبلهم .

إنهم يعتقدون أن الـ(غزوة) والتى اشتقت من لفظ (غزا) حلال ، ولكن جهلهم وقلة علمهم بأمور الدين ، جعل قويهم ينهب ضعيفهم . وقد تصل هذه الأمور إلى حد إزهاق الأرواح ، واعتبار ذلك من أمور الشجاعة والبطولة . وقد يترتب على ذلك أن يصبح غنيهم الذى يمتلك ثروة طائلة من المال والمواشى ، معدماً فى ليلة واحدة . أو يصبح من لا يمتلك جدياً واحداً ، صاحب ثروة وغنى فى حملة واحدة .

إن الأعراب الذين يخرجون للنهب والغارة ينقادون لواحد منهم ، ولا يخرجون قط عن دائرة أوامره وتعليماته . ومن أحكام النهب والسلب التى ارتضوها لضبط وربط سلوكهم أثناء الغارة ، أن يكون نصف المشتركين من الخيالة والنصف الآخر من المشاة ، وألا يستعملوا الأسلحة النارية أثناء القتال قط ، بل يستخدمون السيوف والمزارق وما شابهها من آلات القتال الجادة فقط . وعند الاقتراب من مقر القبيلة التى ينوون الغارة عليها ونهب مواشيها ، يختبئون فى مكان ما ويبعثون بشخصين منهم للقيام بأعمال الجاسوسية والاستطلاع . فيصعد الجاسوسان قمة جبل أو هضبة عالية تطل على منازل الأعراب . وإذا كان الوقت ليلا بحثوا عن مصادر السلاح ومواقعه ورصدوه رصداً محكماً . أما إذا كان الوقت نهاراً رصدوا حركة الإبل والأغنام . فى أى ناحية ترعى ومدى بعدها عن الخيام . ثم أبلغوا قائدهم بذلك ، وبعدها يقبعون فى مكمنهم ويشنون هجومهم ويسلبون الأموال والمواشى قبل أن يلوح الصباح . وإذا كانت الغزوة نهاراً جهاراً ، فإنهم كانوا يربطون الرعاة فى جذوع الأشجار

حتى لا ينتقل خبر الغارة إلى القبيلة قبل مغادرتهم . وكانوا يسوقون المواشى التى ينهبونها بسرعة متجهين إلى مأواهم .

ويدرك أصحاب المواشى أن مواشيهم قد سرقت ، عندما يحل المساء دون عودتها إلى مقرها . وقد جرت العادة على أن يبقى الأعراب جيادهم وإبلهم فى حالة استعداد أما الخيام تحسباً لمثل هذه المواقف . وبعد أن يتحققوا من الأمر من الرعاة ، يتعقبون المغيرين مقتفين آثارهم . وربما تستمر المطاردة يوماً أو يومين . وإذا ما لحقوا بالمعتدى استردوا أموالهم وحيواناتهم حرباً وقتالا . ثم يعودون إلى ديارهم وقد غمرهم السرور وعمتهم الفرحة . أما إذا لم يلحقوا بالمغيرين ولم يقفوا لهم على أثر ، فإنهم يعودون إلى خيامهم وقد نال منهم اليأس والتعب كل منال .

وإذا كانوا يثقون فى كثرتهم العددية وفى شجاعة رجالهم وإقدامهم ، فإنهم كانوا لا يرجعون ، بل يواصلون اقتفاء آثار المغيرين حتى يصلوا إلى مأوى العدو ، ويستردون حيواناتهم عن طريق الحرب والقتال ، وقد كانوا يتمادون فى أعمالهم هذه ، فيسلبون وينهبون أموال وحيوانات ذلك العدو الذى بادأهم بالعدوان وينكلون برجاله .

ومهما كانت التضحيات - سواء فى الدفاع أو الهجوم - من كلا الطرفين ، فإن الأعراب لا يأسفون عليها ، بل يعدونها من مفاخرهم ومآثرهم .

وقد كان يحدث أحياناً ينضم خمسة أو ستة من الهجانة إلى خمسة أو ستة رجال ، ثم يهاجمون كل من يصادفهم من الأعراب ، إذا ما لمسوا فيهم ضعفاً أو وهناً ، ويجردونهم من كل ما يملكون تاركين إياهم منهوكى القوى مسلوبى الإرادة . وكان يحدث فى أحيان أخرى أن يتكتل خمسة عشر أو عشرون رجلا ، ويختبئون فى قمم الجبال ، وفى الأماكن التى يصعب على خيولهم أو إبلهم صعودها ، وينتظرون فى مكمنهم حتى تواتيهم الفرصة ، فينقضون عليه ويسلبونه أمواله ومواشيه ، ويتركونه عرياناً ، كما لو كان حاجاً متجهاً إلى مناسك الحج .

وكثيراً ما يتحد البعض منهم حول مبدأ واحد ألا وهو السرقة ، ويمكثون بعيداً عن مأواهم لبضعة أيام كامنين فى مكمنهم منتظرين صيدهم . ولا يربط بينهم سوى هذا العامل . وكانوا إذا ما صادفوا عصابة أكثر منهم عدداً وعدة ، يفقدون ما سلبوه وما تركوه فى خيامهم ، بل ربما يصل الأمر إلى التعدى على أرواحهم .

وكانوا إذا ما وقعوا فى بلية كهذه وأصبحوا فى وضع العاجز المنهك ، يلجئون إلى أنفاق الجبال التى يعرفونها لينجوا بأرواحهم . وإذا كانت قوى الطرفين متعادلة ، فإنهم كانوا

يتبادلون الهجمات بتحريض من رؤسائهم ، وكان الرائج بين الأعراب أن الذى يبدأ بالهجوم هو الذى يخرج منتصراً . ولو حدث أن منى البادئ بالهزيمة ، فإن ذلك كان مدعاة للفخر والتفاخر . وكان الأعراب يخرجون ل ميدان الحرب غير هيابين للموت ، يتقدم المشاة بادئين بالهجوم من خلفهم الخيالة أو الهجانة . وأحياناً كان الهجانة يترجلون ويصنعون من جذوع الشجر ومن الحجارة بعض المتاريس . وتستمر الحرب سجالا بينهم حتى يتبين الغالب من المغلوب .

وإذا أدرك المهزوم أن الغالب ينوى الاعتداء على الأرواح فإنه كان يلجأ فوراً إلى وجهاء المنتصرين طالباً الأمان والحماية .

وفى هذه الحالة لا يعتدى الفريق المنتصر على أرواح المنهزمين ويكتفى بالاستيلاء على الممتلكات والحيوانات فقط . أما المغلوبون الفارون سواء أكانوا هجانة أو خيالة ، فلم يكن أحد منهم يتوقف عن الهروب ، إلا إذا سمع صوت المنادين من خلفه يعطونه الأمان . وكانوا يفتدون أرواحهم أحياناً بنصف عدد حيواناتهم . أما إذا أدرك الفارون أنه بمقدورهم تخليص حيواناتهم وأموالهم فيما بعد ، فما كانوا يتوقفون قط ، بل يستمرون فى الفرار . وإذا فرض وأنهم عجزوا عن استردادها ، فإنهم كانوا يستسلمون ، ويفدون أرواحهم بنصف ممتلكاتهم .

وكانت ممتلكات المقتول من خيول أو جمال وما تحمل فوقها من أحمال تؤول إلى القاتل ، وإذا كان القاتل غير معروف . فالمال لمن يصل إليه أولا .

المناخ :

المناخ اسم ضوضاء وجلبة ملفتة للنظر وداعية للاستغراب . تقع عند قيام الحروب بين قبائل العرب من أثر أصوات الإبل والهوادج فى أرض المعركة .

وقد تمتد الحرب بين قبيلتين وقتاً طويلاً ، فتقدم كلتاهما خسائر أكثر ممن هم على قيد الحياة ، مما يزيد فى حدة المعارك وضراوتها ، وإضرام نار الحقد أكثر من ذى قبل . وتود كل منهما أن تكسر شوكة الأخرى ، فتجمع نساءها وأطفالها وأموالها ، ثم تتخير كل منهما أجمل بناتها وأملحهن خلقاً وخلقاً ، ويركبوهن الهوادج ، ثم يوقفوهن فى مقدمة ساحة الوغى . . .

وعند التقاء الجمعين ، ترفع الفتيات ستار الهوادج أ وتكشفن النقاب عن محياهن . وتنشدن منظومات من الشعر الحماسى وتوردن من مفاخر قبائلهن ما يلهب حماس المقاتلين الأشاوس حتى تنتهى المعارك . ويعمل كل فريق على أن تنتهى المعركة لصالحه . وحتى اتضاح المواقف وظهور الغالب والمغلوب ، يكون كل طرف قد أصاب من الطرف الآخر خيرة شبابه ويانع أبنائه .

ويحق للفرقة التى نالت النصر ، أن تغتصب خيام الفرقة المغلوبة التى بقيت فى أرض المعركة . وهذا من القواعد المتبعة فى حر (المناخ) تلك .

ولما كان التسلط على أرواح المهزومين وأعراضهم فى أرض المعركة ، ليس من أخلاقيات الأعراب ، فقد كان أشجع الفتيان يتقدم نحو أجمل الفتيات اللائى كن تشجعن الشباب وتحرضن القبيلة على القتال ، ويأسرها ، وتبقى تحت سيطرته إلى أن تدفع قبيلتها آلمبالغ التى تحددها القبيلة المنتصرة ، فإن دفعت القبيلة الفدية عادت الفتاة إلى ذويها معززة مكرمة ، فى طلعة بهية كأنها طلعة البدر ، أما إذا لم يكن لهذا الفتى ميل نحو الفدية واستطاع خلال تلك المدة أن يكسب قلب الفتاة ، فإنه كان يعقد قرانه عليها .

الجرود :

إذا كانت الجرود تعنى عساكر الأعراب ، فإنها تنقسم إلى فرقتين من وجهة نظر إدارة البلاد .

فرقة تخضع خضوعاً كاملاً للأمير الذى تعمل تحت إمرته ، وفرقة تعيش على هواها وتكون مستعدة للدفاع عن القبيلة عند ظهور أى تهديد لها .

تعتبر الجرود قوة عسكرية تحشد فى منطقة معينة عند الدفاع أو عند الهجوم على العدو .

ينبغى على الفرقة الخاضعة لأوامر الأمير وتعليماته أن تؤمن أسلحتها وذخائرها وكل مستلزمات الحرب ، وتتجه إلى المكان المحدد لها . ويعين الأمير شيخاً محنكاً فى الأمور العسكرية لقيادة الجرود ورئاستها ، يكون مفوضاً من قبله فى الأمور العسكرية . وعلى هذه القوات العسكرية أن تنتظر فى مقرها إلى أن تصدر إليها الأوامر بالتحرك نحو جهة معينة أو لإخماد ثورة قبيلة عاصية .

وعند غياب الأمير تتلقى الجرود أوامرها من ذلك الشيخ المنصب قائداً عليها ، ويتوجه الشيخ بفرقة الجرود إلى المكان المحدد له ، وينتظر وصول الأمير أو أوامره . وإذا لم يحضر بتقسيم القوة التى تحت إمرته إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : مهمته أخذ مواشى القبيلة الثائرة ونهبها .

والقسم الثانى : يظل مسيطراً على النقاط المتحكمة فى مدخل الموقع الذى يتوقع مجئ عدو آخر منه .

أما القسم الثالث : فيقوم بدور الـ (قره قول)[1] : أى الذى يناط به حفظ النظام .

وبعد ذلك تشن الجرود هجومها على خيام القبيلة المنشودة ، وتظل فى حربها ونهبها والغارة على عدوها إلى أن يعلن طلب الأمان والاستسلام : أما إذا انقادت القبيلة ولم تصر على الخلاف أو التشبث بالعصيان ، فلا يمس أى واحد من الجرود ممتلكاتها . وتعود الفرقة إلى مقرها ، بعد أن تتسلم من أميرها مقطوعها والنقود الخاصة بتعويضاتها . وتفرض على المهزوم ضرائبها .

وبعد الهزيمة يقوم كبار القبيلة المهزومة بجمع مبالغ لتقديمها إلى الأمير الغالب شخصياً . ويرجونه ويستعطفونه لتقليل الضرائب التى فرضها عليهم ، وهذا أيضاً من القوانين المرعية فى مثل هذه الظروف .

ينبغى على كل فرد من أفراد البدو الذين تهيأوا للقتال ، أن يعد لنفسه احتياجاته الشخصية من مأكل ومشرب وسلاح وذخيرة وما شابه ذلك . أما الأمراء فعليهم أن يمدوا جماعاتهم فى وقت اشتداد المعركة وامتدادها ، بالقدر الكافى من الدقيق والأرز والتمر . وعليهم أيضاً أن يأخذوا احتياطياً من الذخيرة والمهمات ، حتى إذا ما امتدت المعركة واشتدت ، يوزعونها على أتباعهم .

وكان الأمير يتوجه إلى الحرب . ولكنه لا ينخرط فى القتال بين المهاجمين ، بل ينتظر على رأس فرقته الاحتياطية إلى أن ينجلى الموقف . وله فى هذه الحالة ربع الغنائم . أما إذا اشترك فى القتال ، فله الثلث ، والباقى يوزع على أفراد الجرود بالتساوى فيما بينهم . وإذا ما حصل أحد البدو على غنائم أو أسلاب بدون جهد شاق ، فعليه أن يسلمها إلى شيخ القبيلة التابع

---

(١) قره قول : قره = برّى . قول = ممر . = الممر البرى Kara Kol
مصطلح إدارى يُطلق على المدن التى تقع على طريق ما، أو ممر ما . وكانت البلاد قبل اختراع البريد، والبرق، والهاتف تقسم إلى مجموعة ممرات أو طرق برية، وكان يُطلق على بعضها؛ طرق الميمنة، وطرق الميسرة أحيانًا وكان على حامل الأوامر السلطانية، أو أوامر الدولة؛ أن يُعقب على هذه الممرات أى يمر عليها تباعًا ويبلغ ما معه من أوامر، وتبليغات إلى الحكومات المحلية. وكان على الجاويش أو المعقب الذى يحمل هذه الرسائل أن يسجلها فى سجلات المحكمة فى المدينة التى يمر بها، ثم يأخذ مقتناته، ويتركها إلى المدينة الأخرى. وكانت هذه الطرق البرية تصل إلى نهاية الدولة. ولما كانت نقط الحراسة فى الغالب ما تقع بجوار المحاكم فأصبح الإسم يُطلق على نقاط حفظ الأمن على الطرق «المخافر» حيث توجد القوة التى تُساعد حامل الرسائل على انجاز مهامه. وقد تواجدت هذه النقاط على سائر الطرق البرية التى كانت تسلكها طرق القوافل ، سواء أكانت تجارية، أو قوافل الحج. وكانت منتشرة فى كل أرجاء العالم الإسلامى. وطوال مدة الدولة العثمانية. وظلت إلى عهد قريب تُطلق على النقاط التى توجد فيها حاليًا مراكز الشرطة «المترجم».

لها ، لكى يوزعها حسب القواعد والأصول المتبعة . أما إذا قتل عدوه وغنم أمواله و... وخيوله ، فإنها تكون من حقه هو قانونياً .

وهناك بعض الفرق الأخرى التى تعيش على هواها ، ولا تخضع لقيادة أمير معين ، إلا أنها تتجمع فوراً حول أى شخص يطلب منها المساعدة عند ظهور خطر أو حدث معين .

اليوم الأبيض :

إذا حاول رجل ما الاعتداء على عرض امرأة بالقوة ، وحين محاولته هذه استغاثت وصرخت ، فلاذ الرجل بالفرار ، بيتعقبة القوم لأخذ الثأر ، لأن مسألة العرض من أكبر الجنايات عند العرب . وإذا ما استغاثت المرأة قائلة : (لقد أراد أن يفعل بى الفعل الشنيع) ، فعلى من يلحق به أولا ، أن يطعنه بالخنجر المسمى (جنبية) حتى يمزقه إرباً إرباً .

أما إذا كان الرجل الجانى من قبيلة أخرى . فإن القبيلة التى تنتسب إليها المرأة تجتمع وتذيع الأخبار عن استعدادها لشن هجوم على قبيلة الجانى ، وأنها تستعد استعداداً كبيراً لمقابلة عنيفة وحرب ضروس .

ويطلق العرب على يوم بدء المعركة (اليوم الأبيض) حيث أنه اليوم الذى يغسلون فيه العار بقتل ذلك الذى حاول أن يلوث شرفهم . وسيبيضون وجوههم بذلك .

وتتعاون القبائل فيما بينها ضد مثل هذه الأحداث حتى أن بعض القبائل المتخاصمة تتصالح وتسوى خصوماتها ، حتى تثأر من الجانى . ولا تنفصل عن بعضها البعض حتى يتحقق لها النصر على العدو الذى حاول تلويث شرفها .

التدبير والحيل الحربية :

يستخدم البدو جميعاً أسلحة نارية . ويطلقون صيحة (الله أكبر) بصوت مرتفع كإشارة لبدء المعركة وإرهاب العدو . وكانوا يصرخون بولولات مدوية تهز أركان المكان كله . وإن كانوا لا يظهرون فى ميدان المعركة ، ولكنهم يصوبون أسلحتهم من خلف المتاريس التى اتخذوها لأنفسهم من الحجارة فى الممرات الضيقة وعلى قمم الجبال . ولم يكن البدو يكثرون من إطلاق النيران دون ضرورة ، حفاظاً على ما فى أيديهم من طلقات نارية . فلم تكن طلقاتهم تضيع سدى ، بل لابد وأن تصيب مقتلا من إنسان أو حيوان .

وكانت من العيوب الكبيرة فى نظرهم أن يصطحب المقاتل البدوى معه أكثر من ثلاثين طلقة ، لثقتهم الكبيرة فى دقة التصويب وجودة الطلقات .

وكان الأعراب حريصين كل الحرص على أن يجعلوا الشمس والرياح إلى ظهورهم عند القتال . وكانوا يولون هذا الأمر أهمية بالغة ويعدونه من عوامل الانتصار المؤكد . كما كانوا يتحينون الفرص لكي تكون هجماتهم على العدو ليلية ، وأثناء ساعات النوم العميق .

ويقوم الطرفان بإطلاق الأعيرة النارية ، حتى يتم الالتحام والتلاحم بينهما ، فيبدأون فى استخدام سيوفهم . ويقاتل الفارس فارساً مثله ولا يمكن لخيال أن يشتبك فى قتال مع فرد من أفراد المشاة قط ، بل يترجل عن فرسه للاشتباك مع المشاة . وهذا فى نظرهم من علامات الفروسية العربية .

ومن رجالهم فرسان أشاوس يضرب بهم المثل فى الشجاعة ، حتى أنك لو وضعت فارساً منهم وسط مائة من الفرسان لأعمل فيهم سيفه ولشتتهم عن آخرهم ، وكسب منهم الشهرة فى الشجاعة والبطولة .

وخلال المعارك لم يكن يظهر للعيان ، إلا المشتركين الفعليين فى القتال ، أما بقية القوة فقد كانت تكمن فى مكانها كقوة احتياطية . وعند انطلاقها إلى القتال ، كانت تصدر ولولاتها المعهودة لكى تهز صمود العدو .

الصقر الهائل :

وهو أيضاً صنفان :

الصنف الأول : الذى اتخذ من طريق الحرمين الشريفين مسرحاً لعملياته وهو حريص كل الحرص على أن يدبر عملياته من فوق قمم الجبال وممراتها ومن خلف المتاريس التى يقيمها كاللصوص .

أما **الصنف الثانى :** فهم قبائل العرب التى تسكن صحارى نجد والعراق وبيداء الشام .

وهذا الصنف يمتطى صهوة جياده ، ويجابه عدوه وجهاً لوجه غير هياب لما تسفر عنه ساحة الوغى ، يتحرك تحت امرة إنسان وقور ارتضاه قائداً له . ومن بين رجالات هذا الصنف ظهر أشاوس أبطال العرب وأشجعهم .

لصوصية الأعراب :

يطلق العرب على الجانب الشرقى للمدينة المنورة (نجد) وعلى جانبها الغربى (الغور) .

وأعراب نجد معتادون على الغارة والسلب والنهب من بعضهم البعض بل والقتال أحياناً .

أما بدو (الغور) فهم مكبون على نهب الحجاج والزوار وعابرى السبيل وقوافل التجارة . وغارات الغوريين أشد ضرراً من اعتداءات النجديين .

يحمل بدو الغور دائماً فى أيديهم الدبابيس الحربية والسكاكين الحادة ، ولدى بعضهم أيضاً البنادق النارية . ولما كانوا يكسبون حياتهم ورزق يومهم من السرقة والنهب ، لذلك كانوا سريعى الجرى لدرجة أن الخيول لا تستطيع اللحاق ببعضهم أحياناً . وكثيراً ما يحملون على أكتافهم بعض الأمتعة ويتسلقون بها الجبال والتلال والقمم العالية بسهولة ويسر .

والسرقة فى نظرهم أمر مباح ، ولذلك فهم ينظرون إلى ما يكسبونه من هذا الطريق على أنه حلال .

إذا ما استطاع صاحب الأشياء المسروقة أن يثبت ملكيتها فإمكانه أن يستردها ، إذا ما رآها فى يد أى أعرابى . أما إذا استطاع الرجل الذى فى حوزته الأشياء المسروقة ، أن يصر على ملكيتها ويثبت أنه اشتراها من شخص معين ، وأقسم على ذلك ، ففى هذه الحالة يدفع المدعى بملكية الأشياء ثمنها كاملا .

ومن العادات المعمول بها بين الأعراب ، أنه إذا استطاع صاحب الأشياء المسروقة أن يجد السارق ، يكون من حقه استرداد ما تبقى من الأشياء المسروقة وثمن ما بيع بالكامل ، ويتحمل السارق كافة المصروفات التى نتجت عن ذلك .

* * *

الفصل الخامس

الأعراف والمراسم المتبعة فى تربية الأطفال والختان والولائم

تربية الأطفال :

تترك القبائل العربية أطفالها الذكور يلهون ويلعبون حتى سن الثالثة فى نفس القرية أو المخيم الذى يقيمون فيه . أما فى الرابعة فيكلفونهم برعى الماعز والحملان الصغيرة فى مكان يبعد عن القرية مسافة صغيرة .

وفى الخامسة يجرون ويلعبون خلف الإبل وإذا ما بلغوا السادسة يتعلمون كيف يركبونها وحدهم .

إن أطفال العرب يكتسبون مهارة فى ركوب الخيل واعتلاء سنام الجمال لدرجة تمكنهم من اللحاق بها مهما كانت سرعتها ، وتجعلهم قادرين على ترويضها وكأنهم يلهون بها .

وخلال تلك السنوات يعلمونهم إطلاق النيران ، واستخدام الجنبية أى الخناجر الصغيرة ويصطحبونهم خلال المعارك والحروب ، ويتركونهم تحت أشعة الشمس الحارقة وبرد الليل القارس . وكثيراً ما يتركونهم عرايا تماماً يتجولون تحت خيامهم .

ولم يكن أحد من العربان يهتم بأبنائه ، حتى أولئك الذين يملكون ثروة طائلة ، كانوا يكتفون بإلباسهم قميصاً واحداً فى أيام الشتاء ، وكانوا يترفقون بمن يتوجه إلى الحرب

والحاصل أنهم كانوا يعودونهم على ركوب الخيل ومصاعب الحرب والضرب ومخاطر السفر والترحال ، قبل أن يبلغ الولد سن البلوغ . وكان الأبناء لا يظهرون أى نوع من الاستهتار أو التكاسل عن حضور مثل هذه المعارك ، بل كانوا يتوجهون إليها وكأنهم ذاهبون إلى حفل عرس ، يلعبون ويلهون ويتسابقون إلى ساحة الوغى ولا يتجنبون حرارة الشمس أو شدة البرد ، بل يمرحون وهم شبه عرايا .

أما البنات ، فما أن تصل البنت منهن الثانية من عمرها حتى يحزمونها بحزام من جلد الماعز أو الأغنم لكى يستر عوراتها .

وكانت تلك الأحزمة تصنع بطريقة ملفتة للانتباه ، فهى ذات الهدب طولها ما بين نصف الياردة والياردة الكاملة ، تثبت فوق البدن العارى .

وعندما تصل إلى سن العاشرة تشتغل مع الأولاد برعى الماعز والأغنام . وخلال مدة وجيزة تتعلمن كيف تحلبن الماعز والأغنام والنوق ، وكيف تصنعن الزبد والجبن والعيران . وأما أن يقتربن من سن البلوغ حتى ينزعن تلك الأحزمة ذات الهدب ، ويلبسن مكانها قمصان الصوف السميك الخشن .

وعند سن البلوغ يبحث الأعراب لبناتهم عن زوج ، لكى يزوجوهن فوراً . وتبدأ إجراءات الزواج ، بالبحث أولا عن زوج من بين أبناء الإخوة والأخوات البالغين سن الزواج حتى وإن كان كل منهم متزوجاً من ثلاث أخريات . ولا يمكن أن يزوجوهن من رجل آخر قبل ذلك . فإذا رغب أولاد العمومة أو الخئولة فيهن ، عقدوا الزواج فوراً . وإذا لم يرغبوا فإنهم لا يوافقون على الزواج إلا نظير مبلغ من المال يدفع لهم . وكان هذا التصرف يسبب إزعاجاً وقلقاً لكل من الفتاة وطالبها .

طريقة التأهل ، وأصول الزواج :

على والد الفتاة البالغة سن الزواج أن يعرضها أولاً على أولاد إخوته وأخواته إن كانوا كفئاً لها ، إن كان الشاب أعزب قبل الزواج بها . أما إذا كان متزوجاً ولا يوافق على الطالب المتقدم للزواج ، فلا يمكن أن يتم الزواج قط .

وإذا لم يتم الزواج بمن عرضت الفتاة عليهم ، ولم تكن هناك موافقة على الزوج المتقدم من أبناء العم أو العمة ، فعليهم أن يبحثوا لها عن زوج جديد يتمتع بالكفاءة والشروط المطلوبة فى زوج الابنة هى السخاء فى العطاء والشجاعة فى الحرب ، والشهرة فى الحسب والنسب والأصل .

ولا يتحرى الرجل أو الشاب الراغب فى الزواج عن جمال الفتاة ، أو ما لها . بل يتحرى عن قوة وسطوة القبيلة التى تنتسب إليها ، وعن كثرة عددها وعن عصبيتها ، وعن الأقرباء والخمسات والسميات التى ينتمى إليها والد الفتاة .

وبعد أن يجوز الطالب الذى توفرت فيه الشروط على موافقة والد الفتاة وأقربائها ، عليه أن يرسل إليها وإلى أهلها الهدايا والعطايا التى تتلاءم مع مكانةقبيلته وقبيلة الفتاة التى تقدم إليها ، فضلا عن المهر الذى يقدم أيضاً وفقاً لظروف الطرفين .

والمهر عبار عن كليم أو سجادة كبيرة وسوارين من الذهب وطاقمين من الألبسة ومقدار

من الإبل والخراف ، إذا كان العريس غنياً . أما إذا كان الطالب فقيراً فيكتفى بتقديم أسورتين فضيتين ، وطاقم من الألبسة المصنوعة من القماش الأسود .

وأشهر الأطعمة التى تقدم فى الولائم هى الأرز المطبوخ وفوقه الخراف والحملان الكاملة مشوية أو مسلوقة [1] . وهذا من العادات المتبعة بين قبائل العرب .

وإذا كان والد الفتاة من الأغنياء ، فعليه أن يرسل مع ابنته عند ذهابها إلى بيت الزوجية عدداً كبيراً من الإبل والأغنام وكذلك بضع نفر من الجوارى ، هذا ، عدا ما كان قد بعث به الزوج كمهر للعروس .

وإذا وجد فى القرية واحد من طلبة العلم أو المعلمين ، كان عليه أن يقوم بعقد القران . وإذا لم تكن هناك شخصية كهذه ، فعلى الطالب أن يتوجه إلى والد الفتاة أو أخيها . وإذا لم يجد أحداً منهما ، فعليه أن يتوجه إلى أحد أقرباء الفتاة ويخاطبه قائلا :

(إنى أطلب يد كريمتك) أو (إنى أطلب يد أختك) وهم بدورهم يردون قائلين :

(ونحن زوجناك) . ولابد أن تعلن هذه الموافقة على الملأ ، وبعدها يبادرون بإجراء الزفاف .

وفى بعض المناطق ، كان والد الفتاة أو أخوها يمسك عصا فى يده ويقدم الطرف الآخر إلى الزوج قائلا .

(لقد زوجتك فلانه . . . . .) ويقوم الزوج بمسك الطرف الآخر وعلى الوالد أو الأخ أن يكسر العصا من وسطها ويلقى بها على الأرض أمام الحضور .

وهكذا ، تعتبر هذه الفتاة قد عقد قرانها على هذا الرجل ، وشهد الأعراب على ذلك .

والأعراب يستخدمون الجوارى البيض أو السود فى خدمتهم ، ولا يميلون إلى مضاجعتهن إذا كن مجهولات الحسب والنسب . والاستمتاع بالجوارى من الأمور المذمومة بين الأعراب ، وإذا حدث وأنجب منها طفلا ، فقد كان العرب جميعاً ينظرون إلى هؤلاء الأطفال احتقار ، ويدعونهم (أولاد الجوارى) و (ابن جارية) ولا يمكن أن يوافق أى أعرابى على أن يزوجه ابنته .

وكثير من شرفاء مكة المكرمة والمدينة المنورة وضواحيها وكذلك مشايخ الأعراب يحبون

---

(١) تشتهر الجزيرة العربية بهذا النوع من الطعام إلى اليوم ، ويسمى الكبسة (المترجم) .

التسرى ، ولكن ابنائهم من تلك السرايا كانوا يعملون كعبيد إلى جوار أبنائهم من الفتيات الأعرابيات ، وكان الناس ينظرون إليهم بنفس المنظار .

جميعات الختان :

اعتاد البدو على ختان أولادهم الذكور بعد سبعة أيام وأحياناً بعد أربعين يوماً من الولادة . وبعضهم يترك هذه المسألة إلى ما بعد ذلك . أما أعراب قبيلة (هذيل) التى تسكن بالقرب من مكة المكرمة ، فقد اعتادوا على عدم ختان أولادهم قبل موعد الزواج . أى أنهم كانوا يقررون إتمام الختان ، قبل عقد القران مباشرة .

وكان حفل ختان الشاب يتم فى جمع غفير ، يضم أصدقاء الفتى وأحبابه . كما كانت تدعى القرى المجاورة لهذه الحفلات . وكان كل مدعو يقدم إلى المختتن أو عائلته من الأغنام والإبل والأبقاء حسب قدرته . وكانت من العادات المرعية أن تصل هذه الهداية قبل موعد الختان والعرس بعدة أيام .

وكان المدعوون يتوجهون إلى مكان العرس فى جماعات تضم كل منها خمسين أو ستين شاباً ، لأن التوجه إلى العرس فرادى من الأشياء المذمومة لدى العرب .

وكان المدعوون يطلقون نيران بنادقهم إلى أن يقتربوا من قرية العريس . وعندما يقتربون ينطلقون فرحين ينشدون بصوت واحد أشعاراً كلها مديح لأوصاف العريس . وبينما البعض يقرض الشعر ، كان البعض الآخر يرقص ويلعب بالبنادق والمزارق أمام الجموع المتجهة نحو مكان العرس .

وما أن يسمع أصحاب الحفل وأقرباء العريس هذه الأصوات ، حتى يخرجون لاستقبال المدعوين وسط قصائد المدح وطلقات البنادق والطبنجات ويصحبوهم حتى الأماكن المخصصة لهم .

وعند وصول المدعوين إلى الأماكن التى خصصت لهم من قبل ، يقدم صاحب العرس لكل عشرة منهم خروفاً ومقداراً كافياً من الأرز ووعاء كبيراً ، ويرجوهم أن يظلوا فى عالمهم الخاص بهم حيث يقيمون .

ومواقع إقامة الضيوف لا تكون وسط المنازل والخيام بل تكون خارج القرية فى الوديان أو فى أحضان الجبال .

ويقوم الضيوف بإعداد الطعام الذى بعث به صاحب العرس ، حيث يذبحون الخراف بأنفسهم ويسوونها ويطبخون الأروز بمرقها .

وبعد ذلك يتجمع المدعوون فى مكان العرس ، ويخصص مكان لكل قرية أو خيمة ، يشعلون أمامها ناراً كبيرة . وعلى الرغم من أن المدعوين جميعًا واقفون ، إلا أنهم يقسمون أنفسهم إلى مجموعات . تقف كل مجموعتين حول نار من النيران ، وتقوم كل مجموعة بذم المجموعة الأخرى أو مدحها ، ويستمرون هكذا حتى الصباح .

وفى اليوم التالى يتجمع كل المدعوين وهم يلعبون ببنادقهم لعبة (الاردة) [1] تتقدمهم مجموعة من رجال أهل المختتن ، وتأتى خلفهم النساء حتى يصلون إلى الميدان المخصص للختان . وبعدها ينزوى الشاب الذى سيتم له الختان مع شخصين من أقارب الفتاة ومن سيقوم بعملية الختان نفسها . وينفرد الفتى وقد أمسك فى يديه جنبيتين ، والمختن أمامه ، ويقوم وهو واقف بقرض الشعر الذى يفتخر فيه بشجاعته ويعدد نسبه أبا عن أب . ويكون المختن فى هذه الأثناء مشغولا بواجبه . وما هى إلا دقيقتين حتى تكون المهمة قد انتهت ، وإن كانت تتم بسلخ العضو كله ، ثم يصل الفتى إليةالكرسى المعد لجلوسه .

وتذكر بعض الروايات ، أن الفتى يقوم بعملية الختان لنفسه ، وتتم العملية أمام الفتاة نفسها . ويعد ذلك من حملة الآداب والأعراف المعترف بها بين الأعراب . ومن أكبر العيوب أن يحدث أثناء إجراء هذه العملية أى نوع من البكاء أو الصراخ أو العويل أو ما شابه ذلك من قبل الفتى .

وإذا ما حدث أى شيء من ذلك فإن هذا الفتى يسقط حقه فى الزواج من هذه الفتاة ، ويتصف بالجبن وعدم التحمل . وتنحط سمعته بين قبيلته والقبائل الأخرى التى لا توافق أمورها على إعطائه أى بنت من بناتها . وبناء عليه يكون مضطراً إلى الزواج من امرأة ثيب .

وأمام هذا الموقف ، فإن الفتى يتحمل الألم ويصبر عليه قدر الطاقة ، مهما كان قاسياً . وعليه أن يترنم بالأشعار التى قيلت فى المدح والفخر ، وأن يظهر الصبر والثبات ، وعدم التأوه حتى تنتهى العملية .

كل ذلك كان يتم وسط تصفيق وهتافات الاستحسان والتشجيع من ذويه ، والتقدير والإعجاب من فتاته . وكان الفرح يبدأ عقب التئام هذا الجرح .

وكثيراً ما يلتئم الجرح فى أربعة أشهر ، وإن كانت نسبة الوفيات المترتبة على هذه العملية تصل فى كثير من الأحيان إلى أربعين فى المائة . ولما كانت هذه الطريقة من علامات الشجاعة

---

(١) الأردة هى لعبة الحرب التى تشبه رقصة الحرب عند العرب.

والبطولة ، فإن عدد الوفيات مهما ارتفع لا يثنى القوم عما تعودوه . حتى وإن كانوا على يقين كامل بوفاة كل من يختتن بهذه الطريقة .

وقبيلة هذيل من القبائل المتمسكة بهذه الطريقة ولذلك فهم لا يقدمون على ختان أولادهم قبل أن يصل الغلام إلى الخامسة عشرة أو العشرين من عمره ، حتى يكون قادراً على تحمل الألم والصبر والثبات عليه . وكثيراً ما تجرى حفلات الختان فى أيام الأعياد .

وما أن ينتهى المختن من مهمته حتى يتقدم الفتى بضع خطوات إلى الأمام وهو يصيح قائلا : (أنا فلان بن فلان الشجاع البطل . . . إلخ) .

ولإثبات صبره وتحمله وبطولته كان يثب ما يقرب من مائة خطوة بعد الانتهاء من العملية ، وعلى الفور يقوم الرجال الحاضرون بإطلاق النيران والنساء بدق الطبول والدفوف والتغنى بالمواويل ، ويزفون الغلام فى كل أرجاء القرية . وفى النهاية يحضرونه إلى منزله ومرقده . وبعد يقوم صاحب الفرح بتوزيع الأطعمة المعدة على المدعوين جميعاً .

والطعام المعد لمثل هذه المناسبة عبارة عن دقيق مطبوخ صب على سطحه زيت الزيتون .

وكانوا ينثرون على مرقد الفتى حفنات الزبيب ، إيذاناً بانتهاء الحفل .

* * *

الفصل السادس

أشجار النخيل والخيول ووسم الجمال وحماية الأراضى الزراعية

أشجار النخيل :

تتحمل أشجار النخيل ؛ العطش والجفاف وشدة الحرارة ، ويستفاد من كل فرع من فروعها ومن غلتها الوفيرة . وهى شجرة مباركة تعمر طويلا حيث يصل عمرها فى بعض الأحيان إلى ما يزيد عن مائة عام . وليست فى حاجة إلى حراسة أو رعياة أو مياه دائمة كالمزروعات الأخرى . وعرب الحجاز ينظرون إليها على أنها شجرة كريمة خيرة تعطى بلا مقابل . إنها شجرة مباركة فى نظرهم ، حيث أنها صمدت من أجلهم فى وجه كثير من الآفات والنواكب التى تعرض لها الحجاز على مر التاريخ . ويستطيع مالكها أن يعيش بما تقدمه له من تمور ، ويبيع منها ما يفيض عن حاجته أو يعرضه للتبادل مع سلعة أخرى .

ولما كانت هذه الشجرة المعطاءة لاتنبت فى كل أركان الحجاز ، فقد حرص غارسوها على أن تكون على حوافى الأمكنة المتوقع تعرضها للسيل الجارف أو حيث تقترب المياه من سطح الأرض وترتفع رطوبتها بعض الشىء وبعد غرس شجيراتها أو وضع النوى فى التربة يحرص الغارس على ريها أربعين ليلة بالتمام ، وبعدها يستطيع الغرس أن يعتمد على مياه الأمطار .

ولو تصادف وكان المكان الذى غرست به مشبعاً بالمياه ، أثمر الغرس الجديد ثلاث سنوات . أما إذا كان المكان جافاً+ أو كثيراً ما يصاب بالجفاف ، فإنها لا تثمر قبل خمس أو ست سنوات .

ويسمى البلح فى بداية ظهوره (زهو) ، وبعد كما احمراره وميله إلى النضج يسمى (رطب) .

ولما كانت التمور فاكهة مغذية ومقوية ، فقد حرص على تناولها البدو والحضر ، أكلوه طازجاً ؛ وإن كان الجاف منه أكثر رواجاً ورغبة . ويباع الرطب فى المدن القريبة . وهناك نوع خاص بالمدينة المنورة يجفف هو والأنواع الأخرى ، ويباع لحجاج بيت الله الحرام وزواره .

إن البدو يجففون البلح ويستخدمونه بدلا من الخبز ، حتى ينضج البلح الجديد ، لأن البدو إذا ما وجدوا التمر لا يفكرون قط فى القمح أو الشعير أو ما شابه ذلك ، لأن التمور عندهم فوق أى طعام آخر ولا يعد يعدله طعام فى نظرهم .

الخيل :

يطلق العرب فى الجزيرة العربية على ذكور الخيول (الخيل) وعلى أنثاها (الفرس) .

ويحدد صاحب الحيوان جنس حيوانه هذا ونوعه . وبعضهم يسجل فى شجرة الأنساب عنده من أى أب وأم ينحدر هذا (الخيل) . وكلما رزق بمهر جديد سجله إلى جوار أمه وأبيه .

ولا يستطيع أحد من بسطاء الناس امتلاك فرس أصيل كحيل ، فهذا قاصر على الأغنياء فقط . ومن الممكن أن يمتلك عدة أشخاص فرساً واحدة من هذا النوع . ومثل هذه الفرس تباع بستين أو سبعين ألف قرش .

ولو باع أحدهم فرساً صغيراً - أى مهراً - وولدت هذه الفرس فيما بعد وحتى البطن الثالثة مهرة أيضاً يكون من حق البائع ، وهذا شرط معترف به بين الأعراب . أما إذا ولدت مهراً ذكراً فهذا وما يأتى بعده يكون ملكاً للمشترى . وإذا كانت الفرس المباعة حاملاً ، فإن المولود سواء أكان حصاناً أم فرساً ، فهو ملك البائع ويسلم له .

والمشترى لا يكتم سر الناتج قط ؛ فسواء ولدت المهرة ذكراً أو أنثى ، فإن ذلك يشيع بين الناس فوراً ، لأنه لو كتم الحقيقة ولم يفصح عنها ، فإن الحيوان المولود سواء أكان مهراً أو فرساً سينفق . وهذا من الأمور المجربة بين الأعرب . ولذلك لا يمكن لأعرابى أن يخفى سر ذلك قط .

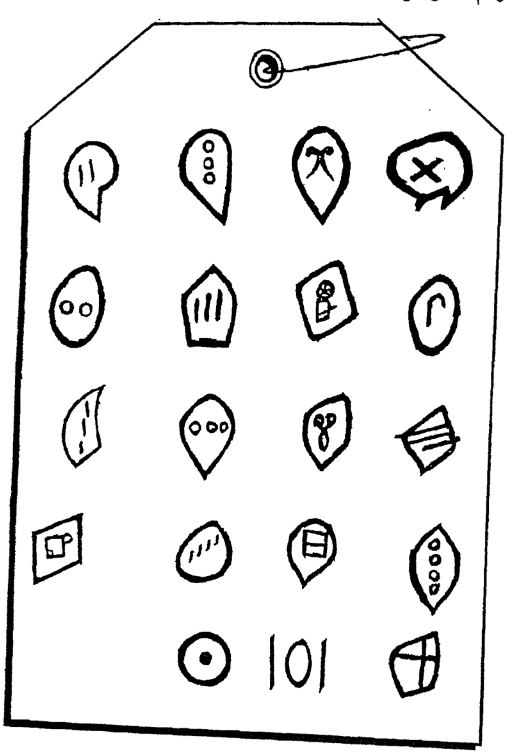
الوسم :

والجمل أكثر ذوات الأربع شهرة بين الأعراب . ولما كان كل أفراد هذا النوع يشبه بعضهم بعضاً ، فإن التعرف على المسروق أو الضائع منها يكون فى غاية الصعوبة ، بل ومن الأمور المستحيلة أحياناً . ولذلك اتخذت قبيلة لنفسها وشماً أو وسماً لها تضعه عن طريق الكى على حيواناتها .

وكثيراً ما يكون الكى على المواضع التالية :

الأذن اليمنى ، وسط الجانب الأيمن من العنق ، خلف الأذن ، وسط الجانب الأيسر من العنق ، الجبهة ، الأنف ، الأرداف اليمنى واليسرى ، الأفخاذ ، وعلى الركب .

الوسم الخاص بكل قبيلة على حدة .



إذا اشتركت بعض القبائل فى نفس العلامة فإن موضعها هو الذى يفرق بين القبائل .

حماية الأراضي المنبتة :

إذا أنبتت الأرض الواقعة داخل حدود الموقع الذى تقيم فيه قبيلة ما بفعل الأمطار أعشاباً ، وقام فرد منها بعمل سور أما ما شابه ذلك حول هذه المنطقة للتحديد بينها وبين المواقع الأخرى، فلا يحق لإنسان قانوناً الدخول فى هذا الموقع .

وإذا لم يرع فرد هذه الأصول قصداً أو جهلاً ، فإن هذا الأعرابى يكون من حقه مؤخذاة هذا الدخيل قانوناً ويحق له مصادرة حيواناته التى رعت داخل هذا الموقع .

أما إذا كان دخول هذا الحيوان دون قصد من صاحبه ، وكان دخوله عفوياً . فإن صاحب الموقع يحافظ على هذا الحيوان حتى يأتى صاحبه فيرده إليه فى مقابل مبلغ من المال يسمونه (طراضة) وهو من الأشياء المتعارف عليها بين الأعراب .

ولو أن أحداً رعى حيواناته قاصداً في هذا الموقع وأقام نيه بضع ساعات للراحة والرعى ، فلا يستطيع أى إنسان أن يؤاخذه في أى تصرف يقوم به حيال هذا الموقع .

ولما كانت جميع المواقع فى موسم الربيع خاصة مليئة بالعشب ، فإن الحيوانات يمكن أن ترعى فى مواقع الآخرين أيضاً . ولكن فى موسم الصيف يحاول صاحب الموقع أن يدبر أموره بما هو موجود لديه من المرعى والماء .

أما إذا لم يكن لدى صاحب الموقع حيوانات ، فإنه فى موسم الربيع ينتظر حتى تجف الأعشاب ويجمعها ويجعل منها أحمالا يبيعها فى المدن والبلدان المجاورة ، وبهذا الشكل يستطيع أن يؤمن جزءاً من احتياجاته المعيشية .

(تم بحمد الله وعونه

الفهــــرس

الباب الأول: أنساب العرب وقبائلهم وملوكهم

الباب الثانى :الأحوال السياسية بعد الإسلام وحتى أوائل الدولة السعودية الثانية

الباب الثالث : جغرافية جزيرة العرب

الباب الرابع : طرق قوافل الحج

الباب الخامس : قبائل العرب التى تسكن الجزيرة العربية

الباب السادس : عادات العرب وأيامهم

